
بيروت
عاصمة للثقافة والطباعة والنشر
حلقة الحوار الثقافي
بيروت عاصمة عالمية للكتاب
BEIRUT WORLD BOOK CAPITAL
2009

حلقة الحوار الثقافي
مركز الأبحاث والعناية بالتراث الشعبي

بيروت
عاصمة للثقافة والطباعة والنشر
"دراسات وأبحاث"

دار الحداثة
بيروت

ذاكرة الناس
الجزائر

الكتاب: بيروت عاصمة للثقافة والطباعة والنشر
الطبعة الأولى: 2009 - بمناسبة بيروت عاصمة عالمية للكتاب
مكان النشر: بيروت - لبنان

منشورات حلقة الحوار الثقافي
"مركز الأبحاث والعناية بالتراث الشعبي"

تمت طباعة هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقافة - لجنة بيروت عاصمة عالمية للكتاب

حلقة الحوار الثقافي علم وخبر 244 / أ.د.
بيروت - لبنان
عين الرمانة، شارع وديع نعيم، بناية ملكون، ط 3
تلفاكس: 009611 / 383989
الموقع الإلكتروني: www.culturaldialogue.org
البريد الإلكتروني:info@culturaldialogue.org

ISBN 978-9953-509-02-0

تقديم

بـــيـــروت... عاصمة للثقافة والطباعة والنشر (2009)

إن إعلان بيروت عاصمة للكتاب عام 2009 (تبدأ في 23 نيسان 2009 وتنتهي في اليوم نفسه من العام 2010)، بعد الإسكندرية في العالم العربي، هو إقرار عالمي بدور لبنان الثقافي، واعتراف بنوعية برامجه الرامية إلى تعزيز صناعة الكتاب ونشره وتسويقه. وهو حدث مهم بالنسبة للبنانيين عامة وللكتّاب اللبنانيين والعرب، ودور النشر، والمطابع، والمكتبات بشكل خاص. وانتخاب منظمة الأونيسكو الدولية هذا يضع بيروت في واجهة المشهد الثقافي للمرة الثانية في مساحة عشر سنوات، إذ انتخبت عام 1999 "عاصمة ثقافية للعالم العربي"، وأعطيت، بذلك، شرف الإمساك بنهايات القرن العشرين وبناصية القرن الواحد والعشرين الثقافية.

واختيار بيروت هذا، بالرغم من منافسة عدة دول، يؤكد فرادتها الثقافية في عالم الكتاب، الأداة الأولى للحضارة بوجهها الورقي المستمر للساعة منذ مئات السنين، ويرجع، بلا شك إلى تنوع المدينة وغناها الثقافي الذي تشكل عبر تاريخها العريق مع الحرف وانتشاره وريادتها في مجال الطباعة الذي أهلها لمنافسة الدول الأوروبية من حيث الجودة والإتقان. والمعلوم أن لبنان هو أول من طبع الكتاب في العالم العربي، وأن أول مطبعة بالشرق الأوسط كانت بدير قزحيا (وادي قاديشا) عام 1610 ميلادية، ولا تزال هذه المطبعة موجودة في الدير شمال لبنان. ونظراً لكثرة دور الطباعة في لبنان، لدرجة أنها لا تتناسب مع حجم البلاد، وتحديثها باستمرار أطلق على بيروت لقب "مطبعة العالم العربي الأولى". وعلى الرغم مما لحق بالمطابع البيروتية من دمار، بفعل الأحداث التي تعاقبت، لا يزال لبنان، مع ذلك، في طليعة الناشرين ويحتل الحيز الأكبر في المعارض المحلية والعربية. ويبلغ عدد دور النشر في لبنان نحو 700 دار، أي أن لبنان يمتاز عن غيره من الدول العربية بوجود أكبر عدد من دور النشر، ويصدر عنها نحو 2700 عنوان جديد سنويا، وهو ما يمثل حسب مهتمين بالشأن الثقافي ربع مجموع العناوين

الصادرة في الدول العربية كلها. مما يعني أن بيروت عاصمة قادت وتقود مسيرة ثقافية مميزة في العالم العربي.

ولقد اختيرت بيروت عاصمة للكتاب لما لها -كما جاء في قرار منظمة اليونسكو- من "رمزية على التنوع الثقافي والحوار والتسامح، وكذلك تنوع برامجها وديناميتها"، وتقديرا لتفاني جميع الناشطين فيها في هذا المجال. والرمزية الثانية التي أشار إليها التقرير، ولا تقل أهمية عن الأولى، وهي أن بيروت العاصمة تمثل لبنان كله، فانتشرت الأنشطة انطلاقا منها إلى المناطق اللبنانية كافة. وأما الدور الكبير لبلدية بيروت، كعنصر مساعد، مالياً وإدارياً، لوزارة الثقافة، بلغ من العظمة مداها بحضور كل البلديات،بما تمثله على صعيد المجتمع الأهلي والمدني. وها هي المدن والبلدات اللبنانية تشارك، وبفرح، بتكريم بيروت في الاحتفالات على مدى السنة، باعتبارها معنية بنجاح هذا الحدث العظيم. لذلك قامت وزارة الثقافة وبلدية بيروت، الشريك الأساسي لها، بتنسيق جهودهما، وإرسال وزارة الثقافة دعوات إلى الجمعيات الثقافية، والمنظمات غير الحكومية، والمثقفين، وغيرهم، لتصميم مشاريع تتلاءم مع أهداف "بيروت عاصمة عالمية للكتاب"، وإعطاء هذا الاختيار الدولي قيمته الحقيقية.

استطاعت بيروت، حتى في الأيام الصعبة، أن تحافظ على دورها الطليعي في صناعة الكتاب، وفي استقطاب الأدباء والكتاب والمفكرين العرب، نظراً لتأمينها الحد المقبول من حرية التعبير بالريشة والقلم والصورة والصوت، فكانت ولا تزال الأرض المناسبة لاحتضان إبداعاتهم المتنوعة وإطلاقها على العالم. فبيروت، بمطبوعاتها الأنيقة، كانت قبلة للمثقف وللقارئ العادي؛ فالمثقف كان يقتني منها الكتب المحاصرة في وطنه، والقارئ العادي على يقين انه سوف يحصل، من معرضها، على كتاب موثوق فيه شكلاً ومضموناً. يخرج الكتاب من مطابعها من غير إذن مسبق بالطبع ومن غير رقابة، وربما من غير معرفة السلطة أو اكتراثها بصدوره، وتلك نعمة حداثوية لا يعرف قيمتها الحقيقية إلا من يفتقدها، من المبدعين، في الكثير من البلدان.

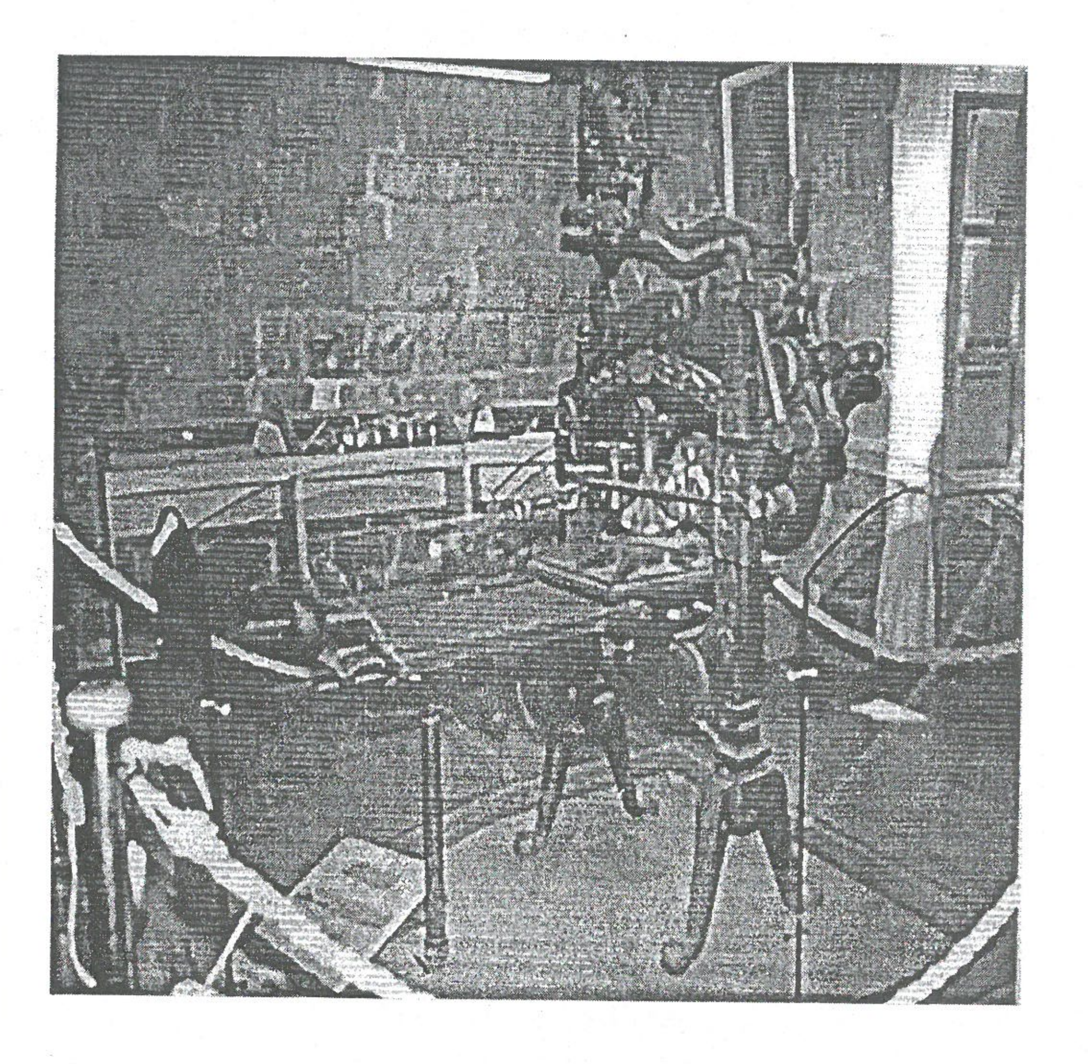
وقد أسهمت دور النشر اللبنانية إسهاماً فائق الأهمية في حركة الترجمة وفي نشر روائع الفكر العالمي، وفي تأسيس صلة ثقافية بين المثقفين في لبنان والمثقفين في العالم. ومعرض الكتاب الذي أقيم في بيروت سنة 1956 (في"الوست هول" في الجامعة الأميركية) كان أول معرض للكتاب في لبنان والعالم العربي، وأسس بالفعل، لصلة ثقافية إضافية بين القارئ والمثقف والناشر معاً، وتحولت بيروت

بعدئذ إلى ملجأ للمثقفين العرب ورجال السياسة المنفيين إليها. ولم تتوقف، حتى في أبشع فترات الحرب، عن أداء دورها الرائد كوسيط ثقافي، على الأقل في مجال الكتاب. فاستمرار الإنتاج النشري ونموه وتوجيهه، بواسطة شبكات التبادلات والتوزيع الكثيرة المنتشرة في العالم العربي انطلاقاً من العاصمة اللبنانية، خلال هذه السنوات الحرجة مؤشرات كافية على أهميتها كعاصمة ثقافية للعالم العربي.

وانطلاقاً من حيثيات ما تقدم، وتعبيراً عن مشاعر الفرح، والمشاركة الفاعلة بهذه المناسبة الوطنية والعربية والدولية يضع مركز الأبحاث والعناية بالتراث في حلقة الحوار الثقافي بين أيدي المهتمين إضاءات بحثية، نفذتها مجموعة من أعضاء وأصدقاء الحلقة، على الأدوار المتعددة لبيروت، والحيّز الذي تشغله المؤسسات الثقافية في لبنان، ودوره في حوار الثقافات، وتوثيق المكتبات في بيروت وبعض المناطق، ودور بيروت في التشريع والتدوين، ومراكز الدراسات، ودورها في ميادين الفنون التشكيلية والمسرح والإعلام على أنواعه، وحكاياتها مع الكتاب والمعارض التي تقام له، وعصيانها على المحن وتمردها على نار كل تنين مستجد يبغي النيل منها ومن موقعها، لتجديد زخم حياتها في انطلاقة أسطورية، تلامس الحقيقة، كطائر الفينيق المنبعث دائماً من رماده.

ويهمنا، في مركز الأبحاث والعناية بالتراث – حلقة الحوار الثقافي، الإلماع المقترن بالشكر لوزارة الثقافة اللبنانية، ولجنة "بيروت عاصمة عالمية للكتاب" لمساعدتهما المادية والمعنوية في سبيل إنجاز هذا الكتاب، كما نتقدم بالامتنان من مؤسسة الرئيس الشهيد رفيق الحريري الثقافية، ومن التجمع الوطني للحفاظ على الفولكلور والتراث اللبناني بشخص رئيسه السيد انطوان أبو جودة ومن كل الذين أسهموا في وضع دراستهم المتعلقة بالمناسبة وتضمنها هذا الكتاب.

المشرف على مركز الدراسات والعناية بالتراث الشعبي
حلقة الحوار الثقافي
د. محمد علي العريبي



أول مطبعة بالشرق الأوسط في دير قزحيا (وادي قاديشا) عام 1610 ميلادية

بيروت بأدوار كثيرة
استنادًا إلى التسميات والألقاب والشعارات

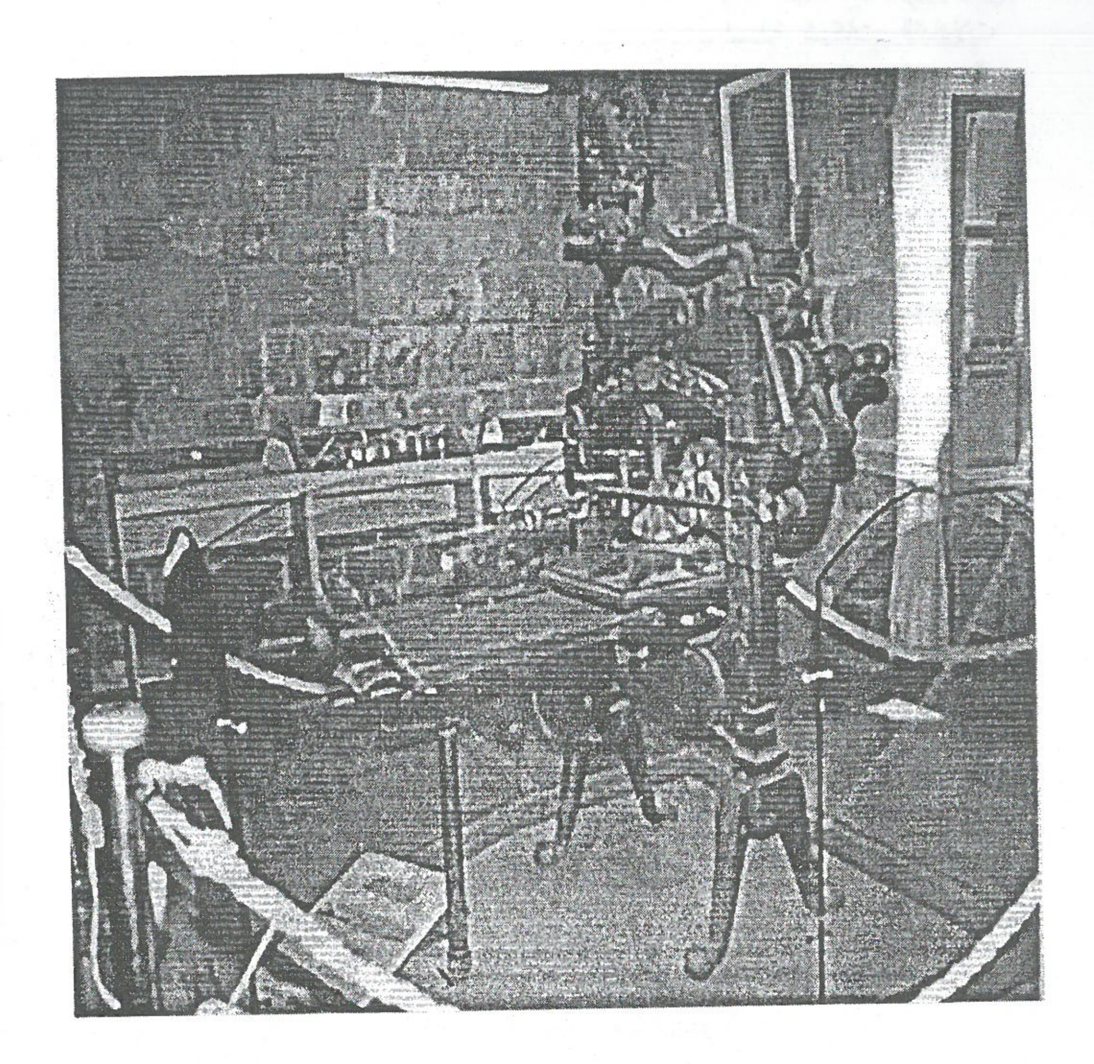
د. زاهي ناضر*

يقـدّم هـذا البحث عرضًا لبعض المقولات المتوارثة والمتداولة التي تدخل في إطار التوجّهات الفكرية اللبنانية، لتقديم تعليل وظيفي مميّز لوضعية مدينة بيروت. ويسـلّط الضـوء، أكـثر مـا يكـون، على ما ينطوي عليه هذا التعليل من أبعاد إيديولوجـية وميثولوجية وإشكاليات. وذلك بالاستناد إلى مدوّنة كبيرة من التسميات والألقاب والشعارات والأقوال المأثورة الشائعة في الأدبيات التاريخية والاجتماعية والدينية والسياسية والإعلامية الوطنية، ولحقبة طويلة من الزمن.

أولاً: بيروت ووظيفة "المرفأ" أو "المحطة"

تضعنا مجموعة كبيرة من جوامع الكلام التي تُطلق على الأرض اللبنانية، أمام صـورة مميّزة لوضعية هذه الأرض من الناحية الطبيعية. وتركّز، أكثر ما يكون، على التنوّع الذي تزخر به ويزيّنها. وتعيّن، على وجه التحديد، "حالة الازدواج"، أو ثنائـية البنـية لموقعها ومظاهرها وتوزيعات المكان. ففي هذه البقعة الصغيرة من الحـوض الشـرقي للـبحر الأبيض المتوسط تتبدّى، في إطار من علاقات الالتقاء والـتقابل "القـارة والـبحر"، "الجبل والساحل"، "الصخر والماء"، "الجبل والسهل"، "المـدى الـبحري وشـموخ الجـبال".[1] فمن ناحية يعدّ لبنان بلدًا بحريًا، وبيئة سـاحلية، لأنه ينعم، كما يقال، بـ"واجهة واسعة مفتوحة على البحر"، أو بـ"شريط سـاحلي" يسـمّيه الأهالي "السهل الساحلي"، ويملك، من ناحية ثانية، مناطق جبلية متوسـطة الارتفـاع، يسمّونها "الوسط"، ومن ثم جبالاً شاهقة، يطلق عليها تسمية "الجـرود". ويُطلـق على سهل البقاع الذي يفصل سلسلة لبنان الغربية عن السلسلة الشرقية، تسمية "الداخل"، أو "لبنان الداخلي".[2]

علـى هـذا الأسـاس، وفـي سياق التفسير الوظيفي لطبيعة الأرض وموقعها والـتفاعل معها، أي من باب تأصيل التاريخ والاجتماع البشري في الحيّز المكاني، تبيّـن الشعارات والألقاب أن هذا الازدواج في العناصر التي تكوّن معالم الأرض اللبنانـية، المنحصـرة بيـن الجبال والبحر، قد أدّى أيضًا إلى "الازدواج" في "قلب



أول مطبعة بالشرق الأوسط في دير قزحيا (وادي قاديشا) عام 1610 ميلادية

بيروت بأدوار كثيرة
استنادًا إلى التسميات والألقاب والشعارات

د. زاهي ناضر*

يقــدّم هــذا البحث عرضًا لبعض المقولات المتوارثة والمتداولة التي تدخل في إطار التوجّهات الفكرية اللبنانية، لتقديم تعليل وظيفي مميّز لوضعية مدينة بيروت. ويسلّط الضـوء، أكـثر مـا يكـون، على ما ينطوي عليه هذا التعليل من أبعاد إيديولوجـية وميثولوجية وإشكاليات. وذلك بالاستناد إلى مدوّنة كبيرة من التسميات والألقاب والشعارات والأقوال المأثورة الشائعة في الأدبيات التاريخية والاجتماعية والدينية والسياسية والإعلامية الوطنية، ولحقبة طويلة من الزمن.

أولاً: بيروت ووظيفة "المرفأ" أو "المحطة"

تضعنا مجموعة كبيرة من جوامع الكلام التي تُطلق على الأرض اللبنانية، أمام صـورة مميّزة لوضعية هذه الأرض من الناحية الطبيعية. وتركّز، أكثر ما يكون، على التنوّع الذي تزخر به ويزيّنها. وتعيّن، على وجه التحديد، "حالة الازدواج"، أو ثنائيـة البنـية لموقعها ومظاهرها وتوزيعات المكان. ففي هذه البقعة الصغيرة من الحـوض الشـرقي للـبحر الأبيض المتوسط تتبدّى، في إطار من علاقات الالتقاء والـتقابل "القـارة والـبحر"، "الجبل والساحل"، "الصخر والماء"، "الجبل والسهل"، "المـدى الـبحري وشـموخ الجـبال".[1] فمن ناحية يعدّ لبنان بلدًا بحريًا،ـ وبيئة سـاحلية، لأنه ينعم، كما يقال، بـ"واجهة واسعة مفتوحة على البحر"، أو بـ"شريط سـاحلي" يسـمّيه الأهالي "السهل الساحلي"، ويملك، من ناحية ثانية، مناطق جبلية متوسـطة الارتفـاع، يسمّونها "الوسط"، ومن ثم جبالاً شاهقة، يطلق عليها تسمية "الجـرود". ويُطلـق على سهل البقاع الذي يفصل سلسلة لبنان الغربية عن السلسلة الشرقية، تسمية "الداخل"، أو "لبنان الداخلي".[2]

علـى هـذا الأسـاس، وفـي سياق التفسير الوظيفي لطبيعة الأرض وموقعها والـتفاعل معها، أي من باب تأصيل التاريخ والاجتماع البشري في الحيّز المكاني، تبيّـن الشعارات والألقاب أن هذا الازدواج في العناصر التي تكوّن معالم الأرض اللبنانـية، المنحصـرة بيـن الجبال والبحر، قد أدّى أيضًا إلى "الازدواج" في "قلب

وظيفة الأرض التاريخية"،[3] أو في القيمة العملية لرسالتها الحضارية، أي إلى تأسيس خلفية ثنائية في "جغرافية الزمان"،[4] وفي وضعية الاجتماع اللبناني التاريخي، وفي العلاقة الجدلية بين الطبيعة والثقافة. واتخذت هذه الثنائية طابع الساحل "المرفأ"، أو "المحطة"، والجبل "الملجأ"، أو "المأوى" أو "الملاذ" أو "الوعاء الجغرافي" للأقليات الدينية أو العرقية أو الطائفية الهاربة إليه خوفًا من الاضطهاد، أو الظلم، أو الاستبداد، وفي فترات تاريخية متلاحقة.

1 – العلاقة المبكرة مع البحر

شكّل الشاطئ وبمعنى العيش بالقرب من البحر، أو كما يقال في "أحضان البحر" المجال الحيوي للحراك الاجتماعي والاقتصادي والحضاري لسكان بيروت، وحفّزهم على إقامة علاقة "مبكرة مع البحر المتوسط"،[5] وعلى التواصل والتفاعل، والأخذ والعطاء مع المدنيات المتواجدة على شواطئه. فأدّت المدينة بذلك، حسب بعض المقولات المتداولة دور "المرفأ" أو "الموقع المرفئي"، ودور "المحطة"، أي المكان المحوري للالتقاء والتبادل، وبمعنى أنها قد مثّلت، من جهة، وبالنسبة إلى سكانها مصدر إغراء للترحال والسفر وحب المغامرة والمتاجرة وتحدّي المجهول، واستكشاف الحياة، وكوّنت، من جهة ثانية، "أرض لجوء" واستقبال للوافدين والمتعبين.

2 – لبنان القديم والمدن الساحلية

من المعروف أن مسار لبنان القديم في التمدّن والعمران، بدأ مع نشوء مدنه الساحلية التاريخية، مثل صور وصيدا وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وعرقة، والتي تعدّ من بين أقدم المدن في العالم. ومن المتّفق عليه أيضًا أن هذه المواقع الساحلية أصبحت بعد فترة وجيزة من تكوّنها، وفي ظل الحضارة الكنعانية، من بين المحطات الرئيسية للتواصل الحضاري. واشتهرت خلجانها بأنها من أصلح الموانئ لرسو السفن والإبحار. ونجد في كتب التاريخ، وأخبار الرحّالة، الكثير من الأقوال والألقاب والتسميات التي تبجّل عراقتها، وتبيّن دورها الرائد في سجل المدنيات، وتؤكد قيمتها المحورية "كمراكز جذب"،[6] باتجاه العمق البحري والامتداد نحو العالمية، في إطار من السيادة الناجمة والمتألقة في مجالات الملاحة والتجارة والثقافة. ومن التعابير المتناقلة في هذا السياق من الزمن الظافر، والتي تشير إلى تحقيق تفوّق رائع واستثنائي لمدينة بيروت نذكر على سبيل المثال قولهم: بيروت "عروس البحر"، "رفيقة التاريخ"، "ابنة الحضارات"، "سيّدة البحار"، "متجر الأمم"، "لؤلؤة مدن الساحل".[7]

ويشهد المؤرخون القدامى على شهرة الفينيقيين، سكان ساحل لبنان القديم "كأمة تجارية"، أو "كمكتشفين جسورين". ويذهب البعض إلى تسميتهم بـ"أسياد البحر"، أو "فرسان البحر"، أو "شعب البحر".[8] وكان رمزهم التبادلي المميّز عبارة عن سفينة تجوب البحار، وهي تحمل الأبجدية والمعرفة والأفكار، إلى جانب السلع وشتى أنواع الخدمات.

3 – البيئة البحرية والملامح التمييزية لسكان الشواطئ

أدّى الدور التاريخي لبيروت "كمرفأ" أو "كمحطة"، وفي سياق بنية مدينية، إلى إرساء معالم الثقافة البحرية بين سكانها، وإلى تدعيم سلوكياتهم ببعض الملامح النموذجية والخاصيات النمطية التي اتخذت مع الزمن صفة الثبات، واقتربت إلى حد كبير من السمات التمييزية لشعوب البحر الأبيض المتوسط، أو ما يسمّى، بالنسبة إلى بعض علماء الاجتماع بـ"العقلية المتوسطية".[9] ومن بين تلك السمات، استنادًا إلى التسميات والألقاب والشعارات، ما يلي من المواصفات:

الميل إلى الأعمال التجارية والخدماتية، والانفتاح على العالم واعتماد سياسة "الأبواب المفتوحة". لذلك يحمل سكان الساحل صفة "الأمة التجارية"، أو أصحاب "الذهنية المركنتيلية"، ويُقال عنهم "شعب مبحر مقدم"، ويشكّلون "دكان على البحر".[10]

– الطموح والشطارة والقدرة على التكيف واعتماد حلول "الائتلاف والتوسطية والتسويات".[11]

– الميل إلى الإبحار والأسفار والتنقل والانتشار في العالم. فقد تحوّل "الساحل المرفأ" إلى "معبر للرحيل والهجرة". أو إلى "منطلق من البر إلى البحر"، أو إلى "قاعة انتظار للمسافرين". ولهذا يُقال عن اللبناني: "عينه على البحر، طرفه على الحجر، وأذنه على المذياع". وينعت هذا الهاجس، أو هذا المرض المتأصل في نفسيته نحو الهجرة بـ"الجرثومة اللبنانية"[12]، أو بـ"السوسة"، أو بـ"النزيف الداخلي".[13] ومن الأقوال المأثورة في هذا السياق: "لو كان للقمر طريق، لكنت ترى لبنانيًا حاملاً كشّته وصاعدًا إليه".[14]

ثانيًا: بيروت "الممرّ"

تشكّل الأرض اللبنانية، بحكم موقعها الجغرافي الاستراتيجي في الجزء الأوسط من الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وبسبب مركزها الطبيعي في "قلب العالم القديم"،[15] سجلاً تاريخيًا حافلاً بالوقائع لتعاقب الشعوب والمدنيات في هذه

المنطقة، ولحركة الحياة المتغيّرة والمضطربة التي عاشتها أجيالها الغابرة.[16] وتقدم كذلك وإلى حد كبير، صورة حية لصراع الأمم والشعوب، ولعلاقات القوة والسيطرة التي تحكّمت في التاريخ البشري على مر العصور.

وإذا كانت المقاطعات اللبنانية قد احتلت، منذ القديم، مقام "المقر" أو "الملتقى" للعديد من الحضارات، فإنها أدّت أيضًا دور "الممر" أو "المعبر" بالنسبة إلى غيرها.[17] إذ شهدت، من ناحية، درجة عالية من الحراك الاجتماعي، وعمليات العمران والاستيطان والهجرة والتواصل بين الممالك، فكانت "ملتقى للطرق والصلات بين "وادي النيل" والبحر المتوسط إلى "وادي الرافدين" وبلاد فارس، وبين جزيرة العرب وآسيا الصغرى[18]، وبين مرافئها الطبيعية المشجعة على الملاحة والتجارة، إلى سائر البلدان المجاورة. ومثّلت، من ناحية ثانية، "مسرحًا" أو "نقطة جذب" أو "تجاذب" للمنافسات وللاعتراك الدامي بين الممالك والقوى الكبيرة المتحاربة للسيطرة على العالم.

على هذا الأساس تُعد أرض "لبنان الممر" نموذجًا قد يكون نادرًا للمساحات الجغرافية التي تجمع، كما يقال: "أسرار حقبات تاريخية مختلفة ومتنوّعة".[19] وتضمّ بصمات من الأمم البائدة والمدنيات التي ظهرت في العالم منذ القديم. وتحفظ تحت أشكال متنوعة آثار الدول الفاتحة مثل الحثيين، والمصريين، والبابليين، والآشوريين، والفرس، واليونانيين، والرومان، والبيزنطيين، والعرب، والفاطميين، والصليبيين، والأيوبيين، والمماليك، والأتراك العثمانيين، والفرنسيين، مما يصعب وجوده في أرض واحدة مساحتها مساحة لبنان.[20]

ومن جوامع الكلام التي تبيّن قدر هذه الوضعية التاريخية: لبنان "موئل التاريخ الحي"، "خزان للحضارة الإنسانية"، "أرض الحضارات القديمة"، "معبر الحضارات"، "فهرس التاريخ".[21] فما هي مقومات "لبنان الممر" وآثاره ونتائجه على ذاكرة بيروت الوطنية؟

1 – بيروت سيرة الرجوع والصراع

في مقابل الجبال اللبنانية التي شكلت "حاجزًا" أو "سدًّا" منيعًا في وجه القوات المعادية وجيوش الأمم المختلفة، أمّن الخط الساحلي ممرًّا طبيعيًّا للتحركات العسكرية باتجاه المدن الشاطئية. لأن السواحل، كما يقال، تحمل "عوامل الضعف"، وهي، على العموم، سهلة العبور. فأصرّ الفاتحون القادمون من الشمال أو من الجنوب على اكتساحها؛ وتوالى عليها الغزاة من كل الأنواع بجحافلهم أو بأساطيلهم. ولهذا يتّفق الكثيرون على وصفها بأنها "ممر الأمم والدول"، و"فهرست

المدنيات"،[22] و"حاملة أسطورة البعث والرماد والرمزية التموزية"، وتتبدّى كأنها "ذاكرة الشعوب والحضارات".

2 – الفتوحات والتسميات

والشاطئ اللبناني الذي يشكّل "الخط الساحلي" أو "السهل الساحلي"، أو كما يقال "سيف البحر" هو، على وجه العموم، "شريط ضيق من الأرض"، لأنه يمتدّ أو ينحصر بين البحر، من جهة، والجبال أو التلال من جهة أخرى. ويمثّل جزءًا من الشاطئ الشرقي للمتوسط، وقسمًا مما أطلق عليه الغربيون تسمية "آسية الأمامية".[23] وقد تغيّرت تسمياته وألقابه، على مر العصور، مع تبدّل أجناس الشعوب التي استوطنت سواحله وتنازعت للسيطرة عليه، أو مع تعاقب مراكز الثقل والقوة والنفوذ في العالم القديم.

ولمّا كان الكنعانيون من بين أقدم الشعوب التي أفادنا التاريخ عن سكناهم في القسم الشرقي من المتوسط، دُعي البحر المطل على الشاطئ اللبناني باسم "البحيرة الكنعانية".[24] وأطلق عليه البابليون اصطلاحًا جغرافيًا بمعنى "بحر أمورو العظيم"، أي "البحر الغربي العظيم".[25] ودُعي أيضًا في بعض المدونات التاريخية، ولحقبة من الزمن، باسم "بحر الأموريين".[26] وتسمّي نصوص بلاد ما بين النهرين المتوسط بـ"البحر الأعلى" تمييزًا له عن "البحر الأدنى" الذي هو "الخليج الفارسي" أو "الخليج العربي".[27] وتشير تلك النصوص أيضًا إلى أن الحملات من "بلاد الرافدين" إلى المتوسط تواصلت دون انقطاع، لأن كل ملك يعزو بعض الأهمية لنفسه، كان يسير إلى "البحر الأعلى"، أو "البحر الأول".[28]

وبعد أن تسمّى سكان سواحل لبنان الكنعانيون بالشعب الفينيقي، وأصبح هذا الشعب "أنشط تجار العالم القديم"، ويعيش، كما يقال، على "ظهر البحار"،[29] ويسيطر على شرقي المتوسط وغربية،[30] دُعي هذا البحر بـ"البحر الفينيقي" أو "بحر فينيقية العظيم".[31] ويذهب بعض الكتابات التاريخية إلى تحديده بأنه "بحر يتوسط المستعمرات الفينيقية".[32]

ولمّا أصبحت المدن الفينيقية الساحلية "مدنًا عالمية" أو "مراكز عالمية"،[33] تقوم على الامتداد البحري وبناء المحطات والمستعمرات السكانية والتجارية، واحتلت مقام "ملكة البحار"، و"ربّة التجارة"،[34] و"سيّدة المتوسط"، وشكّلت "إمبراطورية محلية صغيرة" لها مكانتها وأمجادها،[35] تحوّل البحر المتوسط إلى "جناح مائي" لهذه المدن، وأصبح لقبه عند اليونان تارة "البحر البيروتي"، وطورًا "البحر الجبيلي" أو "الصيدوني"، أو "الصوري".[36]

وعلى أثر غزوات الأشوريين الواسعة النطاق للبلاد المجاورة (في الألف الثالث إلى أواخر الألف الثاني)، والتي شملت قسمًا كبيرًا من الجانب الغربي لبلاد ما بين النهرين، أطلق على هذا القسم من الشرق الأدنى اسم "أشورية"، الذي تحوّل مع اللفظ اليوناني إلى "سورية"، فدُعي البحر المحاذي له "بحر سورية"، أو "البحيرة الكنعانية السورية".(37) وكان هيرودوت هو أول من ذكر أن اليونانيين هم الذين كنّوا الأشوريين بالسوريين. أما المؤرخ اليهودي يوسوفيوس فيذهب إلى القول بأن مدينة صور، لنفوذها ومكانتها وشهرتها، هي التي أعطت اسمها لسوريا وللبحر المقابل لها.(38)

ولمّا قسّم الرومان البلاد إلى فينيقيتين،(39) يفصل ما بينهما "سورية المجوّفة" أو سهل البقاع وامتداده البرّي، دُعي الشاطئ اللبناني بـ"فينيقية الأولى" أو "البحرية"، وكانت عاصمتها بيروت أو صور. أما "فينيقية الثانية"، أو "اللبنانية" أو "فينيقية الجبل اللبنانية"؛ فكانت عاصمتها دمشق أو حمص.(40) كما اعتُبر هذا الشاطئ، ولحقبة طويلة من الزمن، جزءًا من "ساحل بحر الروم"، أو "شط بحر الروم".(41)

ولمّا انتقلت المقاطعات اللبنانية إلى حكم العرب وأصبحت تابعة، على العموم، "لجند دمشق"،(42) ذكر بعض الجغرافيين العرب السواحل اللبنانية تحت باب "ثغور الإسلام"، أو "دار الإسلام".(43) واعتبرها الكثيرون منهم جزءًا من "سورية الطبيعية" أو "سوريا الشاطئية"، فأخذت تسمية "الشواطئ السورية".(44)

وبعد أن أُطلق اسم الشام أو "برّ الشام" على بلاد سوريا بجملتها، ذُكر الشاطئ اللبناني في باب "أقليم الشام"، أو "المرافئ الرئيسية لبلاد الشام". وأخذ تسمية "ساحل بحر الشام"، أو "مدخل البلاد الشامية" أو "سواحل دمشق"،(45) أو "الثغور الإسلامية في الناحية الشامية".

ولمّا دخل لبنان في جملة ممالك الدولة العثمانية، وفي الإطار العام للولايات السورية وسياقها الإداري، أصبحت سواحله لحقبة طويلة من الزمن تحت نظارة "معاملتين"، أو "ولايتين" طرابلس وصيدا، وبيروت فيما بعد.

3 – تسميات وألقاب بيروت

تبدو خريطة "لبنان–الممر"، عبر التاريخ، في حالة من الخضوع للتجاذبات و"الخربطة" الدائمة. ومن أبرز علامات هذه الحالة التغيرات التي طرأت، لحقبة طويلة من الزمن، على أسماء مدنه الكبرى، وخصوصًا على وضعياتها الإدارية ومرجعياتها السياسية، وتبعيتها للسلطات، أو لمواقع القرار المركزية. وتعدّ هذه التغيرات من الظواهر التي تدلّ على التحولات التاريخية الكبرى التي خضعت لها

المقاطعات اللبنانية، والتي اشتملت على إعادة توزيع مراكز النفوذ، والتقسيمات الإدارية، على الصعيدين الإقليمي والدولي.

ولا بدّ من القول هنا بأن التسميات التاريخية التي أطلقها السكان الأصليون على مدنهم وبلداتهم ومناطق عيشهم حافظت على بقائها، وعاشت جنبًا إلى جنب مع الأسماء الجديدة التي فرضتها ظروف الفتوحات ومعطياتها الثقافية واللغوية والسياسية، وعادت إلى الظهور والتداول بعد زوال تلك الفتوحات، لأنها كانت مترسّخة في الوجدان الشعبي، وعلى قدر كبير من الاعتبار والتقديس والقيمة التاريخية والوطنية.(46)

4 – بيروت حضور حضاري متواصل

تعدّ بيروت، كما سبق وذكرنا، "من أقدم مدن الشاطئ الشرقي للمتوسط"، وتدل معالمها الأثرية أنها تعود إلى الألف الثالث ق.م. وقد كان لها طول تلك الحقبة الزمنية حضور حضاري متواصل، واعتبر الميناء الذي يحيط بها من أحسن مراسي السفن. وتعتبر كذلك مدينة فريدة من نوعها لتعدد الشعوب والمدنيات والقوى الغازية التي مرّت عليها منذ أقدم العصور، وتداولت حكمها، وتركت في أرجائها الكثير من المعالم التاريخية والأثرية.(47) كما كانت دائمًا مميّزة من حيث موقعها الجغرافي ونشاطها الاقتصادي والثقافي والديني، بالإضافة إلى طابعها الديموغرافي، وكأنما هي "الطائر الفينيق" الذي لا يموت حتى ينبعث حيًا من رماده ويستأنف دوره الريادي في مسيرة الصراع والتقدم والظفر.

5 – التسميات والأحوال التاريخية

يقدّم الباحثون عدة تفسيرات عن الأصول التاريخية واللغوية لتسمية بيروت. يزعم البعض أن سكانها الكنعانيون أعطوا لمدينتهم اسمًا فسّرته الترجمة العربية القديمة بـ"السرو" أو الصنوبر. ويُقال له في الفينيقية "بروش" أو "بروت".(48) ومن المعروف أن هذا النوع من الشجر كان كثيرًا في المدينة وحولها، وفي التلال المحيطة بها. وقد يكون لهذه التسمية دلالة أسطورية على علاقة بالرمز الديني البيروتي للإلهة عشترت زوجة إيل أو عليون، ملكة مدينتهم وحاميتها.(49) ويزعم البعض أنها "بيرثاي" أو "بيروثة" الوارد ذكرها في التوراة.

ويؤكد بعض المهتمين بهذا الموضوع أن اسم بيروت يرتبط بالواقع البيئي والمعيشي للمدينة، وهو مشتق من كلمة "بئروت"، جمع بئر، وذلك لكثرة الآبار

التي كانت تتواجد في أرجائها، وعليه تكون بيروت "مدينة الآبار"، أو "المياه العذبة".[50]

ومن التحليلات التي تدخل في هذا السياق أن الفينيقيين "كانوا يدلّون على القوة بلفظ "بيروت"على اعتبار أن "أبير" و"ابيروت" معناها القوي والشجاع في لغتهم، وعند حذف الحرف الأول يكون الباقي "بروت".[51] ويُفهم من روايات الأقدمين أن أهل بيروت كانوا يمجّدون تلك المواصفات المعنوية، ويعملون على تجسيدها في حياتهم المدنية. لذلك يركّز بعض الكتابات الشعرية القديمة على وصف بيروت بـ"المدينة المجيدة الأبية".[52]

أما بالنسبة إلى التسميات والألقاب التي عَرَفَتها المدينة من قِبَل الفاتحين والغزاة تشير المصادر التاريخية إلى أن المصريين الفراعنة أطلقوا على بيروت تسمية "بيريت".[53] ودعاها الرومان والبيزنطيون "بيرتس" أو "بيروتس". ولمكانتها المميزة بين المدن الساحلية خصّها الامبراطور أوغسطس قيصر باسمه الشخصي واسم ابنته جوليا، وأضاف إلى ذلك لقب "السعيدة"، فدعاها "جوليا أوغسطافيليكس بيروتس" أي "جوليا أوغسطا السعيدة"،[54] وأسبغ عليها الحقوق والامتيازات التي أقرّها القانون الروماني، وكانت تمنح عادة للمدن التي تحظى بلقب "مستعمرة ممتازة". وغَلَبَ على بيروت، في تلك الفترة، طابع "التمدن الروماني"، وإنجاز الأعمال العمرانية والثقافية المميزة.

وفي عهد الروم البيزنطيين "قُسمت فينيقية إلى قسمين: قسم جنوبي بقيت صور مدينتها المركزية، وقسم آخر جبلي دُعي بـ"فينيقية لبنان"، تعينت بيروت كمركزها وخصّت بامتيازات الحواضر الكبرى".[55]

ومع الفتح العربي بقيت بيروت من المدن المشهورة على "ساحل بحر الشام"، وكانت، من ناحية التقسيمات الإدارية "كورة منوطة بجند دمشق"[56] وأخذت تدريجيًا، على الصعيد العمراني والاجتماعي والثقافي، طابع "المدينة العربية". وفي عهد الصليبيين انتزعت بيروت من مملكة دقاق في دمشق، وضمّت إلى "مملكة أورشليم الفرنجية"، وأُطلق عليها تسمية "سنيورية بيروت" (Seigneurie de Barut).

بعد خروج الصليبيين من البلاد جعل المماليك من المدينة "ولاية" ملحقة بـ"الصفقة الشمالية" لمملكة دمشق. أما في أيام العثمانيين، فقد كانت، في غالبية عهودها "إحدى سناجق دمشق العشرة" أو تابعة لأيالة صيدا.

ولاية بيروت: "الولاية الجليلة"

شهدت بيروت، في النصف الثاني من القرن التاسع عشرًا نموًا ساطعًا على جميع الصعد، الأمر الذي دفع الدولة العثمانية إلى جعلها عاصمة لولاية تُعرف بـ"ولاية بيروت"، شملت سلطتها مناطق واسعة، امتدت من اللاذقية شمالاً إلى حدود مدينة يافا جنوبًا. وأضيف إليها لقب "المدينة المحروسة" أو "بيروت المحروسة" أو "الولاية الجليلة".[57]

احتلت بيروت آنذاك مكانة مميزة بين مدن المتوسط. وأخذت، من الناحية العمرانية والاقتصادية والثقافية والدينية والديموغرافية، طابع "المدينة المتوسطية" أو "المدينة الكسموبوليتية". ولا شك أن مثل هذه الوضعية أدّت إلى تمتع بيروت بشهرة واسعة، أضفت عليها هالة من الزعامة على سائر المدن اللبنانية. ويتفق المؤرخون على القول بأنها غدت أيضًا "المدينة الرئيسة" في جميع أنحاء سورية، لا بل "عاصمة سورية" عند بعض الرحّالة، و"باريس سورية والشرق" عند البعض الآخر.[58] ومن الألقاب التي أطلقت عليها في هذا السياق للدلالة على أولويتها وتألقها ورقّيها: بيروت "ملكة سواحل سورية"،[59] درّة تاج آل عثمان،[60] "درّة الشرق".

- "بيروت الوطن"

على إثر قيام "دولة لبنان الكبير" عام 1920 الموضوع تحت "الانتداب الفرنسي"، أصبحت بيروت رمز الوطن وعاصمته المركزية، والأساس المعنوي للتفاعل الوطني وللعيش المشترك. وذلك بتقديمها إلى اللبنانيين مجالات واسعة للاختلاط والتعاون والتواصل، في مناخ من التنوّع والتسامح والحوار. ويُقال عنها في هذا الإطار: "بيروت الوطن"، "المدينة"، "قلب لبنان النابض"، "المصهر"، "عروس لبنان".[61]

كما عرفت بيروت منذ الاستقلال حتى بدء الحرب في لبنان سنة 1975 حقبة من الازدهار على جميع الصعد، فكانت عمليًا "عاصمة لبنان"، لكنها كانت أيضًا في نظر الكثيرين "عاصمة العرب" أو "عاصمة الشرق" معنويًا.

- بيروت الكبرى

نظرًا إلى ضخامة التطور الحاصل في مدينة بيروت على الصعيد العمراني، وازدياد مساحتها، وعدد سكانها، ومجالات الأنشطة فيها، أطلق عليها بدءًا من الثمانينات للقرن العشرين اسم "بيروت الكبرى" التي اتسع نطاقها إلى حدٍ كبير لتشمل المناطق التي كانت معروفة بـ"ضواحي بيروت".

وتبقى بيروت في كل الأحوال، المكان النموذجي لسبك حضارات الشعوب المتعددة واحتضانها، والإسهام في تشكيلها، الأمر الذي جعلها، حسب بعض الأقوال المتداولة: "مدينة عالمية"، و"موطن الحضارات" و"مدينة التراث العالمي بامتياز"، و"خزان للحضارة الإنسانية"[63]، و"مدينة واحدة من أجل جميع المدن".

ثالثًا: بيروت: الجسر – الوساطة

1 – المكان الجغرافي والموقع المميّز

إن وقوع أرض لبنان على منعطف ثلاث قارات هي آسيا وأفريقيا وأوروبا، وفي قلب الشرق الأوسط الذي يلقب بـ"رحم العالم القديم"،[64] أي في مكان، وعلى طريق لهما صفة العالمية وقوة الاستقطاب، جعل من هذه الأرض، من ناحية التواصل، مدخلاً تاريخيًا من مداخل العالم، ومركزًا جاذبًا للترابط والاتصال والتلاقي والتفاعل بين الشعوب والمدنيات المتنوعة. ومن العبارات الشائعة التي تعيّن قدر هذه المكانة الجغرافية المحورية في العالم: لبنان "على حافة الطريق"، "على خط تماس عالمي"، "على مفترق الطرق والقارات"،[65] "بين بين"، "بلاد المابين"، "بين ماءين"، "بين عالمين واستقطابين"، "محور القارات الثلاث"،[66] "مفرق السبل العظمى".[67]

على أساس هذا الموقع المميّز أدّى لبنان، على مر العصور دورًا يتعدّى بكثير نطاق حدوده، وأكبر من جغرافيته. واتخذ على المستوى العلائقي صفة "الرابط" أو "صلة الوصل" أو "همزة وصل"،[68] أو "حلقة الاتصال" بين عالمين، وحضارتين، أي بين الشرق والغرب. ومن الشعارات التي تتحلّق حول هذه الصفة، وترد على نحو مجازي، وباتت كأداة تعريف بهذا الواقع، نذكر على سبيل المثال: لبنان "الجسر"، "الجسر الواصل"،[69] "جسر تواصل بين الشرق والغرب"، "حلقة وصل بين ضفتي المتوسط"، "أرض ملتقى ووساطة"،[70] "أرض التقاء" (أو اللقاء)، "الموعد واللقاء"،[71] "أرض التفاعل"، "ملتقى الأمم"،[72] "ملتقى الشرق بالغرب"، "اللقاء الشرق الأوسطي"، "المحكّ بين حضارتين".[73]

ويعطي هذا الدور للأرض اللبنانية بُعدًا إقليميًا وعالميًا، ويجعل منها فسحة دينامية لتفعيل تبادل الفكر وإطلاق الحوار بين المدنيات، ونموذجًا حيًا "للمجتمع المفتوح"،[74] والاطلاع بمهام الوساطة المتنوعة بين الشرق والغرب، أو بين العالم العربي والعالم الغربي، وفي كل الأزمنة.

يمثّل هذا الدور محور أيديولوجيا اللبنانيين القائلين بـ"لبنان الوظيفة"، ويتّخذ، بالنسبة إليهم، سمة "الدعوة التاريخية" و"الرسالة الإنسانية"، أو "التجربة الحضارية"، أو "طابع المثال للتفاعل الخلاّق بين الشعوب"، ويقع في موقع "الواجب الوجود" أو "الضرورة"،[75] للعالم وللمنطقة، وتحديدًا للعالم العربي.

ويعدّ هذا الدور، في نظر أصحاب "الفكرة اللبنانية" وجهًا من الوجوه المميّزة لتجليات الروح اللبنانية التي ترقى، أحيانًا، إلى مستوى الفكر الحضاري التجاوزي، وكونية التطلع والانتماء، ورحابة الهم الإنساني وشموليته.

2 – لبنان الكفاءة

ومما لا ريب فيه أن القيام بهذه "الدعوة التاريخية"، يحتاج، عن طريق الضرورة المنطقية، إلى مستلزمات معنوية ومادية، وإلى مرتكزات ومناخات سياسية واجتماعية واقتصادية ملائمة. لكنه يتطلّب، أكثر ما يكون، روحًا رائدة، ومؤهلات سيكولوجية، ومعايير خلقية ومعرفية وتقنية، على مستوى عالٍ من الكفاءة والأهلية، لا تتوفّر في جميع الناس، لكنها قد تكون، بصفة عامة، من المعطيات والتقديرات الأساسية لتكوين الشعب اللبناني، أو "للشخصية القاعدية اللبنانية".[76] لأن قوة لبنان، جريًا على القول السائر: "لا تقوم فقط على امتياز الموقع، بل على قدرات شعبه"، ومن الملامح التمييزية لهذه القدرات: ثقافة الألفة والتواصل، المرونة والقدرة على التكيف، التوجه إلى تعلّم اللغات الأجنبية وإتقانها والتحدث بمنطوقها، عقلية المساومة والتسوية، الحيوية والنشاط وحب العيش، خيار الحرية والاستجابة للتوجهات الليبرالية والديموقراطية.

3 – حالات التلاقي والتفاعل

أ – الحضارة التوليفية

أدّت الأرض اللبنانية، بفضل توجهها البحري، أو بفعل "رسالة البحر" كما يقال، دور "صلة الوصل" والالتقاء والتفاعل الحضاري منذ أقدم العصور، وعلى وجه الخصوص، في الحقبات الذهبية، أو المتألقة من تاريخها. ففينيقيا التي كانت "سيّدة البحار والتجارة والحرف"، وغزت العالم القديم، وأقامت فيه، كما يحلو للبعض أن يقول "الإمبراطورية اللبنانية"، أو "الإمبراطورية الحضرية أو البحرية"،[77] احتلت أيضًا، من الألف الخامس ق.م. إلى الفتح الإسلامي مقام "السيدة الأولى" في تعددية الصلة والتلاقي مع حضارات الآخرين. وجسّدت مدنها التي تقع عند "مداخل البحر" مثل صور وصيدا وجبيل وطرابلس وبيروت،[78] أصلح الموانئ، وأفضل المواقع، لالتقاء أقدم الحضارات، ولتأدية "رسالة التواصل" بين الشرق والغرب، وعلى وجه

الخصـــوص، بين الثقافات المحلية والشرقية القديمة والثقافة اليونانية – الرومانية. لذلــك أطلــق عليها تسمية الحضارة التوليفية،[79] أو "ثقافة التماذج"، أو "المصهر لمختلف الحضارات".

ب – الحقبة الحديثة والمعاصرة

بعـد مرحلة من التراجع والتوجهات الانطوائية، والاختلال الحضاري، استعاد لبنان في العصور الحديثة، وعلى وجه الخصوص، بدءًا من أواخر القرن السابع عشر، ارتباطه بالحضارة العالمية،[80] وقدرته على أداء دور "الجسر" بين الشعوب. وظهرت فيه بوادر التجاوب مع المدنية الغربية، وانطلاقة النهضة العربية.

ونشطت وظيفة "لبنان–الجسر"، على نحو واسع وفعّال، في الحقبة المعاصرة، وتحديدًا مع التحولات التاريخية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، وانهيار الإمبراطورية العثمانية، وإعلان ما اتفق على تسميته "زمن الانتداب الفرنسي" بـ"دولة لبنان الكبير سنة 1920، ومن ثم بعد نيل الاستقلال ونهوض الدولة اللبنانية، وتطور الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في العالم العربي.

وتميّز هذا النشاط، من جهة، بالقدرة على تلقّي مؤثرات الحضارة الغربية المتنوعة واستيعابها، ونشرها في المحيط الإقليمي، وبالكفاءة، من جهة ثانية، على أداء دور "المدخل" أو "النافذة" للمشرق العربي على العالم، بمعنى أن لبنان أصبح، كما يقول البعض: "بابًا يدخل منه الغرب إلى الشرق، ويخرج منه الشرق إلى الغرب"،[81] واتخذ مصطلح "اللبننة" معنى اللقاء الحضاري بين البشر.

4 – بيروت ملتقى الشرق بالغرب

في هذا المناخ من الانفتاح والتنوّع والإرث الحواري العريق، أضحت مدينة بيروت العاصمة، أكثر المدن العربية ترحيبًا بالتفاعل الحضاري، واحتلت مكانة محورية، مفتوحة الإمكانات والآفاق، للتلاقي والائتلاف بين المدنيات. واتخذت موقع "المدخل إلى الشرق والغرب معًا"، ولقّبت بـ"بوابة الشرق على البحر المتوسط"،[82] أو "البوابة الغربية للشرق"، أو "البوابة التي تصل الشرق بالغرب"، أو "مدخل الغرب". ووصفها البعض بـ"بأنها أما مدخل إلى غيرها من بلدان الجوار، وأمّا مخرج منها".[83]

والملفت أن بيروت أصبحت، في هذه الفترة التاريخية "مدينة كسموبوليتية"،[84] أي "أرض لقاء وتفاعل". فتجمّعت فيها الأديان والعقائد والأجناس، وألوان من الثقافات والمدنيات والتيارات الفكرية من الشرق والغرب. وعرفت في بعض

ألقابها بـ"موطئ الحضارات والأديان في الشرق الأوسط"، "درّة الشرق"، "أونسكو العرب".[85]

5 – بيروت ومواسم العزّ

وفي الحقبة الممتدة من الأربعينيات إلى السبعينات من القرن العشرين عَرف لبنان، بفضل تقدمه والأوضاع الداخلية والخارجية المحيطة به، أفضل فترات التألق في تاريخه المعاصر، وأدّى، على أحسن ما يكون، دور التخالط والتواصل والوساطة بين الشعوب. وذهب البعض إلى نعت هذا الدور النموذجي والمشرّف بـ"المغامرة المثيرة"،[86] أو بـ"الأعجوبة اللبنانية".[87] ويطيب للبنانيين تسمية تلك الفترة من مسيرة الوطن المتقدّم والغني بـ"العصر الذهبي"، أو بـ"زمن البحبوحة والازدهار"، أو بـ"موسم العز" في تاريخ لبنان.[88] ونالت بيروت التي تُعدّ التعبير الأمثل عن الذات الجماعية اللبنانية، حظًا وافرًا من هذا التألق. واتخذت في بعض الألقاب مقام "الواجهة العربية"، أو "المنصة الأمامية للمنطقة العربية".[89]

6 – ملتقى القديم والحديث

وفي عالم يعيد تنظيم نفسه باستمرار، ويشهد تحوّلات متلاحقة في العلم والمعرفة والتكنولوجيا وحقل الاتصالات، حصل لبنان على وضعية متقدمة بالنسبة إلى محيطه الإقليمي، ووصل إلى مستوى عالٍ من التنوير والتحسس بالولادات الجديدة، والقدرة على تجسيد المظاهر التحضيريّة، والتكيّف مع تيارات العصرنة والحداثة. فالتجدّد الدائم هو من مميزات هذا البلد. لذلك يقال: لبنان "موطن الحداثة" و"الربيع الدائم"، و"البلد الذي يتكلم لغة القرن ولديه روح الأزمنة الحديثة"، و"بؤرة فكر تغييري".

بالمقابل يتّسم لبنان بالأمانة للقديم، والحرص على العناية بالتراث واستلهامه وتنميته، لأنه كما يقال "مزراب ذهب"، و"من لا تراث له لا هوية له"، وهو "من مقوّمات وحدة الشعب والوطن".[90] والواقع أن لبنان يقدّم نموذجًا حيًا للتفاعل الجدلي بين الأصالة والحداثة، بين المحافظة والتحرّر، بين الموروث والوافد، بين الأفكار المستجدّة والتمسك بالتراث التقليدي. ومن العبارات الشائعة في هذا السياق قولهم: لبنان "ملتقى القديم والحديث والتراث والأصالة".

7 – الوساطة والخدمات

إن "لبنان–الجسر"، و"الملتقى" و"المحطة" هو أيضًا وبطبيعة الحال، "لبنان– الوساطة"، أو "الواسطة– الجسر"، أو "الوسيط في الجسر"، والضرورة الخدماتية في شبكة العلاقات الاقتصادية الإقليمية، وفي النظام

التبادلي بين الشرق والغرب. ومن الشعارات الرائجة في هذا المجال: لبنان "أرض ملتقى ووساطة".[91]

وعلى هذا الأساس تكرّست بيروت في الحقبة المعاصرة حتى بدء الحرب في لبنان سنة 1975، كمدينة مميّزة للأعمال، وكمركز محوري لقطاع الخدمات التجارية والمصرفية، والمالية، والسياحية، والترفيهية، والثقافية، والتربوية، والصحية في المشرق العربي. وأطلق عليها لمكانتها الساطعة والشمولية في هذه المجالات الكثير من ألقاب المجد والمفاخرة مثل: بيروت "عاصمة الشرق"، "عاصمة العواصم"، "سيّدة المدن"،[92] "ست الدنيا"،[93] "سيّدة العواصم". وشبّهت، لما تمتّعت به من نمو ووهج اقتصادي وحضاري وشهرة واسعة تثير الافتتان والإعجاب، بـ"العروس" المتألقة، وبالنماذج الجمالية التي تحمل أسمى درجات التفرّد والتحقق الجوهري، ويقال: بيروت "عروس الشرق"، "عروس البحر الأبيض المتوسط"، "عروس المدن"،[94] "درّة الشرقين"، "لؤلؤة الشرق"،[95] "لؤلؤة العواصم العربية"،[96] "تاج البحر المتوسط"،[97] "زينة العاصمات"،[98] "باريس الشرق".[99]

كما شبّهت التجربة اللبنانية، من حيث النجاح في أداء دور الوساطة، والإنتاج الخدماتي، في أجواء من الطمأنينة والحياد السياسي، والازدهار الاقتصادي، والمناخ الطبيعي الطيّب، بـ"النموذج السويسري". ودرجت العادة، في الأوساط الفكرية على اعتبار لبنان بمثابة "سويسرا الشرق"، وبمعنى أن لبنان للعرب أشبه "بسويسرا للأوروبيين".[100]

وفي السياق عينه من التماثل والمقارنة بنماذج معاصرة من البلدان أو المراكز الناجحة عالميًا، على صعيد تفعيل الاقتصاد الخدماتي شبّهت بيروت بـ"هونغ كونغ الشرق"، أو "سنغافورة الشرق".

أ – الوساطة التجارية: بيروت بوابة الشرق

ومع تحديث الاقتصاد اللبناني، وتوجيه سياسة البلاد نحو النظام الليبرالي وحرية التجارة وتبادل الخدمات، تحوّل لبنان، بفضل موقع بيروت الممتاز، ومرفئها الاستراتيجي، وكفاءة سكانها، إلى "بوابة الشرق"[101] أو "بوابة آسيا"[102]، أي إلى مدخل مركزي على شاطئ البحر المتوسط للتجارة الإقليمية، ومحور استقطاب لحركة المواصلات، والنقل البحري والجوي، والتبادل التجاري بين السوق العالمية والداخل العربي أو الأسيوي. ومن الأقوال في هذه الوضعية: بيروت "المرفأ المشرقي"،[103] لبنان "بلد الترانزيت"، "بلد التاجر الوسيط"، "بلد المنافسة الحرّة"،[104] "المركز المتوسطي".

من هنا شكّل التسوّق، ولمرحلة من الزمن، إحدى مميّزات لبنان، وغدت بيروت "مخزنًا"، أو "مستودعًا" للبلدان المجاورة، ومساحة حرّة للتجارة الاستهلاكية، و"محطة" للتجار والوسطاء ورجال الأعمال من الشرق والغرب. ولهذا يقال في الشعارات أن "لبنان–المحطة"، هو أيضًا "لبنان–المعرض"، و"جنّة التسوّق"، وعبارة عن "مخزن كبير"، أو "سوبر ماركت"،[105] وعاصمته "مجمّع لدور الأزياء العالمية"، و"عاصمة الأناقة".

ومع تقدّم مجالات العلم والتقنية والاختصاصات العالمية، تخطّى لبنان، بدءًا من الستينات للقرن العشرين دور الوساطة التجارية، واتجه نحو تقديم العديد من الفرص للعمل والاستثمار، وتفعيل الطلب على خدمات الصناعة الخفيفة الاستهلاكية، ولذلك قيل: لبنان "موئل للعمل والاستثمار"، و"الرافعة الاقتصادية".[106]

ب – الوساطة المالية: الملجأ والمتنفس

سمح وضع لبنان الاقتصادي الليبرالي، وتشريعاته المالية، واعتماده نظام السرّية المصرفية، لبيوتاته المالية أن تكون لحقبة طويلة من القرن العشرين رمزًا للقدرة المالية، ومن بين المراكز الأساسية والمفضّلة للتبادل المالي في منطقة الشرق الأوسط، وأهّلها لتقوم بعمليات "الوساطة"، وتأمين الطلب على الخدمات المصرفية بين السوق المالية العالمية والعالم العربي. وأدّت مصارفه المتنوّعة الجنسيات وظيفة "الملجأ" و"المتنفّس"، و"الملاذ"، و"صبّاب الأمان" لتجمع رساميل الأقطار العربية النفطية، أو لاستقرار رؤوس الأموال الهاربة من التأميم والمصادرة في بعض البلدان المجاورة. ولهذا قيل: لبنان "جنيف الشرق"،[107] أو بيروت "المركز المالي للشرق".

ج – الخدمات السياحية

الشعارات والألقاب والأقوال المأثورة التي تشيد بهذا الحقل الخدماتي كثيرة جدًا. وتأخذ، على العموم، سمة العرض والدعاية والإعلان السياحي. وتأتي غالبًا بأسلوب بلاغي شعري جميل، ولا تخلو من الطابع التفخيمي والتفاخري والاحتفالي. وتبطن، من الناحية السيكولوجية ميلاً إلى "مثلنة" الوطن أو "بلورة" صورته وتزيينها وزخرفتها ورفعها، أحيانًا، إلى مستوى "فوق طبيعي"،[108] بواسطة التشابيه والرموز المأخوذة من حيّز الأحجار الكريمة، والمثل النموذجية التي تحمل حالة الزهو والألق، وقوامها التمايز والطموح ومواجهة التحديات.

وتبدو هذه التعابير من أقرب الأقوال إلى نفوس اللبنانيين وأشدّها ارتباطًا بعاطفتهم الوطنية، لأنها تقترن، من ناحية بأهم نِعَم لبنان وثرواته ومميزاته، أي بمحاسنه الطبيعية والمناخية، وتشير، من ناحية ثانية، إلى حقبات من تاريخه الحديث اتسمت بالبحبوحة والرفاهية والبهجة والازدهار الوطني. فالماضي السياحي اللبناني هو، في نظر الأهالي، "الماضي السعيد"، و"الأيام الحلوة" وعربة الذاكرة للزمن الظافر، ومحك الحنين إلى "مواسم العز".

1 – لبنان: بلد الجمال

يُعدّ لبنان من بين أوائل البلدان التي ارتبط اسمها بالسفر والسياحة، منذ أقدم العصور، على اعتبار أنه يملك كل الهام البلد السياحي الجميل والمضياف والمقدّس. ويقدّم كل أنواع الخدمات التي تتفق مع طبيعة البلاد ووظيفتها الحضارية، وتنسجم مع احتياجات السياح وتنوّع رغباتهم. ومن العبارات الشائعة في هذا الصدد قولهم: لبنان "وطن السياحة"، "بلد الضيافة"، "واحة الشرق"، "الفندق الكبير".

ومن أسرار جاذبية لبنان السياحية البيئة الجميلة والمناظر الطبيعية الخلّابة. فهو يجمع، كما يقال، "تحت سماء واحدة مشاهد متنوّعة، وأحوالاً جوية مختلفة".(109) ويتلاقى على أرضه، من الناحية الطبيعية والمناخية، كل مزايا أجواء البحر والسهل والجبل.

ويتّصف لبنان، في هذا السياق، باعتدال الحر والبرد فيه، وبالعدالة الطبيعية في توزيع الفصول الأربعة. ولهذا يقال: لبنان "بلد كل الفصول".(110) وهو يحمل، حسب مأثوراتنا الوطنية "الشتاء على رأسه، والربيع على منكبيه، والخريف في حضنه، أما الصيف فإنه ينام على قدميه".(111) ومن ظواهره المميّزة "قرب بحره من ثلجه"، أي قرب الساحل من الجبل. لهذا السبب يُعد هذا البلد من الأماكن القليلة في العالم التي "يستطيع فيها المرء أن يتزلج، وأن يسبح في اليوم ذاته".(112)

2 – لبنان: متحف قائم بذاته

وتشكّل البلاد، لكثافة معالمها التاريخية، والتراثية المنتشرة على كامل أراضيها، مركز جذب للسياحة الأثرية والدينية. والأقوال المأثورة عن هذا التشكيل كثيرة، وهي تبيّن في جملتها أن أرض لبنان "كتاب مفتوح يسرد أحداث التاريخ في شتى مراحله".(113) أي أنها "فسحة أثرية" غنية جدًا بالمدلولات التاريخية وبالمراحل الحضارية التي تعاقبت عليها منذ أقدم العصور. ومن بين هذه الأقوال: لبنان "متحف قائم بذاته".(114) "متحف في

الهواء الطلق"، "موئل التاريخ الحي"، "أرض الحضارات"، "أرض التاريخ"، بيروت "مدينة التراث العالمي بامتياز".

3 – الاستجمام والرفاهية

ومن أجل إنجاز عمليات الوساطة والخدمات في مجال السياحة، يملك لبنان كل مقوّمات الاستجمام والرفاهية والراحة، والترفيه التي تجذب السائح، وتحرّك دوافع حب الحياة ومسرّاتها. وذلك بفضل شبكة واسعة منظّمة وراقية من المراكز أو المجمعات السياحية والفندقية والبحرية وأماكن اللهو والتسلية والتنزّه والرياضة، والاستمتاع بأطايب الدنيا ونعمها. وأهم ما في الأمر أن هذه الشبكة تحظى بسمعة طيّبة، لأنها تعمل وفق معايير الجودة والوسائل العصرية، وتجمع الطابع المحلي والتراثي إلى جانب الذوق الغربي وتقنياته الحديثة.

ولمدينة بيروت في هذا المجال مكانة خاصة، مما يجعل وضعيتها السياحية رمزًا لرغد العيش، والملذات الحميمة، وأحلام الشباب وإيقاع الرغبات. ويُقال في هذا السياق: بيروت "مدينة الأحلام"، و"عروس السياحة في الشرق". ويتّصل ليل بيروت بنهارها، ولهذا يُقال بأنها "مدينة لا تنام"، و"نايت كلوب كبير". وتفيد وسائل الدعاية والإعلان،(115) بأن بعض أحياء العاصمة أو بعض المناطق اللبنانية، قد اتّجه في حقبة من الزمن إلى محاكاة نموذج "مونتي كارلو" أو "لاس فيغاس"،(116) كنابض جاذب ومشجّع للسياحة والتسلية والترفيه والإنفاق بدون حساب. ومن العبارات المتداولة في هذا الاتجاه قولهم: بيروت "مونتي كارلو الشرق" أو "لاس فيغاس الشرق".

وعلى كل حال، فإن للبنان مواسمه وحجّاجه ومحبّيه وعشاقه الذين يقصدونه من كل صوب، ولأسباب عديدة، وفي كل الظروف، وحتى في أصعب الأوقات وأشدّها قساوة. ويحتار القادمون إليه أحيانًا في التعبير عن سر الدوافع التي تشدّهم إلى رمزية هذا المكان الحافل بالتناقضات، ويجمع، لأقدار متنوّعة بين "الورد والشوك"،(117) "الحلو والمر"، "القوة والضعف"، "النار والرماد"، "الحرب والسلم"، "العز والفقر"، "التعقل والجنون". مع هذا كله، فقد يكون لبنان كما يقال "أرض حنين" و"موئل الأحرار"، أي من عَرفَ لبنان حنّ إليه واستطاب الإقامة فيه.

د – الخدمات التربوية والتعليمية

ويعدّ لبنان من بين أهم مراكز الخدمات التربوية والتعليمية في المنطقة. ويحتل هذا المقام، في الحقبة المعاصرة بدءًا من القسم الثاني للقرن التاسع عشر. وذلك بفضل كثرة مدارسه ومعاهده وجامعاته ومؤسساته التربوية، وعلى وجه الخصوص

في عاصمته بيروت التي أصبحت بسبب عمليات التواصل الثقافي مع الغرب، وتوافد الإرساليات التبشيرية والتعليمية الأجنبية من فرنسية وإنكليزية وأميركية وغيرها من الجنسيات الأوروبية "قاعدة للتعليم العالي في الشرق". ولهذا قيل بأن "المؤسسات الجامعية ازدحمت في بيروت كما لم تزدحم في أي مدينة أخرى عددًا ونوعًا".[118] وأصبحت هذه المؤسسات لشهرتها، وخدماتها التربوية، ومستواها الأكاديمي ونشاطاتها الثقافية الرائدة، مراكز جذب أو استقطاب لأعداد وفيرة من طالبي العلم والمعرفة، من مختلف الأقطار العربية. ومن الشعارات التي تتردّد في هذا المجال الخدماتي: بيروت "حاضرة العلم والجامعات"،[119] "منارة للعلم في الشرق العربي"،[120] "دار معارف وعلوم"،[121] "مدينة العلم والنور"، "بيروت المنارة"، "النموذج لعلوم الحضارة الحديثة وتقنياتها".

رابعًا: بيروت والرسالة الثقافية

وفي إطار اعتناق نظام الوظائف والأدوار والوساطة والمعاني لقيم العلم والمعرفة ودوافع الترقي، والمشاركة الفاعلة في ركب الحضارة الإنسانية يحظى لبنان بشهرة واسعة على صعيد حيويته الثقافية عبر العصور. ويرقى في نظر الكثير من المراقبين والباحثين إلى مقام "الرسالة الثقافية" أو "الضرورة الثقافية" لمحيطه العربي وللعالم. وتعتبر هذه "الرسالة" أو "الضرورة" من أمجاد لبنان، ومن بين أبرز وجوهه، وأهم أرصدته وثرواته المعنوية والمعنى الدائم له، وإحدى المميزات لكينونته ومقوّمات وجوده. فهو يزخر، على هذا المستوى، بماضٍ مجيد وعريق وغني بالإبداع والمخزون التراثي، وبحاضر حافل بالريادة والحركات الطليعية والنهضوية، والإسهام في نقل الثقافة وإنتاجها وتطويرها ونشرها، ويختص، أكثر ما يكون في التجديد الفكري الثقافي للعرب، وفي حمل رسالة التواصل والتفاعل بين مختلف الشعوب والثقافات.[122]

أما الألقاب والشعارات والأقوال المأثورة، التي تعبّر عن هذه الحيوية أو الريادة في التثقيف والتنوير وتغذية الثقافة العربية فهي كثيرة جدًا، وباتت بمثابة أداة تعريف بلبنان وعاصمته بيروت. ويستخدم في تزيين مضمونها كوكبة من رموز الخصب والإشعاع والتنوير والإشراق والإقدام والاستنهاض، ومن التشابيه الديناميكية والارتقائية والعلائية، ومن بينها، على سبيل المثال قولهم: لبنان "بلد الإشعاع والنور"، "المنارة والإشعاع"، "المنارة الثقافية"، "موطن النور والحركة والتغيير"، "منارة العلم في المشرق العربي"، "منارة للشرق"، "منارة على شاطئ البحر

المتوسط"، "طليعة الحركة الأدبية والنهضوية في بلاد الشام"، "وطن القلم والكلمة"، "بلد الأفكار"، "مصنع إبداع"، "مقلع حضارة".[123]

ولبيروت في هذا السياق من جوامع الكلام المأثورة النصيب الأكبر. وهي تستخدم كذلك للدلالة على قدر هذه المدينة، على الصعيد الثقافي والفكري والعلمي، صور الهداية والتوعية والأسبقية، والرموز النورانية والريادية والتوليدية. ومن أمثلة ذلك: بيروت: "منارة للثقافة العربية والعالمية"، "عاصمة الثقافة العربية"، "مدينة العلم والنور"، "مدينة العلم والكتاب والفن"، "المكان المولد للثقافة"، "رائدة النهضة الحديثة"، "مهد اليقظة العربية"، "موقظة العرب".[124]

1 – خيار حرية الفكر والتعبير

ومما لا ريب فيه أن هذه الوضعية أو التجربة الثقافة قد أطلقتها ورسّختها وأغنتها عوامل وروافد ومصادر كثيرة. وقد يكون خيار الحرية هو جوهر هذه التجربة وملهمها. فاللبناني يضع الحرية، وفي الطليعة حرية الفكر والتعبير، في مقام "الحاجة الحيوية" للعيش الكريم. ويجعل منها المعيار أو المعنى الأسمى للوجود الأصيل. ويجمع بينها وبين الخصائص أو المسوّغات الأساسية لنشأة الكيان الوطني وديمومته، ولنمو مجتمع ثقافي متطوّر. ومن الشعارات الوافرة والمتداولة التي تدلّ على قدر هذه الحرية الكيانية أو التكوينية، وتميّز الوضعية اللبنانية، بالنسبة إلى بلدان الجوار، قولهم: "لبنان والحرية صنوان"، لبنان: "ساحة حرية"، "موئل حريات"، "أرض أو ملجأ، أو موطن الحريات"،[125] "الواحة الفكرية"، "واحة حرية ومنارة إشعاع"،[126] "وطن الكلمة الحرّة"، "سور الحرية المنيع"،[127] "حصن للحرية والديموقراطية في الشرق"،[128] "فسحة أو ساحة حوار"، "رسالة حرية"[129] "موئل للحريات ومعقل للأمان".[130]

2 – مختبر الثقافات

ومن العوامل التي أسهمت مباشرةً في تعزيز هذه التجربة، وجعلت من لبنان في موقع الأسبقية والقيادة العلمية والحضارية والإنسانية لدول الشرق العربي طوال حقبة طويلة من الزمن ما يلي من المؤثرات:

– الانفتاح على الغرب والتعامل معه بروح التبادل وتحصيل العلم والمعرفة قبل تلك الدول بعدة قرون.

– الانفتاح على التطورات العلمية والمدارس الفكرية، والقدرة على استيعاب معطيات الحضارة الحديثة وتقنياتها.

– الميل إلى التجديد والتغيير والتطوير حيث تبدو دوافع الطموح والترقي قوية جدًا.

– لقاء الثقافات والأديان والعقائد والنزعات الفكرية المتنوّعة واختلاطها وتلاقحها وتراكمها على أرضه. وشكّل لبنان في هذا المضمار، كما سبق وذكرنا، "الملتقى الحضاري"، "مختبر الثقافات"، و"مثال تعددية".[131]

– الاتصال الوثيق بالحياة الأدبية و العلمية المعاصرة ومتابعة نموّها وتطوّرها.

– الدور الحيوي لوسائل الاتصال والإعلام وحرية التعبير، ولبنان رائد في هذا الحقل، ويعد "بلد القلم والكلمة"، وتأخذ بيروت مقام "عاصمة الصحافة في عالم العرب"،[132] كما كان اللبنانيون "أركان الصحافة العربية".

– كثافة المؤسسات التربوية والثقافية في البلاد وتنوّع توجهاتها ومناهجها العلمية، وكثرة أنشطتها الفكرية والفنية. وتتبوأ بيروت في هذا المجال مكانة "عاصمة المؤتمرات"، و"ملكة المهرجانات"، و"مهد المسرح والفنون". وتعدّ معارض الكتاب من "وجوهها الحضارية المشرقة"، و"إحدى واجهاتها المتألقة".

وجعلت جملة هذه العوامل من بيروت النموذج الديموقراطي العربي الأكثر انفتاحًا واحترامًا لحقوق الإنسان، والمكان الصالح لاستقطاب المواهب والإبداع العربي، فأصبحت المدينة لحقبة طويلة من الزمن "قبلة المبدعين العرب"، أو كما يقال "ملتقى الأدباء والشعراء والمفكرين والفنانين العرب"، لبناء مجتمع ثقافي متطور.

ومن التعابير المتداولة التي تدل على الغنى الإنساني والثقافي الذي ميّز الأرض اللبنانية، وخصوصًا عاصمتها بيروت، قولهم: بيروت "عاصمة الثقافة في عالم العرب"، "كعبة الشرق الأدنى"، "وطن الإنسان"، "عاصمة العرب"، "مدينة العلم والكتاب والفن".[133]

3 – الدور المحوري بالنشر العربي

ومن بين أهم معالم لبنان وأعظم وظائفه لتعميم الثقافة ونشر العلم والمعارف، إنشاء المطابع ودور النشر التي تعددت في البلاد بدءًا من القرن السابع عشر، وأسهمت في تميّزها واستمرار دورها التنويري والنهضوي.[134]

وللبنان في هذا المجال من حركة التأليف والطباعة والنشر مقام الأسبقية والريادة في العالم العربي. ويعدّ استنادًا إلى المعطيات التاريخية والأقوال المتداولة: "مهد الطباعة"، أو "رائد الطباعة في الشرق" أو "رائد الطباعة العربية".[135]

وشكّل لبنان لعدّة قرون المركز أو الموطن الرئيسي للطباعة في الشرق، وأدّى دورًا محوريًا في نشر الكتاب وتسويقه في العالم العربي. واستحقّ من هذا المنطلق لقب "مطبعة العرب"، أو "مطبعة العالم العربي"، أو "مطبعة كل العرب" أو "سيّد الطباعة في الشرق العربي".[136] ويقال في هذا الصدد: "أمران يميزان لبنان في محيطه: الطبيعة والمطابع". ومن التعبيرات المتناقلة للدلالة على هذه العلاقة التمييزية قولهم: "الطباعة من طباع اللبنانيين"،[137] "القاهرة تكتب، بيروت تطبع، وبغداد تقرأ"، "اللبناني أين ما ذهب يحمل معه مطبعته، ومطبخه وكنيسته".

وأسهمت العاصمة بيروت بقسط وافر في ثقافة الكتاب والكتابة، واحتفظت بسمعة طيّبة جدًا ناتجة عن إتقان طباعتها ومهارة الناشرين في مؤسساتها. وحظيت على تقدير عالمي في الجودة والإبداع الفني والقدرة على التجديد واستخدم التقنيات الحديثة. ونالت على هذا الأساس العديد من الألقاب المشرّفة والتفخيمية، ومن بينها على سبيل المثال: بيروت: "عاصمة الطباعة"، "مدينة المطابع"، "مطبعة الشرق ودار كتبه"، "عاصمة الكتابة والنشر في العالم العربي"، "مكتبة عامة ومنارة للشرق"، "مدينة العلم والكتاب والفن"، "عيد الكتاب"،[138] ويُطلق عليها حاليًا، من قبل منظمة الأونيسكو، لاستمرارها في أداء هذا الدور المتميّز لقب بيروت "عاصمة عالمية للكتاب".

خامسًا: قراءة جديدة لدور لبنان وعاصمته بيروت

إن موقع لبنان الجغرافي، ومزاياه الطبيعية، ومواصفاته الديمغرافية، ووضعيته السوسيو تاريخية، وعراقة حضارته كانت من العوامل التي هيأت له الشروط الملائمة كي يلعب أدوارًا معينة، أو يقوم بوظائف محددة تجاه نفسه ومحيطه والعالم على مر العصور. ومن الملاحظ أن الشعارات والألقاب والتسميات والأقوال المأثورة التي تتمحور حول ماهية هذه الشروط كثيرة جدًا، وهي تتجه في جملتها إلى إلحاق هذه الأدوار أو الوظائف في صميم "معاني الوطن" و"خصوصيته" و"مقوّمات وجوده"، باعتبارها من بين أبرز العوامل التي أسهمت في تعزيز شهرته، ونجاحه، ومكانته المميزة، بين الأقطار المجاورة.

وتركّز جوامع الكلام التي تدخل في هذا السياق على رفع المستوى الإيجابي لفاعلية دور لبنان إلى مقام "القيمة الإنسانية" و"الحاجة الضرورية" و"الواجب الوجود". ومن بين الشعارات التي تفصح عن هذا التصعيد: لبنان "ضرورة للعالم"، "ضرورة للشرق والغرب"، "ضرورة حضارية"، لكنه على وجه الخصوص

"ضرورة عربية". لأن الأوطان، بالنسبة إلى هذا المنظور، "ليست بالحجم، وإنما بالطموح". ولبنان، هذا الوطن الصغير، على الرغم من صغر حجمه، وضيق مساحته الجغرافية، ووفرة مشاكله التي يعاني منها، يستند إلى مرتكزات قوية وفاعلة. فهو بلد غني بهمة أهله، وبريادته، وبتعددية أدواره ورموزه الحضارية، وبما يتميز به من أصالة وانفتاح على المدنيات.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه الأدوار لم تكن خيارًا اعتباطيًا، فالبعض منها فُرض على البلاد من قبَل القوى العظمى، وأدى إلى عواقب سلبية، أما البعض الآخر فقد كان محصلة تاريخية لتقاليد وأعراف وخبرات تكوّنت على ضوء الواقع، وتجارب الماضي، ونتيجة طبيعية للعلاقة الجدلية بين ظروف المحيط أو الجوار، من جهة، ومميزات لبنان الفريدة من جهة أخرى.

1 – غائية التفسير الوظيفي وإشكالياته

من الملاحظ أن هذا التفسير الوظيفي أو الغائي لماهية لبنان وفاعليته ولعاصمته بيروت ينطوي على أبرز مقولات الفكر السياسي والاجتماعي اللبناني. وقد كان لفترة طويلة من الزمن، وعلى وجه الخصوص، في الحقبة المعاصرة، موضع ترويج دعائي وإعلاني واسع النطاق، "ومن العناصر الأسطورية في حياتنا العامة"، ومن بين المشاغل المحورية للأدبيات الثقافية، والأوساط الاقتصادية في البلاد. واحتل، بالنسبة إلى بعض المنظرين الإيديولوجيين التقليديين مقام "المنظومة الفكرية"، أو "الرؤية السائدة"، أو "الفهم السائد" لمصير لبنان و"شخصيته وحضوره" في العالم. على اعتبار أن هذا الفهم يتوافق مع واقع البلاد، وطبيعة تشكلها الاجتماعي، وسياق مصالحها، وإمكانات تطورها وازدهارها.

ومن القضايا المركزية، بالنسبة إلى هذا التفسير، العمل على تأمين موقع مميز، أو مكانة مرموقة للبنان في المسار الحضاري للشعوب. ويتوق العديد من المفكرين اللبنانيين أن يكون هذا الموقع، كنموذج وتجربة، معيارًا للتفوق والسمو، أو أن يصل إلى مستوى التمثيل الرسولي أو المثالي. وذلك من أجل الدخول إلى رحاب التاريخ الإنساني من باب العطاء الحضاري والإنجازات الكبيرة.

ويستند هذا التفسير إلى مجموعة من المقولات، والاجتهادات، والمسلمات التاريخية. ويزخر بالدلالات الرمزية، والمسوغات القيمية والمعيارية. ويسعى في بعض جوانبه التي تحمل طابعًا إيديولوجيًا، أو ميتولوجيًا، إلى إضفاء معنى تبريري لوجود لبنان ككيان ووطن. وقد نجد في هذا المسعى محاولة لتقديم منظومة معرفية عامة، ليست مقطوعة الصلة عن توجه فلسفي، لصياغة ماهية وطنية خاصة

للوضعية اللبنانية، يخشى أصحابها عليها من الضياع، في خضم الضغوط والصراعات الإيديولوجية، الدائرة محليًا وإقليميًا حول الهوية، والتراث، وخيار الانتماء، وإشكاليات البحث عن الأصول التاريخية.

ولا يخلو التفسير الوظيفي من رغبة في التلميح إلى دينامية الاجتماع اللبناني، وإلى ما يمتاز به هذا الاجتماع من قدرة على التطور والتجدد، بالاستناد إلى العناصر التي شاركت في بنائه تاريخيًا. الأمر الذي دفع البعض إلى وسم هذه القدرة بـ"المعجزة اللبنانية"، أو "التمايزية اللبنانية".

لكن هذا التفسير، لم يحظى في العديد من وجوهه، على موافقة عامة من كافة اللبنانيين، بل كان عرضة للانتقادات، وموضوعًا مثيرًا للجدل والإشكاليات، ومجالاً رحبًا لتبادل منظّم للشعارات المتعارضة. ويعبّر هذا التعارض بكل وضوح عن الخلافات الطائفية، والعقائدية، والإيديولوجية، والثقافية، القائمة بين اللبنانيين، وعن جدلية ائتلافهم وافتراقهم حول هوية البلاد وتاريخها ومصيرها، وعلاقاتها بالعالم الغربي وبمحيطها الإقليمي. وقد لا يكون هذا التعارض بعيدًا أيضًا عن القواعد التي تقوم عليها "أنماط الهيمنة" التي تتجاذبها المصالح، والامتيازات الفئوية، وتدخل في إطار التمويه الإيديولوجي السائد في لبنان. لأن "المهيمنين هم بحاجة دائمة لتبرير امتيازاتهم".

2 – المعطيات المستجدة والأسئلة المصيرية

لكن مهما يكن الأمر لا بدّ لنا، على ضوء الحاضر ومعطياته المستجدة من طرح بعض التساؤلات المصيرية حول مستقبل هذا التفسير الوظيفي لدور لبنان وخصوصًا لعاصمته بيروت.

هل إن الأوضاع المحلية، والإقليمية، والدولية، التي وفّرت للبنان الشروط الملائمة لأداء أدواره التقليدية ما زالت قائمة؟ أم أن التاريخ، والأحداث الداخلية، وتطور ظروف المحيط العربي قد تجاوزتها؟ هل ما زال لبنان يمثل، حسب بعض الشعارات "ضرورة حضارية"، وعلى وجه الخصوص، "ضرورة عربية"؟

مما لا ريب فيه أن التغيرات التي طرأت على بنية لبنان الداخلية بفعل سنوات الحرب الطويلة، وانحطاط الوضع السياسي، بالإضافة إلى التحولات الاقتصادية، والتقنية، والاجتماعية الكبيرة التي شهدتها المنطقة العربية في الربع الأخير من القرن العشرين[139]، قد أصابت معظم مقوّمات لبنان الريادية، وانعكست سلبًا على مستقبله. فأفقدته الكثير من مكانته المحورية، ومن شروط استمرارية أداء وظيفته

التاريخية "كمركز خدمات" و"وساطة". وخسر دوره الاقتصادي والثقافي والتربوي والعلمي. لأن الدول العربية التي اعتمدت لبنان مقرًا لخدماتها في السابق، أصبحت بسبب تطور ظروفها، على قدر كبير من الانفتاح على العالم؛ وأقامت قنوات مباشرة وواسعة النطاق، للاتصال والتبادل، مع البلدان الصناعية، ومراكز التسوق والخدمات الدولية.(140)

3 – الدور المفقود والدور المنشود

على هذا الأساس من التغيرات أي دور يتصوّر لبنان أن يلعبه واقعًا؟ هل يستعيد دوره التاريخي السابق، هل هو قادر على استعادته والاحتفاظ به بالفعل؟ هل يصوغ دورًا جديدًا له في محيطه العربي؟

تمثل هذه التساؤلات جوهر النقاش الدائر بين التيارات السياسية، والاتجاهات الفكرية في البلاد. فهناك المحور الذي يراهن على استعادة لبنان دوره التاريخي "كصلة وصل بين الشرق والغرب"، و"كضرورة خدماتية" للعالم العربي.(141) وهناك المحور الذي يرى أن هذا الدور قد انتهى، ويصعب استعادته، بسبب التحولات البنيوية التي طاولت المحيط الإقليمي. وقد يذهب البعض إلى حد الرفض القاطع بإعادة بناء لبنان بعد الأحداث على أساس "الوظيفة التوسطية"، أو "القاعدة الخدماتية" الصرفة، ومحاولة ربطه بنظام اقتصادي يكون مرهونًا بتطوراته، وحبيسًا لحاجاته.(142) لذلك يتوجب على لبنان أن يتجاوز الإيديولوجيا التقليدية الشائعة في الأدبيات الاقتصادية، والعمل على ابتداع دور فاعل، لا يقوم على الإنجازات التي تحققت في التاريخ، بل على الاحتمالات التي يمكن طرحها على بساط الواقع، وقضايا العصر، والتحولات التاريخية المستجدة، وفي ظل تطور عربي بشري وتقني يتم على كل الصعد. ولا بدّ للبنان أن يجد دورًا من شأنه تأمين استمراريته، وتوجيه فاعليته، وإشباع طموحات أبنائه. لأنه "إن لم يكن مشروعًا ذا معنى فلا مبرر لوجوده ككيان مستقل".(143)

4 – الحذر في اختيار الأدوار

وفي سياق هذا التحرك للبحث عن موقع، أو دور مستقبلي للبنان في العالم العربي، واستطلاع الصيغ والمعادلات والمشروعات المطروحة، لا بدّ من التساؤل أيضًا هل يصح التعامل مع لبنان على أنه "وظيفة" أكثر منه "وطنًا"؟ هل يرضخ ويلعب الأدوار التي تفرض عليه، أو ترسم له، من قبل القوى العظمى؟ هل يقبل أن يؤدي وظيفة لسواه، أو أن يكون مجرد أداة تعمل لصالح توازنات، أو حسابات، أو اتجاهات إقليمية أو دولية؟

على ضوء هذه الأسئلة يحذر بعض الشعارات المتداولة في الأوساط الثقافية، من البحث عن خيارات، ووظائف إقليمية، أو "شرق أوسطية"، أو "دولية" تحفل بالالتباس، والتناقضات، والإشكاليات القابلة للتفجر، أو تبغي إلغاء الهوية، والدور الاقتصادي للبنان، وتحويله إلى "محطة" أو "محمية" أو "موقع فرعي واحتياطي" يقوم بخدمة مخططات أو مصالح فئة من القوى السياسية المحلية أو الإقليمية.

وفي هذا السياق من التوجهات العقلانية يتم التحذير أيضًا، من مخاطر الاستفراد المذهبي بصياغة الخيارات الوطنية، لأن "العقل الطائفي هو عقل ميتولوجي في تحديده لوظائف لبنان وأدواره، وفي نظرته إلى الواقع، وإلى التاريخ".(144) كما أن ضغط الأدوار الطائفية المختلفة والمتناقضة "يحول دون بناء المواطنية، ودون ترسيخ الكيان".(145) لذلك يجب استبعاد أي دور لا ينطلق من وفاق اللبنانيين، أو لا يشكل عاملاً مساعدًا لتوحيدهم كشعب، أو يعرّض الوطن لنزاعات داخلية متجددة.

5 – الخيارات والاقتراحات

الاهتمام بالذات

انطلاقًا من هذه التحذيرات والمخاطر، وفي ظل نتائج الحرب والتجارب السابقة، يدعو بعض المفكرين اللبنانيين إلى تغليب "دور لبنان تجاه ذاته على أحلام الأدوار والوظائف الإقليمية والدولية"(146) ويتمّ التركيز في هذه الدعوة على أولوية "الاهتمام بالذات"، و"البناء الداخلي". ومن معاني هذا الاهتمام العمل على تقوية الوضع الداخلي للبلاد قبل أي مسعى آخر، أي العمل على ترسيخ كيان الوطن وتدعيمه، وتحصين استقلاله، وتحويله، حسب القول الشائع، من "ساحة" إلى "وطن" أو إلى "دولة متماسكة المعالم".

وفي هذا المسعى يفترض أن لا تعلو أي قضية على تضامن اللبنانيين، والوفاق على الوطن. لأن "الوحدة الوطنية"، أو "وحدة لبنان"، بالنسبة إلى العديد من الشعارات، هي "ميزة وجود" هذا البلد، ومن الأسس الضرورية لبناء المواطنية، أو لقيام "دولة المواطنية". وهذا ما كان يقوله الرئيس فؤاد شهاب "إن مقياس الوطنية هو الوحدة الوطنية".(147) وذلك في إطار لبنان "عربي الهوية"، و"وطن نهائي لجميع أبنائه".(148)

وعلى الرغم من هذا التوجه نحو "البناء الذاتي" يرى الكثيرون، ومن بينهم أتباع "مشروع السينودوس"، إن للبنان كنموذج وتجربة أدوارًا أربعة وهي: نموذج للتعايش، رسالة حرية وديموقراطية، عنصر تجديد وتطور،

وعـامل تنمـية.[149] ويـتم التركـيز، فـي هـذا الخصـوص على ما يلي من الأمور:

6 – وطن الرسالة

تـتفق الشعارات الوطنية على التأكيد بأن "الدور الرسالي الرئيسي للبنان" يكمن فـي الـتعايش، أي فـي الحفاظ، كما سبق وذكرنا، على "ميثاق" أو "صيغة العيش المشـترك"، في ظل العدالة والديموقراطية، واحترام حقوق المواطنين. وعلى هذا الأسـاس يـتجلى الوطـن "القوي في جناحيه"، ويبقى "ضرورة حضارية" و"أمانة للحضـارة العالمية".[150] وذلك بما تتضمنه تلك الأمانة من نموذج إنساني "للوحدة فـي التـنوّع"، وفـي العلاقـات بين الأديان، وفي تقرير "الحوار – المسيحي – الإسلامي"، على نحو خاص.

7 – دور بناء النموذج العربي الحضاري

يعـد هـذا الـدور، بالنسـبة إلى عدد كبير من المفكرين اللبنانيين، إحدى أهم مميزات لبنان التي توفر لـه عملية إغناء لا مثيل لها، وتدخل في إطار مسؤوليته القومـية، ورسـالته الفكرية التنويرية "كضرورة عربية"، أي كمثال "لحركة الثقافة العربـية التحررية، والفكر الديموقراطي المنفتح ولحركات التغيير".[151] ويفترض التمسـك بهـذا الـدور تجديـد الحياة السياسية الوطنية، والقدرة على التحرر من المغالطـات السـائدة لبنانيًا وعربيًا، ليستأنف لبنان تجربته التاريخية "كبلد حريات وتنوّع وعطاء".

***

* – أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية، وباحث في التراث الشعبي

1 – أحمد بيضون: **الصراع على تاريخ لبنان**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1989، ص 96، 97، 98.

2 – يُطلق على سلسلة لبنان الشرقية تسمية "أنتي ليبان" (Anti-Liban) أي "المقابل للبنان".

3 – أحمد بيضون: **الصراع على تاريخ لبنان**، ص 96، 97، 98.

4 – أيـان كريـب: **الـنظرية الاجتماعية**، ترجمة محمد حسين غلوم، سلسلة عالم المعرفة، عدد 244، الكويت، نيسان 1999، ص 177.

5 – فرحان صالح: **لبنان ثقافة السكان والبيئة**، مجلة الحداثة، بيروت، السنة السادسة، عدد 43 -44، خريف 1999، ص 4.

6 – كارلهايـنز برنهـردت: **لبـنان القديم**، ترجمة ميشال كيلو، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق 1999، ص 22، 23.

7 – منـتدى صـور الثقافـي: **صور، وثائق المؤتمر الثاني لتاريخ مدينة صور**، 24-25 أيار 1997، ص 5. جوزف نعمة: **صفحات من لبنان**، ج(4)، مطابع الرعيدي، بيروت 1992، ص 201.

8 – كارهلاينز برنهردت: **لبنان القديم**، ص 23.

9 – Paul Griéger: La Caractérologie Ethnique, P.U.F. Paris 1961, p.153-205

10 – جريدة النهار، الملحق، 31-10-1998، ص 8.

11 – بولس نعمان (الأباتي): **محطات مارونية**، غوسطا – لبنان 1998، ص 8.

12 – مارون عبّود: **وجوه وحكايات**، دار مارون عبود، بيروت 1974، ص 50.

13 – أديب القسيس: **القرية اللبنانية**، مؤسسة دكاش للطباعة، بيروت 2001، ص 217.

14 – الكشّة عبارة عن طبق خشبي يشدّه البائع المتجوّل بحزام إلى كتفيه، ويعرض عليه أصناف السلع، وخاصة الألبسة.

15 – لجـنة مـن الأدباء: **لبنان مباحث علمية واجتماعية**، ج(1)، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1969، ص 262.

16 – لا يمكن فصل تاريخ لبنان عن تاريخ الشرق الأدنى، ولا نستطيع تدوين أخباره بمعزل عن ما يجاوره من الأقطار.

17 – أنطـوان حميد موراني: **في هوية لبنان التاريخية**، دار النهار للنشر، بيروت 1994، ص 39. كارلهاينز برنهرت: **لبنان القديم**، ص 71.

18 – لجنة من الأدباء: **لبنان مباحث علمية واجتماعية**، ج(1)، ص 262.

19 – جـوزف نعـيم شليطا: **القطـاع الفندقي في لبنان**، منشورات مجلة آثار وسياحة، بيروت 1977، ص 82.

20 – فيليب حتى: **تاريخ لبنان**، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت 1972، ص 4، 5.

21 – جوزف نعيم شليطا: **القطاع الفندقي**، ص 182.

22 – ميشال الحايك (المونسنيور): **لبـنان ميثاق من أجل قضية**، مجلة الرعية، العدد 314، آب 1996، ص 44.

23 – يعنـي الغربـيون بـ"آسية الأمامية" (L'asie antérieure) سوريا الطبيعية وآسيا الصغرى والجزيرة العربية.

24 – أسد الأشقر: **تاريخ سوريا**، ج(1)، ق(1)، بيروت 1978، ص 260.

25 – نسبة إلى "عموري وعمورو" أي الغرب بالنسبة إلى شبه الجزيرة العربية. وكلمة "أمورو" تعنـي الغـرب وليست أسمًا لجماعة. يوسف الحوراني: لبنان في قيم تاريخه، ط(2)، دار النهار للنشر، بيروت 1992، ص 140.

26 – نجـد هـذه التسـمية فـي مدونـات أشور ناصربال الثاني (883-859 ق.م.). يوسف الحورانـي: **لبـنان في قيم تاريخه**، ص 135. أسد الأشقر: **تاريخ سوريا**، ج(1)، ق(1)، ص 313. منيف الخطيب: **شبعا**، منريخ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1995، ص 38.

27 – يوسف الحوراني: **لبنان في قيم تاريخه**، ص 140.

28 – كارلهايـنز برنهردت: **لبنان القديم**، ص 71. سليم واكيم: **لبنان إلى الأبد**، النشر SWO عبر العالم، 1995-1996، ص 161.

29 – ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ج(3)، م(1)، ص 311.

30 – نجد الفينيقيين الشعب الأول الذي يبني حضارته على التوسّع البحري.

31 – لجـنة من الأدباء: **لبنان مباحث علمية واجتماعية**، ج(1)، ص 267. يوسف الحوراني: **لبنان في قيم تاريخه**، ص 80، 92.

32 – فيليب حتي: **تاريخ لبنان**، ص 10، 11.

33 – المرجع نفسه، ص 11.

34 – ابراهيم الأسود: **تنوير الأذهان في تاريخ لبنان**، م(1)، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت 1925، ص 206.

35 – أرنولد توينبي: **تاريخ البشرية**، ترجمة نقولا زيادة، ج(1)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1981، ص 188.

36 – مرتين اليسوعي (الأب): **تاريخ لبنان**، ترجمة رشيد الخوري الشرتوني، ط(4)، دار نظير عبود، بيروت 1996، ص 37.

37 – أُطلق قديمًا على القسم الغربي لبلاد ما بين النهرين اسم "أشورية"، ولفظها اليونان وكتبوها "أسيريا"، وهكذا من تفاعل الاسم الأشوري "أشورية" والأسم اليوناني "اسيريا" انبثق اسم "سورية"، فانتشـر وعـمّ وساد. سليم واكيم: **لبنان إلى الأبد**، ص 90. أسد الأشقر: **تاريخ سوريا**، ج(1)، ق(1)، ص 24.

38 – سليم واكيم: **لبنان إلى الأبد**، ص 90، 95.

39 – منذ عهد أغسطس قيصر سنة 31 ق.م. إلى الامبراطوري يوستنيانوس سنة 565 م.

40 – رشاد الموسوي: **جغرافية لبنان**، ط(1)، بيروت 1983، ص 26.

41 – لجـنة مـن الأدبـاء: **لبـنان مباحث علمية واجتماعية**، ج(1)، ص 81، 300. ابراهيم الأسود: **تنوير الأذهان...**، م(1)، ص 17.

42 – كمـال الصـليبي: **منطلق تاريخ لبنان**، ط(1)، منشورات كارافان، نيويورك 1979، ص 35.

43 – المرجع نفسه.

44 – يوسـف الحورانـي: **لبنان في قيم تاريخه**، ص 54. أسد الأشقر: **تاريخ سوريا**، ج(1)، ق(2)، ص 25.

45 – لجنة من الأدباء: **لبنان مباحث علمية واجتماعية**، ج(1)، ص 115، 293، 296.

46 – اسـم لبـنان وأسـماء القرى اللبنانية والمدن الفينيقية هي بأكثريتها الساحقة أسماء سامية أمورية أو كنعانية أو آرامية، أو عربية. أنيس فريحة: **أسماء المدن والقرى**، مكتبة لبنان، بيروت 1956، المقدّمة.

47 – شفيق طبّارة: **معابد بيروت ومزاراتها عبر التاريخ**، مجلة أوراق لبنانية، م(3)، ص 209.

48 – مرتين اليسوعي (الأب): **تاريخ لبنان**، ص 141.

49 – المرجع نفسه: ص 244.

50 – ميشال الحايك (المونسيور): **لبنان ميثاق من أجل قضية**، ص 42، 43.

51 – مرتين اليسوعي (الأب): **تاريخ لبنان**، ص 244.

52 – المرجع نفسه، ص 246.

53 – لجـنة مـن الأدبـاء: **لبنان مباحث علمية واجتماعية**، ج(1)، ص 266. ويختزل بعض المؤرخين اليونان اسمها ويدعونها "بروبا".

54 – هنري لامنس اليسوعي (الأب): **تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار**، دار نظير عبود، بيروت 1996، ص 40.

55 – لجنة من الأدباء: **لبنان مباحث...**، ج(1)، ص 289.

56 – المرجع نفسه، ص 300.

57 – يوسف ابراهيم يزبك: **هؤلاء هم موظفو حكومة بيروت سنة 1899**، مجلة أوراق لبنانية، م(3)، ص 184.

58 – جوزيف نعيم شليطا: **القطاع الفندقي...**، ص 100.

59 – محمـــد رفيق ومحمد بهجت: **ولاية بيروت (2)**، ط(3)، دار لحد خاطر، بيروت 1987، ص 202.

60 – سلام الراسي: **لئلا تضيع**، مؤسسة نوفل، بيروت 1971، ص 84.

61 – يوسف خطّار الحلو: **أوراق من تاريخنا**، دار الفارابي، بيروت 1988، ص 251.

62 – عقل العويط: **بيروت الورد والرماد**، مجلة الطباعة، ع(1)، شتاء 1995، ص 5، 6.

63 – إيـــڤون سرسق كوكرن: **مجموعات الأبنية ذات الطابع التراثي في بيروت**، وثائق الندوة العالمية الأولى حول المحافظة على التراث الوطني وترشيده، 11-13 كانون الأول 1997، ص 32، 22، 23.

64 – بازيلـــي: **سـوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي**، ترجمة يسر جابر، دار الحداثة، بيروت 1988، ص 11.

65 – أنطوان حميد موراني: **في هوية لبنان التاريخية**، ص 35.

66 – جـورج قـرم: **إذًا أي دور للبنان؟ 50 سنة من الاستقلال، دور لبنان ووظيفته**، النادي الثقافي العربي، دار النهار للنشر، بيروت 1993، ص 201.

67 – بشارة الخوري: **مجموعة خطب**، حريصا – لبنان، 1959، ص 43.

68 – الياس سحّاب: **المرونة الثقافية وظيفة لبنان**، 50 سنة من الاستقلال، ص 124.

69 – ميشـال شيحا: **لبنان**، ترجمة فؤاد كنعان، منشورات دار الندوة اللبنانية، بيروت 1962، ص 177.

70 – أنطوان حميد موراني: **في هوية لبنان التاريخية**، ص 35.

71 – المرجع نفسه، ص 35، 39.

72 – أحمد بيضون: **الصراع على تاريخ لبنان**، ص 404.

73 – بشارة الخوري: **مجموعة خطب**، ص 43.

74 – كارل بوبر: **خلاصة القرن**، ترجمة الزواوي بغورة ولخضر مذبوح، مجلة اتجاه، ع(20) السنة الخامسة، أيار/حزيران/تموز 2002، ص 251.

75 – سليم الحص: **مدخل، 50 سنة من الأستقلال**، ص 9.

76 – الشخصية القاعدية هي حصيلة التراث الحضاري المشترك لشعب، أو لجماعة، في مرحلة تاريخية معينة، ويُعدّ عالم النفس كاردينر Kardiner صاحب هذا المصطلح السيكولوجي-الاجتماعي.

77 – فؤاد اسحق الخوري: **إمامة الشهيد وإمامة البطل**، مركز دار الجامعة، بيروت 1988، ص 207.

78 – وقد يكون هناك غيرها من المدن التي نجهل وجودها.

79 – بولس نعمان: **محطات مارونية**، ص 168.

80 – أي بعد الفتح العثماني للبلاد سنة 1516، وبروز الإمارة المعنية.

81 – محمد الحجيري: **بيروت بمنازل كثيرة**، جريدة النهار، الملحق 19-5-2002، ص 4، 5.

82 – فيليب حتي: **خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى**، م(2)، الدار المتحدة للنشر، بيروت 1975، ص 262.

83 – محمد الحجيري: **بيروت بمنازل كثيرة**، ص 4.

84 – بولس نعمان: **محطات مارونية**، ص 141.

85 – جوزيف أبو خليل: **المثال اللبناني**، 50 سنة من الاستقلال، ص 136.

86 – جهاد الزين: **نحو دور بين الشرق والشرق، 50 سنة من الاستقلال**، ص 93.

87 – ينسب هذا القول إلى المفكر ميشال شيحا.

88 – سلام الراسي: **جود من الموجود**، نوفل، بيروت 1991، ص 49.

89 – جهاد الزين: **نحو دور بين الشرق والشرق، 50 سنة من الاستقلال**، ص 93.

90 – شعار المؤتمر الأول للثقافة الشعبية في لبنان، حلقة الحوار الثقافي 9-11 كانون الأول 1993.

91 – جورج قرم: **إذًا أي دور للبنان؟ 50 سنة من الاستقلال**، ص 201.

92 – عقل العويط: **بيروت الورد والرماد**، ص 6، 7، 8، 9.

93 – عنوان قصيدة عن بيروت للشاعر نزار قباني.

94 – عقل العويط: **بيروت الورد والرماد**، ص 6، 7، 8، 9.

95 – جريدة النهار، الملحق: 6-10-1999، ص 7.

96 – كتيّب مهرجانات بيروت لعام 1994، ص 5.

97 – يوسف خطّار الحلو: **أوراق من تاريخنا**، ص 251.

98 – المرجع نفسه.

99 – جوزيف نعيم شليطا: **القطاع الفندقي في لبنان**، ص 100.

100 – محمد رفيق ومحمد بهجت: **ولاية بيروت (2)**، ص 14.

101 – فيليب حتي: **خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى**، م(2)، ص 262.

102 – كتيّب مهرجانات بعلبك لعام 1967.

103 – يوسف ابراهيم يزبك: **رحالة تونسي يصف بيروت قبل 75 سنة**، مجلة أوراق لبنانية، م(3)، ص 387.

104 – جوزيف نعيم شليطا: **القطاع الفندقي في لبنان**، ص 98.

105 – محمد الحجيري: **بيروت بمنازل كثيرة**، ص 4، 5.

106 – جورج حجّار: **شعبي سيحكم**، ص 365.

107 – كمال حمدان: **نحو بديل صناعي يوسّع آفاق الخدمات، 50 سنة من الاستقلال**، ص 106.

108 – بمعنى التألق Cristallisation.

109 – هنري لامنس اليسوعي (الأب): **تسريح الأبصار...**، ص 184.

110 – مجلة كل الفصول: **مجلة السياحة اللبنانية**، ع(2)، فصل الربيع، 1999، الافتتاحية، ص 3.

111 – رياض حنين: **لبنان على الشفاه والأقلام**، ص 228.

112 – فيليب حتي: **خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى**، م(2)، ص 262.

113 – دافيو دو بيولان (الفيكونتس): **في بلد الموارنة**، ترجمة كميل افرام البستاني، دار لحد خاطر، بيروت 1987، ص 45.

114 – جوزيف نعيم شليطا: **القطاع الفندقي في لبنان**، ص 182.

115 – خصوصًا الساحل الشرقي لمدينة بيروت.

116 – ريبوراما: **زوق مكايل رفاه الحياة**، الشركة الشرقية للمطبوعات، بيروت 1997، ص 101.

117 – عقل العويط: **بيروت الورد والرماد**، ص 5.

118 – يوسف مونّس (الأب): **بيروت عاصمة العلم والجامعات**، جريدة النهار، 26-2-2000، ص 24.

119 – المرجع نفسه.

120 – عقل العويط: **بيروت الورد والرماد**، ص 9.

121 – شاكر الخوري: **مجمّع المسرّات**، مطبعة الاجتهاد، بيروت 1908، ص 79.

122 – برناديت شينك: **كمال جنبلاط**، ص 186.

123 – جورج حجّار: **شعبي سيحكم**، ص 333. جهاد نعمان: **حقوق الانسان في العالم العربي**، دار نعمان للثقافة، جونيه-لبنان 1992، ص 35.

124 – المرجع نفسه.

125 – أنطوان حميد موراني: **في هوية لبنان التاريخية**، ص 49.

126 – جوزيف أبو نهرا: **250 عام على وفاة عبدالله الزاخر**، مجلة الطباعة، ع(4)، شتاء 1998، ص 101.

127 – أنيس فريحة: **دراسات في التاريخ**، ص 11.

128 – بولس نعمان: **محطات مارونية**، ص 227.

129 – اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام: **32 ساعة... تاريخ**، ميديارام، بيروت 1997، ص 81، 149.

130 – أحمد بيضون: **الصراع على تاريخ لبنان**، ص 150.

131 – اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام: **32 ساعة... تاريخ**، ص 149. جهاد نعمان: **حقوق الإنسان...** ص 83.
132 – المرجع نفسه.
133 – رياض حنين: **لبنان على الشفاه والأقلام**، ص 160. كريم بقردوني: **لعنة وطن**، عبر الشرق للمنشورات، بيروت 1991، ص 70.
134 – جوزيف الرعيدي: **250 عامًا على وفاة عبدالله الزاخر**، مجلة الطباعة ع(4)، ص 105. أمجد اسكندر: **حول تاريخ الطباعة اللبنانية**، مجلة الطباعة، ع(1)، شتاء 1995، ص 33 -37.
135 – المرجع نفسه، ص 116.
136 – المرجع نفسه. نهاد كرم: **اللبنانيون وأعمال الطباعة**، مجلة الطباعة، ع(3)، خريف 1997، ص 40.
137 – المرجع نفسه، ص 104.
138 – جوزيف الرعيدي: **دور الصناعة الطباعية**، مجلة الطباعة، ع(3)، خريف 1997، ص 102. محسن أ. يمّين: **المطبعة ولبنان**، مجلة الطباعة، ع(1)، شتاء 1995، ص 21–31.
139 – خصوصًا بعد ارتفاع أسعار النفط.
140 – فارس أبي صعب: **صناعة الكتاب في لبنان**، جريدة النهار، 14–7–2002، ص 7.
141 – لأن أيًا من البلدان التي سعت إلى الحلول محل لبنان في دوره أبّان الأحداث، لم يستطع أن يشغل هذا الدور في شكل تام.
142 – محمد دكروب: **ضرورة للثقافة التحررية العربية**، أعمال الندوة المنعقدة في بيروت 21–26 حزيران 1993، النادي الثقافي العربي، دور لبنان ووظيفته، ص 115.
143 – أدوار توما: **صفي الدين حول التغيرات الإقليمية والدولية**، جريدة الديار، 28–5–1995، اقتصاد.
144 – فؤاد خليل: **الطائفية كلام آخر**، دار الفارابي، بيروت 2000، ص 127.
145 – جورج قرم: **إذًا أي دور للبنان**، ص 198.
146 – المرجع نفسه، ص 199.
147 – أنطوان نصري مسرّة: **نشوء الأمم بالمواثيق وبالتوبة القومية**، وقائع الندوة الدولية التي عقدتها المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم في قبرص، 8 و12 تموز 1987، **الحق في الذاكرة**، منشورات المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي، بيروت 1988، ص 25.
148 – جورج قرم: **إذًا أي دور للبنان**، ص 201.
149 – كريم بقردوني: **جديد نظرة القوى المسيحية إلى لبنان**، **50 سنة على الاستقلال**، ص 137.
150 – موسى الصدر (الإمام السيد): **لبنان والحضارة الإنسانية**، تصريح إعلامي.
151 – محمد دكروب، **ضرورة للثقافة التحررية العربية**، ص 113، 114.

حول المؤسسات الثقافية في لبنان
نموذج حلقة الحوار الثقافي

أ. فرحان صالح*

I – أبواب تفتحها أجيال

التراكمات المعرفية التي كانت الدافع والحافز لتأسيس حلقة الحوار الثقافي عام 1990، كانت متعددة في مصادرها وتوجهاتها. ولكن الدافع الأساسي هو تجربة الحرب الأهلية ذاتها 1975- 1990، هذه الحرب التي انتقل بها زعماؤها بعد الطائف من الشارع إلى مؤسسات الدولة. لقد كانت هناك في ذاكرتنا بعد التسعينات الأحلام الكثيرة، والهواجس الأكثر إلحاحاً. لماذا رابطة ثقافية جديدة؟ وماذا ستقدم عما قدمته الروابط المنتشرة بالمئات على مساحة لبنان وساحاته؟

الجواب البديهي أن من سبقنا من الجدود كانوا قد بنوا أجيالا قبلنا، وأن علينا أن نتعرف ونتواصل ونضيف على حكاياهم وما أنتجوه، بل أن نعمل من أجل لملمة حكاياهم والاستفادة منها، ومن الأرث المشترك الجامع، وتوظيف ذلك ضمن أقنية المجتمع، فضلاً عن أن ما قاموا به جدير منا أن نقوم بدراسته ونعمل على الاستفادة من معطياته بشقيها الإيجابي والسلبي. ويبقى السؤال: هل نحن جيل سيضيف إلى ما تم إنجازه من قبل الأجيال السابقة؟ لقد ظننا أن هناك فرصة جديدة لجيلنا لإنتاج أفكار تعبر عن المرحلة التي نعيشها، وظننا أن ما نفكر به سيساهم في خلق المناخات للاجتماع اللبناني الجديد، الخارج من الحرب. فهل اكتسبت تلك الظنون شرعيتها في واقع الأمر؟

في البداية حاولنا الاسترشاد بما راكمته وأسست له الجهود المشتركة لمن أسسوا بعض الروابط الثقافية، منها ما هو مستمر، ومنها ما قد توقف سواء بفعل الحرب، أو بموت الأب الروحي للمشروع.

لقد تبين لنا أن ما قدمته تلك الروابط الثقافية قد ساهم في خلق مناخات لحركة تقدم لبنانية، كان لدى النخب التي شاركت فيها رسالة لتنشئة وطنية، حاول أركانها التوفيق بين الاستقلال الوطني والانتماء العربي، وأعتقد الكثيرون

من رموز هذه النخب أن عروبة لبنان لا تنفي عنه لبنانيته ولا تتناقض مع صداقة الآخر غير العربي والتعاون معه، وقد شدتنا مقولة ابراهيم عبد العال، الذي قالها في الخمسينات (إن أكمل الأفعال جميعا هي فعل البناء) كما شدتنا أكثر الروحية الثقافية التي أتى بها جيل النهضة، وعلى رأسهم جبران خليل جبران، هؤلاء الذين اعتبروا أن لبنان مشروع ثقافي مثلما هو مشروع سياسي إجتماعي تربوي، حضاري، وهذا ما أتى إليه سعيد عقل مضيفا (إن لبنان مقر روح العالم).

1 – الثقافة وتعمير البيت اللبناني

يهدف اختيارنا إلى دراسة بعض النماذج من المؤسسات الثقافية، إلى معرفة مدى المؤثرات التي تركتها في المجتمع.

لذا، فقد توقفنا طويلا أمام بعض التجارب التي اعتقدنا أنها الأكثر فاعلية، وكان لنا أن ندرس التجربة الأهم تجربة (الندوة اللبنانية) لمؤسسها الأستاذ ميشال الأسمر، هذه التجربة التي شكلت العلامة الفارقة في الحياة الثقافية اللبنانية في القرن العشرين، وقد تكون التجربة الأهم في الحياة الثقافية العربية.

هذه التجربة التي ارتبطت باسم مؤسسها، وماتت في بداية الحرب قبل أن يموت المؤسس، كان لمؤسسها دور كبير في اختيار الموضوعات والنخب التي ساهمت في تشكل وعي ثقافي إصلاحي مرتبط بالعصر، يسعى لتوطين تقنياته في الحياة الثقافية والتربوية خاصة لجهة التوعية السياسية، فالأسمر استقى من الأحداث التي مر بها لبنان والمنطقة المحيطة والبعيدة عنه، الدوافع لتوجهاته، هذه التي أتاحت له، ولتلك النخب، القراءة والبحث عما تعكسه مجريات الأحداث المحيطة على واقع مجتمعها، وعما تحدثه من مؤثرات لتحولات وتبدلات وتغيرات قد تؤثر إيجاباً، كما التجربة الناصرية، وقد تؤثر سلباً، كما تجربة الانفصال والبعث في كل من سوريا والعراق، وكما التجارب السلفية خاصة الوهابية منها وتجارب الإخوان المسلمين أو غيرها من تجارب أعادت إحياء تراث ديني معين معتبرة إياه الصالح للعصر.

ويمكن القول إن خلاصة تجربة الندوة التي قالت، بل حملت شعارا وحيدا – (العمل سويا من أجل تعمير البيت اللبناني)، كانت التجربة الأكثر أهمية، وهي التي اعتبرت أن البيت اللبناني مثله مثل غيره قائم على أعمدة جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية. من هذه المقولة الشعار، يمكننا أن نستخلص

فلسفة الندوة الممتدة على ما يزيد عن الربع قرن، تلك الخلاصة التي تقول إن تاريخ لبنان الحديث هو تاريخ حدود مصالح أبنائه مع بعضهم أولاً، ومع محيطه ثانياً، وليس حدود الجماعات الطائفية التي تتوالد من نفسها وعلى نفسها، وأن البشر يتغيرون إيجابا بقدر ما يستطيعون إنتاج وتطوير حياتهم، وبقدر ما يستطيعون التخلص من الضغوط السلبية التي تعيق حركة تطورهم، كما رأت أن مرآة المجتمع هي مؤسساته التي يبنيها، خاصة مؤسسات الدولة. هذه المؤسسات التي عمل الأسمر وجيله من النخب كي تكون الرافعة التي على المجتمع تطويرها، لأنها تعكس تطلعات ورغبات المجتمع بشرائحه كافة. لذا سعى جيل الندوة وعمل من أجل تفعيل دور مؤسسات الدولة، ورغما عن شكوك الأسمر تجاه مزاجية المثقفين، وهو الذي تساءل عن دور لهم، وهل يعون غيابهم، أو أن لهم دورا يمكنهم فيه المساهمة في بناء مستقبل وغد مختلفين عما أسست له تراكمات أجيال ما قبل؟ إلا انه توجه إليهم مضيفاً (نحن في كل الحالات لن نكون غير ما نصنعه عن أنفسنا)؟

وتتمة لتلك الخلاصة التي استخلصناها من أدبيات الندوة، كان هناك أسئلة علينا طرحها بعد الحرب، لماذا وصل اللبنانيون إلى إشهار السلاح بوجه بعضهم البعض؟، وما هي مسببات ذلك؟ وهل هذه النخب التي قاتلت بعضها بالكلمة قبل أن تقاتل بعضها بالسلاح، كانت عاجزة عن طرح ثقافة حوارية يتم منها طرح خطط للتنمية والتطور المجتمعي؟ ولماذا فشلت هذه النخب في كبح التحولات السلبية التي كانت تأتي من الداخل ومن المحيط والخارج وتؤثر سلبا على المصالح الوطنية؟ ولماذا لم يساهم المثقفون في رسم تصور حول الكيفية التي يتواصلون بها مع بعضهم ومع غيرهم خاصة بين أجيالهم، بحيث يتم تقبل كل ما تضيفه الأجيال إلى الحياة التي يعيشونها سويا؟ وهل يمكننا وكما هو حاصل اليوم، الطلب من غيرنا أن يطمئننا على مستقبلنا؟ والسؤال الأكثر أهمية: هل حظيت تجربة الندوة اللبنانية خاصة وتجارب هذه المنتديات عامة، بما يستحقها من دراسات وتقييم ونقد؟

***

إلى جانب (الندوة اللبنانية) كان هناك النادي الثقافي العربي، هذه المؤسسة التي عمل المشرفون عليها على وصف وتطوير المشروع العربي وموقع لبنان ودوره فيه، حيث رأى هؤلاء أن الأولوية هي للعامل القومي، هذا العامل الذي كانت بعض النخب الوطنية اللبنانية والتي تحمل أيديولوجيات قومية مجلببة بالدين تغلّب

المشـــترك القومـــي–علـــى الخـــاص الوطني، دون التطرق للفعل العربي، وكيف يتناقض بل يتعارض مع أولوية الفعل الوطني المكمّل والمتدرج مع ما هو قومي، خاصة أن المشروع العربي، بما يحمل من تشابه بين مشاريع قطرية عبَّرت عنها نخـــب سياسية توارثت ولا زالت، أمكنة وثقافات، دون أن تضيف إلى الأجيال ما هـــو مكتســـب، ومن معطيات العلوم– بل أن ما كان يضاف كان يتم من الخارج، ونتـــيجة مـــن نتائج عدم وجود ثقافات تكاملية من التعاون الاقتصادي الاجتماعي السياســـي بين الشعوب العربية، فالبيت العربي ومنه اللبناني، كان على المسؤولين العرب أن يضعوا المخططات لحماية أبنائه ورعايتهم، مع ما يترافق من سياسات لـــتطوير مؤسســـات الرعاية الاجتماعية المنسجمة مع التربية، ومما يهيئ ويفتح الأبواب لعصر المواطنة هذه التي عملت لها نخب عصر النهضة من أحمد فارس الشـــدياق إلـــى البساتنة والكواكبي وعلي عبد الرازق والعلايلي والياس مرقص، وأجـــيال جديدة رأى فيها جبران أنها كانتقال الفصول، أي من جيل إلى جيل، ومن ثقافـــة جـــيل قديم أصبحت تقليدية وتخصه بل مرتبطة به، إلى تدشين طرق جديدة لحياة ذات مرجعيات تستند إلى تراكمات المجتمع الذي يطور نفسه باستمرار.

لذا فإن مقتل هذه الأيديولوجيات، هي في وضعها نظريا وكأولوية مطلقة الشأن القومـــي المرتبط بالدين، دون الأخذ بعين الاعتبار التدرج والمواءمة بين المصالح الوطنية بما هي مصالح مواطنة وخارج كل تقسيمات تقليدية دينية أو عشائرية أو عائلية، وبين المصالح المشتركة العربية.

وقـــد يتشـــابه عمـــل هذه المؤسسات ليس فقط في لبنان– أيضا في المجموع العربي ككل– مثلا: ما كانت تطرحه الروابط الثقافية في شمال لبنان، وجبل لبنان والـــبقاع والجـــنوب، لـــم يكن إلا امتداد لما كان يتم طرحه في بيروت وفي بلدان عربية أخرى.

لقـــد دمـــرت الحـــرب ذلك التراث الذي بناه رواد تلك المرحلة، ولكن البعض اســـتمر فـــي المساهمة والتأسيس لثقافة مجتمعية أتت من خارج العصبويات التي بنـــتها السياسات الطائفية، مثال على ذلك: ما حاول مؤسس المجلس الثقافي للبنان الجنوبـــي – حبيـــب صادق – العمل لتحقيقه، فكان المجلس واسطة ثقافية للحوار، بين نخب سياسية علمانية وليبرالية وان كان معظمها ينتمي إلى الحزب الشيوعي، وبين بيئات وشرائح كان يعتقد أن تلك الأفكار الأيديولوجية اليسارية يمكن توطينها فـــيها، وهـــي بيـــئات تـــرتفع فيها نسبة الأمية، من حيث التعليم، وتنخفض نسبة الخدمـــات العامة، والمجلس الذي بشرّت به النخب التي أفرزها الحزب بمشروعه

السياسي كان العنوان الذي اختاره لنشاطاته – الجنوبي – تأكيداً للخصوصية التي عبّر عنها السيد محسن الأمين في الأربعينات، حينما سؤل عن الفرق بين مصطلح جـــنوب لبـــنان ومصطلح جبل عامل، فقال: **"الجنوب منطقة جغرافية، بينما جبل عامل فمشروع قضية"**.

مـــر المجلـــس بمـــراحل مختلفة، وان كانت سياسة المؤسس –حبيب صادق– مســـتمرة، فـــالمجلس الذي توجه لنخب معينة حاول عبرها –صادق– إيجاد موقع سياســـي نيابي لـــه في الجنوب، وهذا ما بدا بتواصل ترشحه عن مقعد نيابي في مـــنطقة مرجعـــيون–حاصـــبيا. هذا المجلس الذي وظف طاقاته في خدمة النضال الوطنـــي ضد العدو بشكليه الخارجي الصهيوني والداخلي– الإقطاعي–الرأسمالي، أكـــد في اختياره التزامه أيديولوجية الحزب النضالية دون الانتباه إلى أن جغرافية لبـــنان الصـــغيرة، محكوم على الشعب الذي يقطنها بطموحات هي اكبر بكثير من الإمكانـــيات التي كانت توفرها النخب السياسية بشقيها اليساري واليميني، وهذا ما التفـــت إلـــيه واخذ به راعي الندوة اللبنانية ميشال اسمر وكذلك ما استمرت بتبنيه الحركة الثقافية – انطلياس عصام خليفة – انطوان سيف– وميشال عقل وغيرهم، ممن تناوبوا على إدارة هذه الرابطة حيث استرشدوا بتجربة الندوة محاولين تنظيم المساحات السياسية المعاصرة والممكنة بما يتواءم وينسجم مع جغرافية لبنان، ليس فقـــط الطبيعية وإنما أيضاً الثقافية، معيدين الاعتبار إلى دور للبنان يرتكز فيه على نفسه.

حـــاول تلامـــذة الـــندوة من خلال هذه الحركة، لعب دور في تصويب الحياة السياســـية، أي في التمييز الذي اختلط فيه دور المناضل، ودور أصحاب الكفاءات الاجتماعية بتنوعاتها كافة، هذه الاختصاصات التي يحتاجها المجتمع، لم يصر إلى التأكـــيد علـــى دورها من قبل المؤسسات الثقافية ذات الإيديولوجيات التي أعطت الأفضلية للكفاءات النضالية على ما عداها. لذا جاءت التجربة الشهابية لتتبنى ثقافة الـــندوة راسمة خطاً متدرجاً ما بين المسألة الوطنية والمسألة القومية، عاملة على تنمية الكفاءات الاجتماعية والتخصصات التي يحتاجها المجتمع، وبعد وفاة مؤسس الـــندوة، وقتل التجربة الشهابية، تابعت الطريق الحركة الثقافية – انطلياس، هاتان المدرســـتان، الندوة وانطلياس، ونموذجهما الإصلاحي ما نفذته التجربة الشهابية، كان لكل منهما أن استفاد من تجارب الحركات الثقافية، ونخبها في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولبنان كان المؤسس، ليس فقط لتجارب داخلية لبنانية هي بعض ما ذكرناه، بل أيضا للمساهمة في التأسيس لتجارب عربية، منها الجامعة العربية،

ولتجارب عالمية منها منظمة الأمم المتحدة، حيث عبَّرت النخب عن إرادة تتغلب عليها روح المسؤولية، وحيث النخب الثقافية في لبنان، خاصة في تاريخها القديم والحديث، كانت قد ساهمت في التأسيس لثقافة العولمة الإنسانية وعملت من أجل مقاربات في السياسات العالمية. ولبنان بمدنه الفينيقية الأولى ذات الوظائف العملية والذي اختارها على البحر، ساهم دون أن يدري هؤلاء الجدود بخلق أسطورة العولمة – الحرية، أي الانفتاح على المجهول. هذا ما تميز به لبنان في تاريخه القديم– الفينيقي– المديني، وفي تأسيسه لعلاقات تعاون وقيم حضارية عالمية خاصة في التجارة، واللبنانيون الأوائل مؤسسون لها، وهم أيضا من أسسوا لثقافة الجمهورية، بما هي ثقافة المواطنة بأشكالها البدائية الأولى.

والسؤال بعد هذا العرض: هل أضافت هذه الروابط الثقافية معنى إلى المعاني التي أسست لها نخب عصر النهضة؟ هذه النخب النهضوية التي افتقدت تلك القوة المادية والمعنوية التي تعبّر عنها، وتحتضنها الدولة بمؤسساتها المجتمعية، تلك القوة المادية والمعنوية التي كان عليها أن تنقل مركزية الفعل من الطبقة الإقطاعية والدينية إلى القوى والطبقات الناهضة المعبِّرة عن المصالح المجتمعية الجديدة.

لا شك، أن هناك محاولات أتت من هنا وهناك لتضيف معنى إلى المعاني المتراكمة، لكن جميعها افتقدت الشروط التي ذكرناها. وهذا جبران الذي وضع حدودا ثقافية للبنان الحديث، وليؤسس بذلك مدرسة عالمية على هذا الصعيد، هذه الحدود التي سار عليها مؤسسو الندوة وغيرهم وأرادوا أن تكون رغم ما شاب بعضها من تداخلات شوهت المعنى وأصبح أحيانا ملتبسا –حدودا سياسية ببعد ثقافي إنساني – هي هذه الحدود المحاطة اليوم بثقافات سياسية عدوانية – أكثر مما هي محاطة بثقافات جيرة وتعاون مجتمعات.

لقد واجه المشرفون على تلك الروابط بعض الإيديولوجيات التي كان يرى المشرفون عليها أنفسهم أو من خلال غيرهم، سواء كمثال المرجعيات الدينية الخارجية للطوائف اللبنانية، أم الأيديولوجيات السياسية التي قتلت كل المخططات الإنمائية الاقتصادية، هذا وتلك التي ساهمت في رهن القرار اللبناني والتبعية لهذه الدولة أو تلك، خاصة الدول الغربية. لقد واجهت الندوة وبعض النخب الثقافية هذه الأيديولوجيات خالقةً المناخات التي تُبرز الحالات التي تمثّل المصالح المجتمعية.

2 – مناخات اتفاق الطائف – أجيال تبني – سياسات تدمر.

تمحور الهاجس الأكبر للنخب التي أسست حلقة الحوار الثقافي، على التعرّف عن قرب بما قدمه الجيل الذي سبق. وحاولت هذه النخب معرفة التراكمات التي أسستها وأضافتها أجيال ما قبل جيلها، راسمة صورة للتواصل ما بين أجيال ما قبلها من جيل عصر النهضة إلى جيل الندوة. هذا التواصل الذي كان فعالا، وتجسّدت فيه جملة من المواقف المتناقضة، خاصة بين حاجات الأجيال والحاجات الخاصة للطبقة السياسية. ورغم هزيمة هذه النخب فان هناك ما يدفعنا إلى القول إن التاريخ الثقافي لعصر النهضة كان الأوضح في طرحه والتزامه ثقافة عصره، وكان أقل التباساً في مواقفه تجاه حاجات مجتمعه، بينما أجيال القرن العشرين كانت مواقفها أكثر سياسية وأقل ثقافية/ اجتماعية، فجيل النهضة قام بتحديد موقفه من قضايا عصره، حيث عبَّر عن حاجاته وعن أحاسيسه الذاتية، ما كوَّن الدوافع والروافع للحركة الفكرية التي عبَّر عنها. بينما جيل الأربعينات من القرن العشرين الذي هزمت مشاريعه وذلك بسبب الضغوط الداخلية والخارجية التي مورست عليه، فكان أن قُتلت أحلامه في الإصلاح، كما قتلت أحلام أجيال عربية مماثلة، لذا كان يتكيف في ممانعاته ومواجهاته مع كل السياسات العدوانية التي تعمل ضد كل إصلاح، سواء كان داخليا أو خارجيا، والنخب تلك لازالت على طريق الممانعة هذه التي يؤكدها الكثير من مواقف الروابط الثقافية والقليل من النخب السياسية، ممانعات تحاول منها هذه الشرائح مواجهة الجهات العدوانية التي تريدنا ظلا للآخر، هذا الآخر الذي لا يحتاجنا إلا كمستهلكين لما ينتجه.

أيضا لم تقتصر تطلعات النخب التي أسست حلقة الحوار على ما ذكر، بل حاولت دراسة المسببات التي ساعدت على خلق المناخات التي دفعت اللبنانيين إلى حرب برزت فيها خلافاتهم واستبعد منها كل تاريخ التعاون والشراكة والحوار بينهم، وصولا إلى ما يرسي سلمهم الداخلي القائم على مشروع وطني، لا على مشاريع طائفية هي ما تمخضت عنها مصالح زعامات الطائف – الطوائف حيث الإصرار على أحياء علاقات وثيقة مع مقدسات الماضي، للتعويض عما هو مفقود في الحاضر، وللتغطية على سياسات قتلت كل حس مشترك بين اللبنانيين ووظفت ما قامت به لخلق ثقافة تضليلية تقدس ما تقوم به زعامات الطوائف وتشرعن للإمارات التي أسستها على حساب الوطن المشترك للجميع.

إذاً، وعلى أرضية هذه السياسة التي رعتها مصالح إقليمية/ دولية: سوريا، السعودية – إيران – أمريكا ودول أخرى، انتقلت الحرب من

شكل هو ما مورس بين عامي 1975– 1990، إلى أشكال أخرى بدأت تبرز بعد ذلك.

لقد حاولت النخب التي اختارت الانتماء إلى حلقة الحوار، أن تكون ذاتها، وأن تعبّر عن الواقع الذي تعيش فيه، كانت صورة مصغرة للبنان الذي تريده، جاء الأفراد الذين انتموا إليها من كل الشرائح الاجتماعية، من كل المناطق، وحملوا خيارات من تعددية إرادة المجتمع ومصالحه، وأيضا كانوا مزيج المجتمع الأنثوي والذكوري– هذه النخب لم تفقد الأمل بإمكانية التعريف عن ذاتها، من خلال ثقتها بنفسها وبقدرة الأجيال الجديدة، خاصة تجربة الجيل الذي ساهم وصاغ التجربة الشهابية، هذه التي شكلت ولا زالت نموذجا كان من المفترض والمطلوب الاستمرار به والتأسيس والإضافة إليه. هذه التجربة التي أسست لعقد اجتماعي جديد تجاوز فيه اللبنانيون الثقافتين الإقطاعية والاستعمارية، هذه التجربة التي تجمعت عوامل داخلية وعربية ودولية، من أجل قتلها بعد عام 1967، وكان اتفاق القاهرة، الذي حمّل لبنان ما لم تستطع أن تأخذ به دول عربية، كذلك فعل الحلف الثلاثي من قبل الجميل– أده– شمعون، المدخل لقتل هذا الحلم، وربط لبنان بأزمات المنطقة وتحميله أكبر من طاقات أبنائه، وأكبر من إمكانيات ما تتحمله جغرافيته الطبيعية والبشرية. لقد تم ربط لبنان وتحميله وحده مشاكل المنطقة، خاصة مشاكل الصراع العربي الصهيوني، والقضية التي تخلّى العرب عنها.

3 – عودة إلى التجربة الشهابية

لقد مثّلت الشهابية الرافعة لطموح جيلنا وشكلّت المدماك الأول لنهضة اجتماعية – سياسية. فشهاب وجيله، التفتا إلى المؤسسات المجتمعية بمختلف تخصصاتها، هذه التجربة التي بدا منها لبنان يسير ويتحول إلى مجتمع تعاقدي، حيث أعطى المشرّع للمصالح العامة قوة قانونية، وهذا ما أخذت به واحتضنته مؤسسات المجتمع، حيث بدأ الفصل بين القانون والأخلاق التقليدية، أي فصل السياسي عما هو نفعي اجتماعي، هنا كان الدور التنفيذي لمجلس الخدمة المدنية والضمان الاجتماعي، والمشاريع التنموية كالمشروع الأخضر وغيره من مشاريع، وأيضا من دور لاختيار الكفاءات الرقابية وإشرافها على مجلس الخدمة المدنية، والإدارية التي أدارت مؤسسات الدولة بنجاح وثقة عالية.

لقد ساهمت النظم والتشريعات القانونية التي أتى بها الفريق الشهابي إلى منع الاعتراف بأية حقوق خاصة لهذا الطرف أو ذاك، أو لهذا البيت الإقطاعي أو

ذاك، لهذه الطائفة أو تلك، حيث بدأ شهاب بتحجيم ما سمي الامتيازات الطائفية المارونية، وبهذه السياسة تشكلت الإرادة المشتركة للكفاءات المعبّرة عن سلطة المجتمع وإرادته. نعم كان هناك مشاكل وملاحظات على هذه التجربة، ولكن تلك الملاحظات تبقى في الإطار الإيجابي وفي إطار تطوير النظام السياسي.

لقد بيّنت التجربة الشهابية بما خططت له ونفذته من مشاريع، كم أن المجتمع بحاجة إلى ما تم تحقيقه... خاصة أن الطبقة الوسطى التي نمت وتطورت كان لها الدور الأساس في بناء وتطوير مؤسسات الدولة، ومن الرموز التي هيئت وأسست لتلك المرحلة، إبراهيم عبد العال، وموريس الجميل وكمال جنبلاط وحسن الرفاعي وفؤاد بطرس ورشيد كرامي وسليم الحص وحسن مشرفية وغيرهم.

4 – حلقة الحوار والبيت اللبناني

لقد حاولت حلقة الحوار الثقافي مراجعة تجارب المنتديات الثقافية وكذلك التجارب السياسية والاستفادة منها، كما عملت على مراجعة تجربتي الحركة الوطنية– والجبهة اللبنانية. الأولى منها التي قدمت ورقة للإصلاح السياسي في لبنان عام 1975، وكان مطلوبا مناقشة مضمون هذه الورقة والأخذ بالبنود الإصلاحية التي طرحتها، ومحاورة الطرف الآخر الجبهة اللبنانية بشأنها، بل والأخذ بعين الاعتبار هواجس وملاحظات كل طرف للطرف الآخر. كان هذا الأمر كفيلاً بتوفير وجبات الموت وتدمير الوطن وهجرة مواطنيه وتدمير إرادة وتطلعات أحلام أجياله.

لقد لاحظ بناؤو الحلقة وبعد هذه الحرب المدمرة، استمرار تكوينات الحيز المكاني بصورة عشوائية وعشائرية، كما لاحظوا جمود النظام السياسي من خلال رفض فكرة التفاعل واستمرار قانون الانتخابات وقانون الزواج والأحوال الشخصية، ولاحظوا أيضاً أن المقصود من ذلك بقاء اللبنانيين عشائر وطوائف، إذ إن استبعاد هكذا إصلاحات قد أدى إلى وضع الداخل الطائفي بمواجهة الداخل الطائفي الآخر.

لقد قال المصلح الشهابي الأكبر موريس الجميل عن تلك الطبقة، أنها **"تجهد لإبقاء الشعب في حال الفقر والحرمان، ولم تسع لتنمية القدرات الاقتصادية في البلاد، والسبب أنها تريد الحفاظ على هيمنتها المطلقة، وهيمنة من تمثّل من مصالح الدول الخارجية"**.

إذاً، كان لا بد من الاستفادة من النخب الإصلاحية التي ساهمت في التراكم الثقافي المنتج في القرن العشرين. وكانت توجهات حلقة الحوار التواصل والتعرف بهذا الجيل فكان أن تعرفنا بسلام الراسي هذا الذي ما لبث أن انتمى إلى الحلقة وساعد على الاتصال برموز جيله من فؤاد أفرام البستاني وأنيس فريحة وعبد الله العلايلي وحسن الأمين وأحمد أبو سعد وسامي مكارم وجمال تقي الدين وسعيد حمادة وإملي نصرالله وشوقي أبو شقرا وعبد الحليم كركلا ومنير إسماعيل وتوفيق الباشا وأسعد السبعلي وميشال قهوجي وأسعد سعيد ووليم صعب ومحمد شامل وعبد اللطيف فاخوري وجورج جرداق ويوسف الحوراني ويوسف مونس وعلي شلق وسعيد عقل وجوزيف فاخوري والجيل الثاني من أمثال خليل أحمد خليل وفريدريك معتوق ومحمد كريم وعارف الريس وعبد الحميد بعلبكي ومفيد أبو مراد ومحمد شيا وإلهام كلاب وخالد زيادة ووليد غلمية وزاهي ناضر وسمير مقدسي وسليمان تقي الدين وغيرهم.

هذه النخب التي ساهمت وأضافت إلى الحياة الثقافية، هي من أعطانا الدفع المعنوي، إذ منها تشكلت المداميك الأولى للحلقة، وكان بين أطرافها اللقاءات التي حصلت في الكونسرفاتوار الوطني وفي بيت سلام الراسي وعبدالله العلايلي والهام كلاب وفي منزل فرحان صالح وفي أمكنة أخرى. وكانت هذه اللقاءات أن أعادت الثقة المتبادلة، بين أطرافها وبين الأجيال الجديدة، وهذا ما أسس لعقد سلسلة من المؤتمرات التي قدم المشاركون فيها أبحاثا حول التراث والموروث الشعبي.

لقد كانت المؤتمرات محاولة جادة للبحث عن توحيد الجهود الثقافية، ولإحياء حوار بين الفئات والشرائح التي دمرتها الحرب، وأهملتها سياسات القادة الجدد، تلك الشرائح التي انقطع بينها كل حوار خلال فترة الحرب، انقطع بين هذه النخب وبين الأجيال والمناطق والطوائف والأحزاب.

كانت المؤتمرات والاجتماعات ضرورية للحوار، خاصة أننا لم نيأس رغم ما كان يمارس على أيدي زعامات سياسية، ما كان منا إلا المزيد من المواجهة والممناعة لطبقة سياسية لم تؤكد شرعيتها الوطنية، وأصبحت تستمد نفوذها من انغلاقات لعصبويات طائفية خلقتها هي للحفاظ على مصالحها الخاصة ولمواجهة خصومها خاصة داخل نسيجها الطائفي.

لقد حاول المؤتمرون القراءة في المناهل والمصادر التي استقى منها اللبنانيون والعرب ثقافتهم، وكانت الالتفاتة إلى هذا التراث متنوع الميادين والصور، والذي يحمل جديد التناقضات والتحولات ضمن جدلية الحياة اليومية **"انه ليس كتبا**

مخطوطة أو صفراء فقط لكنه آثار وتقاليد أيضاً وأهواء نفسية وموروثات اجتماعية، وليس فلسفة أو فقهاً أو تاريخاً فقط، لكنه تقنية باقية وفنون وعمارة وشعر وأساليب حياة، وهو يتضمن أنماطاً من السلوك الاجتماعي وألواناً من القيم الروحية والمادية والجمالية. والتراث في حالة ولادة وتحول إن لم نقل (موت) مستمرين"، على ما يقول شاكر مصطفى. والتراث أيضاً يحتوي على الشيء ونقيضه، انه مادة سمعية اكثر منها مادة مرئية، مادة تعتمد على الإذن اكثر مما تعتمد على العين. لذا فالتراث ليس صنماً يُعبد، إنما رصيد من الخبرات التي علينا أن نراجعها، ونحاول فهمها، ونعرف كيف نتعامل مع نتائجها، بدءاً من الخبرات التربوية الاجتماعية، وصولاً إلى الوجهات السياسية هذه التي لاحظنا كيف تسيس ما يغذي الهواجس، ويعيد إلى الأذهان الصراعات الطائفية وتضخيمها بالإشاعات والإعلام، خاصة أن مصالح الزعامات والمؤسسات الطائفية الملتبسة بوظيفتيها الدينية والدنيوية، كان كل منها خلال الحرب يبرر قتل الآخر.

وكان النظام الطائفي ذاته، ولا زالت رموزه حاملة ومغذية لهذه الثقافة العدائية والمولدة لها. لذا، كانت الخطوة التالية للحلقة الاتصال بالنخب الخيّرة ممن تم ذكرهم، هذه النخب التي أتت من مشارب متعددة هي التي ساهمت في تأسيس الحياة الثقافية في القرن العشرين، وفي تأسيس الحلقة، وكانت قد تشكلت منهم المرجعية لكل ما قامت به الحلقة حتى نهاية عام 2004 عام وفاة سلام الراسي آخر أفراد جيله، خاصة تلك المؤتمرات التي شاركت فيها هذه الرموز بفاعلية، بدءاً من (المؤتمر الأول للثقافة الشعبية في لبنان) الذي عُقد عام 1993، هذا المؤتمر "الذي قال فيه عبدالله العلايلي، أنه المؤتمر اللبناني الأول بامتياز" الذي تبين من خلاصة الأبحاث التي قُدمت فيه كيف تتم المحاولات لتدجين معطيات التراث وتوظيفه سياسياً، وتبين أيضاً أننا عندما لا ننفصل عن تراث ماضوي انتهى، يعني أننا نستحضر هذا التراث كمثال نضعه في قالب كنموذج كي نتبناه. وصولاً إلى المؤتمر السادس الذي عُقد في قصر الأونيسكو عام 2004.

5 – الخلاصة الأولى لمؤتمرات حلقة الحوار الثقافي

لقد حاول الذين شاركوا في المؤتمرات التي عقدتها الحلقة، القيام بجردة تقييمية نقدية للتراث الشعبي التقليدي، لذا فقد شكلت المؤتمرات مناسبة للكشف عن وجه لبنان بشكليه الحقيقي والملتبس، وكان التراث ذاته والموروثات المنبثقة عنه والمستمرة في القيم المجتمعية، المنطلقات للكشف وللتعرف بالجوانب السلبية التي

يتم استحضارها من هذا التراث وكيف تُستغل؟ إذ تبين للمشاركين ممن قدموا أبحاثاً، أن هناك إرادة جامعة للبنانيين، وان كان هناك محاولات لتفتيت هذه الإرادة، ليس فقط في لبنان وإنما في غير بلد عربي، فسياسات النظام اللبناني يتم من خلالها الإمعان في تفتيت هذه الإرادة وتقنينها طائفياً، ومنع الحوار وبالتالي منع تحقيق وحدة مجتمعية وطنية.

لقد حاول المؤتمرون قراءة المناهل والمصادر التي يتلقى منها اللبنانيون ثقافتهم. وكانت الالتفاتة إلى هذا التراث كونه من المصادر الأساسية التي يتغذى منها العقل، ليس فقط بالمعنى الإيجابي وان كان قليلاً، وإنما بالمعنى السلبي، أي تغذية الهواجس والمخاوف، وان كانت معطيات الحياة ليست كذلك، فطريق الحياة أن تقرأ تراث الماضي بوعي كامل، فما كان في الماضي، توقف مع انتهاء حاجات أجيال ما بعده له، خاصة أن حالات التقديس والتبرير لهكذا ثقافات هي النقيض للعقود المجتمعية المشتركة، والتي شكلت المدخل لشرعنتها القيم المتحولة والمنبثقة عن المصالح المجتمعية النفعية التي تجاوزت العقود الكلامية الشفهية لتصبح عقوداً مدونة، وان كانت بعض العقود الشفوية متداولة ويرتبط الناس بها تقليدياً أو معنوياً. إن هذه الموروثات المشتركة وثقافاتها المكرسة، هي ما يتم تجاهلها والابتعاد عنها.

لقد توصلت الحلقة بعد متابعتها لكيفية تنفيذ اتفاق الطائف، أن هذا الاتفاق قد وُظف طائفياً وتم بموجبه تكريس الإقطاع السياسي المالي والطائفي، وهذا ما اختصر الحالة السياسية في البلد، وأدى إلى تحطيم الأطر الاجتماعية، والعقد الاجتماعي المدني الذي أسست له الشهابية، وإلى نمو مناطق كاملة تسكنها مجموعات بشرية تنتمي إلى لون واحد، دون أوراق رسمية، ومثال ذلك باب التبانة وحي السلم، والاوزاعي ومناطق أخرى في الجنوب والبقاع، وجبل لبنان وغيرها من مناطق مثلاً. وهل يمكن أن يتصور فرد ما أن معظم أفراد قوى الأمن هي لحماية الزعماء والوزراء والنواب؟ وهل يمكن أن نتصور أن النخب التي تمثلت في المجلس النيابي الأول شرّعت راتباً دائماً للنائب بعد تركه النيابة، وهل يمكن أن نتصور أن كل واحد من هؤلاء قد أقام المؤسسات الطائفية له الموازية لمؤسسات الدولة، هذه التي تعمل وتدر أرباحاً هو المستفيد الأول منها؟

هذا هو الواقع الذي على الثقافة والمثقفين مواجهته، ولكن ماذا قالت الأجيال؟ بل ماذا قالت السياسة، والأطراف المتصارعة، على لسان زعماء الميليشيات وهم الآن في مواقعهم الجديدة يخوضون حروباً باسم طوائفهم وضدها، والتي وضعوا

كل واحدة منها في مواجهة الطائفة الأخرى؟ ماذا قال أو يقول التراث التي تحمله الذاكرة المجتمعية الأمية التي لم تدخل المدرسة، وهي التي توارثت تراث وذاكرة الأرض، والتي كانت امتداداً لها، والتي عبّرت عنها حركة وجهد الناس في حقيقتيها المادية والمعنوية؟ ماذا نقول وقد انفصلت أجيال عن تلك الحياة، وارتبط بعضها بوظائف منها ما كان منتجاً ما قبل العام 1975، ومنها ما قد ارتبط بمؤسسات بنيت على حساب المؤسسات المنتجة، ونقيضاً لها. لقد حاولت هذه المؤسسات الاستهلاكية المعبرة عن سيطرة زعماء الطوائف ومصالح الخارج، أن لا تكون قوى المجتمع ذاتها، بل خططت كي يكون ما تخطط له هو ما يراد لنا.

هذا الوصف لما هو من واقعٍ نعيشه يفترض هيمنة ثقافية مستلبة وهجينة، وقد بينت الأبحاث التي قدمت في المؤتمرات هذه الأمور، وما الأسئلة التي وردت سوى بعض مما حملته ذاكرة المشاركين الذين درسوا التراث المشترك والجامع، بما هو تراث خاص وطني ومشترك قومي - إنساني، وهو ذاته تراث قائم على عقود تحترم حق الآخر، وهو تراث تعاون وحوار بين اللبنانيين وبين محيطهم القريب والبعيد.

إذاً، وقبل عام 1950 من القرن الماضي، كانت الشمس تضيء الأرض بنورها، وكانت الأرض تضاء بالسنابل وبجهد الفلاحين وعطاءات أمنا الأرض. كانت الشمس تصحّي "الفلاحين" الذي كانوا يشكلون ما يزيد عن الـ 50 % من قوى المجتمع، وكانت الثقافة السائدة ثقافة الإنتاج المعبِّرة عن الارتباط والانتماء للمكان، هي المنبع الذي تتوالد منه القيم المجتمعية، فمن رحمها نمت وتطورت ثقافة الانتماء الوطني، ونمت الهوية التي يتم توارثها. هذا الانتماء وتلك الهوية، بدءا من الخمسينيات بدآ يعرفان متغيرات وتحولات لولاءات وانتماءات جديدة ومعاصرة، حيث انتشر التعليم وأنشئت المستشفيات وتم فتح الطرق المسفلتة، وانتشرت السيارة والمذياع والكهرباء، وحلت محل الأدوات الزراعية وببطء الآلات الحديثة الممكننة، وانتشرت الصحافة، حيث كان مع كل حرفة تندثر أو تموت يندثر ويموت معها ثقافات وقيم ثقافية وحضارية معينة. لقد رافق توطين التقنيات الحديثة وانتشارها أساليب إنتاجية جديدة، وثقافة مرتبطة بها ومعبِّرة عن حاجات المجتمع.

لقد التفت المؤتمرون إلى ما كان أنيس فريحة قد قام به بدراسته مبكراً، حيث قام بوصف هذه التحولات وتوثيقها. فكان كتابه الأهم "القرية اللبنانية حضارة في طريق الزوال" الذي صدر في أواخر الأربعينيات من

يتم استحضارها من هذا التراث وكيف تُستغل؟ إذ تبين للمشاركين ممن قدموا أبحاثاً، أن هناك إرادة جامعة للبنانيين، وان كان هناك محاولات لتفتيت هذه الإرادة، ليس فقط في لبنان وإنما في غير بلد عربي، فسياسات النظام اللبناني يتم من خلالها الإمعان في تفتيت هذه الإرادة وتقنينها طائفياً، ومنع الحوار وبالتالي منع تحقيق وحدة مجتمعية وطنية.

لقد حاول المؤتمرون قراءة المناهل والمصادر التي يتلقى منها اللبنانيون ثقافتهم. وكانت الالتفاتة إلى هذا التراث كونه من المصادر الأساسية التي يتغذى منها العقل، ليس فقط بالمعنى الإيجابي وان كان قليلاً، وإنما بالمعنى السلبي، أي تغذية الهواجس والمخاوف، وان كانت معطيات الحياة ليست كذلك، فطريق الحياة أن تقرأ تراث الماضي بوعي كامل، فما كان في الماضي، توقف مع انتهاء حاجات أجيال ما بعده له، خاصة أن حالات التقديس والتبرير لهكذا ثقافات هي النقيض للعقود المجتمعية المشتركة، والتي شكلت المدخل لشرعنتها القيم المتحولة والمنبثقة عن المصالح المجتمعية النفعية التي تجاوزت العقود الكلامية الشفهية لتصبح عقوداً مدونة، وان كانت بعض العقود الشفوية متداولة ويرتبط الناس بها تقليديا أو معنوياً. إن هذه الموروثات المشتركة وثقافاتها المكرسة، هي ما يتم تجاهلها والابتعاد عنها.

لقد توصلت الحلقة بعد متابعتها لكيفية تنفيذ اتفاق الطائف، أن هذا الاتفاق قد وُظف طائفياً وتم بموجبه تكريس الإقطاع السياسي المالي والطائفي، وهذا ما اختصر الحالة السياسية في البلد، وأدى إلى تحطيم الأطر الاجتماعية، والعقد الاجتماعي المدني الذي أسست له الشهابية، وإلى نمو مناطق كاملة تسكنها مجموعات بشرية تنتمي إلى لون واحد، دون أوراق رسمية، ومثال ذلك باب التبانة وحي السلم، والاوزاعي ومناطق أخرى في الجنوب والبقاع، وجبل لبنان وغيرها من مناطق مثلاً. وهل يمكن أن يتصور فرد ما أن معظم أفراد قوى الأمن هي لحماية الزعماء والوزراء والنواب؟ وهل يمكن أن نتصور أن النخب التي تمثلت في المجلس النيابي الأول شرّعت راتباً دائماً للنائب بعد تركه النيابة، وهل يمكن أن نتصور أن كل واحد من هؤلاء قد أقام المؤسسات الطائفية له الموازية لمؤسسات الدولة، هذه التي تعمل وتدر أرباحاً هو المستفيد الأول منها؟

هذا هو الواقع الذي على الثقافة والمثقفين مواجهته، ولكن ماذا قالت الأجيال؟ بل ماذا قالت السياسة، والأطراف المتصارعة، على لسان زعماء الميليشيات وهم الآن في مواقعهم الجديدة يخوضون حروباً باسم طوائفهم وضدها، والتي وضعوا

كل واحدة منها في مواجهة الطائفة الأخرى؟ ماذا قال أو يقول التراث التي تحمله الذاكرة المجتمعية الأمية التي لم تدخل المدرسة، وهي التي توارثت تراث وذاكرة الأرض، والتي كانت امتداداً لها، والتي عبّرت عنها حركة وجهد الناس في حقيقتها المادية والمعنوية؟ ماذا نقول وقد انفصلت أجيال عن تلك الحياة، وارتبط بعضها بوظائف منها ما كان منتجاً ما قبل العام 1975، ومنها ما قد ارتبط بمؤسسات بنيت على حساب المؤسسات المنتجة، ونقيضاً لها. لقد حاولت هذه المؤسسات الاستهلاكية المعبرة عن سيطرة زعماء الطوائف ومصالح الخارج، أن لا تكون قوى المجتمع ذاتها، بل خططت كي يكون ما تخطط له هو ما يراد لنا.

هذا الوصف لما هو من واقعٍ نعيشه يفترض هيمنة ثقافية مستلبة وهجينة، وقد بينت الأبحاث التي قدمت في المؤتمرات هذه الأمور، وما الأسئلة التي وردت سوى بعض مما حملته ذاكرة المشاركين الذين درسوا التراث المشترك والجامع، بما هو تراث خاص وطني ومشترك قومي – إنساني، وهو ذاته تراث قائم على عقود تحترم حق الآخر، وهو تراث تعاون وحوار بين اللبنانيين وبين محيطهم القريب والبعيد.

إذاً، وقبل عام 1950 من القرن الماضي، كانت الشمس تضيء الأرض بنورها، وكانت الأرض تضاء بالسنابل وبجهد الفلاحين وعطاءات أمنا الأرض. كانت الشمس تصحّي "الفلاحين" الذي كانوا يشكلون ما يزيد عن الـ 50 % من قوى المجتمع، وكانت الثقافة السائدة ثقافة الإنتاج المعبّرة عن الارتباط والانتماء للمكان، هي المنبع الذي تتوالد منه القيم المجتمعية، فمن رحمها نمت وتطورت ثقافة الانتماء الوطني، ونمت الهوية التي يتم توارثها. هذا الانتماء وتلك الهوية، بدءا من الخمسينيات بدآ يعرفان متغيرات وتحولات لولاءات وانتماءات جديدة ومعاصرة، حيث انتشر التعليم وأنشئت المستشفيات وتم فتح الطرق المسفلتة، وانتشرت السيارة والمذياع والكهرباء، وحلت محل الأدوات الزراعية وببطء الآلات الحديثة الممكننة، وانتشرت الصحافة، حيث كان مع كل حرفة تندثر أو تموت يندثر ويموت معها ثقافات وقيم ثقافية وحضارية معينة. لقد رافق توطين التقنيات الحديثة وانتشارها أساليب إنتاجية جديدة، وثقافة مرتبطة بها ومعبّرة عن حاجات المجتمع.

لقد التفت المؤتمرون إلى ما كان أنيس فريحة قد قام به بدراسته مبكراً، حيث قام بوصف هذه التحولات وتوثيقها. فكان كتابه الأهم "القرية اللبنانية حضارة في طريق الزوال" الذي صدر في أواخر الأربعينيات من

القرن المنصرم، المرجع الذي لا بد منه، والشاهد على تلك المرحلة بما رافقها من تحولات وتبدلات. والشاهد الآخر، مارون عبود الذي أسس لما استكمله أنيس فريحة، حيث وقف طويلاً عند المترادفات والتعابير الجديدة التي حلت محل المترادفات والتعابير التي انتهت وظيفتها، وهذا ما أتى به أيضاً الخوري فغالي في موسوعته عن الأمثال، هذه التي كانت تحمل وتعبّر عن روح الحياة التي كان يعيشها الفلاحون، وهذا ما قام باستكماله علي الزين ولحد خاطر في كتابيهما عن العادات والتقاليد الريفية وما طرأ عليهما من تحولات وتبدلات، وهذا ما حاول استكماله أيضاً خليل احمد خليل وفريدريك معتوق وزاهي ناضر وأميل بديع يعقوب وسامي ريحانا وجيل جديد من المخضرمين الذين عاشوا هذه المرحلة.

نعم، بعد الخمسينيات، بدأت التحولات المرافقة لنمط جديد من أساليب الحياة والثقافة تبرز وتسيطر، وان كان الجانب الأخطر هو هيمنة الثقافة الاستهلاكية، هذه التي تأسست في مواجهتها قيم منتجة ومنافسة لها، حيث توسعت القطاعات الصناعية المنتجة سواء على الصعيد الصناعي أو الزراعي، إذ تجاوز عدد العاملين في القطاعين النصف مليون مواطن، كانوا يتوزعون على العديد من النقابات والقطاعات المهنية، لذلك فقد برز حيز لمكون انتماء حقيقي جديد بدأ يهيمن على جغرافيتي المدينة والريف.

لذا، كان خيار البحث في عمليات التحضير لتلك المؤتمرات وعقدها، يقوم على الروح المجتمعية بشقيها المتوارث والمكتسب، ماذا تقول هذه الروح في تواصلها في ذاكرة الأجيال الجديدة؟ ماذا قالت وتقول الأجيال التي ارتبطت ولازالت بالقطاع الزراعي؟ وما هو الثابت في ثقافاتها؟ وما هو الذي تغير وتبدل في ثقافة الأجيال التي ارتبطت بالتحولات الجديدة، تلك التي حملت في أحشائها معانٍ قانونية واجتماعية وتنظيمية مرتبطة بالعقد المكتوب وبالقانون؟ والسؤال الإضافي: هل التراث الواصل إلينا بشقيه، والذي تتبدّى صوره على العديد من المستويات، هو تراث تفاعلي جمعي اندماجي حواري، أو انه يحمل روحية انفصالية تنفي الآخر ولا تعترف به؟ وما هي النظرة التي كرستها تلك التحولات تجاه الاعتراف بحقوق المرأة كشريك كامل في الحياة إلى جانب الرجل؟.

لقد تبيَّن للمشاركين كيف أن الأيديولوجيات الدينية تؤسس مناطقها على حساب الهوية الوطنية، فتجعل مرآة اللبنانيين لرؤية ذاتهم هي مرآة الماضي حيناً، ومرآة المجتمعات الأخرى بالنسبة إلى البعض، وفي هذه المرآة المستلبة نرى الهوية الوطنية كهوية وهمية مستلبة ماضوية وهي حيناً سعودية وسورية أو عراقية في بعض الأحيان إذا لم نقل فرنسية أو أميركية أو روسية للبعض الآخر والجماعات الأخرى. بينما لم تستطع تلك الأيديولوجيات أن تؤسس لهوية وطنية يتم من خلالها إرساء شراكة وطنية حقيقية يتم التعبير عنها بتنشئة وطنية تؤكدها، وبتربية أيضاً يسبقها كتاب موحد للتاريخ وللجغرافيا، هذه الأخيرة التي يتم التعريف عنها بما يقوم به الإنسان من جهد فوقها. فجغرافية المكان هي جغرافية البشر الذي يبنون عليها أماكن لذاكرتهم ولحياتهم، والتاريخ ليس سوى العقد الذي ترتبط به سائر العلوم، خاصة الاجتماعية منها، ونمو التاريخ المحلي مرتبط بنمو منظور تاريخي عام، يخرج من العباءات الطائفية التي تضلله. وهذا ما قد يساعد على أن يتم التعامل مع الهوية ليس كصيغة ثابتة يمكننا أن نبني عليها فقط، بل نمحي أيضاً ما لا يمكن أن يصلح للعصر، أي انه علينا أن نمحي من ذاكرتنا الحدود الوهمية التي صنعتها الطوائف بين بعضها البعض. إن الاتفاق عن طريق الإدراك النقدي للمفاهيم كما يقول عبدالله العروي "**لا يتم إلا بعد أن نجعل من مجتمعاتنا مجتمعات تاريخية ومن وعينا وعياً تاريخياً**". بهذا وحده يمكننا أن نعرّف الآخرين على هويتنا الوطنية الجامعة، أي على مجتمع يحكمه عقد اجتماعي افتراضي يتميز اللبنانيون به باستقلاليتهم المشتركة والجامعة. بهذا العقد يتم صون حقوق المواطنة الطبيعية غير القابلة للاختزال، وصون الملكية والأمن ومقاومة كل اضطهاد، خاصة أن عقد كهذا يضمن التواصل السلمي ضمن بنيات المجتمع.

لقد آمن بناؤو الحلقة بان لبنان وطن مثله مثل غيره من أوطان غير مصطنعة، والبناؤون هؤلاء بما آمنوا به واندفعوا للمساهمة في تهيئة المناخات لتحقيقه، حاولوا ولا زالوا أن يشكلوا مع غيرهم رافعة تمثل إرادة الشراكة الوطنية، وتعمل على إخراج وطننا من تحت مظلة تلك الوصايات، وأخطرها انتشار وهيمنة الأمية المعرفية، معرفة القراءة، وعدم الصلة والتأسيس لمراكز العلوم المعاصرة، وهذا ما يؤكد النظرية التي تقول إن المجتمع الذي لا يقرأ لا ينتج أفكاراً جديدة، بل

يكتفي باستهلاك ما تبثه وسائل الإعلام المجيرة لسياسة هذا الزعيم وتلك الدولة من ورائه، وأيضاً ما تبثه الصورة الإعلامية التي لها دور مخدر ومضلل. ولا يمكن من خلال ما يبث تحقيق المطالب التي تحتاجها شرائح المجتمع، وهذا "**بسبب سيطرة طبقة سياسية لم تأت من وضعيات اجتماعية منتجة، أي من صميم دورة الإنتاج الاجتماعي**" كما يقول هاني فحص، خاصةً أن لبنان الذي نعرفه في الخمسينات هو غيره في المراحل التي تلت، وهو المختلف اليوم تماماً عما كان عليه في الماضي القريب.

لقد آمن جيل الحلقة كما آمن جيل ما قبلها "**بقدرة اللبنانيين على صنع تاريخ بلادهم**"، كما يقول جورج نقاش: وهذا الإيمان سيكون بدون معنى إذا لم يساهم اللبنانيون في خلق المناخات التي تمكنهم من إدارة شؤون بلدهم، فهل نجحت الحلقة فيما سعت له؟ وهل يمكن للباحثين والمهتمين بالشأن العام تجاوز وإهمال ما طرحته الحلقة في مؤتمراتها السبعة؟ وهل استطاعت الحلقة بما قدمته من نشاطات ثقافية أن تساهم في تشكيل ذاكرة ما في مجتمعٍ ساهم السياسيون في تفتيت ثقافته وهويته الجامعة؟ إن الحلقة المستمرة منذ حوالي العقدين، لا زالت تتوسع وتمتد، إذ لم تتزعزع ثقة أي فرد من أعضائها بها. لقد أصبحت الحلقة جزءاً من واقع الحياة الثقافية في لبنان، وأصبحت جزءاً من ذاكرة الوطن. نعم، لقد اعتقدنا بعد اتفاقية الطائف إمكانية تحقيق ما حلمنا به وأردنا تحقيقه، خاصة أننا كنّا نعتقد أن الخيارات الوطنية قد فُتحت للنقاش، وقد يكون للنخب المتخصصة دور فيما يُتخذ ويُرسم من خيارات، خاصة أننا كجيل شارك بشكل أو بآخر بالصراعات الدموية التي حصلت في لبنان، أو كان على ضفافها، أو محايدٌ يتأمل، ولم يدخل عربة تلك الصراعات الدموية، التي اعتقد كل من المشاركين فيها أن عالم الحقيقة يخصه وحده، بينما الاعتراف بالخطأ، وبأن كل حياة غير حياتنا لها قيمة مماثلة لما لها حياتنا نفسها، هذه القيم لم تصل إليها الأطراف التي شاركت في الحرب. والتساؤل المطروح: إذا كانت العقائد الدينية أو السياسية مساوية لبعضها البعض، فما قيمة الاختلاف بين كل واحدة منها والأخرى؟ ونحن الذين عشنا وعرفنا الواقع الذي أسست له الأيديولوجيات بشقيها الديني والسياسي، هذه الأيديولوجيات التي تحولت موضوعاً للاختلاف واستبعاد الآخر المختلف معها. هذه السياسات/ العقائد التي قسمت عقول المواطنين، بين عقيدة دينية تبرر إيمان رعاياها بما حدث في الماضي، وبين الأيديولوجيات السياسية التي كنا نعتقد أنها قد تساهم في تهيئة المناخات للنقد والمراجعة والتساؤل، هذه التي طرحت أفكاراً

تغريبية لم يتعرف فيها اللبنانيون بأنفسهم، لذلك كان السؤال: هل أن لبنان المستقل يبنيه لبنانيو الماضي، ومنهم قادة أمراء الطوائف؟ وهل يمكن تطوير الحياة الاجتماعية والواقع السياسي على أيدي هؤلاء الأمراء؟ خاصة أننا كنا نثق بان الإنسان هو المشرع لحياته، وهو وحده القادر على تحديد توجهاته الداخلية والخارجية، وهو ما يستطيع أن يعطي لنفسه سلطة منح تاريخ ومستقبل وقانون ومعنى لأفعاله؟.

هاجسنا إذاً، والذي حملناه عند تأسيس الحلقة، أن تعمل النخب على مواجهة هذه الوضعية وعلى المساهمة في تغييرها وفي تطوير الحياة السياسية، بحيث تكون الحلقة واسطة عقد جديد بين المثقفين والجمهور تماماً كما حلم ميشال الأسمر وعبدالله العلايلي وانطوان سيف وعصام خليفة وعدنان الأمين ووجيه كوثراني وسليمان تقي الدين وعادل إسماعيل واحمد بيضون وزاهي ناصر وغيرهم من قادة الفكر في لبنان. هؤلاء الذين حاولوا التأسيس لحياة ثقافية ولحوار يستوعب ويساهم في تحويل تراكم الخبرات المجتمعية إلى مسلمات من قيم يمكن تحقيقها والبناء عليها. لقد اعتقد بناؤو الحلقة بعد اتفاقية الطائف أن لبنان أمام فصل جديد من الفصول المفضية إلى تحقيق رغبات الأجيال في بناء دولة تحتضن الهم المجتمعي وتسعى لرسم خطة عمل، مع ما لهذا من وضع تجربة الحرب على المشرحة ودراستها والاستفادة من التجارب والخبرات التي يمكن استخلاصها. لقد شعر هؤلاء البناؤون انهم لم يفتقدوا فقط الكفاءات والخبرات المجتمعية في هذه الحرب، بل شعروا أيضاً أن المثقفين والثقافة ذاتها قد تتبدل بسبب القوانين التي شرّعت على قياس مصالح أمراء الطوائف، خاصة أن الذين تركوا لبنان وهاجروا قد يئسوا من إمكانية الإصلاح، وهذا ما أدى إلى تكون قناعات بان لبنان ما بعد الحرب ليس بحاجة إليهم. لقد ساهمت الحلقة فيما عملت له وقدمته وكما غيرها من بعض الروابط الثقافية، على إعادة الثقة بإمكانية التغيير، معتقدةً أن لكل جيل دوراً يمكنه أن يمارسه مستفيداً من الأخطاء التي تمارس.

كما بينت المحاولات التقييمية الأولى التي راجعت معطيات الحرب، أن جيلنا كان مستعجلاً لتحقيق ما يريده، في ظروف إقليمية ودولية معاكسة، وغير مساعدة لتحقيق ما سعى إليه. ولهذا تراكمت الأخطاء التي اقترفها هذا الطرف أو ذاك، خاصةً المثقفون الذين برر بعضهم ما حصل

دون أن يقوموا بنقد وتقييم ما حصل، وهم الذين ينتمون إلى أحزاب سياسية، إذ لم يصر من قبلهم ومن قبل غيرهم من قادة الأحزاب والنخب المعنية بالشأن العام إلى التقييم ومتابعة انعكاسات التطورات الإقليمية، وكيفية الاستفادة منها وتوظيفها لاعادة بناء البلد. لذا، لم يستطع هذا الجيل أن يؤثر في مجريات ما تعكسه هذه التطورات على لبنان.

إذاً، كان لنا كحلقة الهاجس والرغبة في أن نساهم في رسم صورة لحاضر وواقع ومستقبل أجيالنا، صورة نرسم منها الكيفية التي يرى بها هؤلاء الذين انتموا إلى الحلقة بتنوع التزاماتهم وحساسياتهم الاجتماعية، واقع ومشكلات لبنان بعد الحرب، وما هي الطرق التي يمكننا المساهمة في فتحها للمعالجة؟.

وبقدر ما كنا نثق بقدرة شعبنا على صياغة حياة خاصة له، بقدر ما كنا نرى الفارق بين ما تريده الشرائح المجتمعية وبين ما تريده القيادات السياسية، وهذا ما أدى بنا إلى تراجع ثقتنا باتفاقية الطائف وبالإدارة الإقليمية السورية السعودية له بإشراف أميركي، وكان علينا الوقوف ضد الرأي الذي يقول إن اللبنانيين غير قادرين على حل مشاكلهم بأنفسهم.

كان هذا التحدي دافعاً لكي ينهض الكثير من الروابط الثقافية وغيرها لتبيان العكس ولبناء رافعة ثقافية وطنية عامة تبدأ بقراءة واعية لتراثنا ولمصالحنا الوطنية. لذا كان السؤال: ماذا يقول ذلك المخزون من العادات والتقاليد والنظم الاجتماعية التي كونتها الأجيال السابقة؟ وماذا يقول إرث مئات الآلاف بل الملايين من اللبنانيين الذين تركوا لبنان، وعادوا ناقلين تجاربهم عن تلك الشعوب التي تفاعلوا معها وحملوا جزءاً من روحية شعوبها، إلى وطنهم الأم؟.

انطلقنا فيما كنا نفكر فيه ونعمل للتحضير له وتقديمه في تلك المؤتمرات، والنشاطات التي قمنا بها، من مسلمة شكلت حافزاً لنا، وهي أن اللبنانيين كانوا عبر تاريخهم خاصة الحديث والمعاصر يعيشون من جهدهم، وتوصل المشاركون إلى انه لا يمكن للبنان أن يحكم من قبل طرف ديني محدد، ولا من قبل اتحاد طوائف، كما هو حاصل اليوم. ورأوا أن الإنسان هو من يصوغ العالم الذي يعيش فيه، إذ ليس هناك من مجتمعات ينظمها التراث الديني، بل حاجات وتطلعات هذه المجتمعات.

كانت المؤتمرات السبعة خطوات أولى للغوص في العمق بحثاً عن أجوبة عن الأسئلة المكثفة التي كانت تطرح على بنائي الحلقة. لقد توصلنا

إلى أن هناك من يحاول استلاب روحية ذلك التراث من خلال توظيفه في خدمة اجتهادات هذه الطائفة أو تلك، أو من خلال تجاهل ثقافة الشراكة والتعاون التي كانت ولا زالت بين مكونات الوطن البشرية. كما لاحظنا في الأوراق البحثية المقدمة الكيفية التي تعمل بها القوى المتوحشة التي تتجلبب ثقافتها باسم الأديان، مستغلة القيم التي لم تبقَ كما نزلت من السماء، تلك القيم التي أدرجت في الصراعات اليومية وفي الثقافات المادية، واصبح لها صلة برغبات الأنوات المجتمعية غير المعصومة عن الخطأ، كما لاحظنا كيف تستغل الأنوات الطائفية لهذا الزعيم أو ذاك معطيات الماضي وتسخرها محولة إياها إلى أيديولوجيات من الأضاليل التي تبنيها حول شخصيتنا وتقاليدنا، وبالتالي حول تراثنا وما هو مستمر منه من الموروثات.

لقد قال شوقي رافع عن البيوتات السياسية – الطائفية التي تعيش من هذه التفرقة بأن "**سلالة مينغ في الصين اقل خطورة من سلالة الإقطاع السياسي في لبنان**".

أخيراً، لقد رأى بناؤوا الحلقة أن تنفيذ اتفاقية الطائف قد وسّع دائرة التفاوتات الاجتماعية، إذ ساهم مسيروا هذا الاتفاق في هجرة الكفاءات والاختصاصات، وفي انهيار القطاعين الزراعي والصناعي، وتردي التربية والصحة وكل ما له علاقة بالرعاية الاجتماعية. أيضاً، لم يؤدِ هذا الاتفاق إلى التواصل الطبيعي والتعاون الإيجابي مع المحيط القريب والبعيد، خاصة السوري الفلسطيني، وحصراً العربي عامة، حيث تم نقل مجمل الأمراض العربية إلى لبنان، وذلك تحت حجة الرعاية، ويعود ذلك إلى "**عدم وجود قواعد من التعاون والشراكة فعالة تملكها هذه الكيانات المتعددة التي وضع كل منها في سياق نمو لا علاقة به في سياق نمو الكيان الآخر**" كما يقول هاني فحص. لذا كانت طموحات اللبنانيين محاطة ليس فقط بالسراب وإنما أيضاً بشعور مفاده أن حضور لبنان المتقدم شيء غير مرغوب به عربياً.

وبعد هذا العرض، علينا طرح السؤال على زعامات الطوائف، وعلى مرجعياتهم الخارجية العربية منها والدولية: هل أن لبنان مشروع وطن أم مشروع قضية ملتبسة؟.

تجاه هذا الخطر الماثل في المجتمع اللبناني، الذي لم يعتبر من المآسي التي مرّت به، تجد حلقة الحوار الثقافي أن الأفكار التي أسست لوجودها ما زالت راهنة، علينا أن نسعى لبلورتها بكثير من الجهد والمثابرة.

***

II – الثقافة والسياسة: هيمنة أم حوار؟

في حوار مفتوح أقامته حلقة الحوار الثقافي مع الدكتور طارق متري وزير الثقافة، وأدارته د. صونيا فخري، أباح الوزير بل لمّح إلى ما هي عليه الوزارة من ضعف في الإمكانيات، مما انعكس على ضعف مماثل للوزارة مع الجسم الثقافي المتعدد الخصائص والكفاءات.. تحدث بالممكن وإن كانت مسألة التجاوز قد تم ربطها بالإمكانيات المحدودة والقليلة.

كان الهدف من اللقاء ملامسة من نوع ما لاستراتيجية ثقافية تتبناها الوزارة وتعمل لتحقيقها، ولكن الواقع شيء، والمطلوب شيء آخر. والوزير يعرف بأن الثقافة التي اخترع لها دوراً ومؤسسة، كان على الوزير، كما كان على غيره من قبل، د. غسان سلامة مثلاً، أن يسأل عن دور أسند إليه، وعن إمكانيات مؤسسة ارتضى أن يديرها. فالمجتمع اللبناني سواء ارتضى أم لم يرتضِ اعتبر بأن الوزارة أصبحت واقعاً ومرجعية للمثقفين اللبنانيين وعليه أن يدرك ما أسند إليه من دور. ولسنا هنا في دور المبايعة، بل في دور الاعتراف بالواقع، خاصة أن الموقع الثقافي الذي تميز به د. متري، كان حتى وصوله للوزراة مميزاً عن أي منصب سياسي، ولكن بوصوله للوزارة، ومن قبله د. سلامة، فإن السياسة رفعت بذلك كلاهما، (كما يستنتج د. إيلي حريق) **"إلى المكانة الاجتماعية والسياسية "الراقية" أكثر من أي عامل آخر"**.

أما الثقافة التي هي كيانٌ معنوي – مادي، هي ذاتها ثمرة من ثمرات الجهد المجتمعي، جهد العلماء والمخترعين والفنانين، جهد المشرفين على مراكز أبحاث وجهد النخب المعبرة عن تطلعات وطموح المجتمع، إضافة إلى جهد العمال والفلاحين، وهنا مطلوب من أية مؤسسة ثقافية، خاصة إذا كانت وزارة، أن تنسق جهدها مع غيرها ليتكامل الجهد، ويساهم في خلق مناخات للحوار الوطني الديموقراطي، مناخات تفتح الأبواب لتوطين تقنيات الحياة الثقافية المعاصرة، والتي منها نشق الطرق للتطور والتقدم ومواجهة مشاكل المجتمع، خاصة إذا كان

الأمر يتعلق بتحقيق رغبات أجيال قتلها جهل السلطة، مما دفعها لليأس، والهجرة لبعضها، والعدمية للبعض الآخر.

***

لقد لمح الوزير متري بأن إمكانيات وزارة ثقافية في لبنان، هي مساحة من مساحات التجاذبات السياسية التي توظف لخدمة هذا أو ذاك، وقد تحجب عن هذا أو ذاك. ومتري على ما أباحه وإن كان بشكل خجول، لن يرضى بهذا الواقع ولن يكون مطيّة له. ورغم هذه المصارحة، ونحن الذين نقرأ بين السطور، كان مطلوباً منه أن يحدثنا عن ثقافة سياسية، يجري العمل على تحويلها لاستراتيجية تنفذ، سواء كان هو أو أتى غيره. خطة يترتب عليها العمل لإيجاد وظيفة لهذه المؤسسة، والتي هي مرجعية تمثيلية للنخب الثقافية في المجتمع اللبناني، مرجعية مسؤولة عن تقدم هذا الجسم أو عن تخلفه وانحطاطه.

يعرف كل من د. متري ود. سلامة، وهما وزيران استثنائيان لمنصب يستحقانه، بأن الثقافة هي الرافعة (المشروع) للتقدم العلمي وتوطين تقنياته المعاصرة. لذا، فعلى الوزير متري أن يؤسس لاستراتيجية ثقافية ترسم من خلالها الوزارة خططاً للبناء ولمواجهة الإشكاليات والمعوقات، ومن ثم كيفية تنظيم الإدارة الأداة، والتنسيق بين أجزائها لخلق رافعة ذات إرادة، تضع نصب أعينها مستقبل الأجيال، مستقبل الوطن.

***

لهذا، فعلى الوزير أن يكون لسان حال المثقفين في مجلس الوزراء – وكما أننا ونحن الأقل شأناً في ما يسمى رموزاً ثقافية– لم نبايع الوزير، ولم نوقّع له على بياض، فإن على الوزير أيضاً، ألا يبايع مجلس الوزراء في أمور يعرف أنها تنعكس سلباً، ليس فقط على النخب التي أعطته ثقتها، بل أيضاً على وضع البلد العام. والثقافة السياسية يترتب عليها ليس فقط العمل على تصويب الذوق العام، بما لهذا من علاقة بتصويب الحياة السياسية، بل أيضاً من علاقة بمتابعة تحولات الرأي العام، وكيفية متابعة المؤثرات الداخلية من جهة، والخارجية من جهة أخرى، وكل ذلك بهدف صياغة المعايير والقيم – وحيث أن للثقافة دوراً في ذلك – وهي التي تتفاعل مع غالبية الجسم المجتمعي، خاصة النخب الثقافية من الطبقات الفقيرة والمتوسطة، والتي يتجاوز عدد أفرادها 90% من مجمل عدد السكان.

إن الثقافة وكما يعرف د. متري ود. سلامة، هي نسق قيمي، وقيمة هذا النسق أن يساهم في تجديد الحوار وفي ترسيخ السلم ويدفع للتفاعل المجتمعي. كما أن المثقف حين يتخلى عن مسؤولياته، تبرز عصبويات تستحضر "الثقافات" المنغلقة التي تتجلبب بالمذهبية، وتربط الناس بماضٍ وهمي.. والخطورة هنا هي في الاستقالة الكاملة لهذه الفئات عن كل ما له علاقة بالشأن المجتمعي العام. وفي لبنان العديد من النماذج التي يمكن أخذها كمثال.

إن الهدف مما نشير إليه هو المساهمة في تكيّفات حوارية، تساهم في ترسيخ مقاربة لخصوصية في واقع ومكان جغرافي معين، هو لبنان، مع قيم العصر، وإن كان هذا مطلوباً في الثقافة فإنه أولاً مطلوب في المناهج التربوية، حيث المطلوب من وزير التربية الوطنية وضع خطة لتوحيد هذه المناهج، وليس جعلها على عدد طوائف لبنان، والأمر نفسه مطلوب في المؤسسات الصحية وفي عدالة القضاء، وفي مجلس خدمة وتفتيش مدني تكون له الصلاحية في اختيار الكفاءات، وتكافؤ الفرص في الوظيفة العامة، وفي سن قوانين عصرية للأحوال الشخصية لجهة المساواة بين الرجل والمرأة، ناهيك عن تشريعات جديدة لضمان اجتماعي يشمل كل المواطنين دون استثناء، خاصة الفقراء منهم، ناهيك عن علاقة تقوم على التساؤل والنقد والمساءلة بين المواطن والمفوَّض عنه في إدارة مؤسسات المجتمع. بهذا وبغيره نؤسس لعقد اجتماعي جديد ومعاصر، عقد تستحقه الأجيال وحاجات المجتمع.

***

لقد أشار د. متري إلى الاضطراب – بل الانغلاق – وعدم التنسيق بين المؤسسات الحكومية، ليس فقط بالشأن الثقافي ولكن أيضاً بأمور أخرى. ولكن أليس هذا الاضطراب، إذا لم نقل المقصود، هو ذاته الذي يعكس حالته على الواقع المجتمعي، مما يؤدي إلى بروز حالات مرضية وغير صحية في علاقة الناس ببعضهم البعض، والمسؤول هنا هو المثال والرمز المتربع على رأس مؤسسات المجتمع. هنا نتساءل عن دور وزارة الثقافة في مواجهة هذا الواقع الذي هو جزء وامتداد لرواسب الحرب. فهل إن النظام الطائفي ومسيّريه والعاملين على تجديده، لم يساهموا، كلٌ من جهته في تغذية هذه الحالات وإعادة إنتاجها، والسبب في ذلك هو إدامة سيطرتهم وهيمنتهم، خاصة أن التغيرات التي تمس مصالحهم، تبقى مرفوضة وغير مقبولة.

أليس هذا النظام والقسم الغالب ممن هم في قمة السلطة، هم الذين يعملون على تجديده حيث لا تتساوى في ميزانهم الدفتان، هم المسؤولون عن كل الخلل الذي يصيب الجسم المجتمعي، بل هم المسؤولون عن كل الأمراض التي تصيب المجتمع؟ فهل العدالة المنقوصة، والتي لا تشمل أغلبية الشعب، والتي تميز بين فرد وآخر، فهل يمكن تسمية هذه العدالة بذلك؟ لهذا نقول إما أن تكون العدالة مكتملة ولا تتجزأ، وإما أن تكون مسؤولة عن الظلم الذي يسود؟

هنا بالذات يكمن دور المثقفين، بمرجعياتهم المؤسساتية وخاصة وزارة الثقافة، حيث المطلوب مواجهة هذا الواقع والتصدي له. والمثقف الوزير متري، هو امتداد للجسم الثقافي، وهو الممثل له في حين أن الأغنياء الذين يدعون أنهم يمثلون الفقراء، لا تتمثل فيهم هذه الصفات. والسبب الإضافي أنّ القسم الغالب ممن هم في رأس السلطة يحصلون على امتيازات لا يستحقونها وليست لهم.

فضلاً عن عدم إفساح المجال لأصحاب الكفاءات لتصويب هذا الواقع، ومعالجة المرض. وهؤلاء ذاتهم يمنعون وصول الكفاءات، ويمنحونها لمن عندهم كفاءة الاستزلام! لهذا فإن النخب الثقافية ذاتها، هي التي تخلق المناخات وتهيئ الظروف للتصويب ومواجهة الظلم الذي أصبح مرضاً.

***

لقد لعبت بعض النخب اللبنانية في الفترة الممتدة من القرن التاسع عشر وحتى الربع الأخير من القرن العشرين، دور الأستاذ، لأجيال لبنانية وعربية. وكان هذا الجيل قد ساهم بخلق المعاني المتجددة والمعاصرة للثقافة الوطنية والقومية. وهذا بطرس البستاني وفرح أنطون وشبلي شميّل وجرجي زيدان، وإن كان جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني وفيليب حتي، ممن تميّزوا، ولكن لن ننسى عبد الله العلايلي وإميلي نصر الله وعلي شلق وأحمد عارف الزين وسعيد حماده، وخليل مطران وفؤاد شهاب وكمال جنبلاط والاخوين رحباني، وكامل الصّباح ورمال رمال، وبيتر مدور الحاصل على جائزة نوبل، والاخوين تقي الدين، وعادل ومنير إسماعيل، وسمير مقدسي وجورج قرم، وكمال حمدان، وخاطر أبو حبيب، ومصطفى الزعتري، وجاك قبنجي، وعبد اللطيف فاخوري، وفواز طرابلسي، وعبد الرؤوف سنو، وعباس بيضون، وجمال تقي الدين والهام كلاّب وعصام خليفة ونهلة الشهال ودلال البزري وفاديا كيوان وأميرة أبو مراد وغادة اليافي ووضاح شرارة وخليل أحمد خليل، وسامي مكارم ونقولا زيادة وسلام الراسي وفردريك معتوق، ومنذر جابر، وانسي الحاج، ومسعود ضاهر،

وبطرس لبكي، ومحمد علي شمس الدين، وخالد زيادة، وناصيف نصار وشارل مالك، وأحمد بيضون، وعدنان الأمين، ووجيه كوثراني، ومحمد شيّا، وسليمان تقي الدين، وغيرهم وغيرهم. فهل يمكن نسيان دور هؤلاء وتجاهل ما قدموه للثقافة العربية؟

هذه النخب التي ساهمت وتساهم من خلال جيل جديد وبإضافات جديدة في إثراء الثقافة الإنسانية، بزاد له شأنه، ونحن كما الآخرين بحاجة له. لقد جعل هؤلاء من لبنان قاعدة ومركز جذب لرعيل تربت أجيال على ما قدموه.

***

وفي المحصلة نقول، لقد وصل د. متري إلى بيت الثقافة، البيت اللبناني للمثقفين، ولكن هل من خطة للاستفادة من اختصاصات وتنوعات النخب الثقافية في لبنان، خطط قد تشكل رافعة -المشروع - الثقافي لحمل المسؤولية وللتأسيس المستقبلي، فالوزارة بحاجة لمشروع، قبل أن تحتاج إلى الأثاث. بهذا ترسم الوزارة الطريق لمستقبل الأجيال، مستقبل الوطن، ومستقبل الإنسان.

إننا نتساءل، ما الذي تصنعه الثقافة، وما هو تأثيرها ضمن المجتمع؟ وهل ما يتم البوح به، مشروع أو أنه لا يخدم القضية؟ أيضاً، هل الثقافة يمكن منها وعبرها رسم الطرق للتنمية المواطنية، وبالتالي التنمية الديموقراطية، والتي هي في ذاتها وأبعادها انعكاس لمشروعات تنموية اجتماعية بمستويات متعددة، تساهم وتؤسس لحوار مجتمعي ولصياغة خطط استراتيجية لمجمل مؤسسات المجتمع، وبالتالي لردم الهوة الصارخة بين فئات المجتمع، خاصة بين الفقراء والأغنياء؟ وللثقافة دور في رسم المشاريع المختلفة، والسؤال عن ماهية الثقافة مبرر، خاصة عن نوعية الثقافة التربوية التي يحتاجها المجتمع؟

مثلاً كيف يمكن الربط ما بين التربية والثقافة التنموية الإنتاجية؟ وكيف لنا أن نجعل للثقافة وظيفة ودوراً إنتاجياً.. وهل من مخططات عند الوزارة للإحصاء الثقافي، إحصاء الاختصاصات الكفوءة، وتوظيفها ضمن استراتيجية النهوض بالوطن؟ وكيف لنا أن نعرّف بهذه الكفاءات من الاختصاصات التربوية والثقافية، والعلمية، والتقنية المهنية، ونوظفها لخدمة المجتمع؟

لذا، علينا أن نسعى للتعريف بهذه الكفاءات، والاختصاصات، قبل أن نسعى لجعل الموضوع مجسداً في عدد الكتب، لا نوعية ما يصدر ويصدّر؟ فهل فكرت الوزارة بالتعريف بما ورثناه عن أساتذة لعبوا دوراً مفصلياً في الحياة الثقافية العربية؟ هذا التوارث لا يعني فقط أننا به نفتخر ونقول باكتفاء ذاتي، بل علينا ألا

نقطع مع هؤلاء الأساتذة، هذا القطع الذي كرسته الحرب كان من نتيجته الإحباط واليأس وموت وهجرة مئات الآلاف، وبالتالي التراجع عن الاهتمام بالشأن العام، وهذا ما أدى إلى الهيمنة التدريجية لقوى أصولية مختلفة سيطرت على الوضع، رافعة شعار أن الثقافة المعاصرة لا تقدم لنا ما ينبغي ونريد؟ هذا المنطق وتلك التوجهات علينا مواجهتها بالمساهمة في تهيئة المناخات الفكرية والثقافية لخلق رافعة علمية للبناء والإنتاج، ولسد حاجات المجتمع، بما فيها الحاجات الروحية، هذه وتلك التي منها نستطيع تغليب الإيجابيات ومحاصرة السلبيات، وذلك بالاعتماد على كفاءات هذه النخب والأجيال الجديدة وإضافاتها لرصيدها. وهنا موقع ودور الجامعة اللبنانية، هذه المؤسسة الأم التي هيأت الأجيال لإدارة الدولة، لكن الجامعة اليوم هي من المؤسسات التي يحاول سياسيو الطوائف التنازع على صلاحياتها، ومصادرة كفاءات نخبها، وفرض وصايتهم عليها، وتعطيل قدرتها على النهوض والعطاء. هذه المؤسسة التي هي الوجه البارز للبنان، ولثقافته الوطنية. كيف يمكن أن نعيدها مجدداً بوابةً للنهوض بلبنان؟ بذلك وحده نؤكد ثقتنا بالمستقبل، ونعيد الثقة لهذه الأجيال التي تتجه للعدمية والسلبية..

***

أمثلة إيجابية، أمثلة سلبية..

نعرف أن للوزارة علاقة وطيدة بمتنوعات الجسم الثقافي، ولكن علينا أن نسأل عن الأعمال المسرحية التي تعرض وعن محتواها ومن يحضرها، وإن كان لنا ثقة بأنطوان غندور، ورفيق علي أحمد، ولكن السؤال واجب، وأيضاً علينا أن نسأل عن الأفلام السينمائية، والتي كان لبنان قبل عام 1975 شريكاً نشيطاً في صناعتها، وأيضاً عن المسلسلات والبرامج التلفزيونية والإذاعية، وأيضاً عن الأعمال الموسيقية، وماذا قدمه لنا الكونسرفاتوار، وإن كان لنا ثقة أيضاً بإدارة الدكتور وليد غلمية.. ولكن من هم الذين يتابعون الأعمال السينمائية، وما هي النوعية الثقافية للأفلام والمسلسلات التي تعرض، ومن هم الذين يتابعونها؟ ونفس السؤال يمكن طرحه بالنسبة للحفلات الموسيقية، وللمعارض الكتبية منها والفنون التشكيلية، ولنا أن نتساءل أيضاً عن المتاحف والمكتبات العامة، ودار الكتب، هذه التي فيها نحفظ تاريخنا وجهد الأجيال وماضٍ لا بد من التعريف به وتوثيقه. فلماذا مثلاً الوزارة لا تخطط لإنشاء متاحف في المحافظات الخمس، إضافة لمتحف مركزي في بيروت وهو الموجود. نقول هذا ونعرف بأن الكثيرين يتهمون لبنان بأنه عالة على الآخرين، وبأنه لم يكن لمجتمعه قرار أو مشاركة حضارية، بل كنا

جزءاً من سوريا أو من بعد قومي عربي –يريده البعض بعداً إسلامياً– أو فينيقي ولم نستطع في المئة سنة الأخيرة تكوين خصوصية وشخصية مجتمعية في ذاتها مجاورة ومكملة للآخر. مثال آخر إن اتحاد الكتّاب اللبنانيين، الذي جيرته بعض الشلل والأحزاب السياسية لخدمة مصالحها، وقدمت نفسها على أنها الصورة الثقافية للبنان، هذا الاتحاد شكل في ممارسة قياداته نموذجاً سيئاً، إذ كانت هذه الفئات –وهناك بعضها من تُحترَم– من خلال هذه المؤسسة تشوّه وتزوّر صورة الحياة الثقافية في لبنان، وبالتالي تشوّه صورة لبنان الذي نريد!.

ومثالاً آخر، لقد كان معرض بيروت للكتاب يتم منه التعرف على الشخصية الثقافية العربية، فهل لهذا المعرض اليوم هذه الصفة وهذا الدور؟ كما كانت بيروت بصحافتها عاصمة العرب الثقافية، وكانت دورياتها وصحفها منها تقرأ سياسات ومستقبل الأنظمة العربية. وكانت بماضيها القريب عاصمة للفن، ففيها تتوطن وتستغل ثقافة العصر، ومنها وعبرها يتذوق العالم العربي الفنون بكافة أشكالها. فهي مع غيرها خاصة مصر، قد ساهمت في صياغة ونشر الثقافة الحديثة، ثقافة الرأي العام، والتعريف بالمنجزات، وما قد يؤدي الفائدة وخدمة الأجيال.. لقد كانت بيروت مكاناً بل عاصمة يتصالح فيها ويتحاور الحس المشترك للعرب والعالم.

***

لقد أشار د. متري إلى خلل ما في بنية مؤسسات المجتمع، هذا الخلل سببه سياسة السياسيين، لذا، فهناك ضرورة للتأسيس والعمل على ثقافة سياسية، وليس على سياسات ثقافية. وهو يعرف بأن ما لم يؤخذ بالحرب، تحاول العقلية الطائفية المجيرة لخدمة مصالح خاصة وخارجية، أن تأخذه بالسلم. والمطلوب ثقافة سياسية تعمل على مواجهة سياسة التفتيت، وحيث الصراع بين الدولة والطوائف أخذ أبعاده، وقد نصل يوماً للتفتيش عن دولة فلا نجد. بهذا التوجه نكون قد بدأنا التأسيس لثقافة وطنية جامعة.. أما مسألة ردم الهوة بين الحاجات المجتمعية وإمكانيات الوزارة فيمكن ذلك من خلال سياسة التكامل بين القطاع العام وإمكانياته، والقطاع الخاص الممثل بالمؤسسات المجتمعية الوطنية، وأيضاً مع المؤسسات الدولية، هذا التكامل الذي نرسم منه استراتيجية لمخططات مستقبلية تمس كافة نواحي الشرائح الاجتماعية.

أخيراً، نعتقد مسبقاً بأن الخارج العربي – الإقليمي سعى وخلال الثلث الأخير من القرن العشرين، كي يجعل مما يحصل في لبنان مبرراً لتغطية عيوبه

السياسية. لقد شوه النظام العربي كل ما في نظامنا من حسنات، خاصة مسألة تداول السلطة. لذلك فإننا إذا كنا ننتقد تصرفات وممارسات الساسة السوريين في لبنان، فهذا لا يعني أن نستند في نقدنا على ما تقدمه لنا السعودية مثلاً، وهنا لسنا ضمن وحدة سوريا الطبيعية إلا عنصراً شريكاً ونديّاً في تقدم المنطقة ورقيها، كما أننا لسنا ضمن اتحاد دول إسلامية تجمعها جامعتهم، إلا عنصراً يؤكد الحوار، ويسأل عن جدوى التعصب والانغلاق والتمسك بالماضي، دون الانفتاح على ثقافة العصر المكتسبة. لذا فالمطلوب هو التعاون بين الشعوب وبين المؤسسات المجتمعية، بمعزل عن كل ما له علاقة بهذا النظام أو ذاك، والمطلوب ليس الرضوخ لهذه الهيمنة أو تلك من السياسات التي لا يمكن القول إنها يمكن أن تشكل نموذجاً عصرياً لنا يحتذى به.

وهنا فللإعلام كما للتربية دورهما في توجيه وخدمة المعرفة الإنسانية.

***

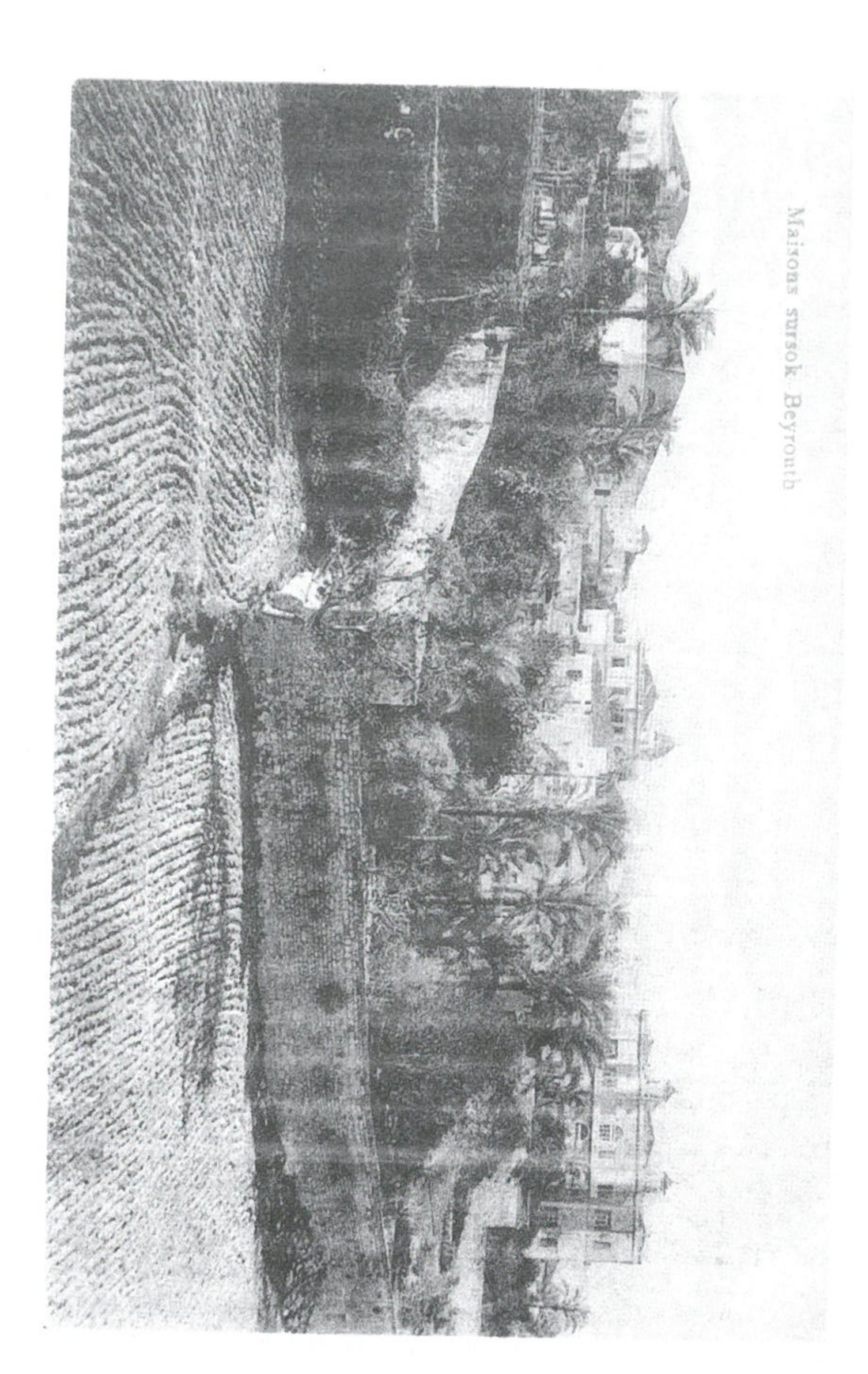
خاتمة

نتساءل عن المركزية الوظيفية لدور بيروت، هذه المركزية التي كان لها ما يبررها، وقد يكون هذا الهدف غير مبرر في الثقافة السياسية اليوم، فمركزة المعرفة بمحتوياتها المختلفة، لم ولن تستفيد منها المناطق الريفية المختلفة، ناهيك عن المدن. ولنأخذ مثلاً من أن النواب بعد انتخابهم نراهم ينفصلون تماماً عن المنطقة التي يمثلونها. نقول هذا ونعرف بأن التمركز لم يساهم في خلق تفاعل وحراك مجتمعي، حراك يؤدي لتفاعل في دورة دموية تتصل بالجسم المجتمعي، خاصة منه الجسم الفلاحي، وليس منحصراً في جانب منه فقط.. بحيث بتنا نتساءل اليوم، وبعد حرب ضروس، عمّا إذا كانت ولا زالت بيروت بالاسم عاصمة للبنان؟ فهل هي عاصمة بالقوة، أليست بحاجة لاسترداد شرعيتها بعد الحرب بحيث تؤكد أنها بمثابة القلب للدورة الدموية لجسم لبناني متوحد في أجزاءه، ومتكامل في مصيره. لذا علينا مراجعة تاريخ هذه العاصمة، وكيف جعلت السياسة من بقية لبنان، أطرافاً هزيلة تخدمها.

ما ذُكر يهدف إلى جعل بيروت عاصمة لوطن يستحقه أهله، وليس عالة عليهم، بهكذا ثقافة سياسية نخطط كي ننهض بهذا المجتمع، الذي يعتبره البعض بأنه مستقيل عن التفكير، نتيجة لتجبير إرادته للماضي، ولمصالحٍ خاصة، وللآخر.

***

• – أمين عام حلقة الحوار الثقافي، ورئيس تحرير مجلة الحداثة، وباحث في التراث الشعبي



بيروت وحوار الثقافات

د. محمد علي العريبي*

عُــرِف لبــنان، علــى مدى تاريخه، أنه صلَة وصل واتصال بين الحضارات والــثقافات علــى اخــتلاف مصادرها، وهذه المَيزة التي انفرد بها لبنان أهلته لأن يكــون المجال الأرحب للحوار بين أهل الأديان والثقافات، في خدمة العالم العربي ولمصــلحة العالم كله. ويسعى لبنان لأن يصير مركزاً ومحمية دولية للحوار، بعد أن فعلــت العولمة الاقتصادية والإعلامية والتكنولوجية فعلها في تحويل العالم إلى ســاحة مفــتوحة تمتزج فوقها الثقافات المختلفة وأنماط العيش والسلوكيات. وصار الحــوار ضــرورة بسبب ما أفرزته العولمة، في المقابل، من ميول إلى الانغلاق وتطرف العصبيات، ونمو رفض متبادل بين الإثنيات والأديان والجماعات المختلفة حتى داخل الوطن الواحد.

وخصوصية الحوار إرث حي تحصّل له بفضل قدرة أبنائه على التفاعُل والجمع في مكون واحد لتأسيسات وبنى حضارات الشرق والغرب. وتبلورت هذه الخاصيّة الفــريدة وتجلــت فــي تاريخه الحديث والمعاصر عندما عكفت شخصيات فكرية لبنانــية، منذ القرن التاسع عشر، على إحياء الحركة الفكريّة وتحديثها، فعملوا على اســتقبال وتأسيس المدارس والجامعات، في العاصمة والأطراف، وإنشاء المطابع والمنتديات الثقافية، والصحف السياسية، والمجلاّت الأدبية والفكرية، وتنشيط حركة الــترجمة عــن اللغات الأكثر انتشاراً لإغناء المخزون العلمي والمعرفي، وتوسعة آفاق البحث وتطويره.

فبــيروت "أم الشرائع". وتفتخر بأنها حفظت في باطنها آثار أقدم كلية حقوق في العــالم. وتجمعــت علــى صفحات تاريخها دهور من التراكم الثقافي والحضاري، لشعوب وفدت إليها واستقرت، وأخرى عبرت بعد أن تركت بصماتها، فاستوعبتها (بــيروت)، وصــيرتها مــن مكوناتهــا، بعد أن أصلتها وطوعتها بحسب مقاسها فاســتحالت بهــا "أماً للدنيا"، و"أماً للبنان"، كل لبنان، الذي حلّ فيها (وتبلغ الكثافة السكانية للبنان 344 نسمة في كلم. ويعيش 87% من اللبنانيين في المدن، ويتجمع أكثر من 1,100,000 نسمة، أي ربع سكان لبنان، في العاصمة بيروت وضواحيها) بجميع مناطقه، وحلّت فيه فأينعت وطناً في عاصمة، وعاصمةً جامعة للعالم.

ومن الساحل اللبناني، انطلقت الأبجدية الفينيقية، الأرقى بين أترابها، لتؤسس عليها الشعوب أبجدياتها، (وقد تمّ إدراج الكتابات بالأبجدية الفينيقية – وهي نموذج لكل الحروف وأكبر مساهمة للبنان قدّمها للعالم– في سجل ذاكرة العالم التابع لليونسكو في العام 2005)، ومنه أيضاً عبرت الثقافات الشرقية باتجاه الغرب، وثقافات الغرب باتجاه الشرق، مع الحملات التجارية والعسكرية التي لم تتوقف يوماً.

ولقب لبنان، في تاريخه الحديث والمعاصر (التاسع عشر والعشرين)، مجازاً، بـ "سويسرا الشرق" و"الجزيرة الآمنة"، بسبب التعايش السلمي بين المناطق والديانات والثقافات، في منطقة شهدت الكثير من الحروب والصراعات الدينية، والحزبية الأيديولوجية، والانقلابات على أنظمة الحكم. كما تحولّ لبنان في الثلث الأخير من القرن الفائت إلى "ساحة" لحروب الآخرين، الأقربين والأبعدين، على أرضه، فهو الحامل الصابر لصراعات وقضايا كل عصر وتوابعها الإيجابية والسلبية.

وآخر التعريفات، التي يعتز بها كل لبناني، أنه "أكثر من وطن، إنه رسالة" الذي أطلقه قداسة البابا السابق يوحنا بولس الثاني في المهرجان الذي أقيم له في بيروت (10 أيار 1995). ووصفه هذا يعتبر إضافة مميزة في مقاصدها للتعريفات التي أطلقت على لبنان بشكل عام وبيروت بشكل خاص، نموذج لتجربة محلّية فريدة، بطوائفه الثماني عشرة المعترَف بها من الأديان التوحيدية الثلاثة، التي تعيش معًا على مساحة عشرة آلاف كيلومتر فقط؛ وكانت هذه المساحة طوال قرون – ولا تزال – حدًا، وفي الوقت نفسه "أرضاً مثالية" للقاء بين المسيحية والإسلام.

وربما كان دافع البابا إلى إطلاق تأكيده لرسالية لبنان، ككيان سياسي بصورته الحاضرة، أنه بلد متعدد الديانات، (تحصل على استقلاله منذ سنة 1943، ويعود دستوره إلى أيار 1926، ولقد تم تعديله عدة مرات، آخرها كانت معاهدة المصالحة الوطنية اللبنانية – "اتفاق الطائف"- في أكتوبر 1989 الذي أنهى 15 عاما من الحرب الأهلية). ويعرف النظام السياسي اللبناني بتميزه في اقتسام السلطات بين مختلف الطوائف الدينية. فوفقا لاتفاق الطائف يتساوى المسلمون والمسيحيون في التمثيل البرلماني وفي تركيبة مجلس الوزراء وفي توزيع كل المناصب العليا، مدنية كانت أو عسكرية. وفي إطار هذا النظام يتم التوزيع بين الطوائف (هناك 18 طائفة معترف بها في لبنان) الفرعية، كالعلويين والدروز

والشيعة والسنة داخل الطائفة المسلمة، والكاثوليك الأرمن، والأرمن الأرثوذكس، والكاثوليك اليونانيين، واليونانيين الأرثوذكس والمارونيين فيما يتعلق بالطائفة المسيحية، باعتماد النظام النسبي، وهذا غير حاصل في كل دول المنطقة، وربما في العالم. فلبنان وطن الأقليات الطائفية المجتمعة، الأمر الذي جعله مضطرًا، في طبيعته، إلى تنمية قدراته على التسامح والحرية اللذين يلائمان جدًّا اقتصادَه المنفتح والكوسموبولي.

والذي ساعد في كون لبنان "رسالة"، إضافة إلى موقعه الجغرافي الاستراتيجي المميز، الجامع لبوابات القارات القديمة: آسيا وأوروبا وإفريقيا، عوامل موضوعية أخرى لعل أهمها الفسيفساء الدينية والإثنية والعرقية والثقافية التي انصهرت فيه، بحيث أن كل وافد إليه يجد بعضه الثقافي والحضاري فيه، وكل مغترب يجد بعضاً من نفسه قد سبقه إلى البلد الذي يحل فيه لأن مداه الكون. فلبنان يكاد أن يكون البلد الذي يختصر العالم بحضاراته وثقافاته المختلفة. ويتجلى هذا الاختصار ليس في كليته وحسب، وإنما في أجزائه ومناطقه وأحياء مدنه التي تتعانق فيها أجراس الكنائس ومآذن الجوامع، فالشراكة في الأرض والعمل والحياة بين عائلاته الروحية وإثنياته حاصلة في كل زاوية من زواياه. فالتقارب بين بنيه واقع وجودي بفعل التجاور والتجربة الحياتية. فلا اعتقادات الواحد، من بنيه، غامضة بالمطلق بالنسبة للآخر الشريك في المواطنة، ولا الممارسات والطقوس، في المناسبات، مجهولة ومستهجنة عند بعضهم البعض. فاللبنانيون نسيج وطني تشكل عبر كل الحقبات التاريخية التي مرت على حياتهم المشتركة. واللبنانيون جميعا يتمسكون بهذا العيش المشترك الذي يشكل بالنسبة إليهم الضمانة لتمايزهم بمشاعر الحرية والاستقلال، وهما العامل الرئيس للاستقرار والاطمئنان. وسيادة الكلمة الطيبة بين اللبنانيين، على اختلاف مشاربهم الاعتقادية والثقافية، كانت سبيلهم الدائم إلى السلام والنجاح، وإلى تحقيق القوة (بكل أشكالها) والحرية (بكل أبعادها) والديمقراطية الخاصة (بكل مستوياتها ولو نسبياً) قياساً على ما هو متوفر منها في محيطه، وفي دول العالم الثالث التي هي من جنسه.

فلبنان هو المثال الذي يحتذى، وهو المختبر الحقيقي للحوار بين الأديان وللحوار بين المجتمعات المتنوعة ثقافيا وطائفيا واجتماعيا. وهو ساحة للحوار، ويطمح لأن يبقى كذلك، وهو عنوان كبير للعيش المشترك لأن إرادة اللبنانيين مجمعة على التضامن والوحدة والاتحاد لصون ديمومته وقوته "كوطن رسالة" ينعم بأساسيات الانفتاح على الحوار، داخلياً وخارجياً، من الحرية والديمقراطية

والعدالة، والرغبة الصادقة في العيش المشترك المبنية على "كلمة سواء" طيبة فيما بينهم.

ونعمة الحوار والمكاشفة والتقبل للآخر تعم جميع شرائح المجتمع اللبناني الاجتماعية والعلمية. فالحوار قبل أن يكون حرفة النخبة، من المفكرين المنظرين والسياسيين، هو عادة متأصلة في النسيج اللبناني. وتجلياته ظاهرة في موروثه الشعبي المادي وغير المادي. فـ "البيت اللبناني العتيق" مبني على طريقة "الدار أو الديوان" في الوسط، وغرف المنامة والمونة والخدمة من حوله، وباب الدار يفضي إلى الخارج كما لو أنه يقول للضيف الوافد "يا هلا بالضيف"، فأي آخر هو ضيف على التحقيق، يُتعَامل معه على أساس أنه أُضيف إلى أفراد العائلة، وليس كمجرد زائر يزاور أصحاب الدار. وعلى الصعيد العملي يتجلى قبول الآخر في "العونة" ومد يد المساعدة بالمجان، فيكون الحوار واللحمة الاجتماعية بالاشتراك بالعمل وما يتعلق به من قيم العطاء والمساندة. والعونة في القرية اللبنانية غير محصورة بأبناء عائلة أو طائفة أو موقع اجتماعي. ثم أن الأعياد الدينية، عند الطوائف، هي مناسبات لتمتين الألفة بين الناس والتشاور بأمورهم المصلحية، وكذا هم في الأفراح والأتراح، وسيد تفاهمهم ما حفظته ذاكرتهم من الأمثال الشعبية، التي هي محصلة تجاربهم الحياتية المشتركة وهي غير خافية، معرفياً، على أحد منهم، من حيث مصطلحاتها ومفاهيمها، فبالأمثال يكون دخول الواحد إلى ما في ذهن الآخر من مخزون فكري، وعليها يقوم الصلح وتفض المشاكل.

وعلى الصعيد الأدبي الشعبي، أيضاً، يتجلى الانفتاح، بمحبة، على الآخر في "الزجل" اللبناني. هذا الفن الشعبي الراقي "يمد جذوره في عمق التاريخ الحضاري والاجتماعي الذي يتفرد به لبنان لينقل بلغة العامية، وبلهجة النقاش الجدلي الشعري النقدي، صورة حية عن واقع البيئة الاجتماعية، ويبني عليها لغة القول الحر والفكر الديموقراطي بالممارسة من خلال معالجة (خاصة منبرية) كل أمور الناس والسياسة والوطن". والزجل يتطلب ثقافة تقوم على الحوار واحترام الرأي الآخر. والزجل نمط حي من القول الشعري، رافق لبنان، خصوصا في الأرياف منذ قرون، ومرتبط بشكل عضوي بالأرض والزراعة وعلاقات الإنتاج الرعوية الزراعية. وهذه كانت الحافز الغريزي لتفجر المواهب الزجلية منذ اقدم الأزمنة. ومن تقاليد "الجوقات الزجلية" حرصها على تعددية أصواتها طائفياً ومذهبياً ومناطقياً، وكان كل واحد من أفراد الجوقة يعرّف باعتقاداته وتقاليده، على نحو خطابي محبب لصدقه وعفويته، وقربه من إفهام الناس.

وحددت النخب اللبنانية، منذ تعاطيها بمسألة الحوار المعطيات اللازمة لنجاحه، والأهداف المرجوة منه. واللقاء الأول المسلم – المسيحي، الذي نظم من قبل النخب اللبنانية بدعوة من الصحافي الشاب، آنذاك، غسان تويني، عُقِدَ في بحمدون (22–27 نيسان من العام 1954)، وأما اللقاء الثاني فكان بدعوة من الرئيس فؤاد شهاب في 23 تشرين الأول 1959 إثر تشاورٍ مع المطران جان مارون – إذ كان مندوب لبنان لدى اليونسكو – والراهب الدومينيكي الفرنسي لويس جوزف لوبريه (1897–1966) – وكان رائدًا بارزًا في مجال التطور الكاثوليكي، نظرية وتطبيقًا – عبر معهده IRFED، الذي كلف ببحث علمي حول طاقة لبنان وعجزه في المجال السوسيو– اقتصادي، بغية وضع خطة عملٍ مفصّلة للبلد. وبين 1960 و1964 عمل فريق من IRFED في لبنان، وانتهى إلى وضع تقرير من ثلاثة مجلدات. وكان تأثير IRFED إيجابيًا على المثقفين اللبنانيين الشباب، وساهم في إعادة رسم التوازن الاجتماعي في لبنان لمصلحة أكثر المناطق حرمانًا. ثم أن رجال الدين ساهموا كذلك في تشجيع الحوار، إنما على نطاق ضيّق؛ إذ اضطلع بعض الأفراد المتنوّرين فقط، بمبادرة شخصية، للنهوض بهذه المسؤولية، أمثال المطران جورج خضر والإمام موسى الصدر، وقيام الأب فريد جبر اللعازري والشيخ صبحي الصالح بأول عملية مكاشفة فكرية من خلال ترجمتهما لكتاب "فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية" لمؤلفيه غرديه وقنواتي، فترجم الكاهن المسيحي كل ما له علاقة بالفكر الديني الإسلامي وترجم الشيخ كل ما له علاقة بالفكر اللاهوتي المسيحي. أما "لجنة الحوار الوطني المسلم– المسيحي" فأُسِّسَتْ في العام 1993، ومثّل الرؤساء الدينيون أبرز المذاهب الطائفية. إلى ذلك، صبَّت بعضُ المؤسَّسات الأكاديمية في لبنان اهتمامَها الأول على تنمية التفاهم المسلم–المسيحي. ونذكر، في شكل خاص، "معهد الدراسات الإسلامية– المسيحية" في جامعة القديس يوسف و"مركز الدراسات المسيحية– الإسلامية" الذي أُسِّسَ في العام 1995 في جامعة البلمند.

والمنطلق الأساس، للنخب، هو أن لا يكون الحوار إلا مع الآخر، وتحديداً مع الآخر المختلف. ثم أن هدف الحوار هو شرح وجهة النظر وتبيان المعطيات التي تقوم عليها، وفي الوقت نفسه الانفتاح على الآخر لفهم وجهة نظره ثم التفاهم معه. ذلك بان التفاهم لا يحصل من دون الفهم المتبادل. لأن الحوار هو الطريق الأقصر والأسلم إلى استيعاب المعطيات العقائدية والسلوكية، والوقائع الموضوعية المكونة لمواقف الطرفين المتحاورين، ثم إلى تفهمها وتفاهمها. ولم تكن للنخبة هذه

الإمكانية لولا درجة الوعي المتقدمة وتنظيم مؤسسات المجتمع المدني والأهلي، وحماية الدستور والقانون لحزمة من الحقوق التي تقوي ديمقراطية الاعتقاد والتعبير والممارسة للطقوس والنشاطات.

فالوضع التعليمي مميز، إذ أن نسبة المتعلمين في لبنان 87.4 %. وتكاد نسبة الأمية نكون معدومة عند من هم دون الخمسين من العمر. ومما ساهم في هذا الوضع سباق إرساليات المؤسسات الدينية والعلمانية الغربية (حتى في ظل الحكم العثماني) إلى فتح المدارس، للتبشير والتعليم معاً، وجارتها في ذلك العائلات الروحية المحلية، ثم تكفلت الدولة بإنشاء المدارس الوطنية، وإلزامية التعليم الابتدائي ومجانيته، بحيث عمت المؤسسات التعليمية، بالتدريج، كل المناطق والقرى والبلدات. ولم تكن هذه المدارس حكراً على طائفة أو مذهب، فأمنت بذلك مساحة مؤاتية لتلاقي الأبناء منذ مرحلة الطفولة.

وتاريخ بيروت لبنان مع التعليم عريق وطليعي. فبيروت التي كانت بلدة صغيرة على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط وعديد سكانها عدة آلاف، لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة في مطلع القرن التاسع عشر، تجاوز المائة ألف بعد منتصف هذا القرن، وكان لها خلاله مآثر غير مسبوقة في العالم العربي وفي العالم الإسلامي. واستفادت بيروت من أجواء الحريات العامة التي أطلقها إبراهيم باشا في بلاد الشام أثناء حكمه (1831 – 1840) والتي انعكست في الثقافة العربية الحديثة. فأجواء بيروت كانت مؤاتية للانطلاق بسبب الاختلاط الكبير فيها بين جماعات مذهبية وطوائف مختلفة تمارس مع بعضها بعضاً حواراً حياتياً يومياً لا تقوى منها فئة على فئة، يعضده أمن شبه مثالي، مدعوم بمساواة مواطنية شبه تامة، مدنية، بين المسلمين والمسيحيين، لم تعرف في مدن عربية أخرى. ففي هذه الحقبة نزلت إليها المدارس الأجنبية للإرساليات من الجبل وتأسست المطابع الحديثة، وشهدت المدينة ريادة حضارية سوف تحدد مسارات الثقافة العربية الحديثة. وهكذا عرفت بيروت: أول مدرسة حديثة للبنات، في الشرق عام 1834، وأول "مدرسة وطنية"، غير دينية، تلامذتها ومعلموها من كل الطوائف، وهذا ما لم يعرفه الشرق من قبل، وأول ناد ثقافي مستقل، وجمعية فكرية، تضم متقفين من كل المذاهب الدينية والفكرية عام 1845. كل هذا سيبقى أثره في البيئة اللبنانية حتى يومنا هذا.

ونمت المساحة العلمية والمعرفية وارتقت عاموديا لتطال مراحل التعليم الجامعي. فتأسست الجامعة الأمريكية ببيروت عام 1866 وتبعتها جامعة القديس

يوسف عام 1875 وتنوعت كلياتهما واختصاصاتهما العلمية. وتأسست الجامعة اللبنانية سنة 1951 وهي الجامعة الوطنية الحكومية الوحيدة في لبنان. وقد كانت كل كلياتها (اللبنانية) ومعاهدها في بيروت قبل أن تجبرها الحرب الأهلية على إحداث فروع للكليات في بيروت ومحافظات جبل لبنان ولبنان الشمالي ولبنان الجنوبي والبقاع، لتسهيل تنقل الطلبة. وسوف تحذو الجامعات الخاصة حذو اللبنانية في إنشاء فروع لكلياتها على كامل الأرض اللبنانية. ثم قامت المؤسسات التعليمية والعائلات الدينية والجمعيات وأصحاب الرساميل بإنشاء جامعات خاصة مستقلة أو تابعة لجامعات غربية، كالجامعة العربية وجامعة البلمند وجامعة اللويزة وجامعة الحكمة وجامعة بيروت العربية والجامعة الإسلامية في لبنان والجامعة الأنطونية وغيرها كثير. الأمر الذي يكشف عن مدى أهمية لبنان كنافذة علمية وثقافية على العالم عموماً وأفريقيا والشرق أوسط خصوصاً، لكونها (الجامعات) تعد الكادرات العلمية والفكرية والسياسية لهذه المنطقة من العالم. ومن إيجابيات كثرة الجامعات، إضافة إلى القيمة العلمية، أنها كانت ولا تزال بمثابة المنتديات للتلاقي والحوار بين الشباب اللبناني ومعالجة كل القضايا من مواقع فكرية دينية وعلمانية وعلى خلفيات حزبية سياسية مختلفة وجدت في أروقة الجامعات متنفساً ومجالاً لتأطير العناصر وصقل تجربة من سيكونون في المواقع القيادية في أحزابهم ودوائر الدولة ومؤسساتها، وجمعيات وحركات المجتمع الأهلي والمدني. وهذه النخب لن يكون مجالها في الوطن وحسب، وإنما العالم العربي والعالم. ودور الجامعات هذا محدد في الأهداف التي أدت إلى نشوئها، من ذلك ما ورد في الغايات التي تتوخاها واحدة من هذه الجامعات، والتي تتفق ضمنا وروحاً مع غايات الجامعات الأخرى، وهي: "تنشئة طلبة من المشارب والفئات الاجتماعيّة علي اختلافها، من دون تمييزٍ بينهم؛ وإلى إعدادهم الإعداد الأفضل، وتزويدهم بكلّ ما يلزمهم ليُمارسوا وظائفهم أو مهَنَهُم بكفاءة عالية، ويُسهموا في تطوير بلدهم خصوصًا، والعالَم العربي عمومًا". وإلى أن تكون مَعينا فكريًّا للتأمّل والنظر، ولتنشئة الطلبة تنشئة متكاملة. فغايتها هي الترقي الإنساني المتكامل المنفتح على القيَم الروحيّة، والقائم على مبادئ الحريّة، وحُسن النّظر، والحسّ النقدي، والمُبادرة السليمة، والتعاضد الاجتماعي. وهي تُشدّد في الميادين كلّها على احترام الإنسان، والمحافظة على حريّته الدينيّة وعلى معتقداته، كما تَسعى بنَوعٍ خاصٍ إلى تعزيز الحوار الإسلامي والمسيحي.

فأضحت الجامعات، انطلاقاً من هذه الروحية، المنابر الرحبة للتعبير عن الآراء، والمنتديات الحوارية في كل القضايا الفكرية والسياسية ذات الطابع المحلي

والدولـي والإنساني. وساهم في ذلك حماية الأنظمة والقوانين الخاصة بالجامعات وبخاصـة تلك التي تمنع اقتحامها وقمع تحركات الطلاب فيها من قبل رجال الأمن إلا فـي حالات خاصة منصوص عليها. فكانت الجامعات، ولا تزال، واحات آمنة لتلقـي العلـم والإطلاع على التيارات الفكرية ومناقشتها، والتأليف حولها، واتخاذ المواقف من القضايا الوطنية والدولية.

ونشاطات الجامعات الحوارية متعددة، فمنها ما هو خاص بجامعة، أو بالشراكة والتعاون مع جامعات محلية أو عربية ومتوسطية وغير ذلك، أو بالتعاون مع منظمات ثقافية دولية، وتدعو إليها النخب الثقافية اللامعة محلياً وعالمياً.

فحول حوار الأديان، مثلاً، دعت كلية الفلسفة والعلوم الإنسانية في جامعة الروح القدس – الكسليك إلى ثلاث مؤتمرات دولية أولها بعنوان: "الله والحق في الاختلاف" (2005)، وثانيها بعنوان: "المواطنية، مشروع دولة لمجتمع جديد" (2007)، وثالثها المؤتمر الوطني الدولي بعنوان: "ثلاث ديانات وإنسان واحد"، انطلاقا من قناعات القيمين عليها أن من واجب الجامعة أن تكون العامل الرئيس في تفعيل حوار الثقافات والحضارات وسط معترك التصادم بين العولمة الساحقة للفروقات الثقافية من جهة والإبعاد القسري المقدس من جهة ثانية. ولضرورة الارتقاء بالتربية "إلى مرتبة الإحساس بالآخر بشكل منسجم ومتناغم، وإلى تعزيز النزعة الإنسانية الدفينة التي صقلها، على مدى العصور المتتالية، أهل العلم والفكر في بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط". ومن أجل تحقيق هذا الهدف لا بد من دراسة التراث الثقافي الشرقي، والتنقيب عن قيمه بهدف استرجاعها إلى الضوء، وإظهار الحقيقة الباطنة للإنسان الشرقي وإصلاح صورته المشوهة، والكشف عن قدراته الدفينة على الخلق والإبداع في شتى المجالات. وبلغ تواصل الجامعات اللبنانية أقصاه مع العالم من خلال تأسيس أول معهد كونفوشيوس في العالم العربي بجامعة القديس يوسف (سان جوزيف) اللبنانية سنة 2006 بالتعاون بين هذه الجامعة وجامعة شنيانغ للمعلمين الصينية، بإشراف المصلحة الصينية للتعليم الدولي للغة الصينية. بدأت الدراسة رسميا في هذا المعهد يوم 27 فبراير 2007، وصار اليوم مركزا هاما للغة والثقافة الصينية في الدول العربية.

ودعت جامعة البلمند وجامعة القديس يوسف فى بيروت والمعهد الفرنسى للشرق الأوسط والمعهد الألمانى للأبحاث الشرقية فى بيروت، إلى مؤتمر علمى عقد بتاريخ 2009/5/28 حول التعايش الإسلامى المسيحى حمل عنوان "التعايش وإدارة الصراع فى بلاد الشام إبان الحقبة العثمانية: المسلمون والمسيحيون عبر

كتابات المؤرخين والرحالة"، وشارك في أعمال هذا المؤتمر أساتذة من جامعات لبنان وأوروبا، وتمحورت المحاضرات حول أهم المؤرخين المحليين والرحالة الذين زاروا الشرق فى تلك الحقبة، وذلك من حيث الجوانب الديمغرافية ووصف الحياة الاجتماعية، وحالات النزاع وأعمال العنف، والتجار والرحالة وعلاقاتهم مع الطوائف، والتعايش بين المجتمعات .

ويضاف إلى ما تقدم حماية القوانين للملكية الفكرية، وحرية التعبير على صفحات الكتب وفي وسائل الإعلام ما لم تخل بالأمن والسلم الأهليين. وسمح قانون الجمعيات الصادر في 3 آب 1909 والتعديلات التي أضيفت إليه فيما بعد، إلى انتشار الجمعيات والأندية الثقافية والرياضية في المدن والأحياء والقرى. وتكاد الجمعيات والأندية التي تأسست في لبنان في عهوده المتعاقبة لا يحصى، ففي زحلة وحدها بلغ عددها 129 جمعية ونادي ثقافي اجتماعي رياضي، ويضاف إليها التعاونيات والروابط والنقابات.

ونتتبع، فيما يلي، باختصار، نشاطات بعض الأندية والحركات الثقافية الحوارية في العاصمة والمحافظات والجامعات، والتي تدل على مدى رسوخ روحية الحوار الثقافي في لبنان وامتداداته في المحيط العربي والعالم.

من الجمعيات الثقافية العديدة في العاصمة نذكر حلقة الحوار الثقافي (مركزها في عين الرمانة – بيروت) التي اهتمت منذ نشأتها سنة 1993 بالحوار الفكري، وضمت في هيئتها العامة نخبة من المبدعين والباحثين في التراث الشعبي اللبناني والعربي، والقضايا الفكرية الحديثة والمعاصرة. ويحدد قانونها الأساسي أهدافها بالتالي: 1) الإسهام في تعزيز الحوار بين مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات. 2) تفعيل الأنشطة المتعلقة بقضايا ثقافية واجتماعية وتربوية وتراثية وفكرية عامة. 3) الإسهام في تنمية المصالح المشتركة في المجتمع اللبناني وتعزيزها وترسيخ ديمقراطيته وسلمه الأهلي، وصيانة الحريات العامة، واحترام حقوق الإنسان. 4) التواصل مع الحركات والمؤسسات الثقافية المحلية والعربية والدولية ذات التطلعات الإنسانية والديمقراطية والتربوية. 5) دعم الطاقات الإبداعية في ميادين الفن والفكر والعلوم والتقنيات الحديثة. 6) تشجيع المجلين والمبدعين.

وأقامت (حلقة الحوار الثقافي) الندوات (شبه أسبوعية) والمؤتمرات الحوارية منفردة أو بالتعاون مع الجامعة اللبنانية ووزارة الثقافة والنقابات واتحاد الكتاب في لبنان، ومع جامعات ومؤسسات فكرية وعلمية عربية، منها: كلية الآداب والعلوم

الإنسانية والمعهد العالي للخدمة الاجتماعية وأكاديمية الدلتا للعلوم في المنصورة – مصر، وجامعة الجزائر، والمكتبة الوطنية ورابطة الأدب الشعبي والجمعية الودادية في الجزائر، وغيرها في العالم العربي، ومع شخصيات مرموقة في ميادين الإبداع الفكري. ومن نشاطات حلقة الحوار الثقافي تنظيم 6 مؤتمرات، حول الثقافة الشعبية العربية في عالم متغير، أقيمت بين بيروت والمنصورة (مصر) وقامت بتنفيذ طباعة الأبحاث والمداخلات التي قدمت إلى هذه المؤتمرات وهي بالمئات. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الجمعية تقدمت بمشروع إقامة اتحاد للفولكلوريين العرب لجامعة الدول العربية ونالت موافقة أمينها العام المبدئية.

وهناك بروتوكول تعاون بين حلقة الحوار الثقافي و"مجلة الحداثة" الفكرية يقضي بنشر المداخلات التي تقدم في ندواتها. ومن أبرز ندواتها الحوارية الفكرية، التي أقامتها في القصر البلدي للشياح في بيروت وقصر الأونسكو، في السنوات الأخيرة: 1) ندوات حوارية حول كتاب التاريخ المدرسي– ربيع 1995. ندوات حوارية حول العقد الاجتماعي تناولت: 1) – الخيارات الاقتصادية والعقد الاجتماعي 2006/5/22. 2) العقد الاجتماعي وقانون الأحوال الشخصية 2006/5/27. والعقد الاجتماعي والتربية .3) ندوات حوارية حول مفهوم الوطن في فكر مؤسسي الأحزاب السياسية اللبنانية (2007/4/24 – 2007/5/2 – 2007/5/9 – 2007/5/16) – 4) ندوات حوارية حول حقوق المرأة و الحقوق السياسية (2009/6/10).

أما "المجلس الثقافي للبنان الجنوبي" فهو هيئة مستقلة من هيئات المجتمع المدني تأسس عام 1964 ويعنى بشؤون الثقافة. يزيد عدد المنتسبين إليه عن 500 عضوا يشكلون جمعيته العمومية. ومن أهدافه: تعزيز الحركة الثقافية في لبنان بعامة وفي جنوبه بخاصة، ودعم النتاج الثقافي في مختلف الحقول، وجمع شمل المثقفين وتنسيق الجهود بين هيئاتهم الثقافية، وتشجيع الشباب المثقف ومساعدتهم على نشر نتاجهم القيم، والمحافظة على تراث لبنان الثقافي وصون آثاره التاريخية، وإقامة علاقات صداقة بين المثقفين اللبنانيين والمثقفين العرب والأجانب، إقامة علاقات تعاون وتنسيق بين الهيئات الثقافية اللبنانية والعربية والأجنبية، والإسهام في الدفاع عن حرية الوطن وسيادته وعن حقوق الإنسان وسلامة البيئة. للمجلس مقر مركزي في بيروت ومقر فرعي في النبطية عاصمة المحافظة. ويقوم المجلس بمختلف أشكال النشاط الثقافي وفق برنامج سنوي وعلى أساس أسبوعي وذلك في مقريه المذكورين أو في مراكز الهيئات الثقافية الصديقة في أنحاء لبنان وفي

عواصم عربية وأجنبية، نظراً لانتشار الجنوبيين بعد تركهم قراهم بسبب الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة.

وفي محافظة لبنان الشمالي تأسس "المجلس الثقافي للبنان الشمالي" في طرابلس لبنان بوصفه جمعية ثقافية تستهدف الشؤون الثقافية – الفنية، والأدبية، والعلمية، والفكرية، وذلك عن طريق: أ- إذكاء النشاط الثقافي في سائر أوساط المجتمع وقطاعاته. ب- تهيئة سبل الإبداع للفنان، والأديب، والعالم، والمفكر، وتمكينهم من وعي طاقاتهم وتحقيقها. ج- التعاون مع المجالس الثقافية اللبنانية من أجل نهوض ثقافي شامل في لبنان. مركز المجلس في مدينة طرابلس، ويحق له إنشاء فروع في مراكز الأقضية والقرى في لبنان الشمالي. هذا ولا تقتصر نشاطات المركز على محافظة شمال لبنان. فقد شارك المجلس في نشاطات عديدة داخل لبنان وخارجه. وهو استقبل العديد من الشخصيات الفكرية اللبنانية والعربية.

وأسّست في زحلة الأندية الثقافيّة والخيريّة حتّى بلغ عددها 129 جمعيّة وناد ثقافي اجتماعي رياضي. وتجدر الإشارة إلى أنّ أول نقابة عمّاليّة انطلقت في البقاع هي زحليّة، وذلك عام 1923. وتوالى إنشاء الروابط والجمعيّات والتعاونيّات حتى بلغت 75 تعاونيّة، إضافة إلى 27 تعاونيّة اقتصاديّة اجتماعيّة.

وانفتح تاريخ زحلة الحديث فعليّاً على الثقافة بعد هجرة الزحليين إلى دول أميركا وكندا والبرازيل وأوروبا واستراليا، أي ابتداءً من عام 1880.

هكذا شرّعت الثقافة الزحليّة والبقاعيّة أبوابها على الغرب، دون أن تفقد هويّتها اللبنانيّة. وعلى صعيد تأسيس الأندية الثقافيّة، كانت زحلة في الربع الأوّل من القرن العشرين الصالون الأدبي الأوّل في لبنان، يقصده شعراء كبار وسياسيين وأدباء ومفكّرين ليتمتّعوا بجمال الطبيعة على ضفاف نهر البردوني، وليسجّلوا سوق عكاظ جديد على ضفاف هذا النهر المناسب بين الجبلين. وكانت "جمعيّة طلب المعارف" أولى الجمعيّات الثقافيّة الزحليّة، أسّسها الخوري بطرس الجريجيري في دير سيّدة النجاة عام 1884، وهدفها المحاورات والخطب في شتّى المواضيع. تلتها "جمعيّة النهضة العلميّة" عام 1903 على يد عيسى اسكندر المعلوف لطلّاب الكليّة الشرقيّة، وهدفها تمرينهم على الخطابة والمحاورات والإنشاء. وبعد الانتداب الفرنسي عام 1923، تأسّست "الحلقة الثقافيّة الرياضيّة"، بمهمّة الدكتور إبراهيم شحادة ومثقفين لاستضافة كبار رجال العلم ومفكّريه.

واليوم، هناك عدد كبير من الجمعيّات العاملة في زحلة، وهي: – الشبيبة الطالبة المسيحيّة تأسّست عام (1962)، ونادي الشباب الثقافي الرياضي (1963)

والندوة الزحليّة (1965)، ومسرح الوادي الجميل(1965)، ومجلس قضاء زحلة الثقافي (1967)، النادي الثقافي الاجتماعي (1969)، وجمعيّة مار إفرام للتراث السرياني والفولكلوري (1972)، رابطة رسّامي زحلة (1978)، ورابطة الفنانين الحرفيين (1994)، وجمعيّة زحل للثقافة والبيئة (2000)، وجمعيّة ندوة البقاع الثقافيّة(2001). ومنتدى الحوار الديمقراطي(2001).

وتعتبر "الحركة الثقافية – انطلياس" من أبرز الحركات الثقافية الحوارية في جبل لبنان، وقد احتفلت هذا العام بمهرجانها الثامن والعشرين للكتاب الذي يقام عادة في النصف الأول من آذار من كل عام. وتفتخر الحركة بكون انطلياس شهدت أهم لقاء بين الطوائف اللبنانية وتوّج بالميثاق المعروف بميثاق "عاميّة انطلياس" الذي حرر سنة 1840 ووقع من قبل أعيان المذاهب السبعة (من النصارى والمسلمين) المتجاورة والمتعايشة، آنذاك، في الجبل اللبناني. ونص الميثاق على توحيد الكلمة ومعاقبة من يخون العهد المبرم. وعلى غرار ميثاق العاميّة، وضعت الحركة، عند تأسيسها، ميثاقها، ونصه: "نحن جماعة من محبي العمل الثقافي الوطني، ننطلق من دير مار الياس، أنطليلس، محور ومشجع العديد من النشاطات الثقافية والروحية منذ زمن بعيد، ملتزمة بقضايا الإنسان والوطن، بعيدة عن أي التزام سياسي، فئوي. تسعى جماعتنا للمشاركة بإعداد إنسان جديد لمجتمع جديد، إنسان حرّ، واعٍ وصاعد، ومثقف ومسالم، إنسان أصيل، مرتبط بأرضه وتراثه، عارف بحضارتها وبقيمها، توّاق للترقي ولمستقبل أفضل، في وطن موحد، مستقل، ديمقراطي، علماني، منفتح على محيطه العربي ومتفاعل معه ومع العالم، في إطار السيادة الوطنية المطلقة".

ونشاطات الحركة الثقافية متنوعة، الثابت منها: أولاً: الاحتفال بذكرى استقلال الدولة اللبنانية (في الأسبوع الثالث من شهر تشرين الثاني)، وثانياً: المهرجان اللبناني للكتاب (في النصف الأول من شهر آذار)، وثالثاً: المؤتمر الثقافي الوطني.

وتهدف الحركة من خلال الاحتفال السنوي بذكرى الاستقلال إلى: صون الذاكرة الوطنية بما تزخر به من مآثر وعبر، بإبراز المحطات المشرقة من تاريخ شعبنا لترسيخ إيمان هذا الشعب، لاسيما أجياله الفتيّة، بوطنه لبنان، وتوطيد تعلّقه بحريّته وسيادته واستقلاله، وبتجربته الحضارية الفذّة. والتشديد على أن لبنان ليس خطأً تاريخياً ولا جغرافياً بل وطناً عريق الجذور غير قابل لا للتجزئة ولا للضمّ ولا للقضمّ، وأن الظروف العصبية التي قد تعيشها الأوطان في مراحل من تاريخها، والتي تُبرز عوارض وهن في كيانها، لا تبرّر طروحات إلغائها أو

التصرّف بمقدّراتها، بقدر ما تكون دافعاً لرفع مستوى الوعي لدى أبنائها بغية تمتين وحدتهم وترسيخ دعائم السلم الأهلي وبناء وطن أشدّ منعةً، وتأسيس دولة أكثر عدلاً. والمشاركة مع سائر قوى المجتمع المدني في درس الوسائل الكفيلة بتعزيز البناء الاستقلالي، على جميع الصُعد السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والثقافية وغيرها. ذلك أن الاستقلال الحقيقي، القابل للحياة والاستمرار، هو فعل بناء يومي دائم، وما الاحتفال بذكراه سوى فرصة يقتضي انتهازها لتجديد الالتزام بمتطلّبات الحفاظ عليه.

والمهرجان اللبناني للكتاب مناسبة ثقافية وطنية للتلاقي وتبادل الخبرات في ميادين صناعة الكتاب ونشره وتوزيعه، ولتعزيز الحوار بين الثقافات المختلفة، وتجسيد الدور النهضوي والديمقراطي الذي يؤدّيه لبنان الشعب والدولة في إطار الثقافة العربية المعاصرة. ويتكوّن "المهرجان" من العناصر الأساسية التالية: معرض الكتاب الذي تشارك فيه معظم دور النشر والمكتبات اللبنانية والجامعات العاملة في لبنان إضافةً إلى مراكز ثقافية عربية وأجنبية ومنظمات دولية. ومنذ 1985، تكرّم الحركة سنوياً عدداً من المبدعين وأعلام الثقافة في لبنان، ممّن أغنوا تراثنا الثقافي على مدى عقود في مختلف المجالات الأدبية والعلمية والفنية، ومن مختلف الاتجاهات. وفي هذه المناسبة، تُعقد ندوات تكريمية حول المحتفى بهم، الذين تُطبع سيرتهم الذاتية في كتيّب سنوي بعنوان "أعلام الثقافة في لبنان". كما يخصّص لكل مكرّم يوم من أيام المهرجان، فيحمل اسمه. ويتخلّل المهرجان عدد محدود من الندوات الفكرية التي تفرضها مناسبة معيّنة (يوبيل إحدى المؤسسات أو الهيئات الإعلامية أو الثقافية الخ...، ذكرى رحيل أحد أعلام الثقافة اللبنانيين أو العرب...).

وتنظّم الحركة، كل سنة، مؤتمراً حول أهم القضايا الوطنية اللبنانية، يشارك فيه أكاديميون وكتّاب وبحّاثة في مختلف الحقول، من لبنان والخارج. وتُصدر الحركة وقائع هذه المؤتمرات في كتاب خاص، ضمن سلسلة منشوراتها.

وساهمت الحركة في تأسيس "تجمّع الهيئات الثقافية اللبنانية" عام 1991 مع معظم الهيئات الثقافية اللبنانية التي شاركت في تنظيم مؤتمر "لبنان: الثقافة والتغيير" في انطلياس (أيار 1988). وفي هذا المؤتمر، تمّ الاتفاق على صياغة "البيان الثقافي الوطني" الذي شكّل قاعدة لعمل الهيئات الثقافية اللبنانية في تلك المرحلة. وتألف "التجمّع" آنذاك من أكثر الهيئات الثقافية حضوراً في لبنان، وقد ساهم في تنظيم بعض اللقاءات والمؤتمرات وفي إصدار العديد من البيانات المعبّرة

عن مواقف أعضائه المشتركة. اتّخذ التجمع صيغة مرنة تؤمّن استقلالية كل هيئة منتسبة إليه وتعاون جميع الهيئات في تنسيق الأنشطة وتبادل المعلومات وتوحيد المواقف إزاء القضايا الوطنية الكبرى.

وتشارك الحركة، أيضاً، بانتظام في لقاءات ومؤتمرات تنظّمها هيئات عربية و/أو دولية ذات طابع ثقافي أو إنمائي. وأبرز هذه اللقاءات هي تلك التي تتمّ على مستوى أوروبي - شرق أوسطي. كما تستضيف الحركة، من وقت إلى آخر، شخصيات ووفوداً ثقافية عربية و/أو أجنبية قادمة إلى لبنان في زيارات استطلاعية أو للمشاركة في تظاهرات ثقافية إقليمية أو دولية. وقد واكبت الحركة الثقافية – انطلياس سنة "بيروت عاصمة عالمية للكتاب" بثلاثة أنشطة أساسية مميزة:

1- النشاط الأول عشية بدء هذه السنة 23 نيسان 2009: بطبعها كتاباً أنيقاً بعنوان: "بيروت عاصمة الطباعة العربية ورائدة النهضة الحديثة" هو أعمال مؤتمر "بيروت عاصمة ثقافية للعالم العربي 1999" الذي نظمته الحركة بتلك المناسبة الكبرى بمشاركة نقابة الطباعة في لبنان، ونقابة اتحاد الناشرين في لبنان، والجامعة الأنطونية ووزارة الثقافة. وشارك فيه عشرون باحثاً حول الطباعة في لبنان. هذا الكتاب يوزع مجاناً على الأفراد والهيئات المهتمة كي يقوموا، انطلاقاً منه، بتحسين ربما احتفالاتهم بهذه السنة.

2ـ بتنظيم مؤتمر دولي بعنوان: «بيروت رائدة الحريات في الشرق» أيام 5 و 6 و7 تشرين الثاني المقبل في مركز الحركة في انطلياس.

3ـ في ختام السنة العالمية: بتخصيص مساحة في «المهرجان اللبناني للكتاب» (آذار 2010) بجردة عامة لكل الأنشطة التي قام بها أفراد وهيئات ومؤسسات بمناسبة هذه السنة.

ومن غير الممكن تجاهل "الندوة اللبنانية" التي شغلت حيزاً هاماً من التاريخ الفكري للبنان في الحقبة الممتدة من العام 1945 إلى العام 1975، واحتلت المركز الأول إن لم يكن الأوحد في التاريخ الفكري على مختلف أوجهه، وبخاصة سلسلة المحاضرات التي أقيمت فيها. وكانت هذه المحاضرات تتلى باللغة العربية واللغة الفرنسية بشكل متعادل. وإذا كان ثمة غلبة فللغة الفرنسية. وأما المحاضرون فمن أهل الفكر والرأي والثقافة والسياسة في لبنان نذكر بعضاً منهم على سبيل المثال: ميشال شيحا، شارل حلو، ناديا تويني، صلاح لبكي، تقي الدين صلح، كمال جنبلاط، صبحي الصالح، إدوار حنين، سعيد عقل، ورينيه حبشي. أما المؤسس فهو ميشال أسمر وكان موظفاً في مؤسسة المخطوطات الوطنية في زمن الانتداب

الفرنسي وفيها أسس نادي الإثني عشر Club des douze الذي كان منتدى فكرياً. وهذه التجربة أسست لمنتدى أكبر وهو الندوة اللبنانية التي باشرت أول نشاطاتها بمحاضرة لكمال جنبلاط في موضوع "رؤيتي كنائب "Ma vision comme depute بالفرنسية.

وكان هدف الندوة أن ترافق مسيرة الاستقلال التي رأت فيها بداية وليس نهاية. وبهذا الصدد يقول المؤسس ميشال أسمر "كان هدفي منذ البداية أن نطلق منبراً فكرياً يتميز عن المنبر الأكاديمي الكلاسيكي الذي كان متوفراً في جامعات لبنان الكبرى كالجامعة اليسوعية والجامعة الأميركية، وأن يكون ملتزماً قضايا الوطن، ويسمح لنا، نحن أهل الرأي، أن نلتقي ونتعارف ونتبادل الآراء في سبيل خدمة القضية اللبنانية. وكان من مهمة هذه الندوة أن تستدعي كبار المفكرين من أبراجهم العاجية لكي يأتوا إلى ساحة الندوة ويدلوا بآرائهم ونظرياتهم بما يفيد الطرح العام للمصالحة اللبنانية. وتجدر الإشارة إلى أن من المنافع الجمة التي أتت بها هذه الندوة في سبيل التطور الفكري الثقافي والسياسي أن أطلقت دفعة جديدة لدينامية اللغة الفرنسية. وهذه الانطلاقة الجديدة أظهرت خاصة متميزة خفية للغة الفرنسية وما فيها من روح الجدلية والتقدمية لم تكن معروفة في السابق، إذ أن متذوقي اللغة الفرنسية بآدابها كانوا يرجعون لراسين Racine وفولتير Voltaire دون الإلمام بباقي المناحي اللغوية للفرنسية.

إن كثرة الأندية الثقافية والاجتماعية، المظللة بجو من الحرية والديمقراطية، إضافة إلى ما تقدمه الجامعات الوطنية عبر انفتاحها على كل جديد في مجالات العلوم البحتة والعلوم الإنسانية والاجتماعية، شكلت أرضية مناسبة لاستمرار أجواء الحوار لصيانة سلمه الأهلي كلما تعرض لنكسة وافدة. وصار لبنان، "الأرضية المثالية" الجامعة للعقائد الدينية والثقافية، كضرورة حضارية ولازمة للسلم العالمي المهدد، بفعل التحولات الاقتصادية وعولمة المال والثقافة، وانهيار مفهوم الدولة، التي لعبت دوراً أساسياً في استقرار الجماعات البشرية وانضباطها ضمن حدود معينة معترف بها، ودساتير وأنظمة متوافق عليها.

ولم يجد لبنان غضاضة في الانضمام إلى ورشة الحوار الثقافي والحضاري الذي أطلقته الأمم المتحدة، التي تضم في عضويتها لتاريخه 192 دولة تنتمي إلى خمس قارات وتمثل جميع الأعراق والأجناس والأديان والألوان، وتبحث كل المسائل المتعلقة بالأمن والسلم والاقتصاد والقانون وحقوق الإنسان والتربية وغيرها. وشارك بقوة في أعمال البرنامج العالمي للحوار بين الحضارات الذي

أطلقته الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الـ 56 سنة 2005، على أن تعود إلى دراسة ما انتهى إليه في دورتها الخامسة والستين التي ستبدأ سنة 2010. وقد صدر عن الجمعية العامة خلال دوراتها هذه ستة قرارات حول الحوار بين الحضارات، اعتُمِدَت جميعها بالتوافق من جميع الدول الأعضاء، إضافة إلى أربعة تقارير، رفعها الأمين العام إلى الجمعيّة العامة، تضمنت التوصيات والاقتراحات التي تقدمت بها الدول المساهمة، وتلك التي تقدمت بها اللجنة التي عيّنها، المؤلفة من 19 شخصية عالمية من الدبلوماسيين وأساتذة الجامعات، لوضع الأطر النظرية والفلسفية والاقتراحات العملية للنهوض بحوار الحضارات وعلاقة كل ذلك بالعولمة، والحق في الاختلاف، وضرورة تقبل الآخر، والاعتراف بنسبية امتلاك الحقيقة وغيرها من المسائل التي تضمنها كتاب "Crossing the Divide".

ونشير هنا إلى إعلان "2001 سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات". ومساهمة بعثة لبنان الدائمة لدى الأمم المتحدة بهذا الشأن مثبتة في وثائق محاضر جلسة 2003/11/10 رقم A/58/PV.59 وجلسة 2005/10/20 رقم A/60/PV.35. وكان من الطبيعي أن لا يغيب دور لبنان الفاعل في مناقشة سبل تعميم "ثقافة السلام" التي تصبوا إليها الأمم المتحدة لأنها من مبررات وجودها. ويكاد لبنان أن يكون صورة مصغرة عن الأمم المتحدة في استيعابه لخصوصيات ثقافات مختلفة، ويمكننا أن نضيف إلى التعريفات التي أطلقت عليه تعريفاً آخر وهو أنه "وطن الثقافات المتحدة".

قد أصبح لبنان رسميًا عضواً في مجموعة أصدقاء مبادرة تحالف الحضارات، التي أطلقها الأمين العام للأمم المتحدة في العام 2005، التي تلقّت دعماً من الحكومتين الإسبانية والتركية .

وتهدف مبادرة تحالف الحضارات إلى تعزيز علاقات التفاهم والتعاون بين الدول والثقافات والأديان، والمساعدة على مقاومة القوى التي تدعم الاستقطاب والتعصب والتطرف، من خلال توطيد جسور التواصل بين الثقافات، وتشجيع التفاهم الثقافي بين مختلف المعتقدات الدينية والحضارات.

وقد أعلن أمين عام وزارة الخارجية اللبنانية انضمام لبنان إلى مجموعة أصدقاء تحالف الحضارات في الجلسة الختامية لمؤتمر "تحالف الحضارات: رؤى لبنانية" الذي امتد على يومين من 5 إلى 7 أيار 2009 في جامعة القديس يوسف – حرم العلوم الاجتماعية، الأشرفية. ويأتي هذا المؤتمر نتيجة جهود مشتركة لكل من السفارة الإسبانية في لبنان وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي والبيت العربي

(La Casa Arabe) والجامعة اللبنانية وجامعة القديس يوسف. والترحيب بلبنان في هذه المبادة يرجع إلى ميزات لبنان الفريدة التي أهلته لأن يكون المجال الأرحب للحوار بين أهل الأديان والثقافات، في خدمة العالمين العربي والإسلامي ولمصلحة العالم كله، ولأن لبنان، بكل تناقضاته، بإمكانه الاستفادة من مبادرة تحالف الحضارات لتشجيع الحوار والتفاهم المتبادل لتأمين مستقبل أفضل.

ويعد لبنان الدولة الخامسة والثمانين التي انضمت إلى أصدقاء مبادرة تحالف الحضارات وذلك بالإضافة إلى 17 منظمة دولية. وتتلقى مبادرة "تحالف الحضارات" في الأمم المتحدة اليوم الدعم من "جماعة الأصدقاء"، وتوفر هذه الشبكة برنامجاً يتم من خلاله مناقشة المسائل الإستراتيجية وتوفير الدعم الملموس لعملية تطبيقها وذلك عبر مشاريع محدّدة ضمن إطار المحاور الأربعة الأساسية التي يعمل عليها التحالف وهي: الشباب والتعليم والإعلام والهجرة.

وكان للبنان دوره أيضاً في "وثيقة الحوار بين الحضارات" التي تبنتها الدول الفرنكوفونية في خلال اجتماعها في بيروت عام 2002. ومن شأن هذه الوثيقة دفع الحوار الثقافي على ضفاف المتوسط أن يسهم في مزيد من تعرف وفهم الأوربيين للمواقف والرغبات والمشاعر والحقوق العربية التي تتماشى مع مبادئ القانون الدولي عموما والقانون الإنساني الدولي خصوصا. ومن شأن الحوار الثقافي أن يؤدي إلى تقليل فجوة الخلاف بين الطرفين، والذي أفضى حتى الآن إلى الفشل في إقرار ميثاق السلام والاستقرار الذي تمت صياغته في إطار الشراكة الأوربية– المتوسطية. وهناك حاجة ماسة في الواقع لكي لا يتوقف الدور الأوربي عند حدود المسئولية الإنسانية أو الجانب التنموي في العلاقات مع دول المتوسط العربية. هذا فضلاً عن الآثار السلبية لحصر اهتمام الجانب الأوربي، فيما يتصل بالأبعاد الاجتماعية والثقافية والإنسانية للشراكة، في موضوعات الديمقراطية وحقوق الإنسان ودعم دور المجتمع المدني، على حساب قضايا أخرى لا تقل إلحاحا ولا أهمية مثل التعليم، ونقل التكنولوجيا، والشباب، والحوار بين الثقافات. ويعود القصور في تنشيط البعد الثقافي من الحوار إلى عدم وجود إطار مؤسسي لتخطيط التعاون الثقافي بين لبنان والعالم العربي من جهة وأوروبا من جهة ثانية.

ويشتمل الحوار الثقافي، بين دول حوض البحر المتوسط، بالضرورة، على طائفة واسعة من القضايا التي ينبغي أن تكون ذات اهتمام مشترك مثل: حماية البيئة والتسامح والسلام والعدل ومواجهة الفقر والأمراض المستعصية والتنمية وإقامة مجتمع المعرفة والمعلومات والتفكير الحر الخلاق والقبول بالتعدد الثقافي،

مع محاولة الابتعاد قدر الإمكان ولو مرحليا عن المسائل محل التناقض أو التعارض بين الدول العربية والأوربية المتوسطية، فمن الممكن إلى حد كبير أن يفضي البحث عن المشترك وتعميقه وبلورته في التناول الشجاع للقضايا محل الخلاف. ومن هنا فإن الحوار الثقافي بهذا المعنى يشتمل على/ وفي نفس الوقت يتجاوز الحوار الديني. ذلك أن الثراء الثقافي والمعرفي الذي يميز الحضارتين الأوربية الغربية المسيحية والعربية الإسلامية، إلى جانب سعة الصدر والقبول بالتعدد الثقافي، من شأنه أن يسمح للطرفين، أبناء حضارات حوض البحر المتوسط، قديما وحديثا، بمناقشة موضوعية ذات جوهر ثقافي معرفي بالأساس، مثل قضية حريات الاعتقاد وما يرتبط بها من الحقوق الشخصية والمدنية.

وتجدر الإشارة إلى الجمعيات اللبنانية التي تعنى بحقوق الإنسان وأهمها: - جمعية الدفاع عن الحقوق والحريات(ADDL) - الجمعية اللبنانية لحقوق الإنسان (ALDOM) - الجمعية اللبنانية من أجل انتخابات ديمقراطية (LADE) - الجمعية اللبنانية للحقوق المدنية - المعهد العربي لحقوق الإنسان (فرع بيروت) - فرع منظمة لعفو الدولية - الجمعية الفلسطينية لحقوق الإنسان (RASED) - منتدى المنظمات غير الحكومية في لبنان - المنظمة الفلسطينية لحقوق الإنسان - مركز لبنان لحقوق الإنسان(CLDH) - مؤسسة حقوق الإنسان والقانون الإنساني - الجمعية اللبنانية للتربية والتدريب (ALEF). ولهذه الجمعيات دورها في تعزيز قيمة الإنسان بغض النظر عن انتماءاته الدينية والعرقية والثقافية.

ونذكر، هنا "المؤسسة اللبنانية للسلم" الأهلي الدائم للاستفادة من غنى التجربة اللبنانية ومن أجل تحويل سلبيات الحروب في لبنان إلى إيجابيات في بناء الذاكرة الجماعية والمجتمع المدني ومناعته. وخلقت تعابير ومفاهيم أصبحت ملكًا عامًا: الحق في الذاكرة، التوبة القومية، مدرسة الناس، هوية المعاناة، قراءة الحرب في ما بعد الحرب، كلفة النزاعات، القراءة المحاسبية لتاريخ لبنان، تاريخ الحريات... وانطلقت من ضرورة بناء ثقافة مدنية متميزة عن سجال المتنازعين المتحالفين.

و"المؤسسة اللبنانية للسلم" الأهلي الدائم هي مؤسسة علمية تهدف إلى القيام بأبحاث نظرية وتطبيقية ومتعددة الاختصاصات حول سبل إرساء السلم الأهلي الدائم في لبنان استنادًا إلى العلوم الإنسانية الحديثة. وتهدف المؤسسة، حسب المادة الثانية من نظامها الأساسي، إلى:

1- العمل على نشر إدراك جماعي حول عبثية الحروب الداخلية في تاريخ لبنان وعبثية تحويل الصراعات الخارجية إلى نزاعات داخلية، وحول كلفة هذه

الحروب بالنسبة إلى كيان لبنان ومصالح أبنائه ومحيطه ودوره، على أساس أن الوحدة الوطنية هي مقياس الولاء، وان ميثاق العيش المشترك هو قضية لبنان الأولى لا تعلو عليها أية قضية أخرى.

2- المساهمة في بناء ثقافة لبنانية جامعة مستمدة من تاريخ لبنان وواقعه، ومن العلوم الإنسانية الحديثة، يكون أهم عناصرها نبذ كل أشكال الاستقواء وتيارات العزل والانعزال، وإرساء ثوابت في المشاركة وفي احتواء النزاعات بالتفاوض، وتطوير هذه المبادئ في إطار نمط ذاتي في التغيير. وتركز (المؤسسة) اهتمامها على شؤون الثقافة المدنية باعتبارها الركيزة التحتية للسلم الأهلي الدائم، خصوصًا بالنسبة إلى لبنان الذي يحظى بتاريخ طويل من الاختبار في النزاعات والتوافق.

وكان مؤتمر فالنسيا قد رسم أطر الحوار بين الثقافات وأقر خطة عمل تضمنت خمسة مبادئ هي:

- احترام التعددية والتباين والخصوصيات الثقافية.
- المساواة والاحترام المتبادل.
- تجنب التحيز والأفكار المسبقة.
- ألا يستهدف الحوار فهمًا أفضل للآخر فقط بل التوصل إلى حلول للمشاكل الملحة.
- ألا يكون الهدف النهائي للحوار هو تغير الآخر بل التعايش السلمي معه.

وبالعودة إلى تأسيسات الحوار الثقافي، المفيد للبنان والعالم كما تتصورها بعض الشخصيات اللبنانية التي تعنى بهذه القضية، يمكن الإشارة إلى تلك التي أطلقها محمد السماك (الأمين العام للجنة الوطنية للحوار الإسلامي ـ المسيحي) حول آفاق الحوار الإسلامي ـ المسيحي و محاوره، فيرى أنه "في وطن متعدد الأديان والمذاهب، لا نستطيع، بل لا يحق لنا من حيث المبدأ، أن نجعل من مفاهيمنا ومن مصالحنا مقياسا للحكم على الآخرين. من توافق منهم معنا كان على حق وكان وطنيا، ومن اختلف معنا كان على باطل وكان خائنا. إن الاختلاف في مجتمع كالمجتمع اللبناني هو أمر طبيعي، وهو سنة من سنن الله في خلقه. والضابط للاختلاف لا يكون بإنكار الآخر أو بإلغائه أو عزله، ولا يكون بتسفيه فكره أو رفضه أو كتمه، إنما يكون باحترام حريته في أن يكون نفسه فكرا وعقيدة وثقافة ومنهج حياة، ويكون بالاستماع إليه وبمحاورته بالتي هي احسن.

ضابط الإيقاع، كما يراه السماك، في العزف الوطني اللبناني الذي تقدمه 18 عائلة روحية، متجاورة ومتعايشة، هي "الحرية التي تسمح بأن تعزف كل عائلة

منها على شرعة ومنهاج بشذى مختلف، ولكن بانسجام اوركسترالي متكامل، كما هو مفترض، وليس كما هو مفروض، أي عن اقتناع طوعي، وليس عن قبول قسري.

لا بد لهذه الاوركسترا من نص سيمفوني يعزفه وهو الميثاق الوطني. ولا نستطيع أن نتحمل قراءات مختلفة للنص – الاوركسترالي – الواحد. لان تعدد قراءات وثيقة الطائف – أو دستور الطائف – يعني أن تعزف كل فئة على هواها، فتتلاطم ويصبح العزف ضجيجا فوضويا يوتر الأعصاب ويقزز النفس على النحو الذي كنا عليه مثلا قبيل الطائف. فالقراءة "تكون للنص الواحد في وقت واحد، وبفهم واحد، وبالتزام واحد، فلا يقرأ بعضنا فقرة ويقفز عن أخرى، ولا يجود في مادة وينشز في أخرى. قد لا يكون من اليسير دائما الارتفاع في الأداء المشترك إلى هذا المستوى الوطني. ولكنه ليس أمراً عسيرا إذا سادت في مجتمعنا ثقافة الحوار بما تعنيه من اعتراف واحترام لأسس ولمظاهر التنوع التي تغني المجتمع اللبناني".

وتتمحور ثقافة الحوار، كما يحددها السماك، حول المحاور التالية:

أولاً: حوار الحياة، وهو يعني الحياة مع الآخر والاهتمام به، وتفهم خلفياته والاعتراف بتميزاته، ومن ثم بناء عيش مشترك معه على قواعد التفهم والاعتراف والاحترام.

ثانيا: حوار العمل، وهو يعني العمل معا وطنيا واجتماعيا واقتصاديا وإنسانياً. ومن شأن ذلك أن يحقق انسجاما مجتمعيا وتداخلا في العلاقات وتكاملا في المصالح ووحدة واقعية في المصير.

ثالثا: حوار النقاش، النقاش الفكري وحتى العقدي، ليس بهدف توحيد العقائد، إنما بهدف بناء قاعدة وطنية تستقوي بالقيم الأخلاقية التي تدعو لها الرسالات السماوية لتحقيق التفاهم بين أهلها. والوسيلة إلى ذلك لا تكون بالتوقف أمام التباينات وتحويلها إلى سدود معنوية ونفسية، والى فواصل وهمية يحرم تجاوزها أو إزالتها، بل بالبحث عن المشترك في ما بينها، والمشترك الذي يجمع بينها جوهري وكثير.

رابعا: حوار التجارب، بما في ذلك التجارب الدينية. وهنا أيضاً ليست الغاية ممارسة العبادة مثل الآخر، ولكن إدراك الحقيقة بأن الآخر يمكن أن يعبد الله بطريقة مختلفة. والله هو الذي يحكم بينهم يوم القيامة.

وإذا كانت العولمة تدفع نحو المزيد من التداخل والتقارب، فان الدفاع المشروع عن الاختلافات (ثقافية – تاريخية – دينية – لغوية) والتي تحافظ على التميزات الإنسانية، هو حاجة ملحة. فالشخصية الإنسانية تقوم على رموز تحمل عناصر الاختلاف والتمايز. ولن يستطيع لبنان أن يقدم نموذجا صالحا للعيش المشترك للمجتمعات المتعددة الأخرى، ما لم يحصن أهله وحدته الوطنية، وما لم يوفروا لهذه الوحدة المناعة الذاتية ضد التفسخ والانقسام التي بدأت تأخذ الطابع الوبائي الفتاك في زوايا العالم المختلفة.

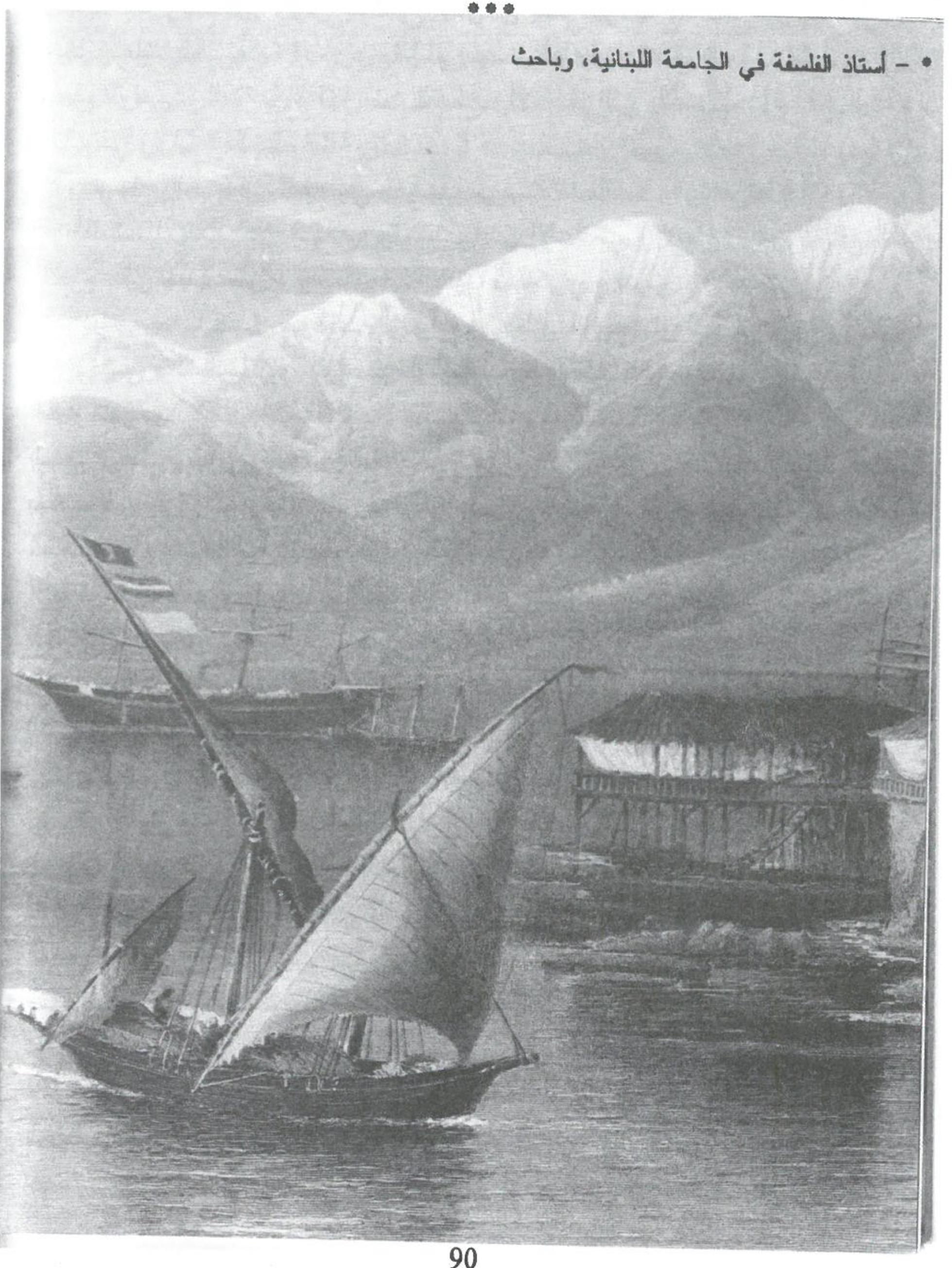
ونجاح الحوار اللبناني تحدده جملة منطلقات وقواعد لعل أهمها لجهة المنطلقات: الابتعاد عن التكاذب والاستعراض الإعلامي والانطلاق من الواقع الذي يقوم على مبدأ التنوّع والتعدّد في الانتماء الفكري والديني والاجتماعي، واحترام الآخر، مهما كان موقعه أو رأيه في إطار الوحدة الوطنيّة الجامعة والانتماء التاريخي والحضاري الواحد، وتوظيف المؤسّسات الوطنية، كالجامعة اللبنانيّة الحكوميّة والجامعات الخاصة، والجمعيات والنوادي الثقافية والرياضة في خدمة الحوار لتحقيق الانصهار الوطني، من خلال تفاعل كل فئات الشعب اللبناني بمختلف طوائفه ومذاهبه. وأما القواعد التي يبنى عليها الحوار، والمنسجمة مع المحاور والمنطلقات فهي: احترام الحق في الاختلاف، وتقدير رأي الآخر وعدم الاستخفاف به، وتحديد المتفق عليه في الحوار والتوجه إلى معالجة القضايا الخلافية، والتربية على تقبّل النقد، والتمسك بالموقف دون استفزاز المعارض ومحاولة إقناعه بأنه على ضلال، ومحاولة العودة إلى الأصول الدينية والفلسفية للتقاليد الخاصة بالآخر وبيان المشترك فيها لجهة غاياتها الإنسانية.

إن الحوار الذي يراعي بصدق المنطلقات والقواعد الموضوعية اللازمة لبلوغ النتائج المتوخاة هو بحق أقصر الطرق إلى السلم والأمن، وأقلها كلفة، في عصر بلغت فيه القوة حد التدمير لكل ما أنجزته البشرية عبر تاريخها الطويل، لا بل باتت تهدد الوجود الإنساني بعد أن صار الكوكب ترسانة تمسك بها قوى المال المتعدد الجنسية المفرغ من القيم الإنسانية، ويفتك فيه وباء التفسخ والانقسام. ولبنان المقيم على ضفة المتوسط، وفي كل أرجاء المعمورة، متاحة له الفرص ليلعب دوره الرائد في حلّ مشاكله الداخلية وتحصين نفسه كي لا يكون ساحة اختبار لأشكال الصراع، وأن يؤسس لنفسه منعة تجعل منه منارة ورسالة تمد العالم العربي المحيط، وغرب المادة، وشرق الروح، وشمال الغنى، وجنوب الفقر، بفلسفة حوار وتعارف وتآلف. "لا ضفاف لها" وتنزع عن الغرب غربه، والشرق

شـرقه، والشـمال جشـعه، والجـنوب مهانته، وتسحب من الأديان والحضارات والثقافات فتائل الصراع والإلغاء، وتبرز فيها ميولها إلى رفع الأنا الفردية إلى الأنا العالمية والكونية، وتحمل الجماعة من قمقم المغلق، إلى فضاء المطلق.

***

• - أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية، وباحث



الشاعر ننُّوس
وملحمة "بيروت الميمونة"

د. يوسف الحوراني*

"الديونيزياك" هي الملحمة الأكثر إثارة في التراث الكلاسيكي.

مؤلّفهـا هـو الأكثر غموضاً في التراث، حتى إن اسمه لا يزال مجهولاً، وما يتسمّى به ليس إلاّ لقباً يعني "المقدس" أو "الممجّد"، وقد أطلقه المؤمنون على نساك الصحراء في العهد المسيحي. وعندما حاول بعض المحققين إلحاق الاسم بشخصية تاريخـية معـروفة وجدوا الكثيرين منهم، بينهم الطبيب، والأسقف، وأمين سر في مجمع خلقيدونيا وغيرهم[1]، وبقي ننوس (الديونيسي) غير معروف الهوية.

سـتة وعشـرون ألف بيت من الشعر، هي الأكثر انضباطاً والتزاماً بالقواعد، والأشد تألقاً بجمالية اللغة اليونانية، وسلاسة التراكيب[2].

ثمانـية وأربعـون نشيداً بالعدد، حيث توازي أعداد فصول الإلياذة والأوديسية مجتمعتين.. فقد كانت تحدياً لهوميرس العظيم...! هكذا وصفها النقاد...

إنهـا بحـق تحدٍّ للتراث الإغريقي الملحميّ، ومن داخل التراث ذاته، وبعبقرية متفوقة فيه من شاعر مجهول النسب.

***

حاول النقاد اكتشاف مثيل لها للمقارنة، فوصلوا إلى الهند، وقلّبوا "المهابهاراتا"[3] و"الرامايانا"، ولكنها بقيت هي المتفردة، وليس ما يقاربها. وقد وصفوها بأنها:

- تقليد للشعر الملحمي الهوميري، ولكنها ليست تقليداً لأحد.
- هي مخزن للميقولوجيا، لكنها سجل للمعارف والعلوم والفلسفة أيضاً.
- كانـت الأقـل شـهرة في التراث الكلاسيكي، لكنها لأكثر استحقاقاً للشهرة والانتشار.

ويـنقل المـترجم الفرنسـي الأول لهـا "الكونـت دي مرسلُس" رأياً بمؤلفها "لسباسـتيان كـراموازيه"، مديـر المطـبعة الملكية في اللوفر، في القرن التاسع عشر، هو:

"ليس هناك ما هو أغزر من كتاباته وأكثر رشاقة من إنشائه".

"كما ليس هناك ما هو أكثر سلاسة وانتظاماً من أسلوب خطاباته، فهي في منتهى السموّ والفخامة."

"إنه يساوي جلال هوميرس، وسمو بندار، وتماسك سوفوكل، وحكمة يوريبيد، وعذوبة كاليماخس، وتوشيات مزويه، وتناغم نيكاندر، وبساطة هزيود، وعقلانية ثيوغنس، وحنان أناكريون، وملوحة أرستوفان، وتهذيب مناندر. فالفلاسفة يجدون لديه عبقرية الطبيعة. إنه الشاعر الذي كان أفلاطون يبحث عنه، دون أن يجده ".(XVIII)

***

ولد في مصر وتثقف في مكتبة الإسكندرية في نهاية القرن الرابع للميلاد. ولكنه لم يكتب عن مصر، بل حفظ المركز الأول لأرض لبنان، فكتب بعاطفة ومعرفة عن بيروت وصور[4]، جاعلاً مركز الشرف في عالمه للأولى، ومُثبتاً نسباً إلهياً للثانية. ومن حق أي قارئ أن يبحث له عن هوية ونسب بعد قراءته...

***

كان عصره عصر قلق في الإمبراطورية الرومانية، قبل أن تعمها المسيحية.

وكان الفكر الروماني يتطلع إلى منقذ ومخلّص. وشاء هو أن يكون ذا رسالة ويبحث للعالم عن منقذ، مخلّص، فانحنى على ما بين يديه من تراث...

كان الرومان يطلقون على الآلهة لقب "المخلص" إرثاً عن الإغريق. لكنهم انتقلوا بعدئذ باللقب إلى الرجال، فغدا من النادر أن نقرأ اسم إمبراطور أو قائد دون أن يقترنَ الاسم بلقب، مثل: الإلهي، أو المنقذ، أو المخلص، أو المتجلي. وكانوا يرون الحروب والانتصارات طريقاً للخلاص والإنقاذ. ولهذا كان مخلصهم هو الفاتح والمدمّر، أو المستبد، تحت شعار البطولة.

- كانت المسيحية، تحت شعار "مملكة السلام"، قد انتشرت بين شعوب الدولة، فهال الرومان أن يكون المخلص جاءهم بالدعوة للسلام، فحاربوا الدعوى واضطهدوا أتباعها، ودعوا مثقفيهم لمعارضتها، حتى أن الإمبراطورة "جوليا دومنا" زوجة "سبتيموس سفيروس" دعت المؤرّخ "فيلوستراتس" إلى كتابة سيرة حياة "أبولونيوس التياني" لمعارضة شخصية المسيح المسالم، في أوائل القرن الثالث للميلاد[5].

- كان هناك فراغ في الذهن الحضاري يبحث عن ملء له. واتجهت الأنظار إلى الأبطال، وإن دون معجزات. وهنا، برز دور للشاعر "تنوس" فانصرف إلى إحياء قصص ديونيسوس، وليس كبطل حرب وفتوحات وحسب، وإنما كمعلم

حضارة ومنشئ عمران، وموحد للعالم، حيث لا يكون فيه شرق وغرب وإغريق ورومان، يقابلهم برابرة.

ومن خلال عقيدته "الأورفية" الروحية التوجه والتعاليم، جنّد فتوّته ليجعل من ديونيسوس "القدموسي" من جديد رسالة حضارية، تجدد فتوة الإنسانية، دون أن يهمل أن هذه العبادة دخلت إلى بلاد الإغريق مع قدموس الفينيقي، حسب هيرودت (49:2). وتجددت مع حفيده ديونيسوس الأخير، ابن "سميله" (145:2). فكان هذا بطل الشاعر "تنوس".

والرسالة الحضارية، كما يسجل بعضها ديودورس الصقلي (1 :17,16)، هي: أن يقوم مع جيش كبير بزيارة العالم المعروف لتعليم الناس كيف يغرسون العنب ويزرعون القمح والشعير، لاعتقاده بأنه، حيث يعلم الناس كيف يتخلون عن الوحشية ويتبنون طريقة مهذبة للعيش، سيُعتبر ذلك إحساناً عظيماً، وسيكون له منه شرف خالد على مدى الأجيال.

وكما يذكر ديودورس، فإن ديونيسوس كان انطلق من مصر، بعد أن نظم مجاري النهر وجفف المستنقعات عند حدود "أثيوبيا"، فاجتاز البلاد العربية على شاطىء البحر الأحمر. وانتقل إلى الهند وحدود العالم المسكون، فأنشأ عدداً كبيراً من المدن وعلم الناس زراعة الكروم (1 :19 ,5).

تبنى الشاعر هذه الرسالة الإنسانية، رابطاً إياها بمذهبه "الأورفي" الشرقي التطلع والطقوس، متطلعاً إلى المصدر الذي نهل منه "أورفيوس" تعاليمه، فبلغ بها ما بلغه من مركز عال بين الإغريق، كما يشير إلى ذلك ديودورس الصقلي (1 :23 ,5).

وهكذا، وبموازاة مبادئ المسيحية التي كانت تنتشر في زمنه، وربما رغبة في معارضتها، راح يكتب ملحمته الكبرى، مسايراً بها التطلع إلى الإلهي والمنقذ، المخلّص، مسجلاً فيها جميع معارف زمنه الفلسفية والعلمية والاجتماعية. وهدفه الأسمى كان تبشيرياً حضارياً هو أرقى ما يتطلع إليه مصلح مبدع..

لقد كان أكثر من شاعر في مجموعته "الديونيزياك". اعتبر ذاته رسولاً وضع رسالته على لسان أبطاله. فنقرأ له على لسان "هرمس" الذي جاء خاطباً الفتاة "هرمونيا" لقدموس، حيث يقول عنه: "... بينما كان الخالدون في ضيق جاء هو الضيف (قدموس) لينقذ الجميع بكلامه العذب؛ فهو الإنسان الذي دافع عن الزوج (زوس) في محنته، ونشر في الأولمب (مجمع الآلهة) نهار الحرية." (3 :438).

ففي هذا النص جعل قدموس داعياً للإله الأعلى "زوس" في بلاد الإغريق، وحامياً له من الثائرين المنافسين له. وهو ما لم يحصل إلاّ مع المسيحية والإسلام بالتبشير بإله أعلى، عالمي الوجه ولا منافس له، وذلك بعد قدموس بأكثر من خمسة عشر قرناً.

ومن يطّلع على نص خطاب هرمس لوالدة هرمونيا يلاحظ أن الشاعر كان مطّلعاً على تعاليم المسيحية ونصوص الأناجيل، عند كتابته ملحمته. فهو يجعل هرمس في مقام الملاك جبرائيل، فيخاطب أم هرمونيا قائلاً: "يا أخت أمي، زوجة زوس، السلام لكِ! أنتِ سعيدة بين جميع النساء من أجل المستقبل لأن "الكرونيد" (الإله) يحفظ لأبنائكِ سيادة جميع الكون، ونسلك سيحكم جميع مدن الأرض..." (3 :425).

وهذا النص يذكر بسلام البشارة على لسان الملاك جبرائيل، كما ورد في إنجيل لوقا (1:28). وهذا ما لاحظه معلق حواشي الترجمة الفرنسية الحديثة للمجموعة، في طبعة "الآداب الجميلة" "فرنسيس فيان".

***

يجعل الشاعر لأرض لبنان مقاماً مميزاً في ملحمته، عند ذكرها، أو ذكر أية مدينة من مدنها. ففي تهنئة لهرمونيا من والدتها تقول لها: "... أن يكون لك زوج فاتن، هكذا، هو ما لم يحصل لأية عذراء أخرى! فبدون خلاف هو يحملَ (في عروقه) دماء بلده "الأسيري"، حيث كان يسير أدونيس المليء بالنعمة: ولكي تكون لديه هذه الفتنة، لا بد من أن يكون هذا الشاب جاء من لبنان، حيث ترقص القيثيرية (أفروديت) (4 :78).

كما في تهنئة أخرى للخطيبة يقول المهنىء: "... يا لها من جيرة، هي جيرة أدونيس! ويا لها من شراكة وطن مع نساء جبيل! لا، لقد أخطأت: أنكِ لم تري مجرى نهر أدونيس، ولم تبصري أرض جبيل، حيث يوجد مسكن "المنَعّمات"! (3 :106).

وفي الوقت ذاته يتحدث عن قدموس بجنسيتين، مصرية ولبنانية، حيث يشمل مقطع من ملحمته الجنسيتين معاً، حين يخاطب قدموس بالقول: "... هيا! لا تأسف كثيراً لوالدك ولمدينة صور؛ ابقَ في الأرض الغريبة، وأسِّس مدينة تحمل اسم موطنك "طيبة" في مصر." (4 :303).

وفي مكان آخر يتحدث عنه كفينيقي أصيل، بقوله: "... إنه كملاح فينيقي بارع، وكما هو في وطنه، هكذا أدار سلطته." (4 :232).

كما بمناسبة وضع أساس مدينة "طيبة" وتخطيطها في بلاد اليونان، يقول "... وقد تزينت المدينة الأيونية بزينة من الحجارة، حسب فن مدينة صور." (5 :56).

لقد عدد بإعجاب عطاءات قدموس لبلاد الإغريق. وكان كمن يفاخر بعطاءات الساميين وبفضلهم على حضارة الإغريق، ليس منذ قدموس وحده، بل منذ ما قبل قدموس، حيث يذكر "دناوس" وما قدمه للهلينيين من هدايا حضارية، منها حفره لبئر للماء، بمعول برونزي في أرض "أرغوس"، حيث أتاح لهم ذلك الإقامة في البلاد، مذكراً بأن قدموس تجاوزه بتقديمه هدايا موهوبة بالكلام والعقلانية، ثم بجمعه بين الحروف الساكنة والصوتية، وبرسمه لأشكال الحروف، التي كان قد تعلمها في وطنه، كعجائب لعلم إلهي (4 :251-265).

وبحماسة كبيرة للرسالة الحضارية التي أدتها العائلة القدموسية يرى أن "أغنور" هو مؤسس مدينة طيبة في مصر قبل انتقاله إلى أرض لبنان ومدينة صور، وأن له أخاً ثالثاً غير دناوس يُدعى "بيزا"، وهو الذي أسّس مدينة "بيزنطية" (3 :367). وهذه الإشارة لم ترد عند غير "نتوس" من مسجلي روايات الميثولوجيا. وربما كانت لا تزال دون تسجيل حتى زمنه(؟).

أمّا الإشارة إلى إزدواج جنسية قدموس، فهي قد تكون واقعة تاريخية، حين اعتبار خروج أغنور من مصر مع خروج الهكسوس الشيتيين الكنعانيين الذين كانوا يحكمونها في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد. وهذا الخروج يفسّر نشاط هجرة بعض الكنعانيين إلى بلاد الإغريق آنذاك.

***

يتبنّى الشاعر موضوع ديونيسوس حفيد قدموس من ابنته "سميله"، مذكراً بأنه يشبه ديونيسوس القديم (5 :564)، وأنه مثله ولدَ بإرادة من الإله زوس (عليون)، ليقوم برسالة إنقاذ وخلاص للإنسانية.

ولكنه، خلال التبشير والنشر لهذه الرسالة، يكتشف أن هناك طريقاً أخرى للإنقاذ والخلاص والتجدد الإنساني، غير طريق الأفراد والأعمال العسكرية أو البطولية، مهما كان شكلها.

يكتشف ما في "بيروت" من رسالة حضارية، خلال مدرسة الحقوق فيها والتشريعات التي كانت تتعهدها هذه المدرسة[6]، فيرى فيها الخلاص، كل الخلاص للإنسانية. ويرى فيها الأساس الأرسخ لبناء السلام بين الشعوب.

كرّس ننّوس ثلاثة فصول طوال لمدينة "بيروت الميمونه" كما لقبها. ورأى في هذه الفصول رؤيا خلاصية، تجاوز خلالها كل من سبقه إلى مثلها من الرائين؛ فكتب عنها يقول:

"ولدت الطفلة للنور بمساعدة القاضي "هرمس".

"استحمت بالرياح الأربع التي تنقّلت في جميع المدن لتملأ الأرض بمبادىء بيروت.

"وكان "أوقيانوس" الرسول الأول لتشريعات الطفلة الوليد.

"... كان "الزمن" المعاصر له يلف الطفلة الوليد بيديه الدهريتين بثوب من العدالة، متنبئاً بالأشياء التي ستحدث.

"هو أراد التخلص من عبء العمر، كما تفعل الحية حين تتخلص من جلدها القشري الضعيف، وغير النافع، لتنمو فتوّته، حين الاستحمام بمياه الشرائع." (41 :173).

وبيروته هذه التي رأى فيها تحقيقاً لرؤياه الخلاصيّة، المجدّدة للزمن، كان وصفها بأنها: "أرومة الحياة، مرضعة المدن، مفخرة الأمراء، أولى المدن المنظورة، الأخت التوأم للزمن، المعاصرة للكون، كرسي هرمس، أرض العدالة، مدينة الشرائع، "عرزال" البهجة، منزل البافية (أفروديت)، معبد كل حب." (41 :144).

رأى الخلاص خلال بيروت، المدينة التي وجدت لحماية جميع المدن.

وما كتبه عن بيروت كان يبحث عنه خلال رسالة ديونيسوس الحضارية، معتمداً على ما كتبه مؤرخو الميثولوجيا عن عراقة عائلة بطله في تحقيق هذه الرسالة الواسعة الانتشار، ولكنه، كما يبدو، اكتشف خلال عمله بطلاً جديداً للسلام، لا تتعارض رسالته مع ما يدعو هو إليه. فقد اكتشف المسيحية وانضوى إليها. ولم يكن ذلك تناقضاً أو ارتداداً أو تحولاً، بل كان لديه استمرار نضج والتزام واقع، نجده ملامساً له أو مقارباً في كل ما كتب وتخيّل. وقد نظم إنجيل يوحنا شعراً لانسجامه[7] مع ثقافته الإغريقية. بل نجده كاد يصل إلى النبوءة وادعائها في خياله الخصب.

***

لم يرَ في مدينة صور وإنجازاتها الحضارية العظيمة أنموذجاً كافياً لمشروعه الخلاصي، ولهذا وبرغم الشهرة التاريخية التي اعترف بها لهذه المدينة العظيمة، لم يخصص لها سوى جزء من فصل ولو أنه تجوّل في القرى المجاورة لصور

لاكتشف وفاء اللبنانيين لتراث الطائفة القدموسية في مجموعته. فهو مرّ فيها كمن كان يبحث عن نسب لبطله ديونيسوس. ولم يتوسع بالتغني برسالتها، مع أنه يكشف لنا عن معرفة تامة بإنجازتها إلى حدٍّ أنه يذكر مصدر الأنسجة التي كانت تقوم مدينة صور بصباغتها، وماهية صبغة الأرجوان لديها، وكيف تم اكتشافها.

هو جاء، وبنيّته رؤية الأرض الصورية، بلد قدموس (40:300). وبرغم أن التاريخ لديه يسجل انطلاق ديونيسوس وقدموس من مصر، فهو أراد أن يثبت أن ديونيسوس هو ابن حفيدة أغنور، ملك صور، وأن قصر جده قدموس هو في هذه المدينة التي خطفت منها العمة "أوروبة" (40:355).

ولو أنه تجوّل في القرى المجاورة لصور لاكتشف وفاء اللبنانيين لتراث العائلة القدموسية، حيث أطلقوا أسماء أعلامها على قراهم، طلوسا، أم قدموس، ونعتها: عرقوبا، وشميله: هي ابنته الأشهر، وكيفا هو عمه، وزوجته قصيبى، وفرون هو جده الأعلى، وعباس هو رمز العائلة الأقدم، وأخيراً: الطيبّة هي بلدة العائلة.

ونجد في النص وصفاً لقناة برك راس العين لا نجده عند غيره.

كما نجد وصفاً لمعبد هرقل في المدينة، مما يفيد مؤرخي الحضارة والأديان في زمنه. فهو، أي الشاعر، بمفهومه الأورفي لوحدة الألوهة والكون، دمج بين إله المعبد في صور والشمس، فوصف الإله باللابس للكواكب، الراعي الساهر على حياة الناس (40:370).

ثمّ يرى فيه مجموعة الآلهة التي يعرفها لدى الشعوب المختلفة. فهو: الشمس والبعل وآمون وأبيس وكرونوس وزوس وسيرابيس وفايتون والمترا وأبولو مجتمعين معاً (40 :385).

لقد كان هذا هو المفهوم الأورفي للألوهة والكون، كما تتذكره الأناشيد الأورفية. ولم يشأ الوقوف عند هذا المفهوم، دون ربطه بفكرة فلسفية، فأطلق على هذه الفكرة "الزواج" الذي أولده الحب في أحلام ليلية (40 :405). ولم يقصد بذلك سوى حركة الحياة والعلاقة الدائمة المتناغمة بين الكائنات، وكأنه كان يشرح محبة "أنبدوكل" الفيلسوف الإغريقي.

يستعرض صناعة السفن، في مدينة صور، فتخاله نجاراً خبيراً يعرف كيف يمنع تسرّب الماء إلى السفن التي ينتجها (40:445). وهنا يتنبأ بسفن جديدة للبر (40 :510)...!!

ونقرأ لديه أن ديونيسوس استمتع بطعام الآلهة (الأمبروزيا) في معبد المدينة، مما يعني أنه بدأ بالتحول إلى إله في هذه المدينة (40 :420). كما

هو لم ينسَ قصة "الفينيق" وتجدد الحياة بالنار (40 :400)، فقد كانت فكرة التجدد هاجسه الدائم. ومن ثم انتقل إلى بيروت التي شاءها فتاة حيّة باسم "بيروي". وكان سانخونياتن قد سبقه إلى هذا التشخيص، عندما رأى أنها زوجة "عليون"، وهي من منطقة جبيل. ويرجح أن يكون النص الذي ترجمه فيلون الجبيلي في القرن الأول للميلاد كان بين يديه، وإن لم يُشر له.

يبدو وصفه لبيروت وصف مقيم، تجوّل طويلاً في المدينة، وعرف جغرافيتها وينابيع مائها، وعلاقتها بالروابي والجبال المحيطة بها.

يعطينا نظرية فلسفية عن الخلق ووجود الناس، حيث يشرح موضوع تركيب المادة والحياة من العناصر الأربعة، وكيفية تحوّل هذه العناصر إلى كائنات حية، وفق نظرية الروماني "لوكريشيوس". وذلك ليثبت قدم سكان بيروت وعلاقتهم الأزلية بأرضهم، وهو القول ذاته الذي قاله عن مدينة صور. وقد رأى مدينة بيروت نشأت قبل أية مدينة أُخرى مشهورة بالقدم، وهي التي استقبلت أفروديت الناشئة في البحر. وهنا عند ولادة بيروت، يصف تخيله للبهجة التي عمدت الكائنات بولادتها، فتخيّل أن الحيوانات المتوحشة غدت مسالمة وأليفة لبعضها، إلى حد أن الأشجار غدت تترنم بأصوات، وذلك وفق رؤياه الخلاصية للعالم المرتبطة بولادة التشريع في بيروت (41 :186-204).

ولم ينسَ هنا عداء الخنازير وعدم مشاركتهم بالفرح، مما يرجّح لنا أنه من سلالة سامية كنعانية، تحرّم التعامل مع الخنازير.

ولم يشأ أن تكون رسالة بيروت منحة من أحد، فرأى أنها حصلت على ذلك مكافأة حب من الإله زوس ذاته الذي أوقف مبادىء العدالة لمدينة أفروديت، بلدة النبلاء "بيروت" وليس لغيرها (41 :325)، وذلك من أجل ضمان الانسجام في العالم (41 :322).

وهنا يعرض الشاعر معرفته بالكواكب، فتراه وكأنه عالم فلك مختص بها، بل نراه في أكثر من فرصة يذكرنا بمعرفته العملية للإفادة من مراقبة الكواكب، للسفر ولتنظيم المواسم، كفلاح حاذق في أحد الأرياف، يرصد الأفلاك لينظم، على إيقاعها، مواسمه. وقد نعجز عن إيجاد التسميات العربية لكواكبه ومجموعتها، فتركنا معظمها على اسمه اليوناني.

***

إنه موسوعة ثقافية بمعلوماته. فهو لم يفته شيء، سواء عمن وضع قوانين وأنظمة، أم عمن ابتكر الآت وألحاناً موسيقية، وحتى أنه يكشف تفاصيل لم ترد عند غيره. ومنها أننا كنا نتساءل عن التعديلات التي نسبت لقدموس في استعماله الأبجدية الفينيقية للكتابة اليونانية، فأوضح "نَنوس" أنه أدخل الحرف الصوتي إلى الحرف الساكن. وهذه الإشارة الهامة جداً في تطور الكتابة، لم أقرأها عند غيره. وكنا نعتبر الموضوع تطويراً يونانياً صافياً (41 :382).

ومع هذه الدقة باستخدام المعرفة في الشعر، نقرأ لديه صوراً شعرية متميزة، حيث نقرأ، مثلاً، على لسان أفروديت وصفاً لمنظر جبال لبنان، قرب بيروت، فتقول فيه: "سأزرع السماء على الأرض قرب البحر الذي هو أمّي." (41 :416)

وينتقل عند نهاية هذا الفصل عن بيروت إلى موضوع آخر يخص المدينة، وهو موضوع اجتماعي سياسي، تفرضه جغرافية المدينة وموقعها الحضاري، ليس في زمنه وحسب، بل في كل زمن. فهي موضوع صراع بين البر والبحر، تتشابك مصالح أبنائها وعلاقاتهم وثقافاتهم مع أبناء البحر، كما مع أبناء البر. ولعله يحسم هذا الصراع المتكافئ، فنجده يمثله بقتال رمزي بين قوى الجانبين، لا يتغلب فيه فريق على آخر، وإنما يُحسم بتدخل إلهي، هو أقرب إلى سلطة القدر، دون تبرير وشرح. والشرط هو أن يكون البر والبحر سواء، في حال الهزيمة، أم في حال الربح، أن يكونا وفيّين، محبين للمدينة العظيمة.

***

لقد جاء بوزيدون من البحر بجوار بيروت، بينما ديونيسوس (باخوس) جاء من أرض مدينة صور، من بين جبال لبنان، كما يقول: "ورماهما إله الحب "إيروس" بسهم واحد مزدوج، فألهب فيهما حرقة الحب لبيروي (بيروت)، وراح الاثنان يتنافسان بتقديم الهدايا للحورية العذراء." (42 :25).

وفي وصفه للواعج الحب وعذابه لدى ديونيسوس، نجده يتفوق على جميع من كتب ونظم في هذا المجال، فتخاله المعلم الأكبر لشعراء الحب العذري لدى العرب، وللرومانسيين الأوروبيين. ولا أنسى صورة يشبه بها البطل الذي تغلّب في جميع المعارك بثور فحل لسعته ذبابة الربيع (القاقوية)، فغدا هائجاً، يطعن الهواء بقرنيه، بعدَ أن لَسعَهُ الحب لفتاة بريئة لم تكترث له (42 :185).

أما دروس التعامل مع المحبوبة فلم أقرأ عند غيره مثيلاً لها، وهو يجعل بطله يتلقاها بصبر من الإله "بان" صريع الهوى مثله. وهذا المقطع من الفصل يستحق أن يكون له عنوان خاص به هو "درس في الحب" (42 :202).

وكم كان متفوقاً على ذاته عندما جعل البطل يجبن عن مصارحة حبيبته "بيروي" بحبه ورغبته فيها؛ فيصرخ: "إني فلاح في لبنان الذي يخصك.. سأسقي لك أرضك وأعتني بقمحك..." (42 :279).

يتدافع وصف حالات الحب والشوق على قلمه، كسيل هادىء لحالة نفسية، لا يدركها إلاّ من عانى منها وعاش في لفحاتها، خلال عنفوان فتوّته، وفي أتون عواطفه. وهذا ما يثبت أن الشاعر كتب فصول بيروت، بوجه خاص، في فتوّته الباكرة، فرسم عواطفه وانفعالاته العميقة وتجاربه الشخصية في الحب. ولعله كان ملفوحاً بناره فأجاد وصفه...!!

حافظ على سموّ عاطفة الحب، ولم يصف العلاقة الجنسية بغير تكنيتها بربطة حزام الفتاة، مذكّراً المحبين بأن هناك فتيات كثيرات ينفرن من العلاقة هذه، ويملن إلى الحفاظ على عذريتهن ولهذا التذكير يستخدم شهرة بعض إلاهات الميثولوجيا بالحفاظ على عذريتهن.

ويختم هذا الفصل بخشية والدة بيروي من أن يكون جمال ابنتها سبباً لتدمير مدينتها بيروت. وكأنه كان يرى الرؤيا وما حل ببيروت الجميلة سنة 1975... ...

***

خصص النشيد الثالث والأربعين للحرب بين الأمواج والكروم، كما يقول.

ويبدو أنه أراد معارضة هوميرس خلال هذا النشيد، فاستعار الكثير منه، ولكنه بقي أصيلاً، دقيق الوصف للمعارك، متفرداً بحقول لم يطرقها هوميرس. الحرب بين البحر والبر كانت من أجل الوصول إلى الميمونه "ملكة لبنان"، كما يذكرها (43 :105). أمّا ما يدعم بيروت في البر فهو الكرمة، مضافة إلى الزيتون (126: 43). وما يدعم البحر هو كل البحار والمياه...

ويكاد يصل إلى نبوءة هامة حول مستقبل المدينة، حين يقول على لسان البطل ديونيسوس: "... سأجعل المدينة ذات شكل آخر. لن أتركها قرب البحر، بل سأمهد التلال الوعرة بسلاحي، وسأردم البحر الأزرق العميق، قرب "بيريتس"، جاعلاً المياه أرضاً يابسة، ذات حجارة وصخور. وسأمهد الطرق البرية، فأجعلها مستوية بالحربة الجادة." (43 :128).

لم أقرأ رؤيا لدى شاعر بلغت هذا المستوى من التحقق، بعد ستة عشر قرناً من الزمن. بل لم يكن بالإمكان ردم البحر الذي وصفه قبل نهاية القرن العشرين والوصول إلى عصر الآلات الذي نحن فيه، زمن "سوليدير"...

فيا لها من رؤى مستقبلية كانت لدى هذا المبدع، المرهف الحس والتطلع!

كان يكتب الأساطير وكأنها لطبقة معينة من القراء، هي طبقة كبار المثقفين في العهد الكلاسيكي، حتى أننا لا نقرأ إشارة أو صفة لديه إلاّ ولها وجود وقصة مرتبطة بمن أو بما يذكره. ولذا نجده ملتزماً التزاماً تاماً بالروايات الأسطورية، مما يجعلنا نعتقد أنه لم يرو قصصاً من عنده، وإنما ما ذكره، ولم يذكره غيره، كان من روايات شعبية، سجلها وحده تسجيلاً أميناً ولم يبتكرها من عنده.

وعند وصفه لالتقاء تيارات البحار المختلفة، تخاله عالم بحار خصص كل وقته لدراسة هذه التيارات. (43 :292).

وكذلك لنقل عن معلوماته الجغرافية، فهذه لديه لا تكون إلاّ وصف مشاهد باحث، يزور المواقع قبل أن يكتب عنها.

أما خاتمة نشيد بيروت الميمونه، فقد جعلها خاتمة فلسفية، لا تنهي قصة حب، كما يفعل الكتاب والشعراء، حيث تكون النهاية مأساوية أو فرحة لقاء، بين حبيبين، إنما شاءها منطقية، تتم بتدخل قوة عظمى، فتوقف الصراع، وكأنها تؤجله. وقد عبر عن ذلك بكلمة هي أجدر بأن تكون لسياسي معروك، حين وصف الحالة بأنها "سلام ثقيل" (43 :380).

وهكذا يتخلى ديونيسوس عن بيروت ليبحث عن غيرها بعد خضوعه لإرادة الإله الأقوى والأكبر "زوس": "وبعد الاحتفال بعرس "بيروي" في البحر، غدا عريسها، مزلزل الأرض، صديقاً لأرض وطنها." (43 :395).

خلاصة رؤيا

آمن الشاعر الملحمي "نُنوس" برسالة بيروت العالمية، ورأى في تشريعاتها الحقوقية، في العهد الروماني، نافذة خلاص للإنسانية توصل إلى السلام وتحمي حقوق الإنسان، "مدينة واحدة من أجل جميع مدن العالم." (41 :400).

واستمراراً لهذه الرؤيا المستقبلية لمدينة بيروت نلفت إلى أنها اليوم، في نهاية القرن العشرين، تمثل مسرحاً متقدماً لممارسة حقوق الإنسان، خلال الاعتراف الرسمي بالحقوق الخاصة لثماني عشرة طائفة من أبنائها كخطوة أولى.

ونـــأمل بـــأن تســـتطيع بـــيروت تقديم أبجدية جديدة لحق الحياة والمشاركة في المجـــتمع، لكـــل إنســـان، مهما اختلف عن جيرانه بالعِرق أو بالدين أو باللغة أو بالتاريخ...

لقد آن للتشريع أن يحمي الضعفاء والمظلومين ويحفظ دماء الأبرياء...

***

* - أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية، ومؤرخ

[1] De Marcellus (Le Comte), Nonnos, Les Dionysiaues ou Bacchus (Poeme en XL VIII Chants Grec et Francais), P. VIII, ed. Librairie de Firmin Didor Freres, Paris 1856.

[2] De Marcellus, p. LII.

[3] De Marcellus, p. L.

[4] Vian (francais), Nonnos de Panopolis, Les Dionysiaques, Texte etablie et traduit, p. X et XIV, ed. Les Belles Lettres, Paris 1976.

[5] Philostratus, The Life of Appolonius of Tyana, p. XIV, ed. (2 vol.) Harvard University Press, London 1960.

[6] Nonnos, Dionysiasca, tran. By W. H. D. Rouse, p. XVII, ed. Harvard University Press, London 1956.

[7] Collat (M. Paul), Nonnos de Panopolis, Etudes sur la Composition et le texte des Dionysiaques, p.5, 6. ed. Recherche d'Archeologie de Philologie et d'Histoire, Paris 1930.



بيروت عاصمة الفكر
وناشرة الحرف في العالم[1]

د. فيفيان الشويري*

- هنا، نعم ها هنا، في هذا المكان سوف ترتفع ولن تفارقه أبداً، طالما أن البعل يحمي ساحلها متربّصاً في مغارته لكل عدو، ليفتك به، إن هاجمها.

- هل اتخذت قرارك نهائيا؟

- أجل وهل من موقع أجمل تنتصب فيه أعمدة مدرسة بيروت؟

- في الواقع لا، فأنا مسحور مثلك بهذه المدينة الحورية البارة[2]، ليتني لا أتركها أبداً!

- إذن ابقى هنا، فأنا استدعيتك من أجل تأسيس المدرسة، ودورك هنا من الأهمية بمكان.

- وأوغاريت ومكتبتي الملكية فيها، لمن أتركهما؟ هل تتخيل حجم العمل الذي ما زال عليّ تحقيقه في نقش الرقم وجمعها، والتي سبق وأطلعتك عليها؟

- أجل أنا مدرك تماماً لأهمية الأمر، ولكن دورك في بيروت يوازي دورك في أوغاريت، فكلاهما بلد واحد[3]، وكلاهما تضمّان معاهد علمية ومدارس ومكتبات والمستوى نفسه في الأبحاث والعلوم والآداب، وحاجتي لك هنا من أجل تطوير عملك وليس إهماله.

- تطويـــر! ولكن عذراً، ما بالك أيها الكاهن سنخونياتن؟[4] أتقصد أننا لا نتطور فـــي الأبحـــاث عندنا في أوغاريت[5]، ولم تمضِ شهور على اطلاعك عليها وثنائك ومديحك على عملي في نسخ الرقم والتدوين والتأريخ للأحداث والتراث؟

- عفـــوك ســـيدي لـــم أقصد التطاول على عالم جليل مثلك سبقنا بأجيال ونحن مديـــنون لـــــه بالفضل الكبير. أنا أقصد أن نطوّر معاً، هنا في مدرسة بيروت[6]، معارف وعلوم متجددة وندوّنها بالاستعانة بما استحدثته مدارسنا وما نساهم فيه من أجلهـــا فـــي صـــيدا وجبـــيل[7] وصور[8]، عنيت الخط الأبجدي الهجائي الذي طوّره باحثونا الجبيليون عن كتابة مصر[9] وعن كتابة سيناء[10] وعن كتابتكم الأوغاريتية[11] نفسها، هنا على أرضنا تحديداً[12]. ولم أعنِ خط كامد اللوز[13]، ولا خط بابل الأكدي

المسماري الذي يكتب به حكامنا المتذللين والمتذلفين[14]، رسائلهم لتل العمارنة[15] في مصر. علماً أنها كلها خطوط بلادنا[16]على اختلاف أقلامها، وهي تطور طبيعي لما بـدأه أسـلافنا في مجال إبداع الحرف، ولكن العصر يتطور ويجب اللحاق بركبه وليس الرجوع إلى الوراء، وإلا سبقنا أعداؤنا!

– حيّرتني يا أخي، تريد القول أن خطنا الأوغاريتي لم يعد يصلح؟

– أجـل يـا شيخنا، ألا ترى العالم اليوم بدأ يتخلى عن المسمار لصالح أبجديتنا هـنا؟ ماذا حمل معلمنا قدموس معه الى الغرب؟ أليس خط بيروت وجبيل وصور وصيدا اللّين المطواع والمبسط؟ لماذا التعقيد عندما يمكنك اللجوء الى البساطة؟

– تقصد أن قلم أوغاريت[17] لا يصلح أن يحتذى به ولا أن يعلّم للشعوب؟

– للأسف هذا ما أقصده يا إيلي ميلكو![18] لقد ولّى عهده وأصبح من الماضي لأنه أعقد من أبجديتنا الحالية[19]، فبدل الكتابة بحروف مسمارية الشكل متعددة الرموز من أجل التلفظ بحرف هجائي واحد، من الأفضل إستعمال رمز لكل لفظ مباشرة كما في هجائية جبيل وصور وصيدا وبيروت. وهل نحن بأفطن من المعلم المبدع قدموس وأخته الأميرة أوروبا اللذان تغربا لتتربع هي على مملكة حملت إسم أوروبا وتبعها هو لنشر حرفنا هناك؟ هيا، قل لي، لماذا فضل قلم بيروت لتعليمه وليس قلم أوغاريت؟[20] ولماذا تابع قدموس تطوير حرفنا في الغرب حيث "ركّب الحروف الصوتية مع المتحركة وعلّم أسرار الكلمات الصحيحة"[21]، أوليس لتتلائم واللسان الغربي الذي تبناها؟ أليس هذا وحده إنجاز لأمتنا؟

– وكل هذه الرُقم واللوحات التي نسختها وضمّنتها تراثنا الجليل؟ وكل ما أورثنا إياه أجدادنا من فكر وفلسفة ودين وأدب وعلوم؟ أخبرني، هل أمضيت عمري في نسخها لتغدو لا قيمة لها بسبب الخط وصعوبته؟ ما هذه الادعاءات؟ هل نرمي مجهود سنين هكذا، بلحظة؟

– لا، بل ستحفظ لأجيال قادمة وسوف تكون المنارة لحضارتنا، ولكن علينا اليوم أن نستمر في مسيرة نشر ثقافتنا بأبسط المناهج الممكنة. ألم تكن هذه دائماً سياسة رجالاتنا وقادتنا ومنذ أقدم العصور؟ واليوم، ألم نبسّط الكتابة من أجل جذب البشرية أكثر فأكثر إلى فكرنا؟ إليك هذا، هل علمتَ أن ما أوصله المعلم إلى الغرب قد حوّر وألبس زي البلاد التي اكتسبته؟

– يا للهولّ! عذراً يا طاوط[22] العظيم! أتقصد أن فكرنا لحق به التشويه والتزييف على يد هؤلاء الغربيين؟ وهل هذا ما يسمح به قدموس؟ وهل ترضى أنت بذلك؟

–وكيف أمنعه؟ أوتحسب نفسك في مصر حيث الجمود الفكري والتقوقع التقليدي بسبب قدسية كل شيء وخاصة الكتابة[23]؟ لا يا سيدي الوقور، خذ الأمور على عفويتها وكن واقعياً، فمن الطبيعي أن يتقبل الغرب فكرنا وأدبنا[24] وهذا هدفنا. ومن الطبيعي أيضاً أن يلحق به التحريف بسبب النقل والترجمة، فكل ترجمة هي خيانة بحد ذاتها. هيا، دعهم يحوّرون ما شاءوا، فهم غربيون معذورون، لأنه سوف يأتي يوم، تقوم فيه فرقة من شعبنا هي الأحقر، فتحوّر على هواها وما يوافق ميولها، تراثنا العظيم[25]، وذلك بسبب المشاحنات السياسية وغيرها من الأمور التي تفرّق بين أبناء الشعب الواحد. وهل يمكننا فعل شيء لمنعها؟ فكل يدّعي أن الوطن له، وكلّ يدّعي أن التراث ملكه وحده وكلّ يريد الإستئثار به لنفسه، حتى ولو جزأ وشوّه وخرب وضيّع البلاد والعباد! أوليس هذا ما تكتب أنت عنه وعن تآمر الحكام والفئات ضد بلادنا في كتابك الذي تنتقد فيه حكام سوريا وأوغاريت الفاسدين؟[26] هوذا الكون! وسوف تبقى الأمور هي هي في كل زمان ومكان. لذلك، فلنهتم نحن في مركزنا الجديد، في مدرسة بيروت هذه، بما أورثنا إياه أباؤنا العظماء على أصالته، علّنا نحفظ ما لنا في أرضنا ونكون شهداء حق للتاريخ. من أجل هذا الأمر إستعديتك وأنت العارف الكبير بكل تراثنا الجليل[27].

هذا ما دار من حوار بين سنخونياتن وإيلي ميلكو[28] الطاعن في السن فوق البقعة التي أسسا فيها مدرسة بيروت العريقة التي امتد عمرها، كما أراداً، إلى مئات السنين، والتي لا بد أن تكون ذاتها التي اشتهرت بمدرسة الحقوق في العصر الروماني، باعتبار بيروت "أم الشرائع"[29] والتي استمرت حتى سنة 551، حين هدّمها الزلزال العنيف الذي ضرب سوريا.

انكب سنخونياتن في معبد بيروت على وضع جدول بأنساب الآلهة الفينيقية[30]، وواصل تأريخه لأمجاد الأمة ورجالاتها. وذات يوم، جاءه نبأ موت صديقه العالم الأوغاريتي إيلي ميلكو الذي أمضى أواخر أيامه في كتابة "اللآليء"[31] الذي ضمنه الوضع السياسي القائم ونزاع الملوك قبل دمار أوغاريت سنة 1200 ق.م. على يد شعوب البحر الغازية بقوة الحديد.

ومرت السنون، وفي أحد الأيام، بينما كان البحارة يستعدون لركوب البحر انطلاقاً من بيروت، بعد أن قدموا الأضاحي في معابدها[32] والنذور في معبد بعلة بيروت، عشتروت[33]، القائم على المرفأ، خرج القبطان من المعبد ومعه رزمة من المخطوطات أودعها صندوقاً من المعدن وطلب من معاونيه أن يحفظوه في حجرة خاصة من السفينة حيث تحفظ الكنوز، لأن ما تتضمنه تلك المخطوطات كان أغلى

من كل الكنوز. وكان هؤلاء البحارة البيروتيين من أتباع أبي زيدون[34]، وكانوا قد أسسوا لهم مستوطنات عديدة في المتوسط وخاصة في بحر إيجه، ويعرفون بالبوزيدونيين[35]، وقد تمركزوا، منذ زمن بعيد، في جزيرة ديلوس حيث كانوا قد بنوا معبداً لبعلة بيروت عشتروت[36]. والى هذا المعبد سوف تنقل هذه الوثائق الثمينة، بطلب من كاهن المعبد والحكماء فيه.

ما أن رست السفينة في مرفأ ديلوس، حتى ركض الكاهن الأكبر إلى قبطانها يسأله الأمانة، فأمر هذا بإنزال الصندوق ووضعه بين يدي الكاهن الذي سارع إلى إزالة الشمع الأحمر عن القفل، ثم تناول المخطوطات وراح يقبّلها والدموع تنهمر من عينيه. وكيف لا؟ وقد شمّ فيها رائحة تراب مدينته بيروت التي رحل عنها منذ زمن بعيد، وشمَّ رائحة المعلم الأكبر الذي طالما سمع عن مآثره وحكمته والذي دوّن بيده هذه الحروف المعجزة، المعلم الجليل سنخونياتن! وفجأة، راح يفتش في الصندوق كالمجنون، فسأله القبطان بذهول عما يبحث، فأجاب الكاهن:

– الوصية أين الوصية؟ ألم تأتني بها؟

– أية وصية يا أبتي؟

– تلك التي طلبتُ من كهنة بيروت إرسالها لي مع المخطوطات، أردف الشيخ مغتاظاً!

– لا علم لي بها يا سيدي!

– وكيف ذلك؟ ألست أنت المسؤول عن هذا المركب؟ كيف تضيع وثيقة ثمينة كهذه؟

راح الكاهن يصرخ كالمجنون وكأنه فقد أعزّ ما يملكه في الوجود. وإذ بفتى يخرج من السفينة ويتقدم نحو الشيخ، فأنتهره القبطان لوقاحته. فما كان من الكاهن إلا أن أمره:

– دع الفتى يتقدم، فهؤلاء الشبان دائماً نذراء خير وهم مستقبلنا.

– عفوك سيدي، إن الوصية[37] التي تبحث عنها في حوزتي.

– هي معك؟ هتف الكاهن مبتهجاً!

– أجل أبتي.

– وكيف حصلت عليها؟ كيف سلّمك إياها كاهن معبد بيروت، ولماذ لك شخصياً؟

– لقد طلب مني أن أذهب الى صور لإحضارها، فأعطتني إياها أميرتها الجليلة أليسار وأوصتني أن أسلمك إياها يداً بيد.

– من يد أميرة الأميرات أليسار؟!

– نعم يا سيدي وكان بحوزتها عدد من الوصايا راحت تسلمّها للقادة البحارة قبل رحيلها عن صور.

– ماذا ؟ لقد رحلت الأميرة عن صور؟ الى أين؟

– الى الغرب يا سيدي كما تناهى الى مسمعي، فقد كان النوتيون منهمكين بتجهيز أسطول ضخم، هو أكبر أسطول رأيته في حياتي!

– أجل، كما فعلنا قبلها وكما فعل معلمنا الأكبر قدموس وأجدادنا قبله. والى أين علمت أنها متجهة؟

– الى ليبيا، الى بلاد جدة معلمنا قدموس[38]، يا سيدي. لقد وقفت الأميرة على صخرة الميناء وهتفت بصوتها المليء مجداً: أنا راحلة عنك يا وطني لكي أنشر إسمك وحرفك وفكرك في العالم كما أوصاني أجدادي ومفكرونا وحكامنا. فما أنا إلا مواطنة من أرضك يا سورية وعلي واجب تحقيق وصية الأقدمين. وأنا مثلكم يا إخوتي، أحمل رسالة هي واجب مقدس علينا وهو خدمة أمتنا. لقد عهد اليَّ كهنة معبد بيروت بهذه الوصايا لأوزعها على قادتكم المختارين. وأنا أتعهد، وعملاً بموجب الوصية التي اختارتني، واعلنوا قسمكم مثلي جميعاً الآن، ومن هنا، من أرض بلادنا العظيمة، أن أنشر الفكر الأسمى الذي ابتدعناه كما فعلت أمنا أوروبا، وأن أنشر الحرف الذي ابتدعناه كما فعل معلمنا قدموس[39] العظيم، وسوف نزرع إسم بلادنا في أصقاع الدنيا كلها. فافعلوا مثلي يا أبناء وبنات بلادي، وليكن ارتحالكم من أجل خير الإنسانية وبنيان الإنسان في كل بقعة على وجه البسيطة. احملوا هذه الأمة المجيدة في قلوبكم ووجدانكم وحققوا حلم أجدادنا الوطني والقومي، وانشروا أسماءهم وأسماء مدننا أنى اتجهتم وحللتم. صونوا هذه الوصية وأورثوها لأبنائكم وهم بدورهم فليورثوها لأبنائهم الى أبد الدهور. وأنت يا صور وأنت يا بيروت وأنت يا جبيل وأنت يا صيدا وأنت يا بعلبك وأنت يا كل مدن سوريا بلادي، سأحملك في قلبي وسأخلّد ذكراك حيث أحلّ، فافعلوا مثلي أيها الأخوة، وكونوا دائماً السباقين بين الامم. سلام عليك يا أرض بلادي، يا منبت الحرف والفكر والخير، يا أرض السلام!

ثم تقدمت اليسار مني وسلمتني هذه الوصية وقالت:

– أنت شاب من بلادي، أيها البيروتي، وأنت من المختارين، إذهب واملأ الدنيا شباباً وأملاً وحباً.

– ولكن يا سيدتي، قلت بذهول، أمي غدت أرملة وقد وعدت العودة إليها.

–مكانك في البحار يا أخي، تذكر قسمك! ودع أمك فلا ضيّر عليها هنا في بلادنا الخيّرة...

–وحبيبتي في بيروت؟

–دعها هي أيضاً، فمصيرها هنا في أرضنا الأم التي سوف تولد أجيالاً من الشرفاء والمعلمين والأنبياء؛ نساؤنا أيضاً حاملات لرسالتنا الحضارية. غداً سوف تنبت أرضنا رجالاً يملأون الدنيا بإسم بلادهم والى الأبد![40].

إختلج قلب الكاهن وما كان منه إلا أن إنحنى وقبّل قدمي الشاب وقال:

–فلتتبارك هاتان القدمان اللتان سوف ترحلان الى أقصى بقعة في الأرض لوضع[41] إسم بيروت عليها. أنت رسول معلمينا، أيها القائد، إذهب بسلام وبشرّ بإسمهم!

على متن السفينة، استلقى القائد البيروتي على ظهره وراح يتأمل النجوم ويراقبها: أي واحدة يتبع؟ بالطبع نجمة القطب الشمالي المسماة على اسم الفينيقيين. هذا يعرفه جيداً. وكيف يقتفي أثر الطريق المرسومة في الخريطة التي تضمنتها الوصية السرية التي سلّمته إياها اليسار والتي وحده يعرف قراءتها كونّه تأهل في بلاده؟ صحيح أنه تتلمذ في علم الفلك والجغرافيا البحرية على يد علماء المعبد في بيروت وتعمّق في علم البحار والملاحة على يد أبرع البحارة هناك، ولكن هو قلق وليس شك في قدراته يراوده الآن: هل سينجح في مهمته؟ وإن غرق أسطوله؟ وإن فشل في مهمته؟ ما حجم الخيبة بل العار الذي سوف يلحق باسمه؟! لكن صورة كريت الأوغاريتي الذي تملّك على جزيرة كريت وأعطاها إسمه، وأوروبا السورية وقد ركبت السفينة الى كريت ثم أطلقت إسمها على القارة الغربية كلها، وقدموس باني طيبة وقلعتها التي أخذت إسمه "قدميا"، واليسار التي كانت قد نزلت في قبرص وأعطتها إسمها[42] ونصّبت أخاها بيغماليون[43] ملكاً عليها[44]، وهي الآن في عرض البحر مثله، متجهة نحو ليبيا بلاد جدتها، لتؤسس قرية حديثة (قرطاجة) على نسق مدينتها صور التي أعطى بحارتها إسمها للبحر "التيراني" غربي المتوسط، والبيروتيون أهله الذين أطلقوا إسمهم على منطقة الشمال الغربي من أوروبا وجزرها (بريتانيا الفرنسة وبريطانيا العظمى والبرتغال). كل هذه الأسماء راحت تستعمر فكره لتجعله يصرّ على تحدي كل هؤلاء "الكبيروس" (Cabiros) العمالقة مؤسسي المدن في المتوسط. فأشرق وجهه واستنهض همته وقرر أن لا عودة إتمام المهمة الموكلة إليه في الوصية: عليه أن يرحل الى أبعد نقطة وراء البحار، وراء بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) ويعطيها إسم بيروت. وفجأة،

تراءت له صورة حبيبته واقفة تودّعه على صخرة بيروت، فدمعت عيناه، لكنه أبعدها من خياله، لتحلّ مكانها صورة حبيبة أخرى هي مدينته بيروت "حاضنة الحياة الهانئة" والتي "فرضت العدالة للبر والبحر، وحصّنت المدن بسور لا يهتز من القوانين. مدينة واحدة غدت لجميع مدن العالم"[45]. أولم يصارع عليون–ايل[46] زوجها من أجلها؟ ألم يهدد بزلزلة الأرض إن لم تصبح زوجته؟ فلم لا يعود هو لحبيبته؟ ولكنه تذكر أن صراع الآلهة هو قومي النزعة ومن أجل تحصين المدن وليس مجرد حب وعشق. والآلهة أذا اتحدوا فلأجل أمة ولأجل مجد وموقف عزّ في التاريخ. نعم سوف تبقى بيروت وعليون متحدّين الى الأبد، هكذا يكون فعل الإيمان والتقوى الحقيقيين وهكذا تكون الطاعة الفعلية للآلهة. فوثب من مكانه، وأمر طاقم الأسطول بالتحرك بأقصى سرعة...

وراحت السفن تمخر عباب البحار والمحيطات وفي كل محطة كانوا يستريحون فيها، كانوا يزرعون اسم مدينتهم بيروت وراحوا يعلّمون حرفها ولغتها للسكان ويحفرون أسماءهم على صخورها وكانوا يغادرون المدن بعد أن يكونوا خططوا تصميمها على نمط حديث[47]، وأرسوا أسس المدنية والقوانين والتنظيم المدني، ونظموا الزراعة فيها[48]، وهكذا، في كل مرة، ليعدّوا العدة ثانية للرحيل إلى جهة مجهولة من أجل بنائها ونشر المدنية فيها. وكم من مرة واجهتم العواصف والأعاصير! وكم من مرة تكبدوا الخسائر في الأرواح والمعدات! ولكنهم على الرغم من مفارقتهم لأصدقائهم كان ولاؤهم للقائد من أهم الأمور على الإطلاق. ومهما كبرت التضحيات في سبيله، يتوجب عليهم حمايته، فهو حامل السر. هو وحده عارف بالوصية المقدسة وعليه تنفيذها بمساعدتهم. وحين تعرض القائد للخطر وكان يسعف طاقمه الغارق، سارع رفاقه لنجدته قبل الجميع واعدين أنهم سوف يصلون إلى حيث خططوا الوصول، نعم سوف يصلون إلى آخر الأرض[49].

وهذه الأرض وصلوها، وكان أول من وطأ أرضها الخصبة الشاب القائد نفسه وكان أوصى طاقمه، حين عَبَرَ أسطولهم الأطلسي من ساحل البرتقال المستوطنة البيروتية، أنه سيسميها "برازيل"[50] أي "بيروت" و"إيل" مجتمعان ومعناها "برية ايل"[51] أو "بر إيل" أو "بوابة ايل"، أو "بارة أيل" أي روح إيل. وفي كل الحالات هو إسم مركب لإلهة[52] بيروت وزوجها عليون اللذان لا يفترقان أبداً ولن يفترقا كما أقسم الشاب العنيد. لقد حلف أن تكون بيروت، مدينته الأم، هي الموقعة الأولى لإسمها على هذه المناطق البعيدة التي لم يكن أحد قد سبقه إلى اكتشافها بعد. وحدها بيروت قررت هذا الإنجاز وقد تمّ لها ذلك بفضل رجالها العظام.

أما في بيروت نفسها فاستمرت مدرستها العريقة في القدم تخرّج المفكرين والمبدعين وترسل بهم إلى أصقاع الدنيا من أجل تعليم البشر وتثقيفهم[53]. وكانت دائماً كل قِبلة الفاتحين، فقد اختارها الرومان كقاعدة لأسطولهم في المتوسط الشرقي بفضل موقعها الجغرافي المميز وبفضل تجهيزات مرفأها وخبرة بحارتها. وهكذا فعل كل من أتى إليها قائداً مستعمراً أو قائداً فاتحاً محرّراً. وخير الوافدين إليها "الفينيقيون الجدد"، أولئك الذين نشروا الفكر العربي في أوروبا، عنيّنا العرب بقيادة معاوية بن سفيان الذي دخل بيروت دون أي مقاومة سنة 653[54]، وبمعونة اللبنانيين، أنشأ أول أسطول عربي حديث ناشر للحضارة[55].

***

---

[1] هـذه الدراسـة هي قراءة إستنتاجية لمسيرة الفينيقيين البيروتيين الحضارية، مبنيّة على الوقائع ولـيس علـى الخـيال، لأن الشواهد التي تركها لنا التاريخ عن الانتشار الفينيقي وخاصة انتشار الكتابة الأبجدية F.Lenormant,*Essai sur la propagation de l'alphabet phénicien dans l'ancien monde*,Paris 1875. وإنتشـار أسـماء المـدن والأماكـن والأشـخاص (Toponomie/Onomastique) والشواهد المادية (Archéologie)، والكتابية(Epigraphie)، تشـكل براهين ملموسة وحسيّة وهي واضحة ولا تحتاج لخيال. هذا ويرتكز بحثنا على الهوامش والحواشـي الموضّـحة للشـكل الحوراي المسرحي الذي اعتمدناه، دون الخروج عن المعطيات العلمـية والتاريخـية، بحيـث تأتي المراجع لدعم وجهة نظرنا. وننوّه أننا أقحمنا عدة ملاحظات وجدانـية الطـابع لتعـبر عمـا يحزّ في نفسنا من لوعة بسبب المتطفلين على الكتابة في مجال الحضارة وهدفهم التشويش والتشويه. فحبذا لو استطعنا كسر أقلامهم، علّنا نبني وطناً!

* – أستاذة الفنون والآثار والميثولوجيا في الجامعة اللبنانية.

[2] إشتهرت بيروت في الأسطورة والأدب قديماً بإسم "بيروه" وهي إحدى الحوريات، بنات البحر. Dostalova-Jenistova R., *Sur « Les Dionysiaques » de Nonnos de Panopolis,chants XLI-XLIII, in Tyros a Bejrut*,V, Dionysiakah Nonna Z.Panopolie Listy Filol,V,1, 1975.

و"بـيروه" (Beroé) "الـبارة" تعني أيضاً "برية" لارتباطها باليابسة. وإلهة بيروت "بارات" اشتق اسمها من الكلمة الفينيقية (برت) أي الروح وهي كذلك الريح التي تتلاعب في البراري (prairie) والإلـه "بوري" (Borée) في الميثولوجيا اليونانية، هو إله الريح البرية التي تهب على السواحل، وهـو إله فينيقي الأصل كان مرافق البحارة الذين يعتمدون على هبوبه للإبحار. وتشتهر بيروت بغابـة الصـنوبر، واسمها يتحدر من كلمة صنوبر نفسها، فالاسم الآرامي الذي يدل على شجرة الصنوبر هو (beroth) أو (berosh)، ويعني تحديداً صنوبر حلب التي عرفت باسم "بيروه" مثل بيروت. وهو بلا شك إسم حورية الصنوبر بالفينيقية، إذ كان لكل شجرة حوريتها الخاصة. وشجر الصنوبر هذا المسمى(brutia) عرفه الإغريق وذكر عند هوميروس، ("الإلياذة" و"الاوذيسه") وعند هيزيود، ("ثيوغونيه") وعند هيرودوتس ("التاريخ")، وغيرهم. Guyot L./Gibassier P., *Les Noms des Arbres, Que sais-je*,n° 861, PUF, Paris, 1966, p.32

وبيروت مرفأ تجاري كبير عُرف منذ أقدم العصور وهذا ما يدل عليه إسمها "بورتا" الذي أعطى إسـم (port) أي (بـر–مرفأ) ومنها (porte) أي (باب) و(porter) أي (حمل)، وكلها مفردات تتعلق بالملاحة وهذا دليل انتشار اللغة من بيروت إلى العالم المتوسطي الذي تبنى مفردات البحارة الفينيقيـن. والمفردات الفينيقية كثيرة في اللغتين اليونانية واللاتينية، واليوم في اللغات الأوروبية كافـة. والبـيرة هم تجار البرتقال على السواحل اللبنانية، ومنهم إسم البرتغال الواقعة على ساحل الأطلسي، والفينيقيون أول من وطأوا سواحله وراء أعمدة ملقرت/هرقل. ونرى أن البرتغال تعني "بوابة ايل". ونبرهن في أبحاثنا (معجم "آلهة وأماكن"، قيد الطبع) أن البيروتيين هم من أعطى إسم "الـبروتون" (Bretons) لسـكان مـنطقة "بريتانيا" (Bretagne) الفرنسية الواقعة على الساحل الغربـي شـمالي فرنسـا، ومـرفأها هو بوابة البلاد من الشمال؛ وهم من أعطوا إسم "بريطانيا" (Grande Bretagne) للجزيرة الكبيرة وكانوا أول من اكتشفوها عبر أسفارهم، بحثاً عن المعادن ونشروا الحضارة والحرف والفكر بين سكانها. هذا ويرتبط إسم بيروت ببئر لكثرة الآبار فيها. أما عـند سنخونياتن الذي يبقى المصدر الأساسي للعقائد الدينية البيروتية، فيظهر إسم "براتي"، ولعلها بـيروت، بين الجبال العملاقة التي أخذت أسماء (قاسيون؛ لبنان؛ انتيلبنان؛ براتي) وهم من ذرية كنعان. وسنخونياتن يعتبر بيروت وعليون أم وأب كل الآلهة.

[3] كانـت أوغاريت تابعة لمدينة بيروت كما يستدل من رسالة بعث بها ملك بيروت إلى ابنه حاكم أوغاريت Ch.Virolleaud, *"Les villes et les corporations du royaume d'Ugarit"*, Syria, vol.XXI, 1940, p.247s.; Liste des pays tributaires d'Ugarit. Tablette n°11790.

وقـد خربـت المديـنة أولاً بالزلازل والحريق، وكان ذلك حوالي سنة 1365 ق.م. وما أن أعيد بـناؤها، حـتى هاجمـتها "شعوب البحر" (1200ق.م.). ويبدو أن أوغاريت وبيروت كانتا دائماً مرتبطتيـن أدارياً. ففي العصر الهلنستي أضيف إسم "لاذقية" إلى بيروت، وكانت قد أنشئت قبلها مديـنة "لاذقـية لبنان"، وعلى النقود ترد "اللاذقية التي في كنعان" وهي مدينة على العاصي بناها سلوقس الأول (Strabon,XVI,19) في الموقع ذاته الذي بنيت عليه قادش القديمة (تل النبي مند) وقـد سميت بلاذقية لبنان أو كنعان، تفرقة لها عن لاذقية الساحل السوري التي تضم موقع رأس شـمرا– أوغاريـت. ويقال أن "لاذقية" هو إسم والدة سلوقس الأول الأغريقي. (ف.حتي، تاريخ لبنان، ط2، 1972، ص 217).

[4] يذكر هيرودوت (التاريخ ٢، ١٤٥)، سنخونياتن (Sanchoniathon) وهو فيلسوف وكاهن ولد في بيروت، عاش قبل القرن الثالث عشر ق.م.، وتنسب اليه نصوص ذكر فيها الديانة الفينيقية وقد فقدت.

[5] إن هـذا الإستهجان بمحله لأن التنافس كان على أشده بين المراكز العلمية والمدارس في المدن السـورية. وكـم كانت دهشتنا حين قرأنا ذلك عند باحث كبير في الحضارة الفينيقية هو موريس دونان مؤكداً فكرتنا M.Dunand, *Byblia Grammata: documents et recherches sur le développement de l'écriture en Phénicie*, J.Maisonneuve, Paris,1945, p.182.

[6] نحـن نرى أن مدن المشرق القديم (الرافدين وسوريا وفينيقيا ومصر) كانت تضم مراكز أبحاث فـي كـل المجـالات العلمـية والفكـرية وكانت تتنافس فيما بينها لتكون السبّاقة في الإبتكارات

والإبداعـــات، وكانـــت تشـــبه ما هي عليه الدول المتقدمة اليوم والمسيطرة على العالم بمعارفها. وكـــيف لا يكـــون الأمر كذلك، ونحن مدنين لحضاراتنا الماضية بأسس كل العلوم والمعارف وما زلنا ندهش لإنجزاتهم المعمارية والفكرية والكتابية والفنية ؟ فهل تأتي الحضارة من عدم؟
S.N.Kramer, *L'Histoire commence à Summer*, (trad.franç.), Flamnarion,1994.

[7] يبدو من رسائل تل العمارنة أن جبيل بيروت وصور وصيدا وعكا شكلت فيما بينها رابطة إتحاد مستقل برئاسة جبيل.

[8] فـــي القـــرن العاشـــر، إمتد ملك "إتوبعل" (عطابعل) ملك صور ووالد إيزابيل زوجة آخاب إلى شـــمالي بـــيروت وكان يشمل جزءاً من قبرص، مما يعني أن التحالف بين المدن كان أمراً مألوفاً قـــبل هـــذا التاريخ، وكان يتم تسلّم الزعامة مداورة بين حكام هذه المدن المتحالفة. واستمر الحال علـــيه إلـــى أزمنة لاحقة. ففي سنة 585 ق.م.، زحف نبوخذ نصر الكلداني (البابلي الجديد) نحو صـــور زعـــيمة الـــتحالف الفينيقي وكان ملكها "عطابعل الثاني" عازماً على المقاومة، فأخذ يقيم الحصون وينشئ القلاع لمجابهة الكلداني. وعلى الرغم من الحصار، قاوم أهل صور مدة 13 سنة (585–572 ق.م.) بمـــا لا مثـــيل لـــــه فـــي تاريخ الحروب (هيرودوتس،2: 161؛ فلافيوس جوزيفيوس، الآثار، 10: 1،2).

[9] A. Gardner, *"The Egyptian origin of the semitic alphabet"*, Journal of the Egypt.Arch.,III,1916,
p.1-16; E.Rougé, *Mémoire sur l'origine égyptienne de l'alphabet phénicien.*

[10] Leibovitch, *"Les inscriptions protosinaïques"*,Mémoires de l'Institut d'Egypte, 24; Syria 9, p.278-299.

فـــي عام 1904–1905، عثر عالم المصريات فلندرس بيتري على كتابات منقوشة في "سيرابيط الخـــادم" بســـيناء وهـــي منطقة مناجم لاستخراج حجر اللازورد (Lapis Lazuli)، وتعرف هذه الكـــتابة بإســـم (protosinaïtique) او (paléosinaïtique)، وجـــد مـــثلها في فلسطين وتعود بـــتاريخها إلـــى القرن الرابع عشر ق.م. وهناك رأي يقول أنها تعود إلى فترة السلالة الفرعونية الثانـــية عشـــرة وهي فترة حكم الهكسوس على مصر. والهكسوس هم من الملوك السوريين الذي احـــتلوا مصر، وربما أدخلوا كتابتهم معهم إلى سيناء وكانت في بداية أطوارها. والمعروف أنهم أدخلوا تقنيات كثيرة إلى مصر وكانوا يستثمرون المناجم مثل غيرهم من الفينيقيين حول المتوسط. ووجـــد الباحـــث غاردنـــر في هذه النقوش ذات الكتابة القريبة جداً من كتابة جبيل الأولى، عدة مفـــردات مثل "بيت" و"عين". كما قرأ إسم "بعلة" أي "سيدة" أو "لبعلة" "للسيدة" في نقوش محفورة علـــى تماثيل نذرية (ex-voto) صغيرة تمثل الإلهة "حاطور" المصرية وضعت في معبدها الذي كـــان قائماً في المنطقة. والبعلة حاطور كانت معبودة جبيل وذكرت في النقوش وكرمت في معبد "بعلة جببل"، حيث وجدت تماثيل لها يعلو رأسها التاج المقرّن محتضناً قرص الشمس، وجد مثلها فـــي بـــيروت (راجـــع حاشية 33). وكان لقبها في سيناء "سيدة اللازورد" (نقش على تمثال لأبي الهول). وهذه الكتابة الما قبل سينائية البدائية التي تتضمن بعض الرموز الهيروغليفية التصويرية، هـــي غير الكتابة السينائية (sinaïtique) الآرامية في منطقة سيناء وبالتحديد في وادي المقطب، التي كتبت بيد البدو او أصحاب القوافل.

[11]Ch.Virolleaud, *La légende de Danel*, p.76s.cf M.Dunand, *Byblia Grammata*, p.181.

[12] إن الطـــريقة التـــي تحولت فيها بعض الصور الهيروغليفية إلى خطوط أبجدية كانت باستعمال طريقة أسماها العلماء "الأكروفونية" (acrophonique) وهو مصطلح مكوّن من كلمتين يونانيتين (اكرو acro بمعنى رأس أو مقدمة وفون phone أي صوت)، حيث يتخذ الصوت الأول في نطق الإسم الدال على شكل العلامة ليكوّن مدلولاً صوتياً مفرداً للعلامة، مثل كلمة (بر) الفرعونية التي معناها "بيت" تكون دالة على حرف (ب) في الأبجدية السينائية. ومثله رسم رأس الثور الذي يعني بالفينيقية (ثور) ويلفظ "ألف" وهكذا إلى آخر الحروف الفينيقية الاثنتين والعشرين. ولمعرفة تطور الحرف الأبجدي، راجع: (M.Dunand, *Byblia Grammata*, p.131; p139-189). ويعتبر دونـــان (ص195) أن الجبيليـــن أخذوا بكل أقلام المشرق مجتمعة واستحدثوا 22 حرفاً هي من الإعجـــاز بمكـــان لأنهـــا بسّطت الكتابة وجعلتها تستغني حتى عن الحركات، مما سمح للشعوب بـــتطويعها كـــل حسب لغته وطريقة لفظه، كما خولت نقل الصور الخيالية المجردة بسهولة. "هذا العمل النهائي العبقري في مسيرة تطور الكتابة والذي ندين لهم به اليوم، هو أشبه بضربة ساحر". (المرجع نفسه).

[13] عثر في كامد اللوز ("كومودي" او "كاميتو" تل العمارنة) في البقاع على رُقُم بالخط المسماري وعلـــى رسائل (الرسالة الخامسة، متحف بيروت) لحكّامها مع تل العمارنة. وكانت كامد اللوز قد طـــوّرت نظاماً كتابياً مستقلاً، اعتبر أنه مرحلة أولية نحو الكتابة الهجائية وذلك قبل القرن الرابع عشر ق.م. وهو العصر الذي ازدهرت فيه المدينة.

[14] كـــان "عمونيرا" حاكم بيروت في القرن الرابع عشر ق.م.، وكان قد التجأ اليه ملك جبيل "رب عـــدي"، فأرســـلت كـــل من بيروت (Bi-ru-ta) وصيدا (Si-du-na) تطلبان من فرعون مصر أمنوفـــيس الرابع "أخناتون"، أن يسرع لنجدة جبيل التي أصبح الضغط على أميرها شديداً من قبل "عبد عشيرتا" وإبنه "عزيرو" الحثيين، لكنه لم يستجب لندائهما. Bezold C./Budge E.A.W., *The Tell el-Amarna Tablets in the British Museum*, London, 1892.

[15] ألـــواح "تـــل العمارنـــة" الأكدية القلم، هي مراسلات بين فراعنة مصر وملوك المشرق القديم خاصـــة ســـوريا وفينيقـــيا. وهـــي من أهم الوثائق التي تعكس ما كانت عليه الأحوال السياسية والاجتماعـــية حســـب تقلبات الممالك والقوى في تلك الأزمنة (القرن الرابع عشر ق.م.).وتعكس كذلك العبادات المشرقية التي تظهر وحدة المعتقدات السورية من خلال ما تضمنته من أسماء آلهة مشـــتركة، عـــبدت فـــي عـــدة مـــدن ســـورية وردت أسماؤها في هذه المراسلات، مثل المدن الساحلية:عكو (عكا)، صوري (صور)، صيدونا (صيدا)، بيروتا (بيروت)، جبلة (جبيل)، سمورا أو سموري (قرب مصب نهر الكبير شمالاً) وأرواد. والمدن الداخلية: دمسقا أو دمسقي (دمشق)، قطـــنا (قطـــنة) قرب دمشق وبابل وغيرها. وكثيراً ما ورد ذكر سفن جبيل وبيروت وصيدا التي كانت تمخر عباب بحر "أمورو" (المتوسط)، وتنقل منتوجات البلاد إلى أماكن شتى.

[16] إن الكـــتابة، كما اللغة، هي أكبر دليل على وحدة الأمة في المشرق القديم، بحيث نجد أن الخط المسماري على تنوعه، كان منتشراً في كل سوريا وبلاد ما بين النهرين وفارس والأناضول. بينما نجد كتابات الجزيرة العربية المتعددة (الصفوية وهي الأقدم والثمودية والحميّرية واللحيانية) لديها

قواسم مشتركة مع كتابة سيناء وكتابة جبيل التي أضحت الأبجدية المبسطة للأقلام العربية مجتمعة. M.Dunand, *Byblia Grammata*, p.183-189.

[17] كتبت أوغاريت بخط مسماري أبجدي مؤلف من 30 حرفاً هجائياً، يعود بتاريخه إلى القرن السادس عشر ق.م.، واستمر حتى خراب المملكة في بداية العصر الحديدي، حوالي 1200 ق.م. بعض الباحثين يرى أن خط أوغاريت تزامن مع خط جبيل ثم عمد الجبيليون إلى اختزال عدد الحروف الأوغاريتية الشبيهة (ثلاثة حروف أوغاريتية تلفظ "ألف" اختزلت في حرف واحد) وحذفوا الأخرى. كما اختزلوا المسامير في رمز واحد. وقد لاحظ الباحثون الشبه الكبير في عدد من الحروف بين الأبجدية الأوغاريتية والأبجدية الجبيلية وهي (ج، هـ، ز، س، ع، ش)، ما جعلهم يتأكدون من عملية الاختزال الذكية للجبيليين الذين اقتصرت هجائيتهم على 22 حرف فقط. Ch.Virolleaud, *La légende de Danel*, p.76s.cf M.Dunand, *Byblia Grammata*, p.181.

[18] هو كاهن "إيل" الأكبر عاش زمن ملك أوغاريت "تقمد". وكان من أهم الكهنة الذين ورد ذكرهم في لوحات أوغاريت. وقد ساهم بتدوين الرقم الطينية التي حفظت أعمال الأوغاريتيين الأدبية وهي منقوشة بالخط المسماري المتحدر في الأصل من الخط الأكدي المقطعي الذي طوّره كتبة رأش شمرا إلى أبجدية من 30 صوت.

[19] يرى البعض أن أبجدية جبيل ظهرت حوالي 1000 ق.م. (ناووس أحيرام)، وبهذا تكون أحدث من عصر إيلي ميلكو وسنخونياتن. ونحن نرى أنها أقدم من هذا التاريخ وقد عرفها هذان الكاهنان والدليل أن قدموس، وهو أقدم منهما، حملها إلى الغرب قبل حرب طروادة بعدة قرون، إلا إذا اعتبرنا أن قدموس إسم سلالة معلمين وليس شخصاً عاش في زمن معيّن. ويأتي دونان مرة ثانية لدعم رأينا فهو من الذين يقولون بقدم الكتابة الأبجدية الجبيلية ويجعل تاريخ ظهورها حوالي الألف الخامس عشر ق.م. أو الرابع عشر على أبعد تقدير، بدليل أنه عثر على كتابات في جبيل ضمت الحروف نفسها التي على ناووس أحيرام وعددها أيضاً 22 حرفاً أي الأبجدية الجبيلية كاملة، إلا أنها أقدم منه عهداً وترجع، حسب دونان، إلى القرن الرابع عشر ق.م.، وهي نقش الملك الجبيلي "شفطبعل" ونقش "عبدو الفاخوري"، ونقش "أسدوربعل M.Dunand, *Byblia Grammata*, p146; p.153; p.155.

[20] يتساءل دونان (المرجع نفسه، ص 181)، أنه على رغم معرفة كتبة رأس شمرا لأبجدية جبيل بشكل حروفها وبمبادئها، لماذا لم يتبنوها بصيغتها الكاملة تلك كنظام كتابي بديل عن نظامهم كما فعل لاحقاً المؤابيون والآراميون والإغريق الذين حافظوا على شكل الحرف الفينيقي وعلى قيّمه الصوتية وعلى أسمائه وعلى تراتبيته؟ علماً أن الأبجدية الجبيلية طيّعة الكتابة على الفخار والمعدن والجلد وورق البردى والحجر... ولا يرى دونان تفسيراً مقنعاً إلا التنافس بين المدرستين المؤتمنتين كل واحدة على إنجزاتها وتراثها المميّز.

[21] يقول يوسف الحوراني، "بيروت الميمونة"، ص.46، هامش 92، تعليقاً على أبيات نونوس (382-384):" هذه إشارة هامة إلى أن قدموس هو الذي أدخل الحروف الصوتية إلى الأبجدية في بلاد الإغريق، مع العلم أن هيرودوت اكتفى بالقول أن قدموس عدّل الحروف لتتفق مع اللغة اليونانية (5: 58). ويُعتبر إدخال الصوت الحرفي على الأبجدية من أهم إبداعات الكتابة..." وقد

طرأ تعديل آخر على الأبجدية الفينيقية التي تكتب من اليمين إلى اليسار بحيث قلب الاتجاه في الغرب لتعتمد طريقة الكتابة من اليسار إلى اليمين حتى اليوم، علماً أن بعض الكتابات المشرقية كالأوغارتية والأكدية كانت تكتب من اليسار إلى اليمين باستثناء بعض الحالات النادرة. راجع: .M.Dunand, *Byblia Grammata*, p183.

[22] وفقاً لما أورده فيلون الجبيلي، فإن "طاوط" أو "طاوطس" كان إله الكتابة عند الفينيقيين وهو من أخترع رموزها الأولى. و"طاوط" هو نفسه "تحوت" إله الكتابة عند المصريين (هرمس/مركور/عطارد) مما يعني وحدة المعتقد بين الشعبين وبالتالي وحدة الثقافة. ويأتي فيلون نفسه ليدعم رأينا هذا، إذ يقول (مقطع 1، 5) أن سنخونياتن الذي عاش قبل حرب طروادة، كتب "التاريخ الفينيقي" من خلال الذكريات الموثقة والمحفوظة في أرشيف المعابد. فقد اكتشف سنخونياتن في "قدس الأقداس" المعابد، "كتابات سرية محفورة على نصب" أو كما يترجم البعض نص فيلون اليوناني "كتابات أو رسائل سرية صيغت بخط الأمونيين" (R.Dussaud, Syria, XV, p.297). ويعرّف البعض الأمونيين هؤلاء أنهم سكان جبل "أمانوس" وكان إلهه "بعل حامان"، وأن هذه الكتابات ما هي إلا نصوص بخط أوغاريت المسماري. أما دوسو (المرجع نفسه) فيقول أن النصوص السرية تلك التي وقع عليها سنخونياتن، يمكن أن تكون قد كتبت على الحجر بالكتابة "الشبه-هيروغليفية" (pseudo-hiéroglyphique) المكتشفة في جبيل (دونان، المرجع نفسه، ص191). وأن الأمونيين هم عبدة الإله أمون(Syria, XV, p.297) وهي تسمية للجبيليين عبدة الإله الحامي للكتابة. وأمون هو إله المصريين الأكبر وقد عبد في طيبه. ويقول بلينوس أن الكتابة اختراع سوري وأن مخترعها إسمه "مينين" او "مونون" (Menen-Monon) والإسم شبيه بأمون المحفور إسمه على تمثال له وجد في جبيل. فهل يكون هو نفسه مخترع الكتابة فيها؟ أم يكون شخص مبدع أوله على هيئة الإله أمون كما أوله إمحوتب الوزير الحكيم في مصر؟ (دونان، ص 192). وبرأينا إن هؤلاء الأمونيين الذين عثر سنخونياتن على رسائلهم السرية في المعابد ما هم إلا "الأمناء" وكان هو واحد منهم.

[23] يشيد افلاطون بالمصريين الذين يبقون على كل شيء كما ورثوه لأنه مقدس ولا يمسّ. ويعيّر على الأغريق تغيرهم المستمر للأشياء وخاصة للفنون. ونحن نقول أنه لولا هذا التغيير لما تطور شيء.

[24] يقول بوتيرو (J.Bottero, *Symptômes,signes,Ecritures*, Divination et Rationalité, p.192/193):"إن أهمية سكان الرافدين وسوريا ليست فقط في ابتكار العلوم والعلوم المنطقية وأيضاً علم الفلك؛ المهم ليس أنهم نفسهم استخلصوا كل النتائج وكل والاستنتاجات والخاتمات من خلال تطورهم في المعرفة، بل أنهم قاموا فعلياً بنفسهم بهذا المجهود. إن دراسة علم الكهانة والفلك بشكل دقيق بيّن فضلهم الكبير في هذه النقطة: مع نهاية تطور طويل وممتد في الزمن، وقبل الإغريق بزمن طويل، اخترعوا على طريقتهم التجريد (abstraction)، والتحليل (analyse)، والاستنتاج (déduction)، والبحث في مجال القوانين. باختصار، ابتكروا جوهر المنهج والفكر العلمي. من هذه الناحية، فإن العبارة الشهيرة "العبقرية الإغريقية" أو "المعجزة الإغريقية"، التي ما زالت إلى يومنا (أي سنة 1974) مقبولة ومتداولة، وحتى من قبل

الباحثيـــن المختصين والمؤرخين، ما هي إلا مهزلة: إن الإغريق لم يولدوا في مجتمع بدائي بدئي ســكنه أوائـــل البشر الأشبه بالقرود أو في أرض محروقة أو في نوع من العدم الثقافي، ولكن- وحرصـــاً منا على نقل ما قاله أحد الإغريق لغيره في هذا الخصوص- "لقد حوّلوا ما تعلموه إلى شيء ما أجمل. وما غيّروه وحوّروه، نقلوه عن "البرابرة" وخصوصاً عن سكان الرافدين القدامى". وبفضل علم الكهانة، يتابع بوتيرو (ص 193)، نعرف اليوم أن هؤلاء "البرابرة" قد قطعوا أشواطاً بعيدة في مجال العلوم وتطوّرها، وهيئوا الأرضية باختراعهم المنهج والفكر العلمي، وبالتالي، أوّل العلـــوم. من هنا يُعتبر الرافديون من أسلافنا [بوتيرو الغربي ينسب نفسه إلى المشرق، بينما أبناء أمتـــنا يتنكرونِ لأصولهم!] المباشرين، والعقلانية التي استنبطوها هي التي هيأت عقلانيتنا اليوم [الغربـــية طبعاً كما يرمي الباحث] ولا شيء يوضح هذا الأمر أكثر من دراسة تاريخ الكهانة وعلم الفلـــك الرافديـيـــن. ويشـــير بوتيرو (ص.190 هامش 1)، إلى أن تاريخ التجريد في بلاد ما بين النهريـــن، والـــذي يسمى علوم من حيث الشكل كما المعنى بحسب تعريف الإغريق لـــه وخاصة أرســـطو، يـــتعدى إطار الكهانة وهو يرتكز على المراحل السابقة الأساسية: أولاً اختراع الكتابة وخاصـــة الكتابة الهجائية (phonétisme)، حوالي 2800 ق.م، ومن ثم، بعد قرنين من الزمن، اختراع العملة (النقد) ومبدأ القيّم النقدية والكميات والمقادير، حوالي 2600 ق.م.

[25] المقصود "التوراة" المنقولة عن الكنعانيين والتي زوّرها وحوّرها أعداء الأمة "اليهود" لصالحهم. وهمهـــا يكن، تبقى حاملة لتراثنا ولا يجب إهمالها. فهل يستهان بالمعلومات التي تؤكد على تفرّد الفينيقييـــن في فن العمارة والملاحة والتجارة وانتشارهم في العالم ووصولهم حتى البرازيل، كما يستنتج الباحثون من النص التوراتي؟ نذكر في هذا السياق نص لسعيد عقل: "وقّع حيرام مع داوود عام 1007 ق.م. معاهدة تعاون على استغلال المستعمرات الفينيقية عبر الأوقيانوس، فتقدم صور المـــال والخشب وتقدم أورشليم اليد العاملة (ثلاثين ألف رجل تقول المعاهدة)، لأن أجور العمال كانـــت فاحشة في مملكة صور، بسبب مستوى المعيشة. وبعد داوود، تتجدد المعاهدة مع سليمان، ويمضـــي الملكـــان فـــي اســـتثمار بلاد الأنهر الثلاثة: (فرودين وأفير وأبير) وهي جميعاً روافد للأمـــازون.(نشير إلى أن هذه المعاهدات التجارية بين حيرام الصوري وسليمان كانت للتجارة في الـــبحر الأحمـــر واليمن. [فاضل الربيعي، الشيطان والعرش. رحلة النبي سليمان إلى اليمن، دار الـــريس، بـــيروت، 1996، ووجـــدت آثار تدلّ على ذلك. ولكن من الممكن أنه مع توسع تجارة الفينيقييـــن، اكتشـــفت البرازيل، فأعطيت روافد الأمازون نفس الأسماء تلك). ويتابع سعيد عقل: "وتستمر سفن الصيادنة تقلّ عمال سليمان حتى وفاة الملك. وكانت الرحلة ذهاباً وإياباً تستغرق ما لا يقـــل عن ثلاثة أعوام. وسنة 957 ق.م.، تنشب الحرب بين منفيس وأورشليم، فيلزم الفينيقيون الحـــياد. حـــتى إذا انتصـــرت مصر، وقّعت فينيقية معها معاهدة تحلّ عمال الفرعون محل عمال سليمان، مقابل اشتراكه في استثمار المستعمرات البرازيلية. وهناك يستخرج الفينيقيون للمصريين مـــادة "الســـالتر" المستعملة عندهم في التحنيط. معروف ذلك من مناجم عثر عليها في عهد "بدرو الفـــاريس كابرال" مكتشف البرازيل، أهمها منجم "اوباجارا" في ولاية "سيارا". وفي ولاية "باهيا" عـــثر علـــى نحـــو خمسين قرناً فينيقياً، وفي ولاية "ميناس"، على أكثر من مئتي قرن". (نقلاً عن سعيدعقل، لبنان إن حكى).

[26] كتاب "اللآلىء" لإيلي ميلكو كاهن أوغاريت، يستعرض فيه فساد حكام سوريا وإصلاحات الملك "تقمد".

[27] يـــنوّه فـــيلون الجبيلـــي إلى تحوّير الفكر الديني الفينيقي على يد الأغريق ويلّمح إلى إمتعاض ســـنخونياتن مـــن التشويه والإقتباس السيء لتراث الفينيقيين.(راجع، ي.الحوراني، مجاهل تاريخ الفينيقيـــي). ونرى أن الإختلاف القائم بين الأساطير الإغريقية وبين أصولها الفينيقية بما تضمنته من أسماء وصور تشبيهية ورمزية، عائد إلى عملية الترجمة السطحية الخاطئة على يد الإغريق، وهذا وارد اليوم في كل عملية نقل.

[28]Eissfeldt O., Sanchunjation von Berut und Himilku von Ugarit,Halle (Saale),1952.; Eissfeldt O., Ras Schamra und Sanchunjaton,Halle (Saale),1939.

[29] يعتـــبر سنخونياتن بيروت وعليون أم وأب كل الآلهة. ونرى أن الآلهة الفينيقية حملت أسماء رجـــال أســـياد أصبحوا آلهة. فقد كان لهم شأن عظيم في خدمة بلادهم فأولّهوا وكرّموا وهم من أعطـــوا للحضـــارة أسماءهم. بناء عليه، تكون بيروت أم الحضارة الفينيقية وسيدة مدنها منذ أقدم العصـــور ولقـــبها "أم الشـــرائع" ليس حديث العهد بل دليل أنها معطية القوانين والأنظمة المدنية الأولـــى، وكذلك الحرف والكلمة والفكر. في الواقع إن كوّن بيروت أم الآلهة يذكر بالإلهة "سيبل" (Cybèle) الفريجية (آسيا الصغرى)، ولقبها "أم الآلهة" (Dea Mater) أي ديميتير (Demeter) الإغريقـــية. ويـــربط الرحالة بوزانياس (القرن الثاني م.)، ديميتير بأوروبا فيقول أنه في "بويتيا" (Béotie)، وهـــي المـــنطقة التـــي نـــزل فـــيها قدموس أولاً، تسمى ديميتر "أوروبا" (Paus., *Description de la Grèce, HelladosPeriegesis* 9:39,4)، كمـــا تحمـــل لقب "الكبيرة" (9:35,5) وهـــو لقـــب "ســـيبيل: أيضاً. ويوجد لها مزار في مدينة "هاليس" بصفتها "أم الشرائع" (1:31,1). وهـــذا ما يجعلها مثل بيروت ويجعل من بيروت هي نفسها أوروبا وديميتر معاً أي أم الآلهة وأم الشرائع. ونجد البرهان عند بوزنياس نفسه حين يقول أن بيت قدموس في طيبه مدينته، قد تحول إلى محج يحمل إسمها وصفتها هذه (9:16,3) "أوروبا أم الآلهة والشرائع"، وهي نفسها بـــيروت تلك المشرقية التي خطفها الثور من ساحل سوريا (وليس صور كما هو شائع إذ عرفت بـــيروت بالسورية ونقرأ ذلك عند نونوس بيروت "الصخرة الأسيرية" (النشيد 42، 10، حوراني ص.49) أي الســـورية؛ وصـــور تعرف بالصخرة أيضاً مما يجعل الالتباس وارداً. عليه نجد أن أوروبـــا (عُربا) سورية، انطلقت من بيروت وليس تحديداً من صور)، وهي نفسها الإلهة السورية الكبرى "أترغاتيس" التي عُبدت في جبيل ونيحا وبعلبك وبيروت وهيرابوليس ممبج-حلب (من هنا الإســـم المشترك لبيروت وحلب "بيروه") والتي وصف لوقيان. Lucien de Samosathe, *De Dea Syria*,(Texte traduit et établi par M.Meunier éd.Janick,Paris,1947. طقوســـها الفحشـــة، الشـــبيهة بطقـــوس "ســـيبيل" الفريجـــية، وكهنـــتها الخصيان "الكوريبانت" (Corybantes) الذيـــن كانوا يمارسون أعياد صاخبة يشطرون خلالها أعضاءهم الذكورية على صوت الطبول والمزامير، تيّمناً بأتيس حبيب الإلهة الذي خصى نفسه لأجلها. وهي نفسها عشتار المبرجة حامية المدن السورية (تمثال نصفي في متحف تدمر ومنحوتة في سقف معبد باخوس في بعلـــبك) وتعـــرف إصطلاحاً بإسم "Tychée" لدى الباحثين في علم المسكوكات. وكانت "سيبيل"

أيضاً تعتمر تاجاً على شكل برج (couronne tourelée). وكان الرومان يعرفونها بإسم " Mater Turrita" أي الأم المـــبرجة "حاملة البرج". وهو لقب عشتار المبرجة في سوريا. وهي "الميترا" الحكـــيمة الفارســـية التـــي جعلهـــا جبران خليل جبران النبيّة في كتابه "النبي"، حين راح الشعب يســـألونها عـــن أمور الحياة ورأيها فيها، مثل الحب والزواج والأولاد... و"سيبيل" تعرف بالنبيّة وهـــي كبيرة "السبيلات (Sibylles) الكاهنات العرّافات الأترووريات اللواتي كن يمارسن العرافة والنـــبوة فـــي كهوفهـــن، وقد وقعت كتب نبوتهم في مدينة (Cumes) حيث إشتهرن، بيد الملك "تركيـــنوس المظـــيم" (Tarquin le Superbe). وعـــن "السيبيل" تلك يقول ديورانت في "قصة الحضارة" (ج 3، ص131)، أن طائفة من العرافين الكهنة كانت ذات نفوذ تقرأ الطالع والمستقبل لمـــا تعلموه من الكلدان أو من أمم قبلهم عن طريق أتروريا. (اترووريا شمال إيطاليا كانت مملكة فينيقية بدليل أن تقاليدها وتراثها وخاصة كتابتها فينيقية مئة بالمئة. . Georges Schoueri, *La clé du mystère des Étrusques se trouve au Liban*, FMA, *nef*,1995

و"السيبيل" عند الرومان هي كل امرأة حظيت بمواهب النبوّة من الإله أبولو (البعل السوري-هبل العربـــي). كانـــت "السيبيلات" يعشن في المغاور أو قرب الجداول والأنهار ("سبيل" بالعربية هو مجـــرى المـــاء) وكانـــت نبؤاتهن تنقل كتابة باليونانية على شكل أبيات سداسية عرفت بالألواح السبيلية (tablettes sibyllines). وتقرأ هذه الكتب في كل مناسبة حرجة وعند أي حدث وكانت تفســـر من قبل كهنة مختصين. وكانت حكومة روما تعرف ما تريده الآلهة بالرجوع إلى "الكتب الســـيبيلية" والإستعانة بنبوءات "سيبيل". فأمام شعور روما بخطر قدوم حنيبعل الفينيقي، واستيلاء الرعـــب على سكانها، لجأت الحكومة إلى التضحيات وإلى الصلاة لآلهة اليونان، وإذ ذاك، أعلن عـــام 205 ق.م.، أن "الكتـــب السيبيلية" تتبيء بأن حنيبعل سيغادر إيطاليا إذا جيء بالأم الكبرى، وهو تمثال الإلهة "سيبيل"، من فريجيا إلى روما (كان شرط الانتصار في حرب طروادة الاستيلاء علـــى تمثال "أثينة بالاس" (palladion) المنتصب في معبدها في طروادة وكان أن استحوذ عليه الآخـــيّون، فحســـمت الحـــرب لصالحهم، ورواية أخرى تجعل "إنياس" الطروادي يحمله معه إلى إيطالـــيا). وتمّ ذلك وأصبحت سيبيل أعظم إلهة في الأمبراطورية الرومانية بعد أن نقل الأباطرة معها الحجر الأسود الذي كان في معبدها، وجعلوا طقوسها رسمية.

ولوحـــات الشـــرائع الســـبيلية هـــذه يذكـــرها نونـــوس البانوبولي في "نشيد بيروت" في ملحمته "الديونـــيزياكا": "أســـرع هـــرمس بخطواتـــه السريعة إليها وهو يحمل "الألواح اللاتينية" المتنبئة بالمســـتقبل. جـــاء ليســـاعد بـــيروه، وكانـــت "تميس" قابلتها..." (أبيات 165-160، ترجمة ي .الحورانـــي، بـــيروت الميمونة، 1999، ص.33)، مما يعني أن بيروت هي الإلهة المؤتمنة على هـــذه الصفائح النبوية برعاية "تيميس" نفسها إلاهة القانون (Loi) والقوانين الخالدة. وتميس بهذه الصـــفة هـــي إحـــدى زوجات زوس الالهية الثانية ومستشارته ومن بين آلهة الجيل الأول الذين يشاركون الأولمبيين حياتهم على "الأولمب" بفضل اتحداها معه، ولأنها قدمت للآلهة خدمات جمة بابتكارها النبوات والعرافة الطقوس والقوانين. فهي التي حضنت "أم الشرائع ومرضعتها" بيروت، الشـــبيهة بإنانـــا-عشتار السومرية-البابلية التي سرقت "ألواح القدر" من أبيها آنو-إنكي وأصبحت حاميـــتها. ومـــثلها أثينة إلهة الحكمة التي خرجت من رأس زوس أبيها وهو رأس الحكمة بذاته. والمعروف تاريخياً أن النساء اختصصن بعلم الكهانة والعرافة خاصة في الشرق.

[30] نقله فيلون الجبيلي (64-141م.) "تاريخ فينيقيا" عن كاتبه الأصلي الكاهن البيروتي سنخونياتن والذي لم يصل إلينا منه إلا بضعة أجزاء ذكرها أوزيبيوس القيصري (265-341 م.)، تعتبر مادة مهمة لمعرفة الميثولوجيا الفينيقية. (ي. الحوراني، مجاهل تاريخ الفينيقيين).

[31] أيلـــي ميلكو، "اللآلـيء"، من النصوص الكنعانية (ترجمة ودراسة □.ي.ديل ميديكو؛ نقلها إلى العربـــية مفيد عرنوق)، سلسلة من الادب الأوغاريتي، بيروت،١٩٨٩. إن النصوص الأوغاريتية هـــي مصـــدر أساسي لمعرفة المعتقدات الفينيقية. وقد دوّنها إيلي ميلكو كاهن إيل الأكبر وأسماها "اللآلـيء". والعبارة الشهيرة "الحقيقة لا تتجزأ" هي من أقوال كاتب اللوحات الأوغاريتي هذا وكان رئيس مقدمي القرابين والمطهرين وقد كتبها بناء على أمر الملك "تقمد" ملك أوغاريت خلف الملك الكبير، فأطلق عليها إسم "اللآلـيء". وكان إيلي ميلكو يعمل سابقاً في مصر حيث اطلع على الثقافة المصرية ومعتقدات شعبها بعد أن عمل ككاتب مدة طويلة لدى ملك صور. ويعتقد بعض المحللين أن "هوميروس يمكن أن يكون قد نشأ من رفاة هذا الأوغاريتي" (مديكو، ص31-32).

[32] كـــان لأشـــمون (إله الشفاء) معبد في بيروت ومنه إنطلق ربما الكهنة لإنشاء معبد أشمون في قرطاجة. وله معبد في صيدا وجدت آثاره في بستان الشيخ تحت أنقاض كنيسة مار الياس.

[33] Ronzevalle S., *"La déesse poliade de Béryte »*, MUSJ 25, 1942-43, pp.13-20.

كشـــفت الحفـــريات فـــي وســـط المدينة في بيروت، قبل إعادة بنائها، عن حيّ بكامله من المرفأ الفينيقـــي، مـــا زال محافظاً على شكله بصورة مدهشة، يعود تاريخه إلى العصر الحديدي الثالث (الفـــترة الأخمينية / الهلنستية)، وكان يحتل المرفأ القديم. ووجد فيه عدد كبير من الأدوات والآنية الفخاريـــة (جـــرار مخـــتلفة الأشكال والأحجام للتخزين والتصدير) والزجاجية والخرز الزجاجي والعظام المحفورة والأشياء الحجرية خاصة الخرز وقطع العملة والنقود البرونزية والأثقال وأشياء معدنية منها دفة ميزان من البرونز وأوزان فينيقية متعددة هي خير دليل على التجارة. Elayi J., Elayi A.-G.,*Recherches sur les poids phéniciens*, Paris,1997./

كـــل هـــذه الأشـــياء أوضـــحت جوانـــب مهمـــة عـــن هـــذا الحـــيّ وتنوع سكانه وشموليتهم (cosmopolitisme)، وحـــياتهم اليومية وأذواقهم، بالإضافة إلى معتقداتهم. كما بيّنت نشاطاتهم المتـــنوعة جـــداً : تجـــارة، صيد، صناعة الشبك، حياكة، نسيج (وجدت مغازل والأبر البرونزية وواحدة من الزجاج وسكاكين خاصة بالنساجين وقطع خشبية تعود لمناول). ونشاط صناعة الفخار والزجاجـــيات والتماثـــيل والمجســـمات الفخاريـــة (coroplastie) المتأثرة جداً بالفن المصري (هربوكـــرات وحاطور)، التي كان سكان هذا الحي يضعونها في منازلهم وفي المعابد المجاورة. وكـــان يجلّون بشكل خاص إلهة المدينة وحاميتها عشتروت، كإلاهة الخصوبة. والفخاريات تحمل كـــتابات وأحـــرف فينيقية تدل على الحياة اليومية في هذا الحي الناشط صناعياً وتجارياً، وبعض الكـــتابات اليونانية أيضاً، مما يدل على إزدواجية اللغة المستعملة في المكان. بالإضافة إلى بعض الرســـومات التـــي تمثل سفن ومراكب شراعية مزودة بمجاذيف. وعثر على أفران لشيّ التماثيل الفخارية من النوع الذي وجد في كل من موقعي "صربتا" و"تل ميكال". وهذه التماثيل شبيهة بالتي وجدت في جبيل و"دور" و"تل كيسان" وصيدون وخرايب و"تل شبور" ومعاصره لها (الألف الثاني ق.م.). وكـــان لهـــا رمزية دينية وهي عبارة عن تقادم (ex-voto) توضع في المعابد. وقد عثر

على مجموعات كبيرة منها في أرضية المعبد الخارجية (favissae) المكتشفة في الموقع في بيروت، وهي من الأهمية بمكان لأنها الشاهد على وجود معبد. ولكن لم يتمكن الباحثون من اكتشافه وكان على الأرجح مجاوراً للمرفأ. وعثر في هذا الموقع على تماثيل وآنية زجاجية وخزفية (amphorisque) و(oinochoé) مستوردة من قرطاجة (القرن السادس/الخامس ق.م.) ومن الساحل الجنوبي لأوروبا (Monte Sirai,Puig des Molins)، مما يدل على العلاقات الناشطة بين بيروت البلد الأم والمستوطنات الفينيقية في الغرب.

وتؤكد كتابة وجدت في نقطة (Bey 013) من موقع الحفريات، تعود إلى بداية العصر الهلنستي، قدمت للإلهة عشتروت باعتبارها شفيعة بيروت، أن طقوس عشتروت كانت هي السائدة في المدينة. كما أن المجسمات والتماثيل الفخارية الأنثوية التي وجدت في الموقع والتي تمد يديّها والشبيهة بالتماثيل التي وجدت في (Séville) أسبانيا، تمثل بالتأكيد بعلة فينيقية كرّمت على ما يبدو في معبد محازي للفافيسا التي عثر عليها في نقطة (Bey 004) من الموقع والتي تكدست تحتها التماثيل النذرية. هذه الفافيسا تصوّر على النقود الهلنستية الخاصة بمدينة بيروت .أما الفارس الذي عثر عليه في نفس المحيط، فيمكن أن يكون شريك عشتروت أو الإله الذكر المرتبط بها. كما وجد عدد من الأقنعة المخيفة التي تمثل "بيس" الإله المصري/الفينيقي أو "سيلين" (Silène) احد أتباع باخوس. Elayi J./ Sayegh H.,*Un quartier du port phénicien de Beyrouth au Fer III/ perse.*,Suppl.,1998, p.334/335.

[34] بوزيدون أو بوصيدون هو إله فينيقي كان سيد البحار وزوج "بيروه". نقرأ لدى نونوس بأن بوزيدون كان ينافس زفس-أدونيس (وهو باخوس في الملحمة) على بعلة بيروت. وفاز بشروط حمايتها من زلازله (نونوس، "ديونيزياكا" 43: 118-124). وتخلد مسكوكات بيروت البرونزية (العصر الهلنستي، القرن الثالث ق.م.) هذه الرواية إذ نقش عليها صورة بوزيدون وهو يجرّ "بيروه" من يدها (N.Jidejian, *Le Liban à travers les images*,p.58). وهذا يعكس الأهمية البحرية التي كانت لبيروت وموقعها الجغرافي المميز، ما جعل حتى الآلهة تتصارع من أجل إمتلاكها. وورد عند هوميروس في "الإلياذة" (القرن التاسع ق.م.) أن بوزيدون يقيم في أعماق البحر في إيجيا (13: 121). وإيجيا بلدة فينيقية في كيليكيا كما ذكرها هيكاتاوس (لبنان وفينيقيا، جون براون، نص 8، نقلاً عن ي. الحوراني). وإسم بوزيدون دخيل على اللغة اليونانية وهو في "الكوسموغونية" نظرية التكوين الفينيقية، أخ لصيدون وإبن "بونتس". وعلى الشاطىء اللبناني ميناء يحمل إسمه "بوزيد" قرب صيدا. وامتناناً لتزويجهم بيروت له، منح بوزيدون البيروتيين نعمة الإبحار بأمان والذهاب في البحر تحت رعايته.

[35] كان البيروتيين يطلقون على أنفسهم لقب "بوزيدونيين" حسب ما ورد في نقوش ديلوس الكتابية (العصر الهلنستي). وكانت جاليتهم تحتل المكانة الأبرز على الصعيد الإجتماعي والتجاري مما يعني أنها كانت مستوطنة قديمة جداً. وتحتضن ديلوس المعابد الصغيرة المسماة "خزنة" (trésor) جعلتها بمثابة مدينة مصرفية لإيداع أموال المدن. M.J.Baslez, *Recherche sur les conditions de pénétration et de diffusion des religions orientales à Délos*, Paris,1971; Ph.Bruneau, *Exploration archéologique à Délos*, Paris, 1972.

ويشهد الوضع الديني في الجزيرة على نشاط البيروتيين الذين بنوا معبداً كان بمثابة مركز متكامل وضع في حماية إلهيّ بيروت بوزيدون وعشتروت. وعُرفت ديلوس بأرتياد الحجاج لمعبد "أبولو" الذي كان مركزاً للوحي والنبوءة. M.J Baslez.,«*Cultes et dévotions des Phéniciens en Grèce.Les divinités marines* », Studia Phoenicia IV, 1986, pp.289-305.

[36] كانت أفروديت-عشتروت تحتل مكانة خاصة لديهم بإعتبارها إلهة بيروت.

Picard Ch.,"*L'établissement des Poséidoniastes de Berytos à Ephèse et Claros* », Syria IV, 1923, p.334; Bruneau Ph., "*Les cultes de l'établissement des Posédoniastes de Berytos à Délos* »,in Hommages à Vermaseren I,1978, p.160.

وأفروديت هي بيروت نفسها بدليل أن تماثيلها انتشرت في مستوطنات البيروتيين حيث عثر على العديد منها تبرزها بشكل مسرحي هي والإله الماعز "بان" (رمز الأحراش والغابات) وهو يحاول إغرائها وهي تصده برفع حذائها بوجهه: J.Marcadé, *Guide de Délos*, 3ème éd.École Française d'Athènes, 1983, p.72, figs.75,47)، أو مع رمز الحب "إيروس". وعثر على مثل هذه التماثيل في بيروت (N.Jidejian, *Beirut through the ages*). وفي تماثيل أخرى تبدو أفروديت-بيروه "إبنة الزبد" عارية تخرج من الحمام، تتلألأ ببياضها الذي اشتهرت به. ونقرأ عند نونوس (بيت 225، ترجمة الحوراني، ص.37): "وقامت الأورخومينيات، تابعات البافية (القبرصية) بجلب المياه من العين الذكية، العزيزة على ربات الشعر التسع(Muses)، من أجل إستحمامها". هكذا تعمّدت بيروت بماء الحكمة والشعر والفن والموسيقى والإبداع وأصبحت هي نفسها الملّهمة، وهذا الدور الريادي إحتفظت به طيلة تاريخها وما زالت حتى اليوم.

[37] كانت سياسة الفينيقيين سياسة دولة بكل ما للكلمة من معنى وما السفن التي كانت تنطلق باتجاه المتوسط وفي كل أصقاعه إلا حملات إستيطانية متواصلة لتوسيع رقعة الأمبراطورية، لدرجة أن البحر المتوسط عرف قديماً بالبحر السوري لسيطرة الفينيقيين عليه. وما التجارة الفينيقية المنظمة إلا إحدى دعائم الدولة وأسسها. وكانت المستوطنات تدفع الضرائب بانتظام لمعابد البلاد الأم، مثل ضريبة قرطاجة لمعبد ملقرت في صور كما أورده ديودور الصقلي (Diod. XX,14,1,2)، وذلك بهدف دعم الملك والحكم وليس فقط للمعبد والكهنة، وحتى في أصعب الظروف السياسية. وكانت المساهمة مفروضة على كل المواطنين المهاجرين والمقيمين على حد سواء. والوصية التي نتحدث عنها هنا هي عبارة عن خارطة للجهة التي يريد الملوك التوجه اليها واستكشاف المناجم فيها. وكانت توضع بسرية تامة على يد العلماء في المعابد السورية والذين اشتهروا بعلم الفلك والملاحة، فنحن نعلم مدى حرص الفينيقيين على عدم كشف أسرارهم في الملاحة وسياسية التمويه التي اتبعوها في تضليل منافسيهم لكي يبقوا أسياد البحار، وكانت تسلم الوصية لقائد الأسطول الذي يتعهد تنفيذها بحذافيرها مهما كلف الأمر.

[38] يروى أن ليبيا هي أم الملك " أجينو" والد قدموس وأوروبا.

[39] قدموس وأوروبا يمثلان القارتين الشرقية والغربية أي آسيا وأوروبا (غرب). والباحثون الأجانب اليوم يستعملون هذين الإسمين بهذا المعنى، وقد فسروا إسم قدموس أنه القارة الأقدم الواقعة شرقي المتوسط وإسم أوروبا أنه القارة الغربية. وهذا صحيح من حيث كرونولوجيا الحضارة الفينيقية التي شعّت في الشرق ثم انتشرت في الغرب.

[40] ألــم يحقــق الســيد المســيح الســوري هذا الأمر ورسالة النبي محمد العربية ألم تعمّ العالم؟ (راجع،عاطف الحكيم ،"محمد النبي الثائر"، دار المنارة، بيروت، 2004؛ و" المسيح المعلم الثائر" (قيد الطبع).

[41] اليوم يقوم الأميريكيون بغرز علمهم في الفضاء كما فعلوا عندما وطأوا أرض القمر او في أية بقعــة يكتشــفونها علــى الأرض او في البحار. وقد سبقهم الفينيقيون إلى ذلك عندما كانوا القوة المســيطرة على العالم بفضل أساطيلهم التي تعادل اليوم الآلة الإستعمارية الأميركية. ولكن خلافاً لبرابرة اليوم الذين ينشرون الدمار والخراب والفساد، فإن الفينيقيين كانوا ينشرون الفكر والحرف والحب على نهج السيد المسيح حفيدهم الذي لا يمكن لأي فكر، مهما فكر المفكرون وابتكروا، أن يعلــوا فوق تعاليمه. فهل أعظم من مقولة "أحبوا بعضكم البعض" ؟ هو إبن أرضنا الذي تفوّه بها وهذا فخر لنا!

[42] أليسار تسمى ايضاً "إليشات" (Elishat) (أليسا باليونانية) وقد نقش هذا الإسم في عدد كبير من النذور البونية في قرطاجة. و"آلاشييا" (Alashiya)، هو إسم قبرص في عصر البرونز، نقرأه في النصوص المصرية والحثية والأوغاريتية التي تعود إلى القرنين الحادي عشر والعاشر ق.م.
Breasted AR, II, 402; kub, XV, 34; cf., J.Nougayrol, *« Guerre et paix à Ugarit »*, Iraq, 25, 1963, p.110s..

[43] إن الأسماء لا يمكن ان تحدد التواريخ لأن الإسم يتوارث من جيل إلى جيل ومن جد إلى حفيد، ممــا يعنــي أن أجــداد أليســار وبيغماليون كانوا قد أسسوا قبرص قبلهم إن لم يكونوا هم نفسهم مؤسسيها.

[44] نحــن نرفض رفضاً قاطعاً ما جاء عند فرجيل في "الإنيادة" (Énnéade) من أسطورة مجحفة بحــق الفينيقيين ورموزهم القومية والتي تجعل من بيغماليون مجرماً يقوم بقتل زوج أخته أليسار، ممــا يضطرها إلى الهروب خلسة، فيلقبها فرجيل بديدون أي "الهاربة" وهي ترجمة خاطئة لقصة مغلوطــة، لأن الهاربة لا تحلّ في أرض عدوها المفترض أنه بيغماليون وكان ملكاً على قبرص، وأول محطة لأليسار كانت قبرص قبل وصولها إلى تونس. كما أن الهاربة لا يمكن أن تصطحب معها أسطولاً ضخماً وأن تنشيء مدينة-دولة بحجم قرطاجة، على أرض ليبيا حيث كان أقاربها قد حلّوا قبلها بدليل أن ليبيا هي والدة أجينور ملك صور وجدة أوروبا السابقة لأليسار. مما يعني انها لــم تهــرب بل هاجرت بموافقة المشروع السياسي الفينيقي بأكمله والمتواصل من جيل إلى جيل، لأن الهاربة لا تحلّ في أرض أقربائها، بل تلجأ عادة إلى أرض غريبة وليبيا ليست كذلك. كما أن الهاربة تحمل معها الحقد والضغينة بسبب ما لحق بها من ظلم، ولا تنشر إلا النقمة والإنتقام. ولا تؤسس لسياسة حماية وطنها الأم وتعزيز مملكته كما فعلت أليسار عندما فرضت أن تدفع الضريبة السنوية لمعبد ملقرت في صور وهي عادة إستمرت ألف سنة من بعدها. والمعروف أن الهاربة لا تنشر الحرف ولا الفكر الذي لبلادها الأم، بل تحاول جهدها تهديم هويتها وإنتحال أخرى والتواطؤ ضد بلادها والأمثلة كثيرة في زمننا. لكن الرواية، وعلى لسان فرجيل المتناقض نفسه، تقول أنها رفضــت الزواج حتى من ملك ليبيا لتبقى وفيّة لذكرى زوجها أي وطنها وهويتها، وهذا دليل أن المرأة تحمل رسالة وأنها تقوم بمهمة سياسية بإيعاز من قومها ومن عائلتها الملكية صاحبة القرار. كذلك نرفض أن تكون أليسار إنتحرت بسبب هجر "إنياس" (Énée) بطل "الإنيادة" الطروادي لها

كمــا يشــيّع فيرجيل المزّيف للحقائق. فالتي لها قابلية لتنتحر بسبب خيّبة حبها، هي من الضعف بمكان وذات شخصية هشّة لا يمكن أن تكون نفسها الملكة العظيمة التي أسست مملكة دامت ألف ســنة من الزمن وأرعبت روما وهددتها في عقر دارها على يد حفيد لها هو حنيبعل بن برقة. لقد طعنــت أليسار نفسها بعد ان رفعت محرقتها لكي لا تستلسم للمستعمر المعتدي، وهذه عادة فينيقية بــل سياســة عــريقة في القدم نجد صداها في صور وصيدا وقرطاج نفسها. والدعاية الرومانية معــروفة فــي تشويه التاريخ المشرّف للفينيقيين؛ وما فيرجيل الذي يحمل إسماً فينيقياً "فرج الله"، ســوى واحــد من أعداء الداخل الذين ساعدوا المستعمر الروماني على القضاء على أمتهم مقابل حفــنة من الدراهم، هي نفسها التي سوف يُسلّم مقابلها المقاوم الأكبر ضد الرومان إلا وهو السيد المسيح.

[45] "بيروت الميمونة" (أبيات 398-401، ترجمة حوراني، ص.46).

[46] هــو بوزيــدون إله البحر عند نونوس وقد تصارع مع باخوس وكانت الغلبة له فصار بعلها. وعند سنخونياتن، هو عليون أي إيل العالي أو العظيم.

[47] أظهرت الحفريات الحديثة في الوسط التجاري في بيروت أن الفينيقيين هم من ابتكروا تخطيط المديــنة علــى شكل رقعة "الداما" والذي نراه في أغلب المواقع الاثرية في سوريا: تدمر وجرش وبصــرى وصور وبيروت وإستمر حتى العصر العربي (عنجر) معمولاً به في سوريا. والمثال الــذي يحتذى به هو أليسار نفسها التي ما إن فاوضت على شراء الأرض في شمال تونس، حتى بــدأت بوضــع المخطط الهندسي الذي جعلت الرواية مقايسه جلد الفدّان، وبالفعل تقاس الأرض بــالفدّان إلى اليوم. وقد استولى الرومان على هذه العادة الفينيقية وهي من رموزهم القومية حيث نقشــت على عملاتهم النقدية صورة الامبراطور وهو يجرّ سكة الحراثة رمز تخطيط المدن على نحــو ما قام به "رومولوس" مؤسس روما وبطلها القومي، ومن هنا رمزية الزراعة وهي الدخول في المدنية والتمسك بالأرض أيضاً.

[48] تؤكد المصادر التاريخية نشاط الفينيقيين هذا، حيث نقرأ عند هيرودوت ("التحقيق") أنه إنطلاقاً مــن الــبحر الإيريتري (البحر الأحمر)، جال الفينيقيون في البحر الجنوبي. وفي الخريف كانوا يــنزلون علــى شاطيء ليبيا (أي افريقيا) يحرثون الأرض ويغرسونها وينتظرون الحصاد، وما يكادون ينتهون من جمع الغلال حتى يركبون البحر من جديد. مضت سنتان على هذا المنوال وفي النهاية، داروا حول أعمدة هرقل وعادوا شرقاً إلى مصر (Herodt, IV,42)
Baurain Cl., / Bonnet C., *Les Phéniciens, Marins des trois continents*, Paris,1992. A.Colin,
ونتســاءل هــنا إذا كــان الأمــر واضحاً لهذه الدرجة عند المؤرخين مثل هيرودوت، فلماذا إذن يستغرب الباحثون وجود الخطوط والنقوش الفينيقية في منطقة "سيرابيط الخادم" في منجم اللازورد فــي ســيناء؟ والأهــم لمــاذا يشككون أنها من يد الفينيقيين أنفسهم؟ في الواقع، إن التجوال الدائم للفينيقييــن ومــردّه العمل في المناجم ونشاطهم التجاري المتواصل حول البحر المتوسط والبحر الأحمــر والخليج العربي، جعلهم يتركون أثاراً كتابية كثيرة أهمها تلك المعروفة بالنقوش السينائية (Gardner, *The legacy of Egypt*,Oxford,1942, p.55s.)، والتــي تعتــبر من بين أولى المحــاولات في الإنتقال من الرمز الكتابي التصويري إلى الحرف الهجائي الذي عرفته جبيل في

صيغته النهائية، علماً أن جبيل عرفت التطور من الصورة الهيروغليفية إلى الحرف الأبجدي على أرضــها والشــواهد الأثــرية من كتابات على شفرات معدنية وكسر الجرار وغيرها تبرهن ذلك بوضــوح.(M.Dunand, Byblia Grammata, p.122-138). وهذه العملية التطورية تطلبت ســنين طويلة حتى تبلّورت، كان خلالها الفينيقيون يستعملون تباعاً الخط المتوفر لديهم حينها (من هــنا تنوع الخطوط الفينيقية)، ثم يستغنون عنه عندما يطرأ تعديل عليه، وهكذا حتى أستعملوا في آخر المطاف الحروف الأثنتين والعشرين الجبيلية البيروتية المنقوشة على ناووس أحيرام (الألف الأول ق.م.؛المتحف الوطني ببيروت). ولم تتوقف عملية التطوير هذه ولكنها اقتصرت على صعيد كــتابة الخــط فقط وليس الحرف الذي إكتمل مفهومه نهائياً بحيث أصبح هناك حرف صوتي لكل رمــز. مــن هــنا نرى أن ثمة إختلاف بين خطوط كل من جبيل وصور ونجد هذا الأخير على نــاووس "اشــمون عزر" ملك صيدا (متحف اللوفر) يميل إلى تطويل الحروف، وهو الخط الذي ســوف يكــون له التأثير المباشر على الخط البوني القرطاجي الذي نقلته أليسار معها من فينيقيا. وكــان للقرطاجيين دور في نشر الحرف بفضل أسطولهم التجاري ورحلاتهم الإستكشافية كرحلة حنون
Germain G., *“Qu’est-ce que le Périple d’Hannon”*, Hespéris 44,p.205-248.

هــذا وللفينيقيين أثر كبير في عمران المدن في قارة إفريقيا السوداء. يقول سعيد عقل:" المؤرخ ديــودورس الصــقلي (المجلــد2 الكتاب 5)، الذي قضى شطراً من حياته في قرطاجة، يذكر أن الفينيقييــن بنوا دكار (السنغال الحالية) بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م.، وأن إحدى عمــاراتهم البحرية خرجت من دكار متوغلة في الأطلسي عبر جزائر تدعى اليوم "جزائر الرأس الاخضر". ووصف ديودور البلاد التي انتهت اليها العمارة عبر الأوقيانيوس هو وصف البرازيل لا يقــبل شــكاً. هناك نصوص مادية تبرهن ذلك. في عام 1872، عثر فرنسيسكو بنتو، المهندس البرازيلــي، وكان يعمل في مناجم "كوروجا" في "بوروموررا"، على أكثر من عشرين مغارة قديمة إستخرج الفينيقيون معادنها منذ عشرات المئات من السنين، وعلى جدرانها كان نحو مئة وخمسين كــتابة. نقــل بنتو نسخة عنها إلى بدرو الثاني أمبراطور البرازيل. وكان هذا عالماً يرأس بنفسه "نــادي الجغرافــية والــتاريخ"، فبعثوا بها إلى إرنست رنان {المستشرق الذي درس آثار فينيقية وشــرحها فــي "بعثة فينيقيا"} الذي ترجمها مؤكداً أنها فينيقية. وكان أن بدأت الحفريات في هذا الإتجــاه، حــتى إذا حلّ العام 1911، دعت الحكومة العالم النمساوي لودفيك شوانهاغن إلى إلقاء دروس فــي بعض جامعاتها. بقي العالم خمسة عشر عاماً ينقب في ولايتي "مارانيون" و"بياوي"، فانــتهى إلــى إلقــاء سلسلة من المحاضرات عن إستيطان الفينيقيين للبرازيل. وفي كتاب "تاريخ الــبرازيل القديم" خلاصة لتنقيبات هذا العالم تشفي غليلاً. ويرجح لودفيك شوانهاغن أن الفينيقيين دخلوا الإكوادور وخليج المكسيك وقد تركوا في هايتي وسان دومينيك (دومنغ) آثاراً جمة. واجتاز الفينيقيون نهر الميسيسبي في الولايات المتحدة... والمؤرخان الاميريكيان سكيار وديفس صريحان فــي مؤلفاتهمــا الصــادرة عــام 1848، أن "الفينيقيين دخلوا أميركا الشمالية". ويدعم هذا الرأي المــؤرخ بريــتون. ويقــول شوانهغن: "بعد سقوط صور بيد الاسكندر، عهد المقدوني إلى قائده "بروتولوماو" {نرى أن إسمه يتضمن إسم برازيل=برت+إيل، الباحثة} بالإستيلاء على مستعمرات فينيقــية على أن يساعده الأسرى الصوريون. وصلت العمارة الغازية إلى شواطيء "اميريم" عام

328 ق.م.، ولكنها غرقت في مصب "ريوبرتا". وعام 1898، عثر على كتابة فينيقية تؤكد الحدث وإلــيك ترجمتها:" عندما كان الإسكندر بن فيليب ملكاً على مقدونيا، أرسل قائده "بروتولوماو"، في بعــثة بحرية إلى مستعمرات فينيقية في الأطلسي". وقد عثر على هذه الكتابة في "مونت فيداو" في مقدونــيا"... ومســتعمرات الفينيقيين قديمة جداً في البرازيل: "إنتهى الفينيقيون إلى البرازيل عقب حــرب طــروادة في الالف الثاني ق.م.، ولبثوا فيها ثمانمئة سنة". (سعيد عقل، "لبنان إن حكى"، الفصل الأخير).

[49] هو عنوان القصة الأخيرة من "لبنان إن حكى" لسعيد عقل. وهنا لا بد من كلمة إنصاف للشاعر الكبــير الــذي كتــب منذ نصف قرن عن أمجاد الفينيقيين في العالم ولمس مدى القوة التي كانت لمملكتهم والمسافات التي قطعتها أساطيلهم لتصل إلى جهات الدنيا الأربع قبل كل المستكشفين على الإطلاق. وللأسف إتهم الشاعر بالمغالاة وما زال الأمر عليه حتى الآن، بحيث يوصف كل باحث يــتطرق إلى إنتشار الفينيقيين ووصولهم إلى أقاصي الأرض حيث خلدوا إسمهم، بإنه مبالغ على طــريقة ســعيد عقــل، علماً أن كل ما ورد عنده يقول به الباحثون اليوم، ولكن، وللأسف، يعوز هؤلاء المتطفلين الإطلاع والبحث والتدقيق، بدل ترداد المقولات الموروثة باستخفاف واستهتار.

[50] لقــد إنكب الكثير من البحاثة على موضوع إستيطان الفينيقيين للبرازيل وعدد من المناطق في أمــيركا الجنوبــية حيث خلدوا على الصخور كتاباتهم، أهمها النص الشهير المعروف باسم "تقش بارايــبا" والــذي كُتــب بالعامية الصيدونية ومطلعه يبدأ هكذا: " نحنا أبناء كنعان من صيدون... المملكة تمارس التجارة... قذف بنا إلى هذه السواحل البعيدة..."، نشره وعلق عليه عبد الله الحلو فــي كتابه "الفينيقيون وأميركا، فصول شغلت العالم"، دار فكر، بيروت،1991، وضمنه عدد كبير من المراجع، نذكر منها: Cross F.M., *“The Phoenician Inscription from Brazil”*, Orientalia 37, 1968, p.437-460; Gordon C.H., *“The Canaanite Text from Brazil”*, Orientalia 37, 1968, p.425-436; Delekat L., *“Une nouvelle copie du texte de Paraiba”*, Linguistica Biblica 15-16, 1972, p.25-35.

[51] يتضــمن إســم بــرازيل كلمــة "برت" اي برية وقد لفظت "برث" و"برس" وبرز". بمعنى أن الحروف "ث" و"س" و "ز" قيمتها اللفظية الصوتية هي الحرف "ت" نفسه الذي يلفظ مختلفاً بحسب طــريقة "اللغط" عند كل شخص وهذا عائد إلى تركيبة الفم والأسنان ولكن أيضاً إلى البعد المكاني والزمني عن الإسم الأساسي.

[52] كانــت عــادة الفينيقيين تسمية المدن والأماكن وخاصة المرافيء بأسماء آلهتهم الكبرى وعلى رأســهم إيل إله سوريا الأعظم. من هنا تسميات عديدة يدخل فيها إسم إيل وبيروت ويعني "برية إيــل" مثل: "بريتيل" في البقاع اللبناني وبيرتوليون Pertoulion في اليونان؛ وبيرتولا Bertola في اسبانيا؛ وبيرتولي Brittoli في ايطاليا و بورتيلو Portelo في البرتغال، وباريسال Paraisal فــي الــبرتغال وغيرها الكثير تتضمن إسم "إيل" مثل "مرسيليا " اي "مرسى إيل". (هذه عيّنة من مجموعــة ضخمة من الأسماء الفينيقية وقد أفردنا لهذا الموضوع دراسة معجمية في كتابنا "آلهة وأماكن" وهو قيّد الطبع في أجزائه الأولى وقيد الإنجاز في أجزائه الأخيرة). وللإطلاع أكثر على أسماء الأماكن الفينيقية في العالم Neiman D, *“Phoenician Place-Names”*, Journal of the Near Eastern Studies 24, 1965, pp.113-115; Losique S., *Dictionnaire étymologique des noms des pays et des peuples,* éd.Klinckrieck, Paris,1971.

[53] يقـــول فيليـــب حتـــي، "الشرق الأدنى"، ص 176:" لقد وفرت مدينة بيروت بيئة صالحة للعلم والمعـــرفة ولقد كرّمها القيصر أوغوسطس ورفع من شأنها حين جعلها مستعمرة وسماها "جوليا أوغســـطا فيليكس" (السعيدة)على إسم إبنته. ومن ثم جعلها مقراً لفرقة من الجيش الروماني. وكان ملـــوك عديـــدون مـــن الممالك المجاورة ممن كانوا يتطلعون إلى الحظوة عند الأباطرة الرومان، يغدقـــون العطايـــا على المدن المستعمرات. وقد أصاب بيروت كثير من هذه الهبات خولتها بناء المســـارح والمدرجات والحمامات والأروقة، حتى غدت بيروت في فترة قصيرة مركزاً حضارياً مـــن الأهـــم...". ويقول ص 218: "إذا كان لإنطاكيا عاصمة سوريا أن تفاخر بنشاطها السياسي، وإذا كان لبعلبك أن تباهي بمنجزاتها الدينية، فلبيروت أن تفخر بالمستوى الفكري الذي بلغته. ومن هـــذه الزاوية نفسها، كانت بيروت تختلف كذلك عن سائر المدن البحرية التي كانت مراكز تجارة وصـــناعة. وعـــند مطلع القرن الثالث، أصبحت مركزاً لمدرسة حقوق ظلت إلى منتصف القرن الســـادس أشهر مدرسة من مدارس المقاطعات الرومانية. ويغلب الظن أن مؤسس مدرسة الحقوق هو الأمبراطور السوري سبتيموس سيفيروس (حكم من 193-211)
Paul Collinet, *Histoire del'École de Droit de Beyrouth,* Paris, 1925; H.Lammens, *La vie universitaire à Beyrouth sous les Romains et le Bas-Empire*, cairo, 1921.
ثـــم تعهدهـــا من بعده خلفاؤه الذين ينتمون إلى هذه العائلة السورية. وقد احتلت مدرسة بيروت المركـــز الأعلـــى بين مدارس الأمبراطورية التي كانت منتشرة في مختلف مقاطعاتها... لقد ألّف أســـاتذة مدرســـة بيروت وطلابها مجموعة نخبوية أو من الفئة المختارة التي كانت تفد إليها من جمـــيع أقطـــار الشـــرق الأدنـــى. وتحولت مع مرور الزمن إلى جامعة. وكانت دراسة الحقوق والـــتمرس بهـــا شـــرطاً أساسياً لكل من كان يطمح إلى وظيفة حكومية. أما العالمان اللذان سطع نورهما ورفعا من مكانة المدينة ومن شهرة المدرسة، فهما "بابينيان" و"اولبيان". وقبل أن إستدعيا إلـــى روما بأمر من الأمبراطور ليكونا مستشارين قضائيين، شغل كل منهما كرسي أستاذ في فقه القانون..."؛ "ظلت جامعة بيروت تعمل بنشاط حتى منتصف القرن الخامس عندما ضربت المدينة سلســـلة من الزلازل العنيفة (سنة 551) وأمواج البحر العاتية دمّرت منها معهد الحقوق. وعندما أمـــر الأمبراطور جوستينيان في سنة 523، بجمع مواد القانون المدني والجزائي وتدوينها في ما عرف بعد ذلك بالمجلة (مجموعة القوانين)، إستدعى لذلك أستاذة ثقة من معهد بيروت ليتولوا هذه المهمـــة. وقد تضمنت المجلة عدداً كبيراً مما كان كتبه "بابنيان"، وحوالي 2500 مقتطفة للقانوني الســـوري "أولبيان". وكان ما جمع من كتابات هذين الأستاذين يشكل قرابة نصف المجلة بكاملها. فـــلا عجب إن لقب يوستينيان بيروت "بأم القانون ومرضعته". وكان القانون الروماني أعظم عمل حققته الأمبراطورية".

[54] يقـــول فيليب حتي في تاريخ لبنان صفحة 293: "... وهكذا خلال سبع سنوات وقعت المنطقة (سوريا) بكاملها من جبال طوروس إلى صحراء سيناء في أيدي المسلمين. ولكنه كان فتحاً يسيراً إذ لا نعرف مدينة واحدة إفتتحها العرب بقوة السيف".

[55] فيليـــب حتـــي، تـــاريخ لبـــنان، ص295. Ferchin S., *La marine de guerre arabo-musulmane: dans la Méditerranée, depuis son apparition (vers 647) jusqu'au 2ème siège de Constantinople (717)*, éd.des Écrivains,Paris, 2000.

بيروت أم الشرائع

د. أميرة أبو مراد*

شعار أطلقه العالم المتمدّن، منذ سبعة عشر قرناً من الزمن، على مدينة بيروت، التي اختارها العالم، اليوم، لتكون عاصمة عالمية للكتاب.

فمـــا هـــي الحقـــيقة التاريخـــية لهذا الشعار، وما هو مدى انطباقه على الواقع الحاضر، وإلى أيّ حدّ يمكن التفاؤل باستعادة هذا المجد التليد للمستقبل؟؟

أولاً، تاريخياً:

بعـــد أن غزا الرومان، عسكرياً، معظم دول العالم القديم وأخضعوه لسلطانهم، وأسّسوا إمبراطورية عظمى ومترامية الأطراف، كان افتخارهم الأول منصباً على مـــا قدّمـــوه للعـــالم من شرائع وافرة ومتطوّرة؛ وقد قال عنهم الفيلسوف الألماني الشـــهير إيهرنغ (في كتابه روح القانون الروماني l'Esprit du Droit Romain) أنّ الـــرومان خلقـــوا ليحملوا رسالة القانون إلى العالم...، وانّ روما غزت العالم ثـــلاث مرّات: المرّة الأولى بجيشها، والمرّة الثانية بدينها، والمرّة الثالثة بشرائعها، والغزو الثالث هو الأهمّ والأبعد مدى.

فكـــيف نشـــأ القـــانون الروماني، وكيف تطوّر حتى تولّدت عنه معظم الشرائع المدنـــية الحديـــثة الســـائدة الـــيوم في غالبية دول العالم المتحضّر؟!. وما هو دور بـــيروت، خـــلال الزمـــن المنصرم، في إحداث تلك الولادات حتى استحقّت، عن جـــدارة، لقب "أم الشرائع" و"الأم المرضعة للحقوق"؟؟ كما استحقّ فقهاؤها، وأساتذة مدرستها الحقوقية "بيريت" لقب العلماء العالميين(les maîtres œcuméniques)!

تأسّست مدينة روما على يد رومولوس (Romulus)، الذي أعطاها اسمه، في أواســـط القرن الثامن قبل الميلاد، من اندماج القرى السبع الكائنة على ضفّتي نهر التيـــبر، فـــي وحدة سياسية، متضامنة، من أجل توحيد العبادة فيها وإنشاء تحالف عسكري قوي بقيادة موحّدة. وبذلك، تشكّلت "المدينة – الدولة"، في نظام ملكي حلّ محل نظام العشائر الذي كان سائداً قبله. هذه الدولة، الحديثة الولادة، ذات الاقتصاد الزراعـــي البدائي والمجتمع المغلق، لم تكن محتاجة، ولا مهيّأة – في تلك المرحلة – لأكـــثر من القواعد القانونية المبنيّة على العرف والعادة. وقد استمرّ هذا الوضع

علـى هذه الحال حتى أواخر القرن السادس قبل الميلاد، حين غزا شعب الأتروسك المـنطقة، وترك بصمات حضارته عليها. وفي العام 509 ق.م. ثار الرومان على ملكهم تاركان العظيم (Tarquin le Superbe) وقتلوه، وطردوا شعب الأتروسك، وأقاموا النظام الجمهوري.

وحيث أنّ الشرائع تولد وتتطوّر وتتعدّل، نوعاً وكمّاً، تبعاً لواقع المجتمع المعني بهـا، ولتبدّل أوضاعه وظروفه الخاصة من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، فإنّـه يصبح من البديهي، بل من الضروري إلقاء نظرة، ولو خاطفة، على مختلف المراحل والظروف التي مرّت فيها الدولة الرومانية، عبر عمرها الطويل، من أجل استجلاء العناصر الرئيسية لهذا البحث.

لقـد أنـتج تحـالف القرى السبع، الذي تشكّلت منه مدينة روما، قوّة عسكرية، سمحت لـه بالتوسّع الجغرافي على حساب جاراته: ممّا أحدث تعديلاً، إيجابياً، في الاقتصـاد الرومانـي، نوعاً وكمّاً؛ كما حوّل الشعوب المغلوبة إلى ما يشبه الرقيق لديها، حيث أمكن استخدامهم في أعمال الزراعة وسواها...، دون تمتيعهم بالحقوق المعترف بها لشعب روما.

كمـا أنتجـت هـذه الفـتوحات، وما تبعها من ازدهار اقتصادي لمدينة روما، تصـنيف الشـعب الرومانـي نفسـه فـي طبقتيـن اجتماعيتين أساسيتين، وهما: طبقة الأشراف، وهي الفئة الميسورة وتضمّ أهل الحكم ورجال الدين وكبار التجّار والملاّكين الزراعيين، وطبقة العامة التي تتحمّل عبء الضرائب وواجب القتال في حروب روما التوسّعية.

وكـان القـانون، في حينه، ما زال عرفياً شفوياً؛ ومعرفته محصورة في رجال الدين، الذين كانوا يفسّرونه – مزاجياً – في كلّ مسألة نزاعية، لصالح أقربائهم من طبقة الأشراف ضدّ أبناء الطبقة العامة.

هـذا الـتمايز الفاضـح، والمـتراكم، في الحقوق والواجبات بين مختلف فئات المجـتمع الروماني، قد أدّى إلى ثورة قامت بها طبقة العامة ضدّ الطبقة الحاكمة، مطالـبة بتدويـن الشـرائع المعتمدة، وإعلانها، ليتاح الإطّلاع عليها من الجميع؛ ومطالـبة بتحقيق المساواة بين المتقاضين أمام القانون، بصرف النظر عن انتمائهم الطبقي ووضعهم الاجتماعي.

أمـام هـذه الضـغوط العنـيفة، صدر، عام 451 ق.م.، أوّل تدوين للأعراف الرومانية والحِكم السائدة في حينه (تركّزت بنوع خاص على تحديد أنواع الجرائم، وعلـى أنـواع الدعاوى وإجراءات التقاضي)، على ألواح عشرة، علّقت في وسط

ساحة المدينة؛ وأُتبعت، بعد ذلك، بلوحين آخرين (شملت حقوق العائلة وحق الملكية وقواعـد الإرث، والعقـود...)، فأصـبح المجموع إثني عشر لوحاً. لقد أدّى هذا التدوين، الأول من نوعه في تاريخ الدولة الرومانية، إلى تضييق الهوّة في الحقوق والواجـبات، التي كانت قائمة بين كلّ من طبقة الأشراف وطبقة العامة، وإلى نشر القواعـد القانونية السائدة وإعلانها وإخراجها من السرّية ومن احتكار معرفتها من قـبل رجال الدين وبعض الأشراف، وإلى وضع حدّ للتصرّف الكيفي والتعسّفي من قبل هؤلاء أمام القضاء.

هذه الألواح الإثني عشر، الهامة جداً في تاريخ القانون الروماني، قد دُمّرت في حريق روما عام 390 ق.م.؛ وقد أعيد جمع نصوصها، لاحقاً، بلغة عصرية، عن طريق استنتاجها من تعليقات فقهاء القانون وكتابات الخطباء والشعراء والمؤرّخين، المعاصرين لها.

هـذا التدوين للقواعد القانونية، الذي جاء نتيجة مطالبات عديدة وعنيفة من قبل الطـبقة العامة، وثمرة جهد تشريعي كبير، قد اكتسب هالة من القداسة، فأصبح من العسير المسّ به تعديلاً أو تبديلاً، لمواجهة مستجدّات التعامل بين الناس بفعل تطوّر الحياة الدائم عبر الزمن.

تجـدر الإشارة، هنا، إلى أنّ حقّ التمتّع بتطبيق القانون الروماني ظلّ محصوراً بالشـعب الروماني، من دون سائر الشعوب الأجنبية الخاضعة لسلطة روما، وذلك حـتى تـاريخ صـدور قانون كركلا عام 212 م. الذي أتاح لتلك الشعوب إمكانية اكتساب الجنسية الرومانية.

خـلال العصر الجمهوري (509 ق.م. – 27 ق.م.)، أُنجزت معظم الفتوحات الرومانـية، فبسطت هذه الدولة سلطتها على الأرض وخيراتها، وعلى الناس الذين جـرى اسـتخدامهم كيَد عاملة في الإنتاج وكمستهلكين لـه. هذا المُعطى قد أنتج ازدهـاراً اقتصـادياً ملحوظاً ورخاءً اجتماعياً عاماً، أدّى إلى ازدياد التعامل، نوعاً وكمّـاً، بيـن مختلف الشعوب المنضوية تحت سلطة الرومان، فيما بينها من جهة، وبيـنها وبيـن الشعب الروماني من جهة أخرى: ممّا استوجب خلق قواعد قانونية جديدة لتفي بحاجات هذا التعامل وبمتطلّبات مسائله المستجدّة باستمرار.

وحيث أنّ المحتلّ الروماني كان يختزن في داخله شعوراً بالتفوّق على الشعوب الـتي أخضعها لسلطانه، فقد استكثر على هذه الشعوب الأجنبية حقّ التمتّع بالقانون الرومانـي. ثـمّ انّـه استحدث، عام 367 ق.م.، منصب الحاكم القضائي، المسمّى بريـتور، وأنـاط به أمر الإشراف على تطبيق القانون الروماني وعلى حسن سير

القضاء، في كلّ مرّة يكون فيها طرفا النزاع رومانياً. ثمّ أُنشئ، عام 242 ق.م.، منصب بريتور الأجانب، الذي يرعى شؤون العدالة حيث يكون طرفا النزاع أو أحدهما على الأقلّ، أجنبياً.

فماذا كانت النتيجة؟

* من جهة: كان إعجاب الرومان بتشريعاتهم شديداً، بدءاً من قانون الألواح الإثني عشر والقوانين الوضعية الأخرى التي تلته، فبدت هذه التشريعات عصيّة على التعديل والتطوير الضروريين لمجابهة المسائل الحياتية المستجدّة. هذا، فضلاً عن تقييد العدالة بالنصّ الحرفي للقانون، على حساب المعنى، وطغيان الإجراءات الشكلية في الدعاوى، المحدّدة أصلاً في أنواعها وفي إجراءاتها: ممّا انتقص من توفير العدالة في مفهومها الصحيح.

* ومن جهة أخرى: كانت الشعوب الأجنبية، التي أخضعها الرومان لسلطانهم، تمارس أعرافها الذاتية لدى التعامل في ما بينها، لا سيّما تلك التي كانت مشتركة ومتّصفة بالعمومية ومتطابقة مع متطلّبات الحياة المستجدّة: ممّا أسهم في اتساع تعميمها، وترسيخ التعامل بها بكلّ بساطة ودون قيود شكلية تحدّ من فعاليتها. وقد ساهم في تحقيق ذلك، تدخّل بريتور الأجانب في كلّ مرّة كانت متطلّبات العدالة تقتضي هذا التدخّل. هذه القواعد القانونية الحديثة الولادة، والمستخلصة من زبدة تجارب تلك الشعوب الأجنبية، مجتمعة، بإشراف مباشر من بريتور الأجانب، قد كوّنت ما سُمّي بـ "قانون الشعوب"، المتّسم بالسهولة والوضوح وبعيداً عن الإجراءات الشكلية المسيطرة على القانون الروماني، وعن قيود التدوين.

عندها، أدرك الرومان مساوئ الثبات والتحجّر في النصوص القانونية، ولمسوا تفوّق قانون الشعوب على القانون الروماني، فراحوا يقتبسون، تباعاً، قواعد قانون الشعوب، الواحدة تلو الأخرى، ويُدرِجونها في تشريعاتهم الوضعية الجديدة. وهكذا، تسرّبت غالبية القواعد القانونية من قانون الشعوب إلى القانون الروماني، وتضاءلت الفوارق بينهما بنسبة مرتفعة.

إذن:

إغناء القانون الروماني، وتطويره لجهتي الشكل والأساس، قد حصلا – ولو بطريقة غير مباشرة – على يد كلّ تلك الشعوب الأجنبية المنضوية تحت سلطان الدولة الرومانية، مجتمعة، ومنها الشعب اللبناني!!. هذا، دون أن ننسى، أو نقلّل من أهمّية دور الفقهاء في هذين المجالين، حيث كان لبيروت الموقع الأبرز في علمنته وفي تغذيته وتجميعه ونشره، فضلاً عن تخزينه وتعليمه.

في الحقبة الأخيرة من العصر الجمهوري كانت روما قد أتمّت فتوحاتها لبلدان حوض البحر الأبيض المتوسّط، وتقدّمت نحو الغرب، ثمّ فتحت بلاد الغال (Gaule) وبريطانيا. والإقدام على تلك الفتوحات والأعمال الحربية الضخمة كان لا بدّ أن يسبقه تركيز على أهمّية الجيش، وعلى منح المعنويات القوية والصلاحيات الفعلية الواسعة للعسكريين، من أجل تحقيق هكذا فتوحات. ثمّ إنّ الانتصارات الهائلة في هذا المجال، التي حقّقها القادة العسكريون، قد مكّنتهم من نفوذ متزايد في الداخل؛ ثمّ صار كلّ واحد منهم يدّعي لنفسه الفضل الأول، وربّما الفضل الأوحد، في إنجاز تلك الفتوحات وتحقيق العظمة للدولة الرومانية. فنشأ، من جرّاء ذلك، نزاع حادّ في ما بينهم من أجل الاستيلاء على الحكم. وصار كلّ واحد منهم يتصرّف وكأنّه السيّد المطلق، إلى أن اختفى النظام الجمهوري وحلّ محلّه النظام الإمبراطوري على يد أغسطس عام 27 ق.م.

نتيجة ذلك: بدأت المجالس الشعبية، التي كانت قائمة خلال العصر الجمهوري، تفقد صلاحياتها التشريعية أمام مجلس الشيوخ؛ ثمّ إنّ الإمبراطور، بدوره، انتزع السلطة، تدريجياً، من مجلس الشيوخ، وانفرد، وحده، بكامل الصلاحيات وبالسلطات المطلقة، بما في ذلك سلطة التشريع.

لقد مرّت الإمبراطورية الرومانية في مرحلتين تاريخيتين، أساسيتين ومتتاليتين، وهما:

1- عصر الإمبراطورية العليا (le Haut Empire) الذي اتّسم بالقوّة السياسية وبالازدهار الاقتصادي والرخاء الاجتماعي والغنى الثقافي؛ وقد امتدّ منذ العام 27 ق.م. حتى بدء ولاية الإمبراطور ديوكلسيان (Dioclétien) عام 284 م.

2- عصر الإمبراطورية السفلى (le Bas Empire)، الذي اتّسم بالتقهقر على كافة الأصعدة بما في ذلك في مجال التشريع والفقه القانوني.

ثمّ انتهت هذه المرحلة الثانية بانقسام الإمبراطورية الرومانية، عام 395 م، سياسياً وإدارياً وعسكرياً، إلى شقّين:

– غربي، عاصمته روما؛

– شرقي، عاصمته القسطنطينية؛ وكانت بلادنا، بحكم موقعها الجغرافي، تابعة للقسم الشرقي.

ثمّ ما لبث القسم الغربي أن اندحر أمام غزو البرابرة الجرمان له، عام 476 م، فانتهى أمره. بينما استمرّ القسم الشرقي حتى تاريخ غزو الأتراك العثمانيين له، وسقوط القسطنطينية في أيديهم عام 1453 م. ثمّ سقطت بلادنا، مباشرة، في أيدي

الأتـراك عـام 1516 م.، في معركة مرج دابق؛ واستمرّت خاضعة لحكمهم طيلة أربعـة قرون من الزمن، فأصيبت بنوع من الجمود والتخدير في طاقاتها كافة، بما فيها الفكرية والثقافية، وبالتالي الإبداع القانوني.

إنّما:

خـلال التاريخ الروماني، الحافل بالأحداث المفصلية المؤسّسة للتشريع الخلّاق، لـم تفقـد بيروت – قط – موقعها المميّز فيه، بل أنّ دورها قد ظلّ فاعلاً، وبقوّة، ضمن ورشة صناعة القانون الروماني؛ هذا القانون الذي أصبح – فيما بعد – الجدّ الشرعي لتشريعات معظم دول العالم المعاصر، ومنها تشريعاتنا اللبنانية الحاضرة.

تنبغي الإشارة، هنا، إلى أنّ عصر الإمبراطورية العليا قد سمّي العصر العلمي نظراً للازدهار الذي حقّقته تلك الدولة الفتيّة، والقويّة، خلاله. ذلك أنّ النظام السياسي الجديد للبلاد قد بدأ قوياً، فساد الأمن في الداخل والاستقرار في العلاقة مع الخارج؛ كما أنّ الأراضي الشاسعة والمتمتّعة بمناخات مختلفة، التي استعمرها الرومان، مضافاً إليها اليد العاملة المأخوذة من السكّان المحلّيين، قد أمّنت الحصول على إنتاج زراعي وفير ومنوّع، ومؤسّس لعدد من الحرف المنتجة اقتصادياً. كلّ ذلك، مجتمعاً، قد أثمر ازدهاراً اقتصادياً ملحوظاً، وبالتالي رخاء اجتماعياً بين الناس، من رومان، ومن أجانب واقعين تحت السيطرة الرومانية: فكثر التعامل بين الناس، نوعاً وكمّاً، واستوجب إصدار تشريعات جديدة ومتطوّرة، من أجل ملاقاة ومواجهة كلّ تلك التطوّرات.

وحيث أنّ التشريع يصاغ، في الأساس، في عبارات عامة، فكان لا بدّ لتطبيقه، من قبل القضاء، على الحالات الخاصة المعروضة أمامه، من شرحه وتفسيره على يد الفقهاء المتضلّعين في معرفته. وقد جعل هؤلاء الفقهاء، من القانون، علماً قائماً بذاته؛ وفرّقوا بينه وبين قواعد الدين والفلسفة والأخلاق؛ ووضعوا له التقسيمات والتفريعات؛ واستنبطوا، من الحلول الفردية، القواعد العامة المجرّدة؛ وبيّنوا سبل تفسير القواعد العامة لتتلاءم مع متغيّرات المجتمع.

ومن الجدير ذكره أنّ نخبة مرموقة من أولئك الفقهاء كانوا لبنانيين، أو ممّن اتخذوا بيروت مقرّاً لإنتاجهم الفكري، أمثال الفقيه بابنيان الذي لُقّب بأمير الفقهاء، وبولس وأولبيان وجوليان وبومبونيوس وسكافولا ومرسليوس وغايوس، وسواهم.

هذه الحركة التشريعية الواسعة، والفقه القانوني المزدهر، قد استوجبا إنشاء المدارس الحقوقية لتدريسهما فيها؛ فقامت مدارس الحقوق الرومانية في المدن الرئيسية للإمبراطورية، منها: مدرسة روما ومدرسة القسطنطينية، ومدرسة

الإسكندرية (مصر) ومدرسة القيصرية (فلسطين) ومدرسة أثينا، ومدرسة بيريت (Beryte) في بيروت التي كانت أهمّ كلّ تلك المدارس وأوسعها شهرة، حتى دُعيت بحق، "أم الشرائع" و"الأم المرضعة للحقوق"، ووُصف أساتذتها بالعلماء العالميين (les maîtres œcuméniques).

قليلة جداً هي المراجع العلمية التي تضمّنت دراسة مفصّلة ووافية عن هذه المدرسة العظيمة. غير أنّ أستاذاً في كلّ من جامعتي باريس وليل(Lille)، في فرنسا، هو السيد بول كوللينه (Paul Collinet)، قد وضع كتاباً، من 333 صفحة من الحجم المتوسّط، بعنوان: تاريخ مدرسة الحقوق البيروتية (Histoire de l'Ecole de droit de Beyrouth)، نشرته دار سيراي (Sirey) في باريس عام 1925. وقد ذكر هذا البروفسور أنّ مؤلّفاً جماعياً، يعود للعام 1716، أشرف عليه الأستاذ في جامعة برام (Brème) الألمانية، جاك هاز (Jacques Hase)، قد خصّ مدرسة بيروت الحقوقية بقسم منه؛ وأنّ هذا الكتاب موجود، حالياً، في مكتبات باريس الرئيسية.

كما أدرج الأستاذ بول كوللينه، في كتاب آخر له، صادر عن دار سيراي – باريس، عام 1938، بعنوان: Mélange à la mémoire de Paul Huvelin بحثاً في الإثبات المباشر لتأثير تعليم بيروت على تقنينات جوستنيان (Les preuves directes de l'influence de l'enseignement de Beyrouth sur la codification de Justinien).

هذه المدرسة، التي نشأت في عصر الامبراطورية الرومانية العليا، لم تنحدر مع انحدار هذه الامبراطورية؛ بل أنّها زادت تألّقاً وشموخاً، حتى أنّها كسفت، بإشعاعها، كلّ ما عداها من المدارس الحقوقية الرومانية الأخرى.

وحيث أنّ التشريع، في وجه عام، في بلد معيّن، يشكّل انعكاساً لواقع الحياة المعاشة ولمسائلها الشائكة المطروحة للحلّ، في زمن معيّن: فإنّ التراجع، على كافة الأصعدة، بما في ذلك التشريع، قد أصاب الإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن الثالث، فدُعيت – بعد الازدهار، ونتيجة هذا الانحدار – بالإمبراطورية السفلى.

عندها، وفي غياب الجديد والقيّم من القوانين الوضعية، راح بعض المتطوّعين، من غير الرسميين، يحاول تجميع القديم من التشريع، ولو بصورة مجتزأة: فكانت المجموعة الغريغورية، للفقيه غريغوريوس، الذي قام بتجميع الدساتير الصادرة منذ العام 196 وحتى العام 291؛ ثمّ المجموعة الهرموجينية، للفقيه هرموجينوس، الذي

جمع الدساتير الإمبراطورية الصادرة خلال العامين 293 و294. بعدها، أنجزت لجنة رسمية، متخصّصة، تجميع الدساتير الصادرة منذ العام 312 حتى العام 438، في مجموعة سُمّيت القانون التيودوزي (Code théodosien).

كما أنّ الفقيه جوليان، الأستاذ في مدرسة بيريت، قد وضع مختصراً للدساتير الإمبراطورية، كافة.

غير أنّ الإمبراطور جوستنيان (527 – 565 م)، في غيرة منه على التراث القانوني الروماني الضخم، وخشية ضياعه، قد أمر بوضع مجموعات قانونية تشمل التشريعات الرومانية كافة.

هذا العمل التشريعي الضخم قد جاء بفائدتين عظيمتين، وهما:

1- تمكين وتيسير الإطّلاع على قواعد القانون الروماني، دونما حاجة إلى التنقيب في الكتب القديمة، وفي خزائنها العديدة، هنا وهناك؛

2- حفظ وتخليد هذا القانون، باعتباره تراثاً عالمياً نفيساً، ينطق بعبقرية أولئك الذين اشتغلوا في علم القانون، ووضعوا أصوله التي ما زالت راسخة ومعمولاً بها حتى اليوم.

لقد جرى، بأمر من الإمبراطور جوستنيان، تجميع الدساتير الإمبراطورية في مجموعة سُمّيت Codex؛ كما جُمع القانون المدني (Jus) من كتابات فقهاء العصر العلمي، في موسوعة سُمّيت ديجستا (Digesta)، نشرت عام 533؛ وقد شارك اثنان من أساتذة مدرسة بيريت في كتابة الديجستا، وهما: دوروته (Dorothée) وأناتول (Anatole). ثمّ جرى نشر موجز لكتاب النظم، للفقيه غايوس، الذي اعتمد لاحقاً، وبصورة أساسية، في تدريس الحقوق في المدارس الرومانية.

كما أعطى الإمبراطور جوستنيان تعليماته، إلى اللجنة المولجة بالمهمّة، باختصار النصوص الفقهية، وحذف الزيادات غير المفيدة منها من أجل توفيق هذه النصوص مع الأوضاع القانونية والاجتماعية السائدة في العصر الذي جمعت فيه.

وهذا العمل التشريعي الضخم قد حصل في بيروت، وبمشاركة أساسية من أساتذة مدرسة بيريت بالذات.

أمّا في الفترة الزمنية لحياة هذه المدرسة الحقوقية التاريخية، ومكانها:

أ- من حيث الزمان:

إنّه من المرجّح، بنسبة مرتفعة جداً، أنّها قد تأسّست في أواخر القرن الثاني الميلادي، في حدود العام 196 م؛ واستمرّت قائمة، ومزدهرة، حتى العام 55 محين ضرب مدينة بيروت زلزال هائل، تبعه مدّ من البحر وحرائق في الداخل،

حيث انشقّت الأرض وابتلعت الأبنية، بما في ذلك مدرسة بيريت العظيمة وموجوداتها وكنوزها القانونية الثمينة.

لقد أبقى الإمبراطور جوستنيان على مدرسة القسطنطينية وروما فقط، إضافة إلى مدرسة بيروت؛ في حين أنّه ألغى مدرسة الإسكندرية والقيصرية، وسواهما، بعد إلغاء مدرسة أثينا. وقد أشار جوستنيان إلى أهمّية مدرسة بيروت في اثنين من الدساتير، اللذين شكّلا مقدّمة الديجستا، الصادرين عنه في 16-12-533.

ب- ومن حيث المكان:

كانت مدرسة بيريت تشغل المساحة الممتدّة من منطقة التياترو الكبير وكنيسة مار جرجس المارونية وسوق السمك، في وسط المدينة، حتى مدرسة الحكمة الحالية. وكان الأمل كبيراً بانتشال أعمدتها ومقتنياتها وما سلم من كتبها وكنوزها قبل إقامة "السوليدار"؛ غير أنّ ذلك الأمل يتحقّق(!؟!).

بعد تهدّم مدرسة بيروت بالزلزال عام 551، نشأت مدرسة، بديلة، للحقوق في صيدا؛ غير أنّها لم تنجح، ولم تعمّر.

وعام 600 كانت بيروت ما تزال منهكة من حالة الدمار التي أحدثها ذلك الزلزال الفظيع، فلم تصمد أمام الفتح الإسلامي لها، الحاصل عام 635.

هكذا، أُسدل الستار، في حينه، على أهمّ صرح أكاديمي في تاريخ القوانين، بعد إشعاع امتدّ وهجه بعيداً في الزمان والمكان، وما زال العالم يعيش في دفئه حتى اليوم.

لم يقتصر تعليم مدرسة بيروت للحقوق على طلاّب المدينة وجوارها، بل أنّ الطلاّب كانوا يؤمّونها من مختلف أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وخاصة من المقاطعات الشرقية.

كما أنّ التدريس كان يتمّ، فيها، بادئ الأمر، باللغة اللاتينية، ثمّ تحوّل إلى اللغة اليونانية التي كانت لغة العلم والفلسفة في ذلك الوقت. وكان الأساتذة فيها يعمدون، أحياناً، إلى ترجمة القوانين الرومانية إلى لغة السكّان المحلّيين لتمكين هؤلاء من استيعابها. كان الأستاذ يعطي خلاصة للفصل، أو موجزاً للنصّ المنقول عن مؤلّفات العصر العلمي، ويعيّن مصدر هذا النصّ بالضبط؛ ويبدي، أحياناً، ما لديه من رأي وملاحظات حول موضوع الدرس، أو يستشهد بآراء الفقهاء المشهورين وبتفسيراتهم. وكانت مدّة الدراسة أربع سنوات؛ وهنالك سنة خامسة مخصّصة لمن يبغي دراسة الدساتير الإمبراطورية. وكانت مؤلّفات فقهاء العصر العلمي معتمدة كمراجع أساسية للدراسة.

مرحلة ما بعد جوستنيان:

1- في الشرق:

كانت مجموعات جوستنيان قد حوت آخر ما توصّلت إليه القوانين الرومانية من نموّ وتطوّر خلال حقبة من الزمن نافت على الألف عام. وإذ كان هذا الإمبراطور شديد الاعتزاز بهذا التراث القانوني الضخم، وبما أنجزه من تجميعات، فقد راح يتّخذ الإجراءات التي من شأنها المحافظة عليها ومنع المسّ بها. ورفض كل شرح لها أو تعليق أو نقد أو مناقشة؛ باستثناء ترجمتها إلى اللغة اليونانية فقط، التي كانت في ذلك الوقت لغة العلم والفلسفة. ومع ذلك، كان أساتذة الحقوق يضطرّون، أحياناً، إلى ترجمة بعض النصوص إلى لغة السكّان المحلّيين، وإلى إيداء الشروحات والتعليقات والمختصرات لها، لتسهيل فهمها على الطلاّب. وقد وضع الأستاذ تيوفيل (Théophile) ترجمة لكتاب النظم إلى اللغة اليونانية، وأرفقها بشرح له، فكان لمؤلّفه هذا انتشار واسع في الشرق.

في القرن التاسع أُدخلت تعديلات كثيرة على أحكام القانون الروماني. ثمّ أعاد الإمبراطور ليون الحكيم (Léon le sage) صياغة كلّ من مجموعة القوانين والموسوعة (الديجستا). بعد ذلك، قام الإمبراطور باسيل (Bassil) بوضع مجموعة جديدة من النصوص تضمّنت مختصراً للقوانين الرومانية؛ وقد بلغت هذه المجموعة ستين جزءاً، وأصبحت هي المطبّقة في الشرق. واستمرّ الأمر كذلك حتى سقوط القسطنطينية بيد الأتراك العثمانيين عام 1453.

2- في الغرب:

أُهمل القانون الروماني كلّياً خلال القرون الأولى من العصور الوسطى؛ واستمرّ مهملاً حتى قيام حركة بعثه من جديد، في أوروبا الغربية.

أ- في ايطاليا: في أوائل القرن الثاني عشر، بعد عودة الحياة الاقتصادية في إيطاليا إلى الازدهار، وبروز الحاجة لتنظيم العلاقات التجارية على أسس قانونية جديدة، ظهرت حركة إحياء القانون الروماني لبعثه من جديد، انطلاقاً من مجموعات جوستنيان. ثمّ ظهرت في القرن الرابع عشر، بقيادة الفقيه بارتول، حركة فقهية جديدة ركّزت على استخلاص القواعد القانونية الحيّة من نصوص التشريع القديم.

ب- في فرنسا: خلال القرن السادس عشر ظهرت حركة فقهية، علمية بحتة، بقيادة كوجاس (Cujas)، هدفت إلى دراسة أمينة للقانون الروماني على ضوء ظروف نشأته وكافة معطيات تكوينه الأساسية. وصار لهذا الفقيه أتباع كثيرون في

أنحاء عديدة من القارة الأوروبية. عمدت هذه الدراسة إلى التقصّي عن تاريخ الرومان، وعن عاداتهم وآدابهم ولغتهم، للإحاطة الكلّية بظروف تكوّن قوانينهم وبكيفية تطوّرها لاحقاً. وقد أدّى هذا الغوص في أعماق عملية ولادة النصوص القانونية، وفي كيفية نموّها وتطوّرها، إلى استخراج أسسها الأصلية ومبادئها التجريدية، ومن ثمّ التوصّل إلى حلّ الكثير من المسائل التي كانت موضوع نقاش وجدل قانوني.

ثمّ انتعشت هذه الحركة من جديد، في القرن السابع عشر، في فرنسا؛ وكان أشهر الفقهاء المشتغلين في نطاقها الفقيه بوتيه (Pothier)، الذي وضع مؤلّفات فقهية معمّقة وشاملة، قارب عددها الثمانية عشر كتاباً.

وحين أراد نابوليون أن يقنّن الحقوق الفرنسية، في مطلع القرن التاسع عشر، اعتمد على كتب الفقيه بوتيه وأتباعه، فكانت مؤلّفاتهم المنهل الأساسي لتلك التقنيات الفرنسية الشهيرة، والتي أصبحت – بدورها – منهلاً للتشريعات الحديثة في معظم البلدان الأوروبية، وسواها.

ج- في تركيا:

كانت الشريعة الإسلامية، وحدها، المطبّقة لديها، بادئ الأمر. غير أنّ الضغوطات الداخلية التي مارستها الشعوب الواقعة تحت سيطرتها، كما الضغوطات الخارجية الآتية من الدول الأوروبية، قد اضطرّتها إلى إصدار قوانين مدنية مستقاة من تقنيات فرنسا وإيطاليا، ذات الجذور الرومانية. وقد طبّقت هذه القوانين العلمانية، المستحدثة، على الأراضي العثمانية، وعلى الدول الخاضعة لسلطتها ومنها لبنان؛ مع بقاء موضوع الأحوال الشخصية خاضعاً للشرع الطائفي. وهذا، إلى جانب مجلّة الأحكام العدلية (الصادرة عام 1976) التي نظمت قواعد الالتزام، والعقود... وفق مبادئ المذهب الحنفي.

ثانياً، حالياً، في لبنان:

لقد نامت الحقوق، وعلومها، في سبات عميق طوال حقبة السيطرة العثمانية على بلادنا، التي دامت أربعة قرون كاملة. فلا تشريعات حديثة خاصة بلبنان، ولا مدارس للحقوق فيها. وحين بدأ التسلّل الثقافي الأوروبي إلى عمق المناطق الواقعة تحت السيطرة العثمانية، توصّلت فرنسا إلى إنشاء معهد للحقوق الفرنسية في بيروت، عام 1913؛ وعهدت برعايته إلى الآباء اليسوعيين.

ولدى انهزام دول المحور، أمام الحلفاء، في الحرب العالمية الأولى، انتقلت الوصاية على لبنان من تركيا إلى فرنسا، وفق ما نصّ عليه صك الانتداب. وقد دام هذا الأمر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، حين أُعلن استقلال لبنان عام 1943.

خلال فترة الانتداب الفرنسي، الواقعة ما بين الحربين العالميتين، كان من الطبيعي جداً أن تنهل القوانين اللبنانية، الصادرة خلال تلك الفترة، من التشريع الفرنسي، خصوصاً أنّ فرنسا، بذاتها، قد أصبحت صاحبة القرار المباشر، والوحيد، في هذا الشأن؛ وانّ المؤهّلين الوحيدين، من اللبنانيين، للاشتغال في مجال إعداد القوانين، كانوا من خريجي المدرسة الفرنسية للحقوق، التي كانت ما تزال وحيدة في هذا المجال، في لبنان.

وبعد إعلان استقلال لبنان، وخروج فرنسا منه، لم يكن هنالك مبرّر، لدى المشترع اللبناني، للتخلّي عن القوانين المستقاة من التشريع الفرنسي، فتابعت مسيرة التقنين تقدّمها في ذات الاتجاه؛ بل أنّنا ما زلنا، حتى هذه الساعة، نستقي مباشرة، وأحياناً بصورة ببغائية، تشريعاتنا من المنهل الفرنسي. هذا، باستثناء موضوع الأحوال الشخصية الذي ما زال خاضعاً، في بلادنا، كما في غالبية الدول العربية، إلى التشريع الطائفي؛ علماً أنّ الدولة اللبنانية ملزمة – بموجب القرار التشريعي الصادر برقم 60 ل.ر. وتاريخ 13 آذار عام 1936 – بإصدار قانون مدني للأحوال الشخصية. كما أنّ المطالبات العديدة والمتكرّرة، الصادرة عن نقابة المحامين في بيروت وعن عدد من الأحزاب العلمانية والهيئات المدنية ....، بإصدار قانون مدني للأحوال الشخصية، لم تلقَ استجابة من قبل المسؤولين وأصحاب القرار في هذا الشأن، حتى الآن؛ كما أنّ اقتراح القانون، في هذا الخصوص – الذي صدّقته الحكومة اللبنانية بأكثرية واحد وعشرين صوتاً ضد ستة وامتناع وزير واحد عن التصويت – لم يصل، حتى الآن، إلى مجلس النواب لعرضه على المناقشة، والتصويت.

لقد ظلّ المعهد الفرنسي للحقوق، الذي أُنشئ عام 1913، وحيداً، حتى تاريخ إنشاء الجامعة الوطنية عام 1953، التي لحظت – لاحقاً – كلّية لتدريس الحقوق، بين كلّياتها المستحدثة.

ثمّ جاءت جامعة بيروت العربية (مصرية)، وجامعة الكسليك وجامعة الحكمة والجامعة الإسلامية، لتمارس كلّ منها تدريس الحقوق ضمن إطار نشاطها التعليمي، ووفق انتماء ثقافي خاص بها.

ثالثاً، المرتجى للمستقبل:

هذه الكثرة في عدد الكلّيات الجامعية القائمة، اليوم، بتدريس الحقوق، في لبنان، قد تشكّل دليل عافية من جهة، ودليل وهن من جهة أخرى. فغياب الخطّة التربوية الوطنية، التي تلحظ الاحتياجات الحقيقية للمجتمع المحلّي، عن اهتمامات المسؤولين في السلطة السياسية، وانتفاء التوجيه في اختيار الاختصاصات الجامعية، من شأنه أن يعرّض الشباب للوقوع في العشوائية، وفي إغراءات السهولة، ولو رخيصة.

وبعد تحقيق واجب إبعاد التعليم الجامعي عن التجاذبات السياسية الداخلية، القاتلة، يبقى تحديث هذا التعليم، في أساليبه وفي وسائله، مطلباً ملحاً من أجل إنتاج النوعية العالية من الخرّيجين، على حساب الكمّية. وعندئذ، يمكن لكلّيات الحقوق القائمة في لبنان، ولا سيّما الرسمية منها، أن تفاخر بأنّها الحفيدة الشرعية لمدرسة "بيريت" العظيمة، وأن تعيد إلى بيروت عزّها الحقوقي المنقضي!!. ولم لا؟، فالعنصر البشري فيه متوفّر ومهيّأ؛ والموقع الجغرافي للمدينة مُسهّل؛ والاستقطاب لثقافتي الشرق والغرب حاصل على أرضها: وكلّها أمور تجعل من بيروت مدينة قادرة على استعادة مجدها التشريعي، على أن تخلص النوايا وتتوفّر الرغبة الصادقة والخطّة السليمة لدى من في يدهم السلطة، والقرار.

وبالعودة إلى مدرسة بيريت:

لا بدّ لكلّ مشتغل في حقل التشريع، وفي مجال تاريخ القوانين، من الإقرار بأنّ تاريخ مدرسة بيروت الحقوقية يشهد على نجاحها، المؤكّد بشهادات عديدة وموثوقة ومتطابقة، وعلى استمرار هذا النجاح منذ تأسيسها في أواخر القرن الثاني الميلادي وحتى تاريخ تدميرها بالزلزال عام 551.

هذا النجاح كان مثالاً فريداً في تاريخ جامعات الزمن القديم، بحسب ما يجزم به بول كوللينه. لأنّ روما نفسها قد انتهت هيمنتها خلال عصر الامبراطورية السفلى، وخسرت مدرستُها تفوّقها لصالح المقاطعات. هذا النجاح المستمرّ لمدرسة بيروت يعزوه غرغوار لوتوماتورج (Grégoire le Thaumaturge) إلى صيرورة هذه المدينة "رومانية" أكثر من أية مدينة أخرى في الشرق. ذلك أنّ الأباطرة قد اتخذوا منها مركزاً لإيداع القوانين الرومانية، وتخزينها؛ ولأنّ القانون الروماني كان يدرّس، فيها، بروحية روما. ولم تستطع مدرسة الإسكندرية منافستها لغلبة الطابع اليوناني على هذه الأخيرة؛ وكذلك الأمر بالنسبة للمدارس الحقوقية الأخرى في سائر المقاطعات الرومانية.

لقد تشاركت بيروت، في العظمة، مع روما. ومع القانون الروماني. وهي لم تتراجع قط نتيجة التقهقر الذي أصاب روما؛ بل على العكس، ازدهر تعليم الحقوق في مدرستها، وبلغ أوجه. وإذ عرفت مدرستها كيف تطوّر نفسها، وكيف تبعد عنها الأخطار التي يمكن أن تهدّدها، فابتعدت نهائياً عن روما، واقتربت من القسطنطينية؛ وظلّ أساتذتها الكبار يدرّسون القانون الروماني، وعرفوا كيف يزاوجون بينه وبين الفكر اليوناني. لقد انتصرت بيريت، وأصبحت المدرسة الوحيدة، الخلاّقة، في العالم بأسره؛ وتُوّجت بالمجد لدى إشراك أساتذتها في إعداد وصياغة تقنيات جوستنيان، التي تدين لها – اليوم – تشريعات معظم بلدان العالم المتمدّن.

وخلاصة القول:

أن اختيار بيروت، من قبل أمم العالم، عاصمة عالمية للكتاب، للعام 2009، لم يأت من فراغ: فبيروت، اليوم، هي مكتبة الشرق، وفيها تطبع أهمّ الكتب والمجلاّت والأبحاث والمراجع العلمية الصادرة في البلدان المجاورة؛ وبأقلام مفكّريها وأدبائها ومثقّفيها تُكتب أهمّ الدراسات والتحليلات والتعليقات التي تهمّ المنطقة.

وكم كنّا نتمنّى لو أنّ المسؤولين اكتشفوا قيمة الثروة المدفونة تحت الأرض، المتمثّلة في مدرسة بيريت وكتبها الحقوقية الثمينة، قبل إعادة إعمال وسط بيروت، فعمدوا إلى استخراج ما سلم منها، وإلى ترميمها وإعادة نشرها في العالم كلّه: لأدّى ذلك وحده، في نظرنا، إلى تكريس بيروت، ليس فقط عاصمة عالمية، بل وأيضاً أبدية، للكتاب.

***

* – أستاذة وعميدة سابقة في كلّية الحقوق– الجامعة اللبنانية

بيروت أم الشرائع...
وأم الكتاب

نزيه نعيم شلالا*

"بيروت العاصمة المشرقية الحضارية ذاع صيتها في محراب العلم والثقافة والحضارة منذ سنة 325 ميلاديّا.

أواخر القرن الثاني الميلادي تأسست مدرسة الحقوق في بيروت وانطلقت شعاعاتها بعد موت الإمبراطور الروماني تيودور théodore سنة 395م وانقسام الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين: غربي وشرقي.

أضحت بيروت رغم تشقق الكيان الروماني مستودع القوانين الرومانية والمركز الأساسي لنشرها في الإمبراطورية الرومانية وفي خارجها وكان أساتذتها وخرّيجوها من أشهر فقهاء الرومان ولهم الفضل في التليين من صلابة القانون الروماني القديم ومنهم غايوس... وأولبيان... وبول... وبابينيان... وغيرهم[1].

اتساع العلوم القانونية والفقهية لمدرسة الحقوق في بيروت خلال الحقبة الرومانية أعطى لبيروت شهرة واسعة بين كافة مناطق الشرق حتى وصلت شهرة المدرسة الحقوقية إلى كافة أنحاء العالم – آنذاك – فلقّبوا بيروت على ضوء أهميتها ومرجعيتها القانونية المتقدمة بـ: بيروت "الأم المرضعة للحقوق Berytus Nutris legume".

نطاق الدراسة الحقوقية كان يشتمل على مجمل القوانين الرومانية والتي كانت تترجم إلى اللغة اللبنانية المحلية – والمشرقية – والتدريس كان يتم باللغة اللاتينية وفيما بعد باليونانية ويقضي الطالب فترة الأربع سنوات لإنهاء علومه الحقوقية ولا تزال مدة دراسة الحقوق في كافة المعاهد القانونية في لبنان حتى اليوم أربع سنوات كذلك بالنسبة لعدد كبير من كليات الحقوق في الشرق.

اعتبرت مدرسة الحقوق البيروتية آنذاك بأنها أعظم إنجاز حققه الرومان بعد التشريع. وقد تمّ تأسيس مدرسة الحقوق هذه في نهاية القرن الثاني الميلادي، أو في أوائل القرن الثالث أيام حكم الأباطرة المتحدرين من أسرة "سيفير".

وخلال تأسيس تلك المدرسة لمع أكثر من نجم حقوقي كبير، كأمير الفقهاء بابينياتن – التسمية للرومان – الذي ولد في مدينة حمص، وتلاميذه بولس وأولبيان (من مدينة صور في لبنان)، وتلميذ هذا الأخير موديستان.

والمعلومات والوثائق التي تناقلها الحقوقيون ووصلت إلينا بالتواتر تفيد أن معهد بيروت الحقوقي كان له من الشأن أعظم من شأن كل معهد حقوقي في العالم الروماني مما لم يدركه معهد روما ولا معهد أثينا ولا معهد القسطنطينية ولا معهد الإسكندرية.

وقد أثبتت الوثائق المحفوظة أن طلاب الحقوق في الإمبراطورية الرومانية وأبناء العظام فيها كانوا يغادرون أوطانهم ويقصدون معهد بيروت بالترجيح على أي معهد آخر، كما يقصد الطلاب هذه الأيام من سائر أنحاء العالم الجامعات الأوروبية وغيرها من الجامعات الشهيرة، وما ذلك إلا لما بلغه هذا المعهد العلمي من الشأن والرقي في الثقافة مما لم يبلغه أي معهد آخر.

ومن جهة ثانية كان لمدينة بيروت نفسها أثر في هذا المعهد، لأن بيروت كانت نقطة الإشعاع الذي ينعكس إلى العالم أثر أعظم المدنيات الشرقية من فينيقية وحمورابية وحثية وآشورية، لأن هذه المنطقة وخصوصًا سواحلها كانت ملتقى هذه المدينات كلها. حتى أن الرومان أنفسهم أطلقوا على معهد بيروت اسم "الأم المرضّعة للحقوق"، وهذا اللقب لم يُعطَ لأي معهد آخر من معاهد الإمبراطورية الرومانية.

وكان معهد القسطنطينية الحقوقي قد تأسس في العالم 334م، وعندما جاء جوستينيان ورأى ضعف مكانة المعاهد الحقوقية في أنحاء الإمبراطورية، ألغى معظمها ولم يستبق منها سوى معهد بيروت ومعهد القسطنطينية باعتبار أنها عاصمة الإمبراطورية الرومانية.

أما التدريس في معهد بيروت الحقوقي فكان بادئ ذي بدء باللغة اللاتينية، ثم لم يلبث أن تحول إلى اللغة اليونانية التي كانت لفترة طويلة قبل الرومان هي لغة العلم في الشرق بعد فتح اليونان للشرق. وعلى الرغم من أن اللغة الأصلية للرومان هي اللغة اللاتينية، إلا أن اللغة اليونانية، حلّت محلها باعتبار أنها أغنى بالمصادر الحقوقية.

وبالنسبة لمدة الدراسة في معهد بيروت للحقوق كما أشرنا، فقد كانت أربع سنوات، يدرس فيها عدد من مؤلفات الفقهاء في العصر العلمي للحقوق. إلا أن عددًا من الطلاب كان يقيم سنة خامسة أيضًا لدراسة الدساتير الإمبراطورية.

إن بعض الوثائق التي تنوقلت منذ القديم توضح لنا طريقة التدريس التي كانت متبعة في معهد بيروت. فقد كان الأستاذ يعطي أولاً بإيجاز خلاصة النص المنقول عن مؤلفات فقهاء العصر العلمي، ويعين مصدر هذا النص على الضبط، ثم يشرح العبارات والكلمات ذات الشأن، وعند الاقتضاء كان يبدي ما لديه من ملاحظات خاصة به، أو ما يعرفه من آراء الفقهاء العظماء وملاحظاتهم حول ذلك.

وفي القرن الخامس بعد الميلاد، حدث بعث جديد في دراسة الحقوق الرومانية وأصبح للأساتذة في معهد بيروت شهرة عظيمة جدًا حتى لقّبوا ممن جاء بعدهم من الأساتذة المعاصرين للإمبراطور جوستينيان بالعلماء العالميين، وهذا ما جعل جوستينيان يعتمد عليهم ويجعل منهم رؤساء اللجان. كما وان المجموعتين القانونيتين اللتين ظهرتا في العصر الروماني والمعروفتين بالمجموعة "الهرموجينية" هما من صنع معهد بيروت الحقوقي... وقبل عهد جوستينيان.

وبعد جلاء الرومان عن لبنان وخضوعه للفتح العربي، خضع لبنان لأحكام "مجلة الأحكام العدلية" التي ظهرت في العام 1286 هجرية والتي بقي معمول بأحكامها حتى انسلاخه عن الدولة العثمانية مثل سائر الدول العربية.

وكان معظم هذه القوانين مأخوذًا عن القوانين الفرنسية وسائر القوانين الأوروبية[2].

اهتم "أباطرة الرومان" بمدينة بيروت ومدرستها الحقوقية اهتمامًا خاصًا نظرًا لمكانتها العلمية، وطبيعة أهلها، وكونها كانت مركزًا عسكريًا واقتصاديًا هامًا جدًا. فبيروت مركز مواصلات استراتيجية في المنطقة: "بوابة الشرق" ومرفئها إلى جانب المرافئ الأخرى المنتشرة على الساحل كانت مركز استقطاب التجار بعد أن جعل "أوغسطس قيصر" بيروت مركزًا للبحرية الرومانية في المتوسط كما اعتبر مرفأها "محطة بحرية لمراقبة شرق البحر الأبيض المتوسط"[3].

مدرسة بيروت الحقوقية بنيت في قلب بيروت (ساحة الشهداء) وبالتحديد قرب كاتدرائية مار جرجس المارونية.

الإمبراطور الروماني "سبتيموس سافيروس" (193-221م) هو الذي أسس مدرسة الحقوق البيروتية والتي اعتبرت أول أكاديمية للحقوق في العالم[4].

يقـول الدكتور فيليب حتي: أنه في عام 533، عندما وضعت مجموعة الشرائع المعـروفة "بشـرائع يوستينانوس الكبير" أدخل فيها ما لا يقل عن 595 مادة من المـواد القانونـية التي خلّفها بابنيانوس في مؤلفاته واعتبر الفقيه "أولبيانوس" أحد أبرز أساتذة القانون في العهد الروماني.

فقهاء عديدون درّسوا القانون في مدرسة الحقوق البيروتية منهم:

أميلـيوس، بابنـيانوس، جـايوس، أولبيانوس، بوليوس بولس، مود ستينوس، دوروتـيوس، أناطوليوس وقد وضع الفقيهين الأخيرين (دوروتيوس وأناطوليوس) القـانون المعـروف باسـم Code Justimen (529) نسبة إلى الإمبراطور يوستنيانوس.

ويعتـبر هـذا القـانون مجموعة من القرارات الامبراطورية وتعديلات لقانون غريـنوريوس ووهرموجيـنس، وتيودوسـيانوس – Code Grégorien) Code Hermogénien) – Code Théodorien واعتـبر القـانون المدنـي (الرومانـي) institus مجموعة نصوص حول الحقوق الخاصة بالأفراد والممتلكات بالإضافة إلى ما تعلّق بالموجبات والعقود.

ثمـة انتقادات كبيرة – مستمرة – توجّه اليوم إلى مديرية الآثار التابعة لوزارة الـثقافة اللبنانـية عـن سبب التأخر في إعادة إحياء وبناء مدرسة بيروت الحقوقية (الرومانـية) حيـثما (تـرقد بسـلام الآن) في الوسط التجاري العاصمة اللبنانية والحكومـة اللبنانـية الـيوم مدعـوة – وعلى عجل – بوضع الخرائط والتصاميم اللازمة للمباشرة بإعادة ترميم أو بناء المدرسة الحقوقية وإذا تعذّر في نفس المكان المعروف لاعتبارات سياحية فعلى الدولة اللبنانية اختيار مكاناً مناسبًا ضمن الوسط الـتجاري لإظهـار المدرسة من جديد والتي يجب أن تضم كافة المؤلفات الحقوقية الرومانـية واليونانـية التـي كانت تُعتمد وتدرّس إلى جانب لوحات لجميع فقهاء الـرومان والمشـرقيين الذيـن توالوا على التدريس في مدرسة الحقوق الأولى في بيروت.

بـيروت أم الشـرائع... بيروت المرضعة للحقوق... واليوم (2009) بيروت عاصمة عالمية للكتاب.

ونسجّل هنا أن أكثر من 74% من كتب ومطبوعات ومؤلفات المشرق العربي تؤلـف، وتطبع – عندنا – في لبنان... لبنان منارة الشرق... لبنان، بوابة الإشراق والإبداع إلى الشرق وإلى العالم.

•••

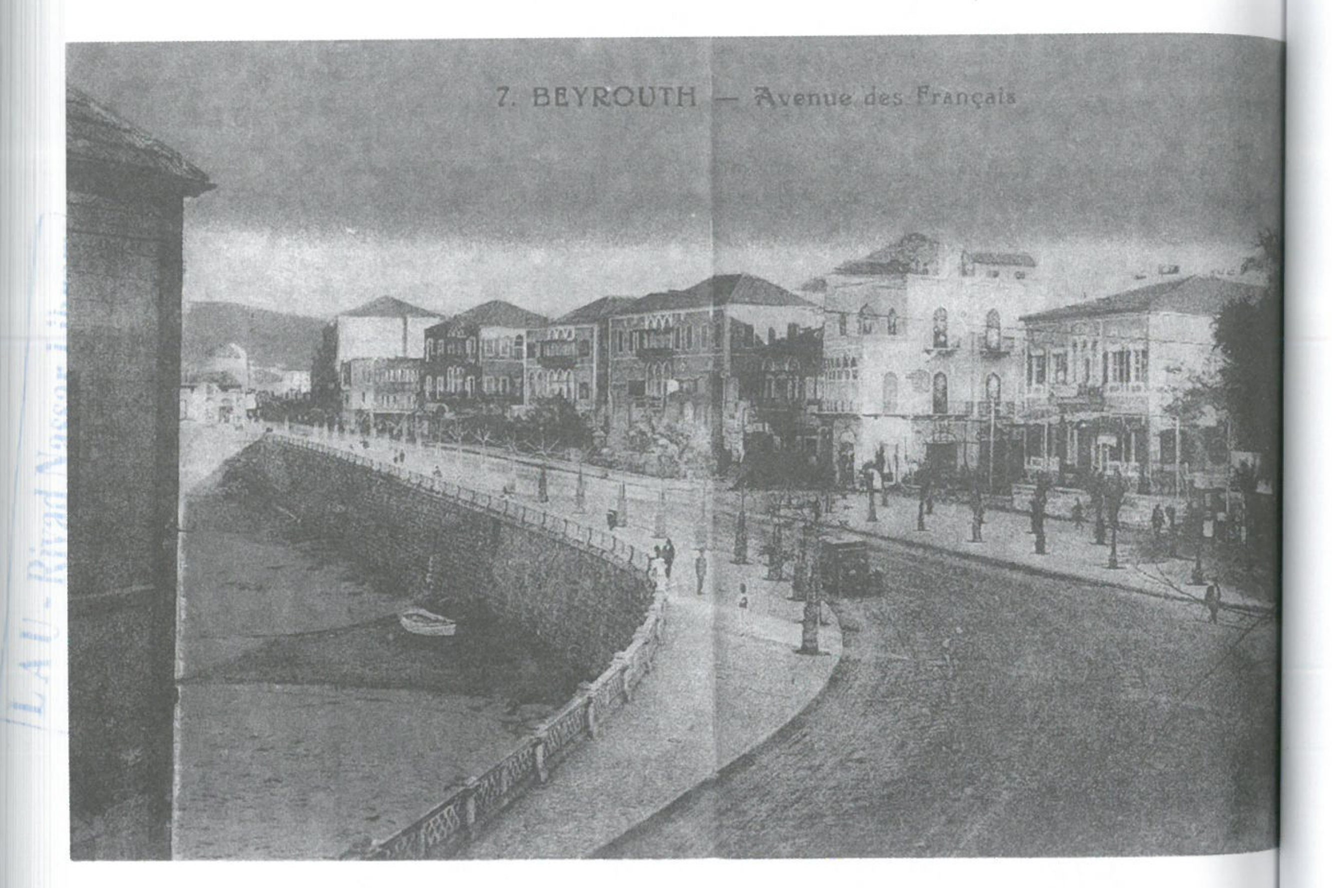
• – رئيس أكاديمية العلوم الجنائية والأبحاث القانونية

(1) – مجلة "بيروت أم الشرائع"، السنة الأولى، العدد الأول 1983، ص 8.

(2) – مجلة "صدى كسروان الفتوح"، العدد 3 كانون الأول 1987، ص 14-15.

(3) – المرجع نفسه، العدد الثاني 1984، ص 9.

(4) – تاريخ مدرسة الحقوق في بيروت، بول كوللينه، ص 22.



المكتبات في بيروت وبعض المناطق

أ. أديب قسيس*

بيروت المدينة الشاطئية التي يغلّفها الجمال، ساحرة تسلب الإنسان لبّه، شغلت العالم بمساحتها الصغيرة، والعظيمة بتاريخها قديمًا وحديثًا.

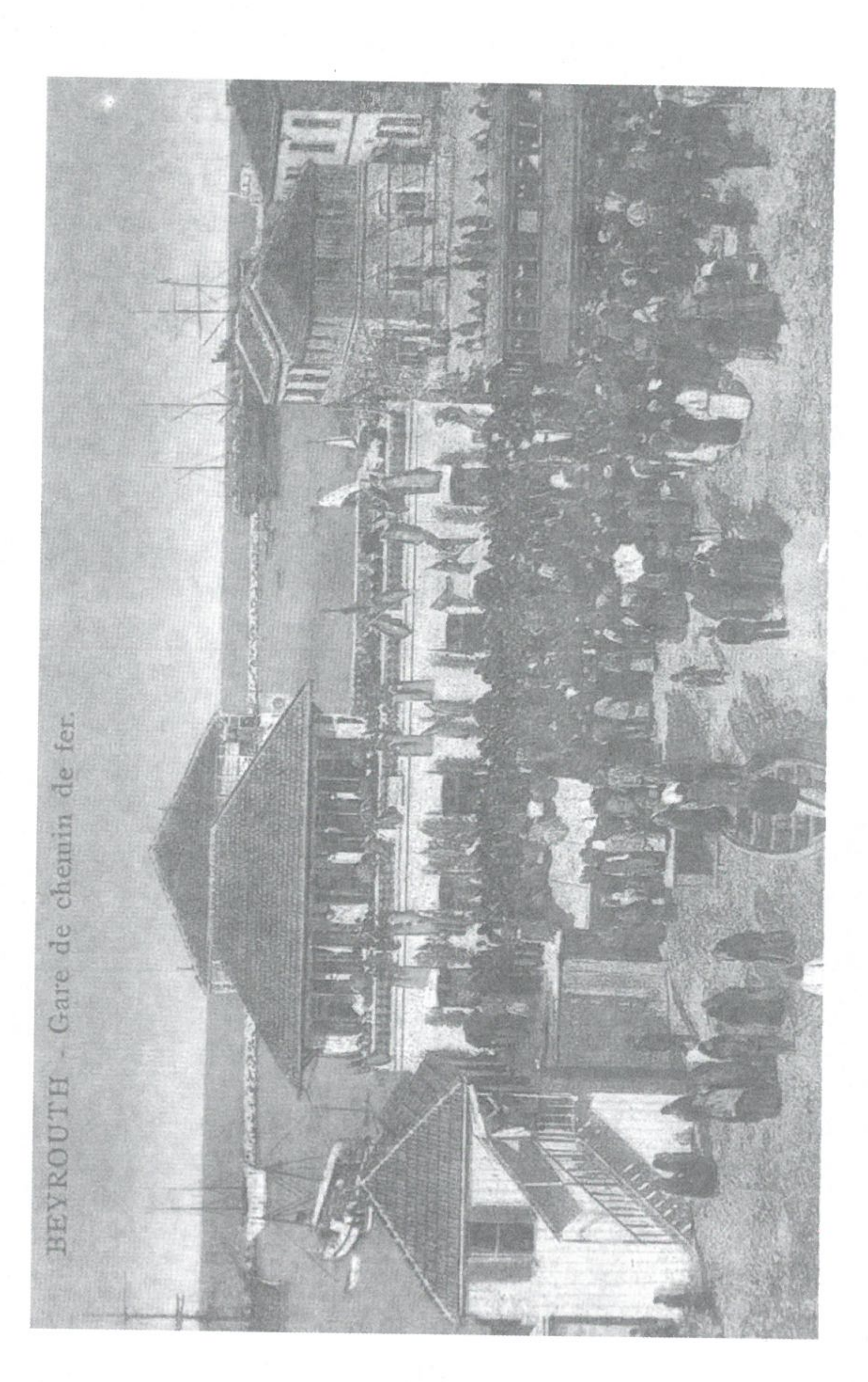
احتضنت، على مرّ العصور، النشاط الثقافي والأدبي وكان لها دورٌ مميّز في مسيرة الحضارة، تاركةً أثرها في المعالم التراثيّة التي نراها اليوم.

لم يظهر أيّ نشاط ثقافيّ إلاّ وكان لبيروت الدور الأساسي في تبنيه أو إرساء قواعده، لينطلق مجددًا من شواطئها، وينتشر في العالم، فتعمّ الفائدة، وتتطور الإنسانية نحو الأسمى.

ومن بين النشاطات التي كان لبيروت الدور الأساسي دخول الكتب المترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللّغة العربيّة، لأنّه «على ما يبدو، لم يكن يعرف أحد في ذلك العصر لغة أوروبيّة، بدليل أنّ البطريرك مخايل رزّي لم يجد في لبنان من يلمّ باللاتينيّة – وهي لغة الكتابة ولغة الكنيسة في أوروبا كلّها يومذاك – ليترجم له رسالة من البابا غريغوريوس الثالث عشر ورسائل من الكردينال كرافا تلقّاها في شهر آذار سنة 1577. فكان عليه أن ينتظر إلى حين وصول الأب اليانو، عام 1578، ليكلّفه بترجمتها»[1].

إنّ أولى الترجمات إلى اللّغة العربيّة، كانت مواضيعها دينيّة. وسيستمر الأمر كذلك حتى القرن التاسع عشر: «ذلك أنّ مواضيع الكتابة في كلّ عصر هي صورة اهتمام هذا العصر وحاجاته. فالكتاب مترجمًا كان أو موضوعًا، يُكتَبُ ليُقرأ، لذا ينبغي أن يستجيب لحاجة القارئ. وكان اهتمام الجميع، في ذلك الوقت، دينيًّا بسبب المناخ العام الذي خلقه تدفق الإرساليات التبشيريّة نحو الشرق. لهذا قلّ أنْ نجد كتابًا مترجمًا في غير الشأن الديني. ومعظم هذه الكتب منقولة من اللاتينيّة واليونانيّة وبعضها من الإيطالية»[2].

هذه الكتب طبعت خارج لبنان، وكانت تصل تباعًا بحسب حاجة السكان لهذا مواضيع، إلى أن ظهرت مطبعة دير مار قزحيا، وهي أوّل مطبعة في لبنان



والشرق العربي. كانت حروفها سريانيّة، وأوّل كتاب طبعته سفر المزامير سنة 1610، مترجمًا إلى اللّغة العربيّة، ومكتوبًا بالخط الكرشوني.

لم تذكر المراجع كيف تأسّست أو كيفيّة وصولها إلى لبنان وما حلّ بها بعد 1610، وكلّ ما عرف من أمرها أنّ الأسماء المدوّنة في نهاية طبعة المزامير تشير إلى خريجينَ من مدرسة روما. لذلك يرجّح أن يكون أولئك القيّمون على الطبعة قد حملوا معهم إلى لبنان أدوات المطبعة يوم عادوا إليه.

وتوالت على لبنان المطابع، بعد ما استقرت طلائعها في الأديرة. ومن أهمّ تلك المطابع مطبعة دير مار يوحنا الصايغ في الخنشارة قرب الشوير، فكان أوّل ما أخرجته كتاب «مرشد الزمان وقسطاس أبديّة الإنسان» من تأليف الأب نيرنبرغ اليسوعي وترجمة الأب بطرس فروماج وتنقيح عبدالله الزاخر، وقد صدر هذا الكتاب سنة 1733 – 1734.

وأشهر المطابع التي عُرفت في ما بعد: مطبعة دير مار قزحيا الثانية التي نُقلت إلى الدير عام 1808 بعد تأسيسها في «الدوّار»، ومطبعة القديس جاورجيوس الأرثوذكسية، التي يقول فيها الأب يوسف نصرالله: «والعمل الذي حققه عند الروم الكاثوليك عبدالله الزاخر حققه عند الأرثوذكس الشيخ يوسف نقولا الجبيلي المعروف بابي عساكر (توفي عام 1887). فقد أسّس في بيروت مطبعة القديس جاورجيوس واتخذ أحرف الشوير مثالاً. وأوّل كتاب أخرجه في هذه المطبعة هو كتاب المزامير سنة 1851، وقد أتبعه طبعة ثانية بعد عامين».

ومن المطابع المعروفة: المطبعة الأميركية (1834) والمطبعة الكاثوليكيّة (1848).

ومع بدء طباعة الكتب وتوافرها بين أيدي الناس، استوجب هذا الأمر وجود المكتبات سواء الخاصة أو العامة، فالشعوب القديمة لم يغب عن بالها إنشاء المكتبات، غير أنّه لا يمكن تحديد زمان أو مكان ظهورها بدقة. فأقدم المكتبات الموجودة في العالم تعود ملكيّتها إلى المعابد والقصور والحكومات والحكّام. ويذكر أنّ أقدم هذه المكتبات وجد في بلاد الرافدين السومريّة وفي مصر الفرعونيّة.

«ففي خلال الألف الثالث ق. م. دوّن السومريون طقوسهم ومعارفهم وآدابهم على لوحات فخاريّة بالمسماريّة. واحتفظوا بهذه اللوحات في قاعات أطلقوا عليها اسم «بيت اللوحات الكبير». فكان هذا البيت أقدم بناء مستقل في التاريخ، استعمل كمكتبة.

وأنشأ فراعنة مصر مكتبات عديدة، حفظت طقوسهم الدينيّة وآدابهم العامة، وضمّت سجلات الدولة ووثائقها. سُميت هذه المكتبات في هذه المرحلة، بتسميات مختلفة، منها: بيت الكتابات، ومحفوظات الأسلاف، وقاعة كتابات مصر، وبيت الكتابات المقدسة، ومكان إنعاش الروح...

وفي العصور الاغريقيّة – الرومانيّة، أولى الإغريق المكتبة اهتمامًا لافتًا، وجعلوها مؤسسة ذات منفعة عامة.

وفي العصور الوسطى ساهمت المعابد والأديرة والمساجد في صون الكتب والمحافظة على المكتبات مساهمة كبيرة»[3].

وفي العصر العباسي انشأ الخليفة المأمون في منتصف القرن الثاني للهجرة في بغداد «بيت الحكمة».

وفي العهد الفاطمي (909 – 1171) أطلق الفاطميون كلمة دار الحكمة (أو دار العلم) على مكتبتهم الكبرى التي أنشئت في أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي) في سبيل منافسة مكتبة بيت الحكمة البغدادية[4].

في هذه المرحلة زهت الحركة الفكرية العربية بنهضة الكتاب العربي، فحفلت به المكتبات، وازدانت به دور العلم وبيوت المثقفين.

إلاّ أنّ بلاد العرب منيت بغزوات شلّت الفكر، واغتالت الكتاب وشرّدته في كلّ مكان. وكانت الأقطار العربيّة يومذاك قد بدأت ترتاح إلى الكسل الفكري الذي نفخته فيها السياسة العثمانيّة، فخلت الديار من الكتاب. ويقول الرحالة فولني في كتابه ثلاثة أعوام في مصر وبرّ الشام 1783– 1784 – 1785 إلى أنّه لم يلقَ خلال رحلته في هذه البلاد سوى مكتبتين: مكتبة «مار يوحنا» على ما كانت عليه من فقر، مكتبة الجزار التي لم يكن فيها سوى ثلاث مائة مجلد.

لكنّ الزمان ما لبث أن أزاح ستاره الأسود فأشرقت شمس المعرفة من جديد. فعاد الاهتمام بالكتب وباقتنائها. فيحدثنا الرحالة روبنصون في كتابه «يوميات في لبنان» عن المكتبة التي أنشأتها «جمعيّة العلوم والفنون» فيقول: «وقد جمعت الجمعيّة في سنتها الأولى مكتبة حوت أكثر من 750 مجلدًا، بينها 527 مخطوطة عربيّة وتركيّة و 229 كتابًا مطبوعًا في لغات مختلفة...»[5].

أمّا في التاريخ المعاصر فليس غريبًا أنْ نرى لبنان يهتم بإنشاء المكتبات وجمع الكتب من كلّ مكان، وخصوصًا رجال الدين، فازدانت أديرة لبنان بالكتب، كما ازدانت بها المساجد، والمدارس، فازدهرت خصوصًا مكتبات دير البلمند، ودير

المخلّص، ودير عين ورقة، ومار عبدا قرنة شهوان ومكتبة دير سيدة اللويزه التي يقول عنها الآباتي بطرس فهد: «... وإلى هذا يضاف عمل آخر لا يقلّ أهمية عن سواه آلا وهو قيام نخبة من أفاضل الرهبان وإعلامهم بالترجمة والتأليف والنسخ وجمع المكتبات في الاديار. فكانت مكتبة دير اللويزه مشهورة بمخطوطاتها الفريدة الممتعة. وقد جاء في سجل الرهبانية القديم المحفوظ في اللويزه «إنّها أنفقت على نسخ الكتب من عربيّة وسريانيّة وتركيّة ولاتينيّة وإيطالية وفرنسيّة مبلغ 2200 قرشا في تلك السنين أي من سنة 1700م فصاعدًا. إلاّ أنّ يد الجهل والثورات والحروب في القرن التاسع عشر قضت على أغلب كنوزها..»[6].

ولهذه الأسباب اشترت مكتبة الفاتيكان والمكتبة الوطنيّة في فرنسا وغيرهما من المكتبات العامة في أوروبا مجموعات كبيرة من أديرة الشرق وخزائنه. لكنْ كثير من أصحاب الكتب كانوا يحرصون اشدّ الحرص على الحفاظ عليها وعلى إبقائها في مأمن فلا تصلها أيدي اللصوص.

«ويبدو كل حرصهم على صيانتها من اللعنات التي يصبونها على من تخوّله نفسه سرقتها. ولا يستنكفون أن يدوّنوا هذه اللعنات على الصفحة الأولى من الكتاب أو على جلدته من الداخل. وهاك ما كتبه المطران جرمانوس فرحات (1670 – 1732) مطران الكنيسة المارونية في حلب، في الوصية التي بموجبها وقف كتبه على مكتبة كنيسة مار الياس:

"هو أن هذه الكتب المذكورة جميعها وقف مؤبد لكنيسة مار الياس كنيسة الموارنة في مدينة حلب وكلّ من يغيّرها عن هذه الوقفية في أيّ نوع كان أو استبدالها أو اذن بذلك أو أشار وطابق أو لم يمنع عن ذلك وكان قادرًا علي منعها أو رضي وارضى في تغييرها وتبديلها وتبديدها إن كان كاهنا فليكن مربوطًا بكلمة الرب العزيز سلطانه عن التصرف بكهنوته حتى يردّ كلّ شي منها إلى وقفيتها المذكورة وان كان شماسًا أو عاميًا أو وكيلا فليكن محرومًا مسخوطًا مرذولاً من الله ومن حقارتنا وليكن مقطوعًا من جسد الكنيسة الرومانيّة ويكون بيته مثل صادوم وعامورا ويذهب رزقه وينهدم بيته وتشحذ أولاده من أبواب الخلائق والويل له إن رضي لنفسه ذلك. ولا يجوز لكلّ رئيس كهنة يقوم على هذه الرعية أن يبدد هذه الكتب الموقوفة لله ولمار الياس حلب لأنّ لا حقّ له فيها لكونه لم يكن هو الذي أوقفها من ماله ولا تعب في تحصيلها وليس هي من كده وسعيه فإذا بدّدها أو غيّرها يكون بمنزلة لص سرق مال الله وقدّيسيه وهذا يعدّ من جملة سلب الالهيّات ويكون القديس صاحب الوقف خصمه دنيا واخرة بل يلزمه ذمّة وشرعًا

أن يزيد على هذا الوقف من ماله ويعمل كما عمل غيره ليكون العمار متصلاً في رعية المسيح ووقف الكنيسة. حرّر ذلك سنة 1731»[7].

أشهر المكتبات:

قبل أنْ تأسّست مكتبات الجامعات كان الحصول على الكتب الثمينة أمرًا عسيرًا، لأنّ هذه الكتب كانت إمّا في حوزة العائلات الغنيّة الأرستقراطية أو في مكتبات الاديرة التي يتعذّر على الناس الوصول إليها، أو في المساجد والجوامع.

إنّ البحث عن أهمّ المكتبات وأقدمها في بيروت صعب، ولا يستطيع الباحث مهما عانى من التنقيب والدرس أن يلمّ به بسبب قلّة المصادر. لذلك سنذكر ما استطعنا الحصول عليه من أسماء المكتبات العامة والخاصة، وهي:

1 – الخزانة الاحدبيّة:

أنشأها الشيخ إبراهيم بن علي الأحدب (1242هـ) أحد أركان النهضة العلميّة في القرن التاسع عشر. وقد نقل بخطه ما يزيد على ألف كتاب، انتقل أكثرها إلى دار الكتب اللبنانيّة في بيروت.

«وشاهدنا في مكتبة نجله حسين بك الأحدب (1288هـ) وزير النافعة في الجمهورية اللبنانية بقية صالحة من خزانة والده لا ينقص عدد مخطوطاتها عن مائة وخمسين مجلدًا»[8].

2 – مكتبة الشيخ مصطفى الغلاييني:

للشيخ مصطفى الغلاييني قاضي بيروت بعض مؤلفات تدل على علو منزلته في العلوم العربيّة نظمًا ونثرًا. اهتمّ بجمع الكتب منذ صغره، بلغت محتوياتها حوإلى الفي كتاب، وقد اشترتها بعد وفاته دار الكتب اللبنانية[9].

3 – الخزانة المحمصانيّة:

أنشأها الشيخ احمد المحمصاني الذي تخرج في جامعة الأزهر، وعمل في دار الكتب المصريّة في القاهرة. ورث محبة الكتب عن والده عمر صاحب «المكتبة الحميديّة» التي كانت ملتقى أدباء بيروت وعلمائها. حوت مكتبته حوالي ألف وستمائة مجلد في شتى العلوم والفنون. بينها مائة وعشرون مخطوطًا لا تخلو من النوادر[10].

4 – مكتبة آل أبي النصر:

عمـر وعـادل همـا نجـلا الشيخ عبد الكريم أبو النصر نقيب الأشراف في بـيروت. جمـع عمـر خـزانة كتـب حوت زهاء ثلاثة آلاف مجلد في اللغات العربـيّة والإنكلـيزية والفرنسـيّة، أكـثرها فـي الـتاريخ والأدب والعلـوم

الاجتماعـيّة، وتشـتمل علـى مـا وضعه المستشرقون في التاريخ الإسلامي أو نشره بعض الرّحالة عن الأقطار الشرقيّة.

أمّا عادل المهندس الزراعي فقد أنشأ بجانب مكتبة شقيقه خزانة كتب لا تحتوي إلاّ كتبا تتعلّق بفن الزراعة بلغ عددها حوالي سبعمائة وخمسين مجلدًا، معظم أبحاثها تدور حول الحشرات والأمراض النباتية[11].

5 – مكتبة آل بيهم:

كان الحاج حسين بيهم من كبار أدباء بيروت، تولّى رئاسة «الجمعيّة العلميّة السوريّة» وساهم في تحرير مجلتها الخاصة، حوت مكتبته حوالي ثلاثمائة سبعين مخطوطًا[12].

6 – مكتبة الشيخ سعيد اياس:

الشيخ سعيد اياس من وجهاء بيروت، ورث عن والده ثروة واسعة وما لبث أن تعمّم وانقطع إلى طلب العلم. انشأ في منزله خزانة امتازت بما حوته من الأسفار التي نشرها علماء الاستشراق، بالإضافة إلى الكتب المطبوعة في أنحاء أوروبا والهند وفارس وسوريا ولبنان ومصر[13].

7 – مكتبة جميل العظم:

ولد في دمشق وقضى معظم أيامه في بيروت مفتشًا لمديريّة المعارف. انصرف جميل العظم (1290هـ) إلى الدرس والتأليف ونشر مجلة البصائر، وصنف بعض مؤلفات اشهرها كتابه «عقود الجوهر في من لهم خمسون مؤلفًا فأكثر». اهتمّ بجمع الكتب فاحتوت مكتبته حوالي ألفي مخطوط، غير أن عسرًا ماليًا أصابه في شيخوخته اضطره إلى بيع قسم من تلك المخطوطات ولا سيّما النادرة منها[14].

8 – الخزانة الناصريّة:

كان الشيخ محمد ناصر مولعًا بجمع الكتب، فاحتوت مكتبته مخطوطات وكتبًا لا أثر لها عند غيره على الإطلاق. وممّا يجدر بالذكر أنّ دار الكتب اللبنانية لمّا احتاجت إلى بعض مؤلفات نفدت من الأسواق، راجعته في أمر ابتياعها من مكتبته، فلبى طلبها من دون تردد خدمة للعلم والأدب[15].

9 – المكتبة الشرقية:

وجّه رؤساء مدرسة الكليّة جلّ اهتمامهم لإنشاء مكتبة واسعة تشتمل على أخصّ المآثر الشرقيّة، فوكلوا الأمر إلى بعض رهبانهم، فأنشئت مكتبة كليّة القديس يوسف اليسوعيّة في غزير والتي نقلت إلى بيروت في العام 1875[16]، حيث جمعت بعض المطبوعات الشرقيّة مع عشرة مخطوطات إلى خمسة عشر مخطوطًا متفرقة في

الكليّة، وكان ذلك في بداية العام 1880، «ولم نزل مذ ذاك الحين نسعى في استحضار المطبوعات الوطنيّة والأجنبية إمّا بطريقة الشراء وإمّا بالمبادلة بمطبوعاتنا وقد تلطّفت الحكومة الافرنسيّة فاهدتنا كثيرًا من مجاميعها الثمينة إلى أن ضاقت الغرفة عن ضمّها فنقلت إلى غرف أوسع مرارًا»[17]، وفي السنة 1905 بعد إنشاء المكتب الشرقي اتسعت مكتبة الكليّة وزاد عدد تآليفها زيادة لم تكن في الحسبان، فقرّر رئيسها الأب هنري غراسيان أن يفصل المكتبة الشرقيّة عن المكتبة الغربيّة، التي نقلت إلى بناية جديدة واستقلّت عنها المكتبة الشرقيّة كما هي اليوم.

لا تحتوي كليّة القديس يوسف على المكتبة الشرقيّة فقط بالرغم من أنّها «أوسع مكاتب الكليّة مادة وأعظمها جدوى إذ تتناول جميع علوم الشرق وهي لا تقلّ عن 35000 مجلّد باشرنا بجمعها منذ 45 سنة. وقسمها الأكبر مختص بالمطبوعات والمخطوطات العربيّة، فالمطبوعات نحو 15000 مجلّد مدارها على كلّ العلوم الدينيّة والمدنيّة والنصرانيّة والإسلامية المطبوعة في كلّ أنحاء العالم شرقًا وغربًا. والمخطوطات عددها 3200، بينها المصاحف والمخطوطات الملوّنة والمصوّرة والتآليف النادرة الفريدة في كلّ صنف من العلوم وبعضها مخطوط بقلم مؤلفيها أو قريب من عهدهم ومن جملتها مخطوطات على الرقّ باليونانيّة ومنها بالكلدانيّة والسريانيّة والفارسيّة والتركيّة والحبشيّة والقبطيّة والارمنيّة. وقد نشرنا بالافرنسيّة ثالثة أقسام في 208 صفحات وصفنا فيها 336 مخطوطًا من الكتب التاريخيّة والجغرافيّة والرياضيّة والفلكيّة والطبيعيّة والكيمويّة والطبيّة.

وفي المكتبة الشرقيّة معظم ما طُبع باللغة السريانيّة والكلدانيّة وفي الطقوس الشرقيّة، وفيها مجموعة كبيرة من المطبوعات الفارسيّة والتركيّة والعبرانيّة والارمنيّة والسنسكريتيّة والقبطيّة والحبشيّة وبعض الكتب الصينيّة واليابانيّة.

وتمتاز المكتبة بكتب الآثار والفنون الجميلة. منها المطبوعات عن آثار مصر وبابل واشور بالحروف الهيروغليفيّة والمسماريّة وعن الآثار الفينيقيّة والحثّيّة واليونانيّة واللاتينيّة مع المجاميع المختصة بها والمنشورات المصوّرة التي أصدرها أرباب الحفريات والبعثات الدوليّة وأسفار الرّحالين القدماء والمحدثين إلى أنحاء الشرق.

ومن مميزات المكتبة الشرقيّة مجموعة نحو 150 مجلة من كلّ أبواب العلوم الشرقيّة كالمجلات الاسيويّة الفرنسويّة والالمانيّة والانكليزيّة والاميريكيّة والايطاليّة ومجموعة المجلة الاثريّة وغيرها»[18].

وقد تعرضت المكتبة للأذى خصوصًا في الحرب الكونيّة إذ نقلت الحكومة التركيّة كثيراً من مطبوعاتها إلى الأستانة. «وكان قسم من مخطوطاتها ومطبوعاتها مستودعًا لأمانة بعض الاهلين فخيّب واحد منهم أملنا ونشر الخبر فوضعت الحكومة يدها على تلك الودائع ولم تَعُد إلى مكانها إلاّ بعد فقدان عدد عديد من تلك الكنوز وبينها 52 من المخطوطات الثمينة»[19].

طالب عدد كبير من الأدباء بإنشاء خزائن عموميّة، ليستطيع رجال الفكر الاطلاع على محتوياتها لذلك استدركت بعض الجمعيات هذا الأمر وبذلت المال في تجهيز هذه الخزائن. ففي حوالي السنة 1860 عنيت المدرسة الاميركيّة بفتح مكتبة في معاهد كليتها احتوت نحو 20000 مجلد، كان يغلب عليها الكتب العلميّة ولا سيّما الانكليزيّة، بالإضافة إلى ثلاثة الآف كتاب عربي من مطبوعات سوريا ومصر ونحو خمسين كتابًا من المخطوطات العربية[20] .

10 – المكتبة الوطنيّة:

يعود الفضل في تأسيسها إلى الكونت فيليب دي طرّازي الذي حقق هذه الفكرة بادئ الأمر في منزله، بعد ذلك نقلها إلى «بناية «الدياكونيز» حيث سجلها باسم الحكومة اللبنانيّة بتاريخ 8 كانون الأول سنة1921»[21]، التي عيّنته أمينًا عامًا لها.

وبتاريخ 25 تموز سنة 1922 جرى افتتاح الدار رسميًّا، وأصبحت منذ ذلك الحين معدّة لاستقبال الزوّار والباحثين من أهل العلم والفن.

وتصف مجلة المشرق افتتاح الدار: «رأينا بملء الفرح ما كنّا نتمنّاه سابقًا بخصوص مكتبة واسعة ومتحف أثري للبنان الكبير وقد حضرنا تدشينهما في عصر يوم الثلاثاء الواقع في 25 تموز برئاسة فخامة الجنرال غورو وعدد وعديد من أرباب الأمر والأدباء. فتمّت الحفلة بغاية يشتهى من النظام والترتيب. وتحقّق الجميع ما لفرنسة من الفضل في تعزيز الآداب والعلوم الأثرية كما أقرّوا بهمة المتولين إدارة المكتبين ولا سيّما الفيكونت فيليب دي طرّازي الذي لم يدّخر وسعًا في إنشاء دار الكتب الكبرى وتبليغ عدد كتبها ستة عشر ألفًا وتزيين ناديها بصور مشاهير الكتّاب الوطنيين»[22].

وبعدما ضاقت غرف مدرسة "الدياكونيز" عن استيعاب المجلدات التي كانت تتوارد عليها بلا انقطاع يومًا بعد يوم. عرض دي طرّازي عام 1929 على رئيس الجمهورية إيجاد قطعة ارض لبناء دار أكبر منها، فوافق وأوعز إلى الحكومة بالاهتمام بهذا الموضوع.

«انتقت الحكومة بقعة في قلب المدينة واقعة غربي «ساحة النجمة» وعهدت إلى المهندس البارع السيد مرديروس الطونيان أن يضع رسمًا لهذا الصرح الجديد. فجاءت هندسته جامعة بين العظمة والجمال وسلامة الذوق. وقد اشتمل هذا البناء على ثلاث دوائر رسمية وهي: المجلس النيابي ودار الكتب والدوائر العقارية»[23].

تضم الدار:

أولاً: خزانتان كبيرتان تضمان نحوًا من اربعماية وخمسين مخطوطة قديمة العهد، من بينها مخطوطات نادرة مصوّرة ومزوّقة تعدّ فريدة في نوعها وأبحاثها تتناول شتّى العلوم والفنون كالتاريخ والطب والأدب والفلك والهندسة والموسيقى والدين والشرع والكيمياء... وبينها ما هو مكتوب على رقّ الغزال أو مزيّن بالزخارف النفيسة والرسوم البديعة. كذلك تضمّ هذه الخزانة آثارًا خطيّة مكتوبة بيد مؤلفيها مثل تاريخ الأمير حيدر الشهابي ومؤلفات المطران جرمانوس فرحات واليازجيين واحمد فارس الشدياق وغيرهم.

ثانيًا: مجموعة وثائق إداريّة تاريخيّة تركها الأتراك وراءهم في مبنى بلدية بيروت بعد انسحابهم من لبنان عام 1918.

ثالثًا: مجموعة وثائق ودراسات خلّفتها بعثة هوفلين وراءها في العشرينيات من القرن الماضي.

رابعًا: مجموعة دي طرازي الخاصة التي أهداها لدار الكتب وهي مجموعة فريدة تحوي العدد الأول من كل صحيفة أو مجلة عربيّة صدرت في العالم، بالإضافة إلى عدد وافر من الصحف والمجلات الصادرة في اللغات الشرقيّة كالتركيّة والارمنيّة والسريانيّة والكرديّة والتتريّة والعبريّة وغيرها.

– مجموعة قيّمة من الكتب والمخطوطات النادرة بعدة لغات، وقد بلغت 6500 مخطوطة.

خامسًا: صورتان اثريتان رسمتهما ريشة اللغوي الشيخ إبراهيم اليازجي وهما: صورة شقيقته الشاعرة وردة وصورة الدكتور يوسف الجلخ. وقد كتب الشيخ إبراهيم بخط يده على زوايا الصورة الثانية أربعة أبيات من نظمه.

سادسًا: حلّة للتقديس ثمينة صنعت في أوائل القرن التاسع عشر وهي منسوجة بخيوط الفضة ومطرّزة بقصب الذهب ومرصّعة باللؤلؤ الأصلي وهبها لدار الكتب الارشمندريت مخايل ألوف من زحلة.

سابعًا: صورتان زيتيتان تمثّل إحداهما ناحية من نواحي بيروت منذ مائة عام. وتمثّل الثانية تلك الناحية عينها من بيروت في العصر الحاضر.

ثامنًا: مجموعة كاملة تنطوي على كلّ ما أصدرته الجمهورية اللبنانية من انواط الشرف.

تاسعًا: كتابة فنيّة على صحيفة بلوريّة بشكل سفينة من يد الخطاط الشيخ نسيب مكارم وكذلك حبّة أرز كتبت عليها صورة الفاتحة.

عاشرًا: حبتان من القمح والأرز أهداهما الخطاط محمد طاهر الكردي بمكة المكرمة وعليهما أبيات شعريّة من نظمه وأقوال حكميّة من قلمه[24].

وقد ساهم قانون «الايداع القانوني» الصادر سنة 1941 في إغناء ثروة الدار الفكريّة، حتى بلغت موجوداتها سنة 1948، 45 ألف كتاب و 550 مخطوطة، وفي الثمانينيات احتوت حوالي 150 ألف كتاب و2200 مخطوطة.

توالى على إدارة الدار حقبتان مميزتان:

الحقبة الأولى حقبة الانتداب يوم نشأت الدار عام 1921 وتولى رئاستها الفيكونت فيليب دي طرّازي مدة 19 سنة (1921 – 1940) تولى بعده هيكتور خلاط من عام 1940 حتى 1945.

أمّا الحقبة الثانية وهي حقبة الاستقلال فتولى إدارة الدار إبراهيم معوض عام 1946، وبعده الشيخ منير وهيبه الخازن.

لكنّ موقع الدار في وسط بيروت، وخصوصًا على خطوط القتال في حرب 1975 أدّى إلى إهمالها وتوقف خدماتها الفكريّة.

وبسبب الظروف الامنيّة، لم يستطع الإداريون الوصول إليها، فتعرضت للسرقة والنهب. عندها جمّدت الدولة نشاطها وجمعت ما تبقى في داخلها من كتب ومخطوطات في صناديق أودعتها في وزارة التربية.

والحديث عن المكتبات في بيروت، يتوجب علينا التطرق إلى المكتبات الموجودة في بعض الأديرة ومنها:

1 ـ مكتبة دير سيّدة اللويزه:

عندما أسس الحاج سلهب بن فرج الحاقلاني دير سيدة اللويزه، بدأ بجمع الكتب الليتورجيّة والروحيّة، من خلال نسخها شخصيًا أو تكليف أحد بنسخها وعندما أنضم إلى الرهبانيّة وسلّمها الدير، عمد المؤسّسون وبالتحديد جرمانوس فرحات وعبدالله قراعلي بتكليف الرهبان لجمع كلّ ما وقع تحت أيديهم من تراث مكتوب أو مطبوع شرقا وغربا ونقله إلى مكتبة الدير.

وورد في سجل الرهبانيّة أنّها أنفقت مبلغ 2200 قرشا في تلك السنين أي من سنة 1700 فصاعدا.

وقد "هرّبت" المكتبة إلى دير مار ضوميط في فيطرون خلال الحرب العالميّة الأولى، أيام رئاسة الأب اغوسطين البستاني العامة على الرهبانيّة (المطران فيما بعد)، عندما أمره المتصرف بذلك.

وفي رئاسة الأباتي مرسيل أبي خليل سنة 1984، أعيدت المكتبة إلى دير اللويزه، وقد طلب من الرهبان جمع التراث المكتوب والمطبوع في محاولة منه لجمع التراث الرهباني في الدير الأم.

لكنّ الأحداث التي عصفت بلبنان، ولأسباب عدّة سابقة فقد كثير من موجودات المكتبة، على ما جاء في رسالة الكردينال يعقوب فيليبوس فرانزوني، رئيس مجمع انتشار الإيمان، إلى رئيس عام الرهبانيّة، في 7 شباط 1837:

"انه لقد نعرض لقداسة سيّدنا غريغوريوس البابا السادس عشر التماس ابوتكم الموجّهة لكيما تحصلوا على ترجيع الكتب المأخوذة من مكتبة دير السيّدة مريم في اللويزه، ولكيما يوضع دواء لقطع هذا الداء في المستقبل. فقداسته قد لام إهمال رؤساء رهبنتكم القدماء الذين سمحوا بأخذ عدد كتب هكذا عظيم، معدمين الجمعيّة الرهبانيّة من الوسائط والسهولة الملايمة للتثقيف، موبّخا عدم اكتراثكم مع المقاضاة عن ترجيع الكتب المأخوذة.

".. أمّا نظرا للمستقبل فإرادة الأب الأقدس هي ألاّ يؤذن لأحد من الغرباء أن يأخذوا من المكتبة كتبا ما البتة وألاّ ينبغي الرؤساء أن يمنحوا بذلك أذنا ما البتة. ومن ثمّ تستطيعون أبوّتكم أن تعلّقوا على أبواب المكتبة المذكورة منعا صارما عن أخذ الكتب، موضحين بأنّ أمرا كذا هو مبرز من الحبر الأعظم ذاته...".

وفي أيام رئاسة الأباتي انطوان صفير عام 1993، عهدت إلى جامعة سيّدة اللويزه أمر الاهتمام بالمكتبة والإشراف على إدارتها. وقد نقل ما سلم من مكتبة دير مار عبدا في دير القمر إليها، بالإضافة إلى مجموعة المستشرق جان ريمون الذي قدّمها ولده إلى الدير وتقدّر ب 1540 كتابا، مع أبحاث والده المخطوطة.

وفي أثناء رئاسة الأب فرنسوا عيد للجامعة، أضاف إليها 104 مخطوطات، "وفي السنة نفسها، تمّ اتفاق تعاون مع جامعة بريغهام ـ يونغ الاميركيّة لنقل المخطوطات الكترونيًا على أقراص مدمّجة".

ومع وصوله إلى الرئاسة العامة طلب من مدير المكتبة سامي سلامه جمع كلّ المخطوطات والكتب القيّمة من أديار الرهبانيّة وحفظها في دير سيّدة اللويزه.

وفي سنة 2004 تمّ تصوير مخطوطات دير مار انطونيوس الكبير في روما وأرشفته، ووضع صور الكترونيّة وحفظها في المكتبة.

تحتوي المكتبة اليوم 631 مخطوطا يعود أقدمه إلى سنة 1250 م، وأكثر من 18000 كتابا مطبوعا، إضافة إلى صور الكترونيّة ل 780 مخطوطا غير مخطوطاتها.

وتحتوي أيضاً على كتب تتناول مواضيع متعدّدة منها:مواضيع عامة، فلسفة، وعلم نفس، لاهوت وديانات، علوم اجتماعيّة، لغات وآداب وقصص، علوم، تاريخ وحقوق، وتتوزّع على لغات عدّة منها: العربية، الفرنسيّة، الايطاليّة، اللاتينيّة، الانكليزيّة، السريانيّة، العبرانيّة، الكلدانيّة، اليونانيّة، البرتغاليّة...

2 ـ مكتبة دير سيدة بزمار:

تأسّست الرهبنة في دير الكريم في بطحا تحت اسم الرهبنة الانطونيّة الارمنيّة عام 1723، وبعد ضيق مساحة الدير انتقلوا إلى دير مار انطونيوس خشباو في شننعير، وبسبب خلافات داخليّة انشقت الرهبنة، وأُلغيت من قبل الكرسي الرسولي في روما، فنقلت الكتب والمخطوطات وبعض الآثار التي كانت بحوزتهم إلى مكتبة دير سيدة بزمار الذي تأسس في العام 1749، وقد سعى إلى بنائه البطريرك الأول للطائفة الارمنيّة الكاثوليكيّة البطريرك إبراهيم بطرس ارزيفيان، لكنّه لم يرَ حلمه يتحقق إذ توفي في السنة نفسها، فانتقل إلى السكن فيه البطريرك الثاني للطائفة يعقوب بطرس الثاني، ناقلاً معه الكتب الفلسفيّة واللاهوتيّة الخاصة للبطريرك الأول، وكانت هذه الكتب النواة الأولى للمكتبة.

بعد المجازر الارمنيّة في العام 1915، هرب عدد كبير من الأرمن باتجاه لبنان حاملين معهم ما استطاعوا نقله إلى مكتبة الدير. وللحفاظ على ارثهم التاريخي والديني، عاد قسم من الرهبان، بعد سنوات قليلة من المجازر، إلى أرمينيا، متنكرين بألبسة مدنيّة تشبه ثياب التجار أو الحمّالين، وبحثوا عن الكتب الباقية، في كافة الأماكن، واشتروها ونقلوها إلى مكتبة الدير، وكان للعلمانيين دور مهم في إغناء المكتبة، إذ وهبوا أو قدموا كتبًا كثيرة على أمل ذكرهم وذكر موتاهم في صلوات الرهبان.

تحتوي المكتبة اليوم:

- 80 ألف كتاب مطبوع، أكثرها باللغة الارمنيّة بالإضافة إلى اللغات الاجنبيّة.

- 1500 مخطوطة أرمنيّة.
- 250 مخطوطة عربيّة.
- أرشيف يحتوي على 25 ألف رسالة (تغطي حوالي مئة سنة) وهي مراسلات بين بطاركة الأرمن وبطاركة الطوائف المسيحيّة خصوصا مراسلات الجمعيّة الانطونيّة التي ألغيت.
- يوميات.
- سندات تمليك.
- شهادات تقدير من الكرسي الرسولي.
- وثائق رسميّة من قبل الحكومات اللبنانيّة والعربيّة والاجنبيّة.
- كتب قديمة وهي كتب مفقودة يعود تاريخها إلى ما بين 1512 و1805 وهي باللغة الارمنية[25].

3 ـ مكتبة دير الشرفة:

يعود الفضل الأوّل في إنشاء مكتبة دير الشرفة في العام 1786 إلى البطريرك مار اغناطيوس ميخائيل الثالث جروة الذي امتاز بحرصه الشديد على آثار السلف.

عند إلقاء نظرة على الفهارس المختصرة للكتب الموجودة في المكتبة والتي خطّها أساقفة وبطاركة مثل مار اغناطيوس انطون الأوّل سمحيري ومار اغناطيوس أفرام الثاني، نرى أنّها تحوي كتبا قديمة جدا، ترجع إلى أكثر من قرنين من الزمن. فقد الكثير منها، وفي العام 1880 أهدي قسم من محتوياتها، إلى المكتبة الفاتيكانيّة، على عهد رئاسة الخوري معمار باشي الذي استشار في ذلك البطريرك أغناطيوس جرجس الخامس.

وإضافة إلى المخطوطات التي كانت موجودة، نقلت مخطوطات دير مار أفرام الرغم عام 1840 إلى المكتبة بسبب تعرّض الدير إلى اعتداءات.

تحتوي المكتبة على عدد من الكتب المطبوعة قديما وحديثا في شتى اللغات كالسريانيّة والعربيّة والايطاليّة والفرنسيّة والانكليزيّة والالمانيّة والعبرانيّة والتركيّة والحبشيّة وسواها.

يبلغ عدد الكتب العربيّة الموجودة حاليّا في المكتبة زهاء العشرة الآف كتاب، والكتب الأجنبيّة يصل عددها إلى حوالي ستين ألف كتاب، ومعظمها طبعات قديمة نفذت وأصبح العثور عليها في باقي المكتبات أمرا صعبا جدا، إضافة إلى ذلك

تحوي المكتبة سلسلة من الجرائد والمجلاّت القديمة التي تعتبر وحدها موثقا تاريخيًا مهما في لبنان وفي البلاد العربيّة والعالميّة.

وبالرغم من الكنوز المعرفيّة الثمينة الموجودة في المكتبة إلاّ أنّه، إلى حدّ ما، مهملة لأسباب عدّة، أولّها نقص الخبرة في مجال الاهتمام بالمكتبات وضعف الإمكانات الماديّة المخصّصة لها وقلّة أجهزة الحفظ (كجهاز سحب الرطوبة) التي تساعد على تخفيف الرطوبة الموجودة، وكذلك نقص العاملين في المكتبة.

ما تحتاجه اليوم هو أختصاصيين في مجال الاهتمام بالمكتبات واستشارتهم من أجل المحافظة على الكتب القيّمة. أمّا بالنسبة إلى المخطوطات فانّه تمّ حفظها بشكل جيّد وتمّ الاعتناء بكلّ مخطوطة ووضعها بمغلف خاص بها ويجري حاليًا العمل على إصدار فهرس بمخطوطات الدير.

4 ــ دير سيّدة البلمند ومكتبته:

تاريخ مدرسة الدير

لطالما كانت الأديار بعامّة منارات الثقافة والعلم في محيطها، ولا يخرج دير سيّدة البلمند[26] على هذا الخط المألوف، فقد وفد إليه طلاب العلم منذ أن تجدّدَت فيه الحياة الرهبانيّة آخر العصر المملوكي. يُثبتُ ذلك أنّ العثمانيين وجدوه عامرًا بالرهبان[27] ومنحوا رهبانه العام 1603 كتابًا رسميًّا يُجيز لهم الإقامة فيه[28].

ومع دوره الطبيعي في التثقيف الدينيّ حاز الدير، بموجب فرمان عثمانيّ، ترخيصًا بفتح مدرسة ابتدائيّة وثانويّة وجامعيّة العام 1832، وقد أشرف على إدارتها رئيس الدير الأرشمندريت أثناسيوس قصير الدمشقيّ في عهد غبطة البطريرك ميثوديوس. وسُمّيَت مدرسته "المدرسة الإكليركيّة" لأنّ همّها الأوّل كان إعداد خدّام لمذبح الربّ في الكرسيّ الأنطاكيّ، لكنّها لم تُلزِم خرّيجيها بالانخراط في سلك الرهبنة أو الكهنوت .

مسيرة الحياة المدرسيّة في الدير تقطّعَت تبعًا للظروف المختلفة التي عَرَفَتها المنطقة إذ أقفلَت المدرسة أبوابها على أثر أحداث العام 1840 ودخول جيوش محمد علي إلي لبنان، وقد أعاد فتحها البطريرك ملاتيوس الثاني (الدوماني) العام 1899 موكلاً مهمّة الإشراف عليها إلى مطران طرابلس غريغوريوس (حداد)، والذي أصبح فيما بعد البطريرك غريغوريوس الرابع (1906–1928). وفي عهد البطريرك غريغوريوس الرابع اندلعَت الحرب العالميّة الأولى العام 1914 فأقفلَت المدرسة الإكليركيّة أبوابها حتى 1920 حيث تابعَت نشاطها بشكل خفر وخجول

بسبب مُناخ عدم الاستقرار والضيق الذي ساد المنطقة بين الحربَين العالميّتَين، بالرغم من جهود البطريرك ألكسندروس الثالث (طحان) الذي عُني بتجديدها بعد انتخابه العام 1928. ومع اعتلاء البطريرك ثيودوسيوس السادس (أبو رجيلي) السدّة البطريركيّة العام 1962 عَهد بإدارتها إلى سيادة الأسقف إغناطيوس (هزيم) – غبطة البطريرك الحالي منذ العام 1979 – فارتفع المستوى العلميّ فيها، وتضاعف عدد طلابها الذين باتوا يُحرزون شهادة البكالوريا اللبنانيّة/ القسم الثاني.

وقد برزت في هذا الوقت الحاجة إلى معهد لاهوتيّ على مستوى جامعيّ، من أجل إعداد كهنة ومعلّمين ومسؤولين عن التربية الدينيّة، فتبنّى الفكرة المثلّثَ الرحمات المطران أنطونيوس (بشير) ميتروبوليت نيويورك وأميركا الشماليّة وقدّم أوّل تبرّع شخصيّ منه وتبرّع آخر من أبرشيّته واقترح تأليف مجلس الأمناء التأسيسيّ الذي عمل على تنفيذ المشروع وإخراجه إلى حيّز الوجود. وفي المؤتمر العام لأبرشيّة نيويورك وسائر أميركا الشماليّة العام 1965 اتّخذ القرار النهائي بإنشاء "معهد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ اللاهوتيّ" الجامعيّ على تلّة البلمند الجميلة. وفي 15 آب 1966 وضع غبطة البطريرك ثيودوسيوس السادس الحجر الأساسيّ للمعهد اللاهوتيّ. ثم قام الميتروبوليت فيلبّس (صليبا) بتنفيذ وصيّة سلفه المطران أنطونيوس بإكمال بناء المعهد.

افتتح المعهد أبوابه العام 1970، في عهد البطريرك الياس الرابع، وكان أوّل عميد له سيادة المطران إغناطيوس (هزيم)، ميتروبوليت اللاذقيّة وقتها – غبطة البطريرك الحالي. وفي الأحد الموافق للسابع من شهر تشرين الثاني من العام 1971، دشّن المثلّث الرحمات البطريرك الياس الرابع (معوّض) المعهد رسميًّا، بحضور فخامة رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة السيّد سليمان فرنجيّة، وأعضاء المجمع المقدّس، وأركان الدولة وحشد كبير من المؤمنين. وفي الرابع من شهر حزيران من العام 1988، وبناءً على أحكام المرسوم 4885 الصادر عن رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة، صار معهد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ جزءًا من جامعة البلمند الأرثوذكسيّة.

طيلة هذه السنوات خرّج المعهد عددًا من القادة الكنسيين من مطارنة وآباء ومفكّرين وأساتذة في اللاهوت، وهو يتابع عمله اليوم بتعاون وثيق مع عدد من المدارس اللاهوتيّة في العالم الأرثوذكسيّ كما وفي العالم الغربيّ، ساعيًا إلى نقل الشهادة الأنطاكيّة بخصوصيّتها على المدى المسيحيّ.

مكتبة الدير

لمّا نشأت المدرسة الإكليركيّة آلت إليها محتويات مكتبة الدير وتوسّعت المكتبة لتضمّ الكتب المطبوعة حديثًا سواء في مطبعة الدير أو خارجه من كتب عربيّة وغير عربيّة. ثم على أثر قيام معهد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ كوريث للمدرسة الإكليركية العام 1970، تحوّلت مكتبة المدرسة إلى مكتبة للمعهد الذي يقوم بواجب الاعتناء بالمخطوطات ويهتم بإثرائها بالكتب التي تصدر حديثًا عن مختلف دور النشر العربيّة والأجنبيّة على السواء. وتتابع المكتبة توسّعها في تقديم المواد اللازمة للمعرفة وللبحث العلميّ بعد أن صارت جزءًا من جامعة البلمند الأرثوذكسيّة. تنقسم محتويات المكتبة إلى:

1- المخطوطات

عُني الرهبان بنقل المعرفة عبر تعريب عدد من الكتب الأجنبيّة ونسخ عدد آخر منها، فتركوا لنا مكتبة غنيّة بالمخطوطات الجميلة والتي لا يخلو بعضها من الزخارف والمنمنمات. هذا وتحتوي مكتبة الدير على نحو مائتي مخطوطة أغلبها يرجع إلى ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، لكنّ الأعداد القليلة منها، التي تعود إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر، تُعتبر من أثمن الموجودات، وعلى الأخص "مخطوطة برلعام ويواصاف" التي تُعتبر أُنموذجًا في تفاعل الحضارات على صعيد الرواية ونموذجًا في تفاعل التأثيرات الفنيّة السريانيّة والعربيّة والفارسيّة والبيزنطيّة على صعيد الرسومات المنمنمة[29]. تتناول المخطوطات موضوعات متنوّعة منها الليتورجيّة والقانونيّة والتاريخيّة والفلكيّة والفلسفيّة والعقديّة والتفسيريّة ومواعظ وأقوال آباء الكنيسة القدّيسين. لغة المخطوطات الأساسيّة هي اللغة العربيّة ولكنّها تضمّ إلى العربيّة أحيانًا اليونانيّة وأحيانًا السريانيّة وأحيانًا أُخرى اليونانيّة والسريانيّة معًا.

تعرّض الدير للعبث أثناء الحرب اللبنانيّة وهاجمه مسلّحون استولوا على أيقونات الكنيسة وعلى المخطوطات كلّها تقريبًا. وعبر وساطة بعض الحريصين على التراث، تمّ استرجاع معظم المخطوطات والأيقونات إلى الدير ولكن بعضها بقي مفقودًا.

سعت مكتبة المعهد إلى استرداد صور بعض المخطوطات المفقودة والتي كانت نُقلَت على مايكروفيلم، فاستعادت صور ست وخمسين مخطوطة من مخطوطات دير سيّدة البلمند، وأثرَت المجموعة بمايكروفيلم

يضمّ مجموعة مهمّة من المخطوطات العربيّة المسيحيّة الخاصّة بدير القدّيسة كاترينا في طور سيناء.

وفي الآونة الأخيرة، ومن أجل المحافظة على محتوى هذه المخطوطات من الضياع، إن بفعل العوامل الطبيعيّة والزمن، أو لأسباب أُخرى، قامت جامعة البلمند والدير بالتعاون مع "متحف ومكتبة مخطوطات هيل" في جامعة القدّيس يوحنّا في مينيسوتا، الولايات المتّحدة الأميركيّة[30]، بإطلاق مشروع تصوير المخطوطات تصويرًا رقميًّا بجودة عالية. بدأ المشروع مع مطلع شهر نيسان من العام 2003 وانتهى في كانون الثاني من العام 2005[31]. هكذا صارت المخطوطات البلمنديّة متوفرة على أقراص مضغوطة يمكن للباحثين الإطلاع عليها دون تعريض المخطوطة لأيّة عوامل غير مناسبة لها.

ولكنّ المشروع لم يتوقف عند المخطوطات البلمنديّة إذ هو مستمرّ إلى الآن، وقد قام بالتصوير الرقميّ لعدد آخر من المخطوطات التي استُحضرَت من مصادر مختلفة: من الأديار وكنائس الرعايا في مختلف الأبرشيات الأنطاكيّة في سوريا ولبنان، ومن مجموعات خاصّة بمالكيها. فباتَت مكتبة الدير تحتوي على صور رقميّة عالية الجودة تتجاوز المائة والعشرين ألف صورة وتَحفظ على أقراص مدمجة نحو ستمائة مخطوطة.

2- الكتب

تُؤَمِّنُ مكتبة معهد القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ في جامعة البلمند لطالب اللاهوت مكتبة غنيّة بمواردَ متنوّعة. تحتوي المكتبة على أكثر من ثلاثين ألف كتاب ومجلة دوريّة عالميّة ومحلّية وموسوعات ثقافيّة عامّة ومتخصّصة باللغات العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة والروسيّة والرومانيّة واليونانيّة، بالإضافة إلى قواميس متنوّعة ونادرة.

تتناول هذه الكتب المواضيع التي تُعنى بالتاريخ البشريّ العام، والتاريخ الكنسيّ، والحضارات، والفلسفات، وآباء الكنيسة، والكتاب المقدّس، والديانات المختلفة وبخاصّة الإسلام. كما تضمّ المكتبة أيضًا أطروحات الطلبة في برنامجَي البكالوريوس والماجستير.

كلّ محتويات المكتبة صارت، بفضل المكننة، متوفّرة على صفحة جامعة البلمند، ويُمكّن نظامُ "أوليب Olib" المعمول به الطالبَ من البحث عن أيّ كتاب تحت عنوانه أو اسم كاتبه أو ناشره أو المواضيع التي يَبحث فيها. ولطالب اللاهوت في معهد

القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ امتيازٌ يُسَهّل له الاستفادة من الكتب والخدمات التي توفّرها جامعة البلمند بكلّ اختصاصاتها (أكثر من خمسين ألف كتاب)، سواء عبر مكتبتها المركزيّة أو عبر مكتبات الكلّيات المختلفة، ومن خلال "خدمة المجلات الإلكترونيّة: EBSCO"، التي توفّر اشتراكًا واسعًا بمختلف المجلات المتخصّصة في العالم.

3- المكتبة الإلكترونيّة

تؤمّن مكتبة معهد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ اللاهوتيّ في جامعة البلمند الخدمة الإلكترونيّة الخاصّة للكتاب المقدّس (Bible Works 7) بعهدَيه القديم والجديد باللغات الأصليّة (عبريّة ويونانيّة وسريانيّة) وترجماتها باللغات الأوروبيّة كما باللغة العربيّة.

وعلاوةً على كلّ ذلك تضمّ المكتبة صُوَرًا رقميّة – نحو أكثر من مائة وعشرين ألف صورة – لمخطوطات دير سيّدة البلمند ومجموعات أخرى من المخطوطات تخصّ أفرادًا أو أديارًا أو رعايا أرثوذكسيّة مختلفة في لبنان وسوريا، تصل إلى نحو ستمائة مخطوطة. يجري اليوم العملُ على تخزين هذه الصور في مستوعب واحد موصول على حاسوبٍ يتمكّن من خلاله أيّ باحث في مكتبة المعهد من مشاهدة صور كلّ مجموعات المخطوطات التي تحتويها المكتبة.

5 ـ مكتبة دير الكريم:

تأسست المكتبة بهمّة مؤسس الرهبنة المطران يوحنا حبيب بعد شرائه من الأرمن الكاثوليك دير الكريم وأملاكه المجاورة في غوسطا ووقفها وجميع مقتنياته من عقارات ومنقولات للجمعية الناشئة التي أسسها في الدير المذكور تحت اسم: «جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة»، في العام 1865.

وقد سعى إلى اقتناء مجموعات الكتب المفيدة، ولا سيّما الفلسفية واللاهوتية، فتكوّنت لديه مكتبة نفيسة، بالإضافة إلى ما استبقاه من كتب لدى نزوح الرهبان الأرمن عن الدير، وما اشتراه في أثناء سفره إلى روما وباريس برفقة البطريرك بولس مسعد سنة 1867.

وقد استعان بالأصدقاء والعارفين لزيادة عدد الكتب ومن بينهم الخوري مخايل داغر الموجه إلى الإسكندرية وطلب منه شراء مجموعة من الكتب بموجب قائمة أرسلها إليه في 26 شباط 1872. ولجأ للغرض عينه إلى

آباء الرهبانية المارونية الحلبية، لوجود دير لهم في روما. وأفاد من وجود تلميذه الخوري يوسف البستاني في روما، سنة 1886 – 1887، بصحبة مطرانه يوسف الدبس، فواصله بالطلبات وتسلم منه عددًا كبيرًا من الكتب.

ولا بد من الإشارة لما «أبداه الآباء المرسلون ابّان تجوالهم بين الرعايا والأديرة، من حرص دائب على جمع ما عثروا عليه من كتبٍ ومخطوطات عفا عنها الزمن، متروكة للضياع، فاقتنوها وعادوا بها إلى الدير لتُحفظ فيه وتصان. وبفضل اعتنائهم، تكوّنت في مكتبة الكريم مجموعة تربو على ألف مخطوط ثمين، يعود أقدمها عهدًا إلى سنة 1445»[32].

تحتوي المكتبة على موسوعات عامة، فلسفة، لاهوت، روحيات، كتب مقدسة، قوانين كنسية ومدنية، ليتورجيا، فقه إسلامي، علوم، فنون، أدب، تاريخ، معاجم وبمختلف اللغات القديمة والحديثة، ومن اقدم الكتب فيها يرجع إلى العام 1567 (قوانين المجمع التريدنتيني) أي بعد اختتام المجمع بثلاث سنوات، وشروحات القديس توما الاكويني على الأناجيل والمطبوع في العام 1634 ومجلّد برق الغزال، وكتاب القداس الماروني طبعة روما الأولى في العام 1549 بالإضافة إلى مؤلفات أعلام الموارنة الكبار بطبعاتها الأولى كالسمعاني، والحصروني، وعميره، والحاقلاني، والصهيوني، فضلاً عن كتب أرمنية مطبوعة في البندقية تعود إلى القرن السابع عشر وهي من بقايا مكتبة الرهبان الأرمن في دير الكريم.

المخطوطات هي في حدود الألف أقدمها يعود إلى القرن الرابع عشر وهي متنوعة: الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد (نص وتفسير) تاريخ مدني وديني، آبائيات (حياتهم ومؤلفاتهم)، جدل ديني، لاهوت وعقيدة، قانون مدني وكنسي، روحيات وليتورجيات، كتب قداس وجنازات، فلسفة وفصاحة، أدب، شعر، لغة، معاجم، فقه إسلامي، رسائل الحكمة للدروز، طب عربي قديم، فلكيات وأبراج وتنجيم، مخطوطات بعض المشاهير الموارنة وبخطهم: الدويهي (تاريخ الأزمنة وردّ التهم) وجرمانوس فرحات، البطريرك مسعد (الدر المنظوم) ...

اللغات: عربي، سرياني، كرشوني، تركي، فارسي، لاتيني، ارمني، فرنسي، إيطالي، وأظرفها مخطوط فارسي تركي عربي ومنها ما طبع على المطبعة الحجريّة.

«وعت الجمعيّة منذ عهدها الأول توصية مؤسّسها وبالغت في الحفاظ على ما اختزنت في مكتبتها. فمنعت إخراج المؤلفات المودعة فيها، بل واستصدرت،

بالتماس من الأب العام يوسف مبارك (+ 1929)، أمرًا بطريركيًا مشدّدًا بهذا المنع، مؤيّدًا بعقوبة الحرم الكبير، وهاك نصّه:

« بحسب الالتماس، ولأجل المحافظة على مكتبة دير الكريم، نعلن بأسطرنا هذه أننا لا نسمح لأحد، سواء أكان من أبناء الجمعيّة أم من الخارجين عنها، بأن يأخذ من المكتبة المذكورة كتابًا أو أكثر، ولو بطريق الاستعارة، خارجًا عن الدير. وإذا تجاسر أحد على المخالفة لأمرنا هذا وأخرج كتابًا أو كتبا من المكتبة المذكورة مما يختصّ بها، فليكن ساقطًا من ذات فعله بالحرم الكبير المحفوظ حلّه لسلطاننا. ونأمر بتعليق هذا الإعلان في المكتبة نفسها في محل منظور ليسهل الاطلاع عليه من كل من يدخل إليها». تحريرًا في 24 آذار سنة 1900، الحقير الياس بطرس البطريرك الانطاكي[33].

6 ـ المكتبة البولسية:

اهتمّ المطران جرمانوس معقّد خلال الحقبة الأولى من الجمعيّة بتجميع عدد من الكتب، فطالب غبطته بإبقاء بعض كتب البطريركيّة في مكتبة الجمعيّة، وكانت قد أرسلت خطأ مع أغراضه من دمشق، وهي: أباطيل العالم (أربعة أجزاء) وروضة الواعظ وتفسير الرؤيا ومروج الأخيار ومجلة الأحكام العدليّة. ومنذ ذلك الحين بدأ الاهتمام جدّيًا بالمكتبة، خصوصًا بعدما قرّر الآباء في اجتماع 20 كانون الأول عام 1908، تخصيص مبلغ سنوي لشراء الكتب. فخصص في ذلك العام مبلغ خمسين فرنكًا. وفي 26 تموز 1909 تمّ تعيين الأب انطوان حبيب وكيلا عليها. وممّا زاد في أهميّة وجودها تأسيس مجلة «المسرّة» التي فرضت على الآباء مطالعات مكثّفة وشاملة لمختلف المواضيع. وبعد وفاة المطران معقّد عام 1912، نقلت مكتبته الخاصة التي حوت حوالي 91 كتابًا، إلى مكتبة الدير. ثم قدّم الأب اليسوعي ادمون لي، رئيس دير غزير، معجم الكتاب المقدس، ثم أرسل إليهم في 14 أيلول عام 1912، صندوقًا مليئًا بالكتب، وقدّم الأب يوست من المستشفى الفرنسي في يافا كتاب تاريخ المجامع لهيفيليه، كما أرسل الأب ألكسيوس عاقل كتبا عدة مستعملة من مدرسة الآباء اليسوعيين في الإسكندرية.

وفي أوائل كانون الثاني عام 1919، أرسل إليهم الأب ارسانيوس عطية رزمة من الكراريس الفرنسيّة من باريس. كما قدّم الفيكونت فيليب دي طرّازي عام 1926 عددًا من الكتب المضاعفة لديه، فاختار منها الأب بولس أشقر ما يوافق الجمعيّة.

وأمام التطوّر السريع للمكتبة نقلت في 23 و 24 كانون الثاني عام 1928 إلى غرفة الأب حبيب. وبلغت محتوياتها في أوائل الخمسينيات حوالي 12 ألف كتاب، معظمها بالفرنسيّة، وبعضها بالعربيّة واليونانيّة واللاتينيّة، وأكثرها يتناول المواضيع اللاهوتيّة والفلسفيّة والكتابات المقدسة والطقسيّة، وتاريخ الكنيسة والحياة الروحيّة والحق القانوني وتاريخ شرق المتوسط، وحوالي 300 مخطوطة، بينها عدد لا بأس به من كتب التاريخ المدني والكنسي[34].

في الوقت الحاضر ترتبط المكتبة إداريًا وماليًا بمعهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت، وقد أعطاها هذا الوضع الجديد مسارًا يغلب عليه طابع التخصص في انتقاء الدراسات، ومنذ حوالي عشر سنوات بدأت أرشفة محتوياتها على الكمبيوتر وتم توسيع الأمكنة بسبب النمو، وقد جهزت بآلات حديثة تستوفي شروط المكتبات.

وقد مرت المكتبة بأطوار مهمة منها:

الحدث الاول: وهو تأسيس الاكليريكيتين الكبرى والصغرى وتطلب تجهيز المكتبة بأعداد من الكتب الأدبية باللغتين العربيّة والفرنسيّة، منها ما يفيد التعليم، ومنها ما يتعلّق بالدراسات الكهنوتيّة الرعويّة والليتورجيّة، وعلى أثر ذلك تمّ نقل بناء المكتبة من الطابق العلوي إلى الطبقات السفلى حيث أُفرد لها قاعات متجاورة خصصت وجهزت لهذا الغرض، مع ما استتبع ذلك من إحداث جهاز إداري مستقل.

الحدث الثاني: هو نقل المطبعة من حريصا إلى جونيه أواخر الستينيات حيث تمّ اتفاق بين إدارة المكتبة والمطبعة بإرسال نسخة من كلّ كتاب يصدر عن المطبعة إلى المكتبة.

الحدث الثالث: هو وضع المخطوطات على ميكروفيلم في أثناء الأحداث اللبنانيّة وذلك بين أواخر السبعينيات ومنتصف الثمانينيات خوفًا من إلحاق الضرر بها.

الحدث الرابع: عندما تمّ افتتاح قسم الدراسات الفلسفيّة واللاهوتيّة باللغة العربيّة، بعد أن كان الأمر مقتصرًا على اللغة الفرنسيّة، ونشأ عن ذلك رصد المكتبة بأعداد متزايدة سنويًا بمختلف الكتب في شتى المجالات.

استلم مسؤولية المكتبة على التوالي الآباء: انطوان حبيب، جرجي جنن (وهو أول من وضع قاموس بالأخطاء اللغويّة الشائعة، ولم يكمل عمله بسبب وفاته، وهذا المخطوط ما زال موجودًا في أرشيف الجمعيّة)، بطرس المعلّم، انطون مهنا، سليم بسترس، الياس أغيا، جورج فرح، والمسؤول الحالي الأب جورج خوام.

تضم المكتبة حاليًا حوالي 60 ألف كتاب و50 ألف دوريّة وما يقارب 400 مخطوطة[35].

7 ــ مكتبة جامعة الروح القدس ــ الكسليك:

مع تأسيس الجامعة في العام 1962، تمّ إنشاء مكتبة متخصّصة، بعد نقل الكثير من الكتب الموجودة في أديار الرهبنة المنتشرة في لبنان. بالإضافة إلى مكتبات خاصة قدمها أصحابها إلى المكتبة، ومن بينهم مكتبة موريس الجميّل، جوزف أوغورليان، الآن تاسو، آنا تابت.

تحتوي المكتبة حاليًا على 200 ألف كتاب، و3 الآف مخطوطة، ألفي ميكروفيلم،1300 عنوان مجلة، من بينها 475 ما تزال تصدر حتّى الآن، أوّل نسخة من كتاب المزامير طبع مطبعة دير مار مطانيوس قزحيا 1610، أوّل طبعة سريانيّة من العهد الجديد طبع في فيينا عام 1550، أرشيف الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة ومخطوطاتها. وتمّ مؤخرا إنشاء مركز فينيكس للدراسات اللبنانيّة ولإعادة نشر التراث اللبناني، ومركز لترميم المخطوطات وحفظها.

•••

* – باحث في التراث الشعبي

1– زيتوني، لطيف، حركة الترجمة في عصر النهضة، دار النهار، بيروت، 1994، ص. 14.

2 – المرجع نفسه، ص.14.

3 – الملاح، عبدالله، محاضرات في علم المكتبات، سدّ البوشرية، لبنان، المطبعة العربية،2002، ص. 9.

4 – المرجع نفسه، ص. 10.

5 – روبنصــون، ادوار، يوميات في لبنان، تاريخ وجغرافيا، الجزء الأول، ترجمة اسد شيخاني، دار المكشوف، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، نيسان 1949، ص. 116.

6 – فهد، الآباتي بطرس، فهارس ومخطوطات، سريانية وعربية، 1972، ص. 253.

7 – مكتـبة طائفتنا المارونية في مدينة حلب المحميّة، الخوري ابراهيم حرفوش المرسل اللبناني، المشرق، السنة 17، العدد 1، كانون الثاني 1914، ص. 24.

8 – دي طـرزي، الفيكنـت فيليـب، خزائـن الكتب العربية في الخافقين، الجمهورية اللبنانية، منشورات وزارة التربية الوطنية، والفنون الجميلة، المجلّد الاول 1947، ص. 261.

9 – المرجع نفسه، ص. 261.

10 – المرجع نفسه، ص. 261 – 262.

11 – المرجع نفسه، ص. 262.

12 – المرجع نفسه، ص. 263.

13 – المرجع نفسه، ص. 263.

14 – المرجع نفسه، ص. 264.

15 – المرجع نفسه، ص. 264.

16 – بيروت، اخبارها وآثارها، بيروت في القسم الاخير من القرن العشرين إلى يومنا (1860 – 1926) الـباب الثالـث: بيروت الادبية: الاب لويس شيحو، المشرق، السنة 24، العدد 8، آب 1926، ص. 561.

17 – يوبيل كليّة مار يوسف الذهبي: الاب لويس شيخو اليسوعي، المشرق، السنة 23، العدد 5، ايار 1925، ص. 337.

18 – المرجع نفسه، ص. 336 – 337.

19 – المرجع نفسه، ص. 338.

20 – بـيروت في القسم الاخير من القرن العشرين إلى يومنا (1860 – 1926) الباب الثالث: بيروت الادبية، الاب لويس شيحو، المشرق، السنة 24، العدد 8، آب 1926، ص. 560.

– الآداب العربـيـة فـي القرن التاسع عشر، الفصل الثاني، الآداب العربية من السنة 1880 إلى خـتام القـرن التاسع عشر، الاب لويس شيحو، المشرق، السنة 12، العدد 6، حزيران 1909، ص. 466.

21 – معـوض، ابراهيم، ومنير وهيبه: نبذة تاريخية عن دار الكتب اللبنانية، الجمهورية اللبنانية، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، 1948، ص. 13.

22 – المشرق، السنة العشرون، العدد 8، آب 1922، ص. 749.

23 – دي طـرازي، الفيكنـت فيليب، خزائن الكتب في الخافقين، المجلد الرابع، 1951 ، ص. 1117.

24 – معوض، المرجع السابق، ص. 23 – 24.

25 – حديث خاص مع المسؤول عن المكتبة الاب ناريك لوسيان، تموز 2009.

26 – ورد فـي "حولـيات الأراضـي المقدسـة" أنـه "في مثل هذا العام (1169) أنشىء دير (Valmont)"، علـى يد الرهبان السسترسيين. أ.ك بريشا-فوتيه: "دير البلمند: شهود من سيتو على الاراضي اللبنانيّة"، نشرة متحف بيروت، الجزء العشرون، 1967، ص8.

27 – يشـير الأب نصرالله إلى أنّ مخطوط "المعزّي" لدير الشّرفه (دير سريان كاثوليك) نسخ في البلمـند سـنة 1597. في كتابه تاريخ الحركة الأدبيّة في الكنيسة الملكيّة من القرن الخامس إلى القرن العشرين، المجلّد الرابع، الجزء الأول، ص 51.

28 – السّجل العقاري لدير البلمند، ص1.

29 – راجـع مقالـة السـيّدة ريما سمين غنّاجة في المخطوطات العربيّة في الأديرة الأرثوذكسيّة الأنطاكيّة في لبنان، ج 2، جامعة البلمند: بيروت، 1994.

30 – الاسـم بالإنكلـيزيّة: Hill Museum & Manuscript Library in St John University in Minnesota, USA.

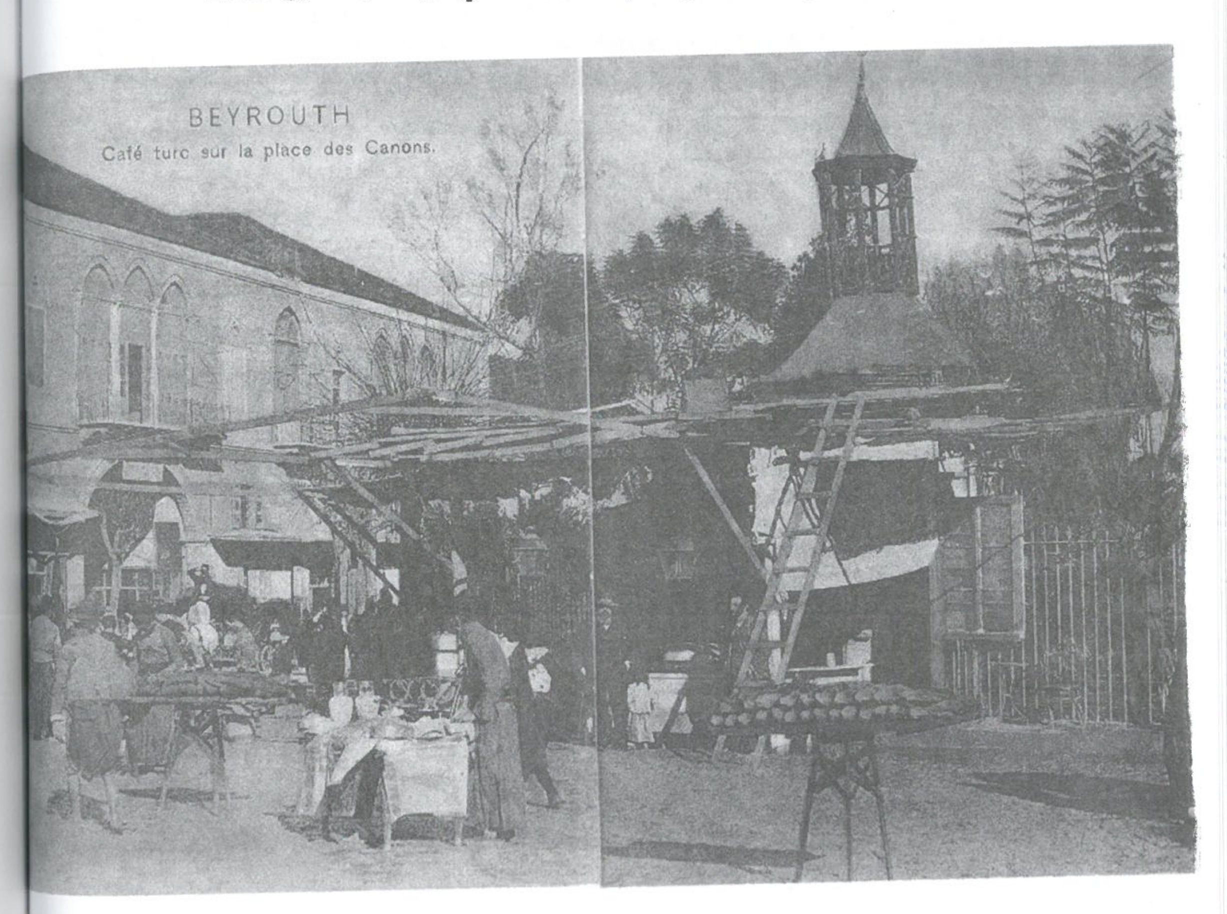
[31] – مجموعة الصور الرقميّة لمخطوطات دير سيّدة البلمند ومخطوطات أُخرى عربيّة وسريانيّة وأرمنيّة وحبشيّة ولاتينيّة متوفّرة على موقع جامعة القدّيس يوحنا الأميركيّة، وهو: http://www.hmml.org.

[32] – العنداري، الاب يوحنا، كريم الحبيب، اليوبيل المئوي الاول لوفاة المطران يوحنا حبيب، رئيس اساقفة الناصرة شرفا ومؤسس جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة، 1894 – 1994، منشورات الرسل، ص. 91.

[33] – العنداري، الاب يوحنا، المطران يوحنا الحبيب، مؤسس جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة، 6 كانون الثاني 1979، ص. 355 – 356.

[34] – كبكب، وسام، جمعية المرسلين البولسيين، الجزء الاول، 1903 – 1951، منشورات المكتبة البولسية، ص. 315 – 316.

[35] – حديث خاص مع الاب جورج خوام، المسؤول الحالي عن المكتبة، تموز 2009



زائر في صحبة الكتاب

مراجعة: د. عفيف عثمان*

يجهد زائر المدينة في السعي للتعرف عليها من سبل عدة، بحثاً عن الميزة التي تعلي من شأنها عند قريناتها. وبيروت "أم الدنيا" بحسب العبارة التي توصف بها أكثر من مدينة عربية، امتازت بكونها عاصمة للثقافة وساحة صراع للأفكار والمذاهب والتيارات. بيد أن الحروب التي توالت عليها أثخنتها جراحاً وثكلت أبناءها وباتت صالاتها السينمائية العريقة ومقاهيها التي كانت منتديات للنقاش والرأي مخازن للجديد من الثياب، وصحفها البيضاء حاملة حروف التنوير أصفرت وهي تلهج بالدم والثأر. وعلى حوافيها أنزرعت مراكز تجارية، مثابة مدن صغيرة، جزراً مبنية من الألمينيوم والزجاج، مشرعة للريح والنور والضوضاء. مدينة تتواصل مع العالم عبر أثير الأنترنت وشاشات التلفزة المضاءة على مدار الساعة.

وللمدينة أبواب يدخل منها الزائر آمناً، بيد ان للباحثين شغفاً في البحث عن مسالك تصل بهم إلى قلبها وتلمس نبضها وحياتها. فرانك ميرمييه، الباحث الفرنسي المقيم في لبنان، اختار الكتاب رفيقاً يضيء له ما عتم من دروب توصله إلى العاصمة في بيروت.

فقد رسخ في عقل الزائر الغربي بخاصة والعربي بعامة أن بيروت "مطبعة العرب" وأن أيقونتها "الكتاب" هو فعل إيمانها تتلوه كل صباح، غير ان عوادي الزمن ألقت بظلال من الشك على ما ألفناه منها. لذا، نزل ميرمييه متأبطاً عدته المعرفية إلى الحقل الثقافي مُنقباً في قطاع النشر وشروط تحققه، وسيطاً كان أم فاعلاً. وهو ينطلق من التحول الذي تحدثه المطبوعة وأشكال الثقافة المكتوبة (وبالتالي الطباعة) في المجتمعات والنقاش الذي تديره بالواسطة نظير ما فعلته في أوروبا، حتى عُد الاقتران بين "الرأسمالية وتكنولوجيا المطبوعة" أحد عوامل الانبعاث القومي، وكان احتكار الثقافة المكتوبة واضطلاع رجال الدين المعمّمين بدور الحرس الغيور على الحرف المقدس في السلطنة العثمانية كابحاً لذيوعها.. وكان ينبغي انتظار صدور الفتوى الدينية عام 1726 من شيخ الإسلام وقرار السلطان أحمد الثالث كي تجاز طباعة الكتب العربية، شريطة أن تتعلق بكتب غير

دينية وأن يشرف على مضمونها علماء دين، على ما يقول وحيد غدورة في "بداية المطبعة العربية في أستنبول وسوريا: تطور الوسط الثقافي (1706-1787، تونس، 1985).

دخلت المطبعة إلى سوريا ولبنان بوساطة رجال دين مسيحيين من حلب (1706) والشوير (1734)، وكان من ثمراتها "سيطرة العربية كلغة لنقل المعرفة في الأوساط المسيحية"، ولم يفت فولني في رحلته إلى سوريا ملاحظة ذلك: "كان تأثير المطبعة على قدر من الفعالية بحيث أن مؤسسة مار يوحنا، وحدها رغم ما يشوبها من عيوب، قد أحدثت لدى المسيحيين فارقاً ملموساً. ذلك أن فن القراءة والكتابة وحتى نوع التعليم صار أكثر شيوعاً عندهم اليوم مما كان عليه منذ ثلاثين سنة.

كما لاحظ فولني ندرة الكتب في الشرق: "ففي أنحاء سوريا لا نعرف سوى مجموعتين من الكتب، الأولى لمار يوحنا... والأخرى للجزار في عكا"، ولا يأخذ الباحث قول الرحالة قول ثقة، إذ تكذبه المكتبات التي كانت منتشرة في مدن حلب ودمشق والقدس. وأدى تنافس الرهبان وتزاحمهم وسعيهم لإنشاء المطابع إلى "تجديد الثقافة واللغة العربيتين" وأثمرت حرب الارساليات والتنافس الإنجليزي (الولايات المتحدة) والفرنسي سلسلة من المعاجم اللغوية والجامعات. وإذ انحصرت المطبوعة في المعاجم والموسوعات والترجمات، فإنها كانت ترقى إلى احداث نهضة وضعها، آلان روسيون، قرينة على "انبعاث تدريجي لقومية ثقافية ترمي في الوقت نفسه إلى بناء حداثة حضارية وإحياء وسائل التعبير المحلية". (الأصلاح الأجتماعي والهوية، في بزوغ المثقف والحقل السياسي الحديث في مصر، كازابلانكا1998). والصحافة بدورها كانت الحامل لأفكار الإصلاح، كما المدن حاضرة الكتابة مكان "توسط" واحتضان لمهن جديدة تعبر وتعكس النظام الاجتماعي والمديني الجديد الذي ارتسم اعتباراً من القرن التاسع عشر.

يرى ميرمييه ان القاهرة وبيروت شكلتا موطن تجديد تقني وثقافي بسبب من دورهما النشط في الإنتاج الثقافي وفي التبادل والتواصل مع الغرب، وثمة جدلية انعقدت بين الحرية وتأسيس المزيد من المطابع.

مهّدت المطبعة في لبنان لنشوء دور النشر من دون أن تظهر جلية شخصية "الناشر"، والذي اضطلع لاحقاً بدور ريادي في الحياة الفكرية مثال الشيخ فؤاد حبيش (1904–1973)، صاحب مجلة "المكشوف" ودار النشر حاملة الاسم نفسه. وقد نما قطاع النشر بسبب الطلب المحلي على الكتاب المدرسي وحاجة

البلدان العربية، أي بسبب التقدم الذي لحق بحقل التربية، وتجارة الكتب هذه كانت السبب في نشوء عائلات ناشرين بدأوا من وسط مدينة بيروت وأقدمهم عائلة صادر القادمة من الجنوب التي أسست مكتبة عام 1863. وقد حصل تداخل وترافد بين مهام النشر (الدار) والتوزيع أيضاً (المكتبة) ما دام الموضوع هو "تجارة" الكتاب، كما تؤشر إلى ذلك سيرة "مكتبة انطوان" و"مكتبة لبنان"، وثمة دور نشر تحدرت من مشاريع نشر قواميس (دار العلم للملايين) ومشاريع ترجمة (دار عويدات) ولتلبية حاجات مناهج التعليم (شركة المطبوعات والمؤسسة الجامعية للدراسات والنشر). وقد ساهمت الصحوة الإسلامية في السبعينات من القرن العشرين الفائت وقيام الجمهورية الأسلا مية في أيران عام 1979 في إعطاء دفعة لسوق النشر من خلال طبع وإعادة طبع كتب التراث. الأمر الذي أنعكس على بنية الهيئة المنظمة لهذا القطاع، نعني أتحاد الناشرين اللبنانيين (1972)، وانشاء "تجمع الناشرين في لبنان" (1995).

والحال، ارتبط النشر اللبناني بالسوق العربية من وجوه عدة، وكانت للتحولات السياسية في العالم العربي انعكاسات واضحة على بيروت سلباً وإيجاباً: فعلى سبيل المثال، أدى إشراف الدولة المصرية على قطاع النشر في الستينات من القرن العشرين إلى تحول لبنان مركزاً للنشر والتسويق والتوزيع. ويكفي تقديم نموذج من الصحافة لتوكيد ذلك، إذ يوزع "1358 عنواناً – من دون تمييز بين الصحف اليومية والدوريات الأسبوعية والشهرية والفصلية والسنوية – من أصل ما مجموعه 2714 عنواناً توزع في العالم العربي". وأيضاً نموذج من الطباعة: "يبلغ إنتاج المطابع اللبنانية البالغ عددها نحو 700 مطبعة ما يقارب 50 في المئة من المجلات والصحف الموزعة في العالم العربي، وتصدر إليه ما يناهز 40 في المئة من إنتاجها"، ولتظهير أهمية الدور اللبناني في هذا القطاع، يعقد ميرمييه مقارنة مع مصر ويظهر ان الحرية السياسية وسيطرة الدولة الشديدة وبالتالي الرقابة هي معيار تقدم احدى العاصمتين على الأخرى.

رغم تغير المشهد الثقافي بعد الحرب الأهلية، فإن بيروت حافظت على دور "الوسيط" في ميدان النشر، لا بسبب كثرة الدور والمطابع فحسب، بل بريادتها في توجيه سوق الكتاب. ويحاول الباحث إسناد هذا الدور إلى التشكيل التاريخي للمدينة في صفة كونها "ملتقى فكرياً" بعد أن كانت عاصمة سياسية واقليمية وتربوية، مثابة ملجأ وملاذ "للعرب الفارين من القمع واللبنانيين الهاربين من

الطوائف والقبائل والعائلات والعشائر" على حد قول الياس خوري، لروائي اللبناني.

وقد استفادت دور النشر من الأيديولوجيات السياسية التي كانت تتصارع ومن تمركز النشاط الفلسطيني في لبنان. وتكشف شهادة الروائي والناشر صاحب "دار الآداب" سهيل ادريس الواردة في الكتاب، عن الصلة الوثيقة بين المشروع الثقافي والمشروع السياسي.

وحازت بيروت سمة كونها مختبراً للأفكار والرؤى الحداثية كما تجلى ذلك في الصراع بين مجلتي "الآداب" و"شعر"، ونجحت العاصمة اللبنانية كذلك في منافسة القاهرة على موقع التكريس الأدبي، كما عمقت صلتها بالإنتاج الفكري الغربي من خلال الترجمات، وأخيراً نجحت بيروت في أن تكون حيزاً عاماً للعالم العربي، والمفارقة أن ذلك كان بسبب ضعف رقابة الدولة وليبرالية النظام السياسي الزائدة على ذمة ميرمييه.

***

* – أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية

– الكتاب والمدينة، بيروت والنشر العربي. للمؤلف فرانك ميرمييه، ترجمة يوسف ضومط. الناشر: مختارات، بيروت 2006.

بيروت والكتاب

عبد اللطيف فاخوري*

لا بـد من شكر منظمة الأونيسكو والمشرفين عليها في بيروت لإعلان بيروت عاصمة عالمية للكتاب لسنة 2009 م.

إذا كانت الطباعة قد سهّلت نشر العلم وتعميمه ليصبح في متناول الفقير والأمير والصغير والكبير. وإذا كانت الطباعة قد بدأت في الصين. فقد صح القول: أطلب العلم ولو في الصين.

منذ القرن السادس الميلادي بدأ الصينيون بالطباعة بواسطة الحفر على قوالب خشبية.

فيأتي العامل بألواح خشبية فيقوم بتنعيم سطحها ويكتب عليها النص بطريقة مقلوبة. ثم يقوم عامل آخر بحفر الخشب من حول الأحرف التي تصبح بارزة على اللوح، فيصار إلى تحبيرها ثم تمرر عليها الورقة فتظهر الكتابة. ولم تكن هذه الطريقة عملية لأن طباعة الكتاب الواحد كانت تتطلب ألواحاً بعدد صفحاته، فاخترعت الحروف المعدنية المنفصلة التي يصار إلى تجميعها لتكوين الكلمات إلى أن صنع غوتنبرغ آلة طبع خشبية يدوية.

لم ترحب الأوساط المحافظة في أوروبا كثيراً بالطباعة خوفاً من انتشار الأفكار والنظريات التي قد لا تتفق مع تعاليم السلطات الحاكمة. كما أن السلطات العثمانية كانـت حذرة تجاه انتشار الطباعة، فمنع السلطان بايزيد الثاني المسلمين من تأسيس المطـابع. وأمر السلطان محمد الرابع بإلغاء نسخ المصحف المطبوعة في إيطاليا ورماهـا فـي الـبحر، ورمـى الأحرف التي أرسلها البنادقة هدية إلى السلطان. وعارض شيخ الإسلام طبع المصحف لتأثير ذلك على عمل الخطاطين التابعين له.

كانت حلب أول مدينة يطبع فيها كتاب بالحروف العربية سنة 1706 م تلتها مطبعة دير مار يوحنا الشوير في لبنان سنة 1734 م. وكان شكل حروف الكتاب المطبوع تقليداً لحروف الكتاب المنسوخ باليد. وكانت مطبوعات الشوير محدودة العدد ومحصورة في مواد لاهوتية وتعاليم دينية.

وتأسست أول مطبعة في بيروت سنة 1715 م على يد البطريرك سيلفستروس، وأسهم الشيخ يونس نقولا الجبيلي بدعمها مادياً. ويونس المذكور اشتهر في بيروت

بلقب "أبو عسكر" عينه أحمد باشا الجزار متسلماً ديوان بيروت، وكان منزله إلى الشمال من الجامع العمري الكبير في محلة الشيخ رسلان، وكانت الطريق المؤدية إلى منزله ضيقة عرفت "**بفشخة أبي عسكر**" والتي عرفت فيما بسوق الفشخة ثم بالشارع الجديد. **(وهي الآن شارع ويغان).**

وكانت دار أبي عسكر واسعة، روى الشيخ عبد القادر قباني أن البيارتة كانوا يستعيرون الدار المذكورة فيصفّون المقاعد والكراسي ويسرجون القناديل والمصابيح ويدعون الناس لسهرات أفراحهم، ثم اخذوا بعد ذلك يؤمون دار الشيخ علي الفاخوري والد لمفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري (مجلة الكشاف 1927 ص 222 و527).

روى القسّ حنانيا المنير أن أبا عسكر كان محباً للجميع ومحبوباً من الجميع معتبراً عند الجمهور حتى أنه كان ينهض كل يوم من داره إلى الديوان فحيثما مرّ في الأسواق قامت إليه الناس من المسلمين والمسيحيين تحييه فلا يملك أن يرد التحية بكل ألفاظها فيقتصر على البعض. (الدر المرصوف في تاريخ الشوف. ص 90).

اقتصر عمل مطبعة بيروت على طباعة كتب ليتورجية. وتجددت أدوات المطبعة سنة 1882م وطبعت بعض الكتب الأدبية كما ذكر انطوان دباس ونخلة رشّو. (تاريخ الطباعة في المشرق).

ولم تشهد بيروت مطبعة ثانية حتى سنة 1834 م عندما نقلت المطبعة الأميركية إليها من مالطه.

ثم ظهرت في بيروت عدة مطابع أسسها بعض الأفراد، إلى جانب المطابع الحكومية. وترافق ذلك مع بدء صدور الصحف الأولى، وذلك منذ أول كانون الثاني (يناير) سنة 1858 م عندما أصدر خليل الخوري صحيفة حديقة الأخبار في مطبعته. ثم تلتها سنة 1875 م جريدة ثمرات الفنون التي كانت تطبع في المطبعة التي أنشأتها جمعية الفنون برئاسة سعد عبد الفتاح حمادة.

وكما قام أجدادنا الفينيقيون في غابر الأزمان بنشر الأبجدية في بقاع العالم القديم، أخذت بيروت منذ القرن التاسع عشر على عاتقها طبع الكتاب العربي ونشره.

فقد شجع انتشار الطباعة الأدباء والكتّاب على التأليف. قال إسماعيل النبهاني رئيس المحكمة الحقوقية في بيروت سنة 1887 م عن بيروت "لا يتيسر التأليف في غير هذه البلدة لكثرة مطابعها وسهولة مخابرات البلاد القريبة والبعيدة منها في

نشر الكتب وبيعها لأنها أعظم سواحل البحر الشامي ولها علائق تجارية ومواصلات بحرية وبرية مع جميع الجهات". (إسماعيل النبهاني. جامع كرامات الأولياء ص 338).

وللإمام السيوطي رسالة بعنوان "**التعريف بآداب التأليف**" وفيها الحض على وضع المصنفات، لأن الكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوز إلى غيره. واشترط السيوطي عدم تأليف كتاب إلا في أحد أقسام سبعة لا يمكن التأليف في غيرها وهي:

(1) إما أن يؤلف في شيء لم يسبق إليه يخترعه.
(2) أو شيء ناقص يتممه.
(3) أو شيء مستغلق يشرحه.
(4) أو طويل يختصره دون أن يخلّ بشيء من معاينة.
(5) أو شيء مختلط يرتبه .
(6) أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه.
(7) أو شيء مفرق يجمعه.

يمكن اعتبار ديوان خليل الخوري "**زهر الربى في شعر الصبا**" من أوائل الكتب المطبوعة في بيروت سنة 1858 م. (حديقة الأخبار عد 167).

تلاه سنة 1859 م كتاب "**روضة التاجر في مسك الدفاتر**" للمعلم بطرس البستاني. وقد طبع في بيروت في 1859/9/27 م وقال البستاني في ختام الكتاب "إنها أول رسالة في هذا الفن زين بها جيد لغتنا العربية. ولا يخفى ما قاسيته من الصعاب في تطبيقها على أصول العربية ما أمكن وتسهيل مأخذها على الطلبة".

وقد أهدى البستاني كتابه إلى: "الذوات المعتبرين أعضاء مجلس التجارة في بيروت المحترمين وأخص بالذكر حضرة الحاج عبد الله أفندي بيهم رئيس المجلس المذكور وجناب نقولا بك مدور سر تجار هذه البلدة إعلاناً لفضل مساعيهما في مصالح التجارة وصالح العموم من كل ملة ومذهب..".

وأعلنت صحيفة حديقة الأخبار سنة 1864 م عن طبع كتاب المستطرف من كل من مستظرف للأبشيهي وكان يباع في مخزن جرجس شاهين بساحة البرج. (عدد 330).

نشير إلى أن "**العمدة الأدبية**" أعلنت سنة 1867 م "الانتهاء من طباعة ديوان المتنبي مذيلاً بشرح وجيز على نفقتها وتعين سعره خمسة وأربعون قرشاً. ولدى اجتماع أعضاء عمدتها العاملة قرر رأيهم على أن هذا الكتاب يتوزع على الشركاء

بحسب عددهم فكان لكل صاحب حصة 79 كتاباً منه. فمن كان صاحب حصة أو بيده سهم حصة يجب أن يذهب به ويطلع عليه جناب السيد حسين أفندي بيهم ويأخذ منه تحويلاً بكمية كتبه ويحضر ويستلمها بموجب التحويل من مطبعة حديقة الأخبار.

أما ديوان الفارض المطبوع قبلاً فعند تصفية ثمنه يتوزع ما نجم عنه من الربح نقداً على الشركاء من يد جناب الخواجا جرجس جاهل المكلف بيعه وتصفيته".

وعرفت مطابع بيروت في القرن التاسع عشر من خلال بعض مطبوعاتها لا سيما مطبعة صادر ومطبعة يوسف الشلفون. فديوان قاسم بو الحسن الكستي **"مرآة الغريبة"** طبع سنة 1863 م في المطبعة العمومية. وديوان مصباح رمضان **"الموشحات المصباحية"** طبع سنة 1873م في مطبعة سليم زحيل. وديوان مصباح البربير **"البدر المنير في نظم مصباح البربير"** طبع سنة 1872 م في المطبعة الأميركانية، التي طبعت فيها مؤلفات فإن ديك. وديوان قاسم الكستي **"ترجمان الأفكار"** طبع سنة 1881 م في المطبعة العمومية. **ورسائل أبي العلاء المعري** لشارحها شاهين عطية طبع سنة 1894 م في المطبعة الأدبية. **وديوان الشيخ عمر اليافي** طبع سنة 1893 م في المطبعة العلمية.

يلفت النظر في مسيرة الطباعة في بيروت عدة أمور أول باشتان (على حد تعبير جيراننا الشوام) أن غالبية الكتب المطبوعة في بيروت في القرن التاسع عشر طبعت على نفقة مؤلفها أو ناظمها أو على نفقة أحد أقرباء المؤلف أو أحد الأغنياء. وثاني هام (على حد تعبير إخواننا المصريين) أن بيروت تفردت في تلك الحقبة بتأليف وإصدار الموسوعات وبعض الكتب المتخصصة.

أما ثالث الأمرين فهو أن الكتب الدينية والصوفية المطبوعة، فاقت بكثير المؤلفات الأدبية والعلمية.

فالموشحات المصباحية طبعت على نفقة ناظمها مصباح رمضان. وأسهم عبد الغني باشا بيضون بطبع بعض كتب إسماعيل النبهاني.

وطبع شرح رسائل أبي العلاء المعري على نفقة خليل الخوري صاحب المكتبة الجامعة. وطبع كتاب المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية لاسكندر أبكاريوس على نفقة محمد مكاوي. فيما طبع كتاب الكفاية لذوي العناية للمفتي عبد الباسط الفاخوري على نفقة محمد عبد الله بيهم.

وطبع الدكتور عبد الرحمن الأنسي على نفقته ديوان والده عمر الأنسي المعنون **"المورد العذب"**. ودفع الشيخ محمد عمر البربير نفقات طبع كتاب **"الشرح الجلي

على بيتي الموصلي"** للشيخ أحمد البربير. كما سدد نفقات طبع ديوان شقيقة مصباح البربير. ونشير أيضا إلى أن بعض كتب الشيخ محمد الحوت قد طبع على نفقة محمد مصباح الحوت.

وان الشيخ عبد القادر قباني طبع على نفقته كتاب **"قبس الأنوار وتذليل الصعاب في ترتيب أحاديث الشهاب"** للشيخ محمد العربي العزوزي.

ولا بد من الإشارة إلى أن بيروت شهدت في القرن التاسع عشر تأليف وإصدار بعض الكتب المتخصصة في موضوعات غير مسبوقة.

ففي سنة 1878 م طبع كتاب لشاهين حنا عيد في **"صناعة الطبيخ وأنواع الحلويات والمربيات والمشروبات"**. وقد تضمن الكثير من المآكل الإفرنجية والعربية فاحتوى على مائتي نوع وكان يباع في مطبعة الأميركان ومكتبة الجامعة الأدبية في السوق الطويلة (لسان الحال عدد 36 تاريخ 1878/2/18م).

وصدر بعده بسنة كتاب **"تحفة الراغب في صحة المتزوج وزواج العازب"** للدكتور شاكر الخوري. (لسان الحال 1042 سنة 1878م).

وأصدر الصيدلي جرجي طنوس عون سنة 1884 م كتاب **"الدر المكنون في الصنايع والفنون"**. وجاء في إعلان نشره الحلاق عيد عون: "حيث أننا قد رأينا البعض قد قلدوا صبغة الشعر الموجودة عندنا، لزم الأمر أن ننبه أفكار الجميع كي لا ينغشوا، لأن الصبغة التي عندنا هي عمل جرجي أفندي طنوس عون الصيدلي مؤلف كتاب الدر المكنون في الصنائع والفنون من شهد مشاهير العلماء بذلك. وقد اشتهرت هذه الصبغة في بلدان مختلفة. فمن أراد أن يعرف هذه الصبغة من خلافها، نعلن أنها لا توجد إلا عند مخترعها وعندنا فالذي يريد شيئاً يشرف محلنا الكائن بقرب خان يعقوب ثابت فيرى ما يسره". (لسان الحال 679 تاريخ 29/5/ 1884م).

وصدر بعده بسنة كتاب للمحامي – الأفوكاتو – جان نقاش بعنوان **"مغني المتداعين عن المحامين"** (محاولة الإستغناء عن المحامين قديمة العهد).

كما أعلن أمين الحداد – طبيب الأسنان – في حينه عن قرب طبع كتاب **"تفصيل الخياطين"**. ومما قال في إعلانه "عن قرب ينتهي طبع كتاب التفصيل الذي صار الإعلان عنه سابقاً، بأن فيه تعليم تفصيل ماية وأربع قطع مع رسومها. وجعلنا قيمة الاشتراك فيه ليرة فرنساوية وذلك ليسهل على العموم من خياطين وغيرهم اقتناؤه. فقيمة تعليم تفصيل القطعة نحو غرش فقط. والليرة لا تساوي تفصيل بنطلون أو قبعة أو طماق، فضلاً عن الفراك الخ ومدة الاشتراك تنتهي في

15 نيسان حيث يتم طبعه ويباع حينئذ بليرتين والمكاتبة والدفع لكاتب هذا الإعلان المستوطن في بيروت ولا يقبل أحد بدون دفع الليرة سلفاً..." (لسان الحال 1462 تاريخ 1/3/1897م).

وأعلن نسيب مشعلاني في السنة نفسها بدء الاشتراك في كتاب "**مخابرات الحب السرية ورسائل المملكة النباتية**" قال في إعلانه "عنيت منذ مدة بوضع كتاب يبحث عن لغة النبات والزهور والمعاني المقصودة من إهداء الزهور مما هو شائع في البلاد الأوروبية... وقد فتحت باباً للاشتراك جاعلاً قيمة كل نسخة زهراوي. وأما بعد نهاية مدة الاشتراك فتزيد القيمة".

وقد نشر بعد ذلك إعلاناً طريفاً بعنوان "**نصيحة بدون جمل**" قال فيه: "إياك يا صديقي أن تشترك بكتابي المسمى مخابرات لعدة أسباب أهمها ما يأتي:

إياك أن تشترك به لئلا يظنك الناس أنك من محبي المطالعة ومن الراغبين في رواج بضاعة الكتاب.

إياك أن تشترك به لأنك ربما يمكنك استعارته من جارك أو صديقك أو صاحبه.

إياك أن تجبر خاطر جامعه وتخسر زهراوي طالما أن صاحبه كرس ألف زهراوي لتوزيعها (مجاناً).

إياك أن تشترك به لأنك ربما تكون في قائمة الذين سيهدى الكتاب لهم.

أما إذا كنت تحب أن تجبر خاطر صاحب الكتاب فاطلب منه وصلاً (على أعين الناس نظراً للصداقة) وعيّن دفع القيمة في 31 شباط، كما فعل غيرك كثيرون. هذه نصيحتي والسلام". (لسان الحال 1541 و1551 حزيران 1897م).

كما أصدر الصيدلي اسبريدون يوسف منسى كتاب "**المنهاج الجلي في واجبات الصيدلي**". وقد تضمن معلومات يفتقر إليها الصيدلي. إذ ذكر ما يجب عليه من ترتيب ونظافة، ثم أورد نبذة عن الأخلاق الحسنة التي تحتم عليه التحلي بها، ثم معارفه وحكمته وعنايته وحذره وضبط أعماله. كما ذكر الميزان والعيارات والمكيال والمقياس واختلاف السكاييل وتغرير الوصفة والاعتناء بكتابتها وتكرارها. واشفع ذلك كله بجدول يحدد أسماء العقاقير بالعربية واللاتينية. (ثمرات الفنون سن 1900م).

وقد سبق وأشرنا إلى كتاب مسك الدفاتر للمعلم بطرس البستاني، الذي كان الأول من نوعه في موضوعه.

ونشير إلى تفرد بيروت في القرن التاسع عشر بتأليف وإصدار مؤلفات موسوعية وتراجم وقواميس تأتي دائرة المعارف البستانية في مطلعها. كما أصدر سليم كساب وجرجس همام سنة 1878 م "**قاموس الكنوز الإبريزية في متن اللغتين العربية والإنكليزية**". (لسان الحال 104 سنة 1878م).

وأصدر إسماعيل النبهاني معجم "**جامع كرامات الأولياء**". وأصدرت مريم نوفل سنة 1879 "**معرض الحسناء في تراجم مشاهير النساء**". (ثمرات الفنون 220 سنة 1879م).

وأصدر سليم عنحوري في السنة نفسها كتاباً جمع فيه فوائد لغوية وأدبية بعنوان "**كنز الناظم ومصباح الهائم**". (ثمرات الفنون 195 سنة 1877م)

وأصدر محمد علي الأنسي سنة 1900 م قاموس اللغة العثمانية المسمى "**الدراري اللامعات في منتخبات اللغات**" يحتوي على الكلمات التركية والألفاظ الفارسية والإفرنجية المتداولة في اللغة العثمانية.

دون أن ننسى مجموعة المؤلفات العلمية بالعربية التي ألفها الدكتور فان ديك. ومنها سلسلة النقش في الحجر في الباتولوجيا والطبيعيات والروضة الزهرية في الأصول الجبرية.

يذكر أن نجيب خلف كان سباقاً في وضع معجم عربي بعنوان "معالم اللغة". تبنى مجمع اللغة العربية طبعه دون تنفيذ حتى تاريخه.

وشهدت بيروت سنة 1881 م صدور **ألف ليلة وليلة**. وكتاب "**منية النفس في أشعار عنتر عبس**" بنفقة لطف الله الزهار ونخلة فواز. (ثمرات الفنون 329 سن 1881 م) كما اصدر سليم سركيس في السنة نفسها كتاب ألف ليلة وليلة مهذباً.

كما أعلنت المطبعة الأدبية عن إصدار **كتاب عنترة بن شداد** في ستة مجلدات. وحددت الاشتراك بأربع ريالات مجيدي وبعد الطبع ستة ريالات (لسان الحال 480 سنة 1882).

وكانت بيروت سباقة في مجال إصدار كتب للأطفال والأولاد. منها سلسلة **مدارج القراءة** لجرجس همّام الذي أخرجها سنة 1881 م وضمنها جملاً بسيطة وقصصاً مستحبة للصغار.

وكتاب **ترقية القارىء** لأحد الآباء اليسوعيين، وهو مجموعة حكايات.

وكان الشيخ عبد القادر قباني قد ألف سنة 1876م كتاب **الهجاء لتعليم الأطفال** (لتلاميذ المقاصد في 64 صفحة). وأعلن سنة 1889 م عن صدور الطبعة السابعة من كتاب "**المبادئ لتمرين الأطفال**" لعبد القادر قباني (في 114 صفحة) "سعى

لتهذيب الأطفال من المسلمين وبث الآداب بين الصبيان والبنات، ويتضمن نصائح وأقاصيص لطيفة..." ولا يعرف ما إذا كان هذا الكتاب هو كتاب الهجاء نفسه. (لسان الحال 1166 سن 1889م).

وأصدر القس هنري جسب الأميركاني سنة 1882 م كتاب "**الروض النضير وبهجة كل ولد صغير**". (لسان الحال 480 سنة 1882م).

أما الشيخ محمد زيدان مدير المدرسة الأدبية فقد أصدر سنة 1896 م "**كوجك حكاية له**" بالتركية تضمن حكايات مقتطعة من كتاب وظائف الأطفال بيّن فيها واجب التلميذ نحو أبيه ومعلمه وآدابه وسلوكه. (ثمرات الفنون عدد 1090).

يذكر أن الشيخ عبد القادر قباني اعتنى بطبع ونشر كتاب تأليف محمود حمزة (مفتي دمشق) عنوانه "البرهان على بقاء ملك بني عثمان إلى آخر الزمان" (لسان الحال 1350 سنة 1891 م).

يذكر أنه في سنة 1878 م عندما تأسست جمعية المقاصد لم يكن في أيدي التلامذة أي كتاب يدرسون فيه، فكلفت الجمعية الشاعر الشيخ قاسم أبو الحسن الكستي فنظم أرجوزة للبنات تتضمن نصائح وإرشادات تربوية وصحية وأدبية واجتماعية وأخلاقية. وكان قد نظم قبل ذلك أرجوزة في أسماء من شهد غزوة بدر ليحفظها التلامذة على طريقة التعليم التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر. (قاسم الكستي. ديوان ترجمان الأفكار).

دفعت ندرة الكتب المؤلفة للتلامذة، الدكتور بشير القصار إلى أن يضع سنة 1909م كتاباً مدرسياً بعنوان "**أوليات في الحساب**". (لسان الحال 6210) كما دفعت الشيخ مصطفى النقاش سنة 1910م إلى وضع كتاب "**الدرة البهية في الأسئلة المنطقية**".

وكان الشيخ حسين بيهم قد وضع أرجوزة في العلم، تلاها في أحد اجتماعات الجمعية العلمية السورية سنة 1868 جاء فيها:

فأصبحت حالتنا بين الورى إلى ورا إلى ورا إلى ورا

إذا كان لبنان "**هذا الميليمتر من خريطة المسكونة**" على حد تعبير مارون عبود، قد ضاق عن إصدار مؤلفات بعض اللبنانيين، فقد "**صدّرهم**" لينشروا مناراتهم خارجه.

كـان مـن هـؤلاء **زينب فواز** المولودة في تبنين منتصف القرن التاسع عشر، التحقـت بشـقيقها فـي الإسكندرية ونشرت عدة مقالات في الدعوة لحقوق المرأة وتحـررها. وأصـدرت مسـرحية الهدى والوفاء وكتاب الدر المنثور في طبقات

ربـات الخـدور وروايتي غادة الزاهرة والملك كوروش، ورسائل طبعت بعنوان "الرسائل الزينبية". (مسعود ضاهر. الهجرة اللبنانية إلى مصر ص438).

ومنهم **يوسف فرعون** الذي كان أحد مترجمي المؤلفات الطبية إلى العربية لمدرسة القصر العيني أيام حكم محمد علي وأصدر كتاب "**غاية المرام في الأدوية والسقام**". (ضاهر ص135).

ومنهم **نقولا مسابكي الزحلاوي** الذي أرسله محمد علي إلى ميلانو سنة 1813م لدرس فن الطباعة وسبك الحروف وعين بعد عودته ناظراً للمطبعة وأمر محمد علي بتدريس اللغتين العربية والتركية لعدد من طلبة الأزهر، على أن يتولاهم نقولا مسابكي لتعليمهم فن الطباعة. (ضاهر ص 143).

ومـنهم **أميـن عطـية الشوقي (من بطمة)** الذي أسس في مصر سنة 1898م مصـنعاً وكـان أول مـن أدخل صناعة الكلسات وربطات العنق مستعيناً بخبرات أوروبـية. وقـد درس الحقـوق وانتسـب سنة 1922م إلى نقابة محامي بيروت. (ضاهر 430).

أما **كنعان شكور من عين زحلتا** فقد كان له الفضل في تولي محمد علي عرش مصر فقد أقرضه خمسة الآف غرش كسب بها محمد علي محبة العسكر وبعض المشايخ الذين طلبوه ليكون حاكماً على مصر. (شاكر الخوري. مجمع المسرات 167).

أما أعمال شكري غانم العينطوري ونجيب عازوري (العازوري) واليازجيين وبشارة وسليم تقلا من كفرشيما وجرجي زيدان العينعنوبي فأشهر من أن تعرف. فآل تقلا أسسوا ونشروا جريدة الأهرام المصرية. وألف جرجي زيدان عدة مؤلفات في الاريت والأدب التراجم ونشر مجلة الهلال. وكان اليازجيون ناصيف وإبراهيم وخليل من أعمدة النهضة الأدبية.

يذكر أن أحمد زكي باشا عندما زار بيروت سنة 1926 م كلف مدير الدائرة العربية في الكلية العلمانية أن يقدم إكليلاً باسمه على تمثال اليازجي تكتب عليه عبارة "إلى أكبر خادم للغة العربية من أصغر خادم لقومه أحمد زكي باشا" (السياسة الأسبوعية 1926/11/13).

وكذلـك **إبراهـيم سـليم نجـار** الـذي انطلـق مـن دير القمر يدعو للثورة العربـية واسـتقلال لبـنان ويثبـت أن العروبة ثقافة وليست سياسة. وقد اجتمع بـه عمـر فـاخوري فـي بـاريس سنة 1920 م فأرسل عمر رسالة إلى نسيب لـه فـي بـيروت (نشـرناها مع رسائل عمر) يقول فيها: "إبراهيم سليم نجار.

اجتمعنا به صدفة يوم الأحد الماضي في القهوة وكان قد عرف بوصولنا سهرنا تلك الليلة وإياه. أديب من نوع الأدباء الذين أعرفهم في بلادنا وأحب الاجتماع بهم لأنهم عنصر لا يستغنى عنه في حياة شاب مثلي كما تعرفه. لأنه يمكن التحدث معه عن الأدب وعن أحوال البلاد وعن العمل للمستقبل وبالأخص هو رجل يعرف الغرب وآدابه وأحواله..". (عمر فاخوري. الرسائل. تحقيق كاتب هذه السطور).

وينبغي أن نتوقف عند **ابن حراجل نعوم شقير** (1864– 1922)م. نال بكالوريوس علوم من المدرسة الكلية السورية (الجامعة الأميركية) وتولى تعليم الإنكليزية والرياضيات في المدرسة السلطانية في بيروت ثم هاجر إلى القاهرة. وأظهر كفاءة إدارية عالية وخبرة كبيرة أثناء توليه أمانة سر لجنة ترسيم حدود منطقة طابا سنة 1906 م الذي أثبتت حق مصر بها. وهو صاحب كتاب "**أمثال العوام في مصر والسودان والشام**".

إلا أن أهم عمل قام به نقولا كان تأليفه كتاب "**تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها مع خلاصة تاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب**" الذي طبع سنة 1916 م واعتبر عملاً لا نظير له. فقد ذكر جبال سيناء وأوديتها وتضاريسها وثمارها وأشجارها ونباتاتها وحيواناتها كلها بدقة تامة وتفصيل شامل، كما وصف قبائل سيناء ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأغانيهم ومعتقداتهم. بما يمكن اعتباره المرجع الوحيد لسيناء حتى اليوم.

أما عشرات الصحف والدوريات السياسية والأدبية اليومية والأسبوعية والفصلية التي صدرت في بيروت منذ سنة 1858م فقد كانت نواة السلطة الرابعة في البلاد العربية. نشير هنا إلى أنه تم تعريب الصحافة تحت عنوان السلطة الرابعة، في حين أن توماس كارليل أطلق على رجال الصحافة لقب "**الجماعة الرابعة**" لأن البرلمان الإنكليزي اشتمل على ثلاث جماعات: "**جماعة اللوردات العلمانيين. وجماعة اللوردات من رجال الدين. وجماعة أبناء الشعب**". فقال كارليل إن هذه الجماعات الثلاث مقرها في البرلمان وإن هناك "**جماعة رابعة**" مقرها في دور الصحف وإن تأثيرها يساوي الثلاث مجتمعة.

لا يخفى ما لتشجيع الكتاب من اثر في الإقبال على التأليف والطبع والنشر. وقد تجلى ذلك فيما كان ينظمه الشعراء لتقريظ كتاب أو مسرحية أو ديوان شعر.

فعلى سبيل المثال عندما وضع سليم تقلا كتاباً سماه "مدخل الطلاب في علمي النحو والصرف" قرظه قاسم أبو الحسن الكستي بقوله:

وقفت على هذا الكتاب الذي أهدى   مؤلفه للغيد من لفظه عقدا
فرحت به يا صاح نشوان لم أجد   لقاموسه الطامي قراراً ولا حدا
وأكد لي لما انعطفت لغته   قواعد إبدال تفيد الورى رشدا
بحسن معانيه البديعة ذو الحجا   يهيم اشتياقاً لا بزيد ولا سعدى
كتاب بادراك المنى لمريده   تكفل واستوفى الإجادة والجدا
فدونك منه الصرف صرفاً ونحوه   سل الراح عن معناه واستشهد الشهدا
لطلاب فنيه غدا مدخلا به   يرون إذا أعياهم الظمأ الوردا
جلاه سليم الطبع من غمد فكره   حساماً يقد الجهل عامله قدا
على فعله هذا الجميل حمدته   ومن يحسن الأفعال يستوجب الحمدا

(ترجمان الأفكار ص 158).

ولما أنشأ إبراهيم صادر مكتبته في بيروت، قال فيها قاسم الكستي:

حوت بيروت مكتبة عظيمة   بها كتب لها قدر وقيمه
تألف جمعها خطاً وطبعاً   على الصحف الجديدة والقديمة
ترى مت تشتهي من كافن   بها تصبو له النفس الكريمه
فيحسبها محب العلم كنزاً   وما منها اشتراه له غنيمه
وصادرها يقول لواردها   لقد فزتم بخيرات عميمه
فأنشأها وقم بها زعيماً   بإتقان فكانت مستقيمه
ولو يبغي نظيرتها سواه   نسميه طفيلي الوليمه

(ترجمان الأفكار ص 170).

ولما وضع اسكندر أبكاريوس كتابه "ريحان الأفكار"، قال فيه الكستي:

ريحانة الأفكار عنها روى   مآثر الفصل لسان البيان
وانتعشت من نشرها روحه   وقد طوى حرصاً عليها الجنان
فما بها غبن لمن يشتري   ولو شراها بعقود الجمان
صغيرة الحجم ولكنها   كبيرة في نفعها ذات شان
جادت بها همة اسكندر   انه فيها بديع الزمان
وهي كمرآة تجلت لنا   منها المعاني كوجوه الحسان

(ترجمان الأفكار ص 174)

وكان اسكندر ابكاريوس قد وضع كتاب "**روضة الأدب في طبقات شعراء العرب**" فقرظه الشيخ ناصيف اليازجي (ديوانه ص395) قائلاً:

رسالة ليس قاريها بذي ملل   وتحفة ليس شاريها بمغبون
تضمنت من بديع الشعر أحسنه   نظماً فكانت كديوان الدواوين
هدية من كريم طاب عنصره   له من الله أجر غير ممنون
فيها خزائن تبر غير مغلقة   عن طالبيها ودرّ غير مكنون
ربيبة في براري القفر قد نشأت   من أين جاءت بأثمار البساتين
وهي العروس جلاها أهل بادية   تزهو بوشم كفى عن كل تزين
هم صورة الحسن لا تحسين يدخلها   والحسن في غيرهم يأتي بتحسين
والورد إن أشبه النسرين منظره   فأين من ريح ورد ريح نسرين

وعندما أصدر المعلم بطرس البستاني كتاب "**مفتاح المصباح**" قال فيه اليازجي (الديوان ص 396):

هذا الكتاب كبير النفع مع صغر   في حجمه فهو للسارين مصباح
الصرف والنحو أبواب وأنفع ما   تقدم الناس للأبواب مفتاح

ووضع سليم بسترس كتاباً في رحلة قام بها، قال فيه اليازجي (395):

يا حسنها من رحلة تغنيك عن   تعب الرحيل وغربة المتغرب
فيكون فكرك في البلاد مسافراً   ويكون جسمك ثابتاً لم يذهب
لله منشئها اللبيب فإنه   شرح الصدور بشرحه المستعذب
يعطيك مرآة البلاد جلية   فترى بها المحجوب غير محجب
فكأنه نقل البلاد إليك أو   أنت انتقلت إلى بلاد المغرب

وإذا كان لا بد من كلمة حول المسرح في بيروت منذ أن أسسه مارون النقاش برواية البخيل سنة 1847م ثم بمسرحية هارون الرشيد سنة 1849م. فقد فتح بذلك باب المسرح على مصراعيه. فأخذت المسرحيات والروايات تؤلف وتمثل وتعرض مستمدة موضوعاتها من تاريخ العرب القديم ومن التاريخ العام. وقد صيغ الكثير منها في قالب شعري. فوضع نقولا النقاش مسرحية الشيخ الجاهل. وقدمت سنة 1864م مسرحية من تأليف المعلم طنوس الحر معلم اللغة الفرنسية في المدرسة المارونية قال فيها الشاعر قاسم الكستي مرتجلاً:

أبدى لنا الحر الأديب رواية   قرت بحسن فصولها الأبصار
ألفت خيار الناس لطف بيانها   والحر تألف فعله الأحرار
(كتابنا منزول بيروت ص 355).

وألف محمد أرسلان مسرحية بعنوان فرج بن سرور مثلت في دار بني حادة سنة 1865م قال فيها الشاعر عمر الأنسي:

زهت بتشخيص أحوال الإلى سلفوا   حتى كأنهم غابوا وقد حضروا
رواية كلها فضل ومعرفة   وحكمة وإفادات ومعتبر
(المنزول ص 355).

دفعت الأزمة المعيشية التي عانت منها بيروت سنة 1878م وديع فياض إلى وضع مسرحية بعنوان "**محبة الذات**" خصص ريعها للفقراء. قرظها الكستي:

إن الوديع ابن فياض أبان لنا   رواية تدهش الأبصار بهجتها
محبة الذات سماها مناسبة   حتى توافق روح العصر حكمتها
(المنزول ص 357)

عدا الكثير من المسرحيات التي الفت وعرضت والتي أثار بعضها لغطاً في بيروت أو منع تمثيلها أو أحدث فتنة مما يخرج تفصيله في هذا البحث.

ويكفي أن نشير أخيراً إلى دور الطباعة في حفظ تراث الإنسانية، فقد قام اثنان من زملاء شكسبير في الفرقة التمثيلية بجمع مسرحياته وإصدارها في كتاب حفظ تراثه، حتى أن الكاتب غاري تايلور قال "**بقيت كلمات هذا الشاعر العظيم على مر العصور لأنها طبعت على ملازم من الورق حفظها كتاب**".

وكان من الطبيعي أن يترافق ازدهار الطباعة وانتشار الكتاب مع تأسيس المكتبات ولم يعرف حتى منتصف القرن التاسع عشر وجود مكتبة في بيروت خلاف ما كان يحفظ في الأديرة والمساجد سوى مكتبة الجمعية السورية لاكتساب العلوم والفنون والتي تأسست سنة 1847 م وحوت مئات الكتب. ثم تأسست مكتبة الكلية السورية سنة 1868 م (الجامعة الأميركية) تبعتها المكتبة الشرقية بإشراف الأب لويس شيخو. ومن مكتبات بيروت مكتبة مار منصور دي بول التي ضمت عدة الآف من الكتب وانشىء بعدها ما عرف "**بغرف القراءة**".

وأنشأ العثمانيون مكتبة الاتحاد والترقي في ساحة البرج، إلى جانب المكتبات والخزائن الخاصة لبعض الأدباء والوجهاء مثل مكتبة اليازجيين ومكتبة البساتنة ومكتبة الكونت دو طرازي وخزانة الشيخ إبراهيم الأحدب والشيخ سعيد أياس وعبد الباسط الأنسي وغيرهم.

قبل أن تقر اتفاقية التجارة الدولية "الغات" بحيث يختص كل بلد بإنتاج وتصدير سلعة معينة تنقل عبر الحدود والسدود دون قيود، كانت بيروت في زمن العروبة الجميل تطبع الكتاب وتنشره، وكانت تصدر أبناء لبنان إلى بقاع الأرض، لنشر الأدب والثقافة، كما نشر الأجداد الأبجدية في قديم الزمان مجددين غير متزمتين، باسطين أشرعتهم، موسعين ساحة بلدهم، ثأراً من صغر مساحته.

من تذكاراتَ زمن العروبة الجميل توشيح كان يغنيه الشيخ ناصيف اليازجي ويغنيه بعده طالب صوته جميلٍ في مدرسة المعلم بطرس البستاني (المدرسة الوطنية) سنة 1863 م في زقاق البلاط يقول فيه:

يا بدر في سعد السعود — شفيت بي قلب الحسود
ترى ليالينا تعود — حسب الزمان الأول

هذا التراث الفكري والأدبي يثبت أن لبنان غير قابل للاستنساخ، فهو نسيج وحده، وهو والخلد اختراع الله كما قال الشاعر. ولكن إذا كان هذا التراث هو القمح الذي جمعه أبناء لبنان على مر السنين وهو غذاء الروح والجسد، فقد يكاد هذا القمح يضيع على حد قول جلال الدين الرومي، بفعل "فأر" التعصب والانعزال والأثرة الشخصية والطائفية والمذهبية الخ..

***

* - محامي بالاستئناف

الجامعات في بيروت

د. طارق خليل*

- مدخل:

إذا كانت مصر هي أم الدنيا- ستّ الدنيا- فبيروت هي الدنيا بحد ذاتها. مع بيروت يحتار المرء من أين يبدأ؟ أيبدأ من بيروت الشرق أم من بيروت الغرب؟ هذه المدينة التي نشأت وتطورت على مدى قرون عدة رافقها العديد من الأجيال التي كانت شاهدةً على دورها المفصلي حول العديد من الجوانب الإنسانية والفكرية والثقافية؟ فقد كانت ولا زالت منارة و قطباً فكرياً كبيراً للعالم العربي. فكيف لنا أن نذكر بيروت التي ما من قريب أو بعيد إلا ووقع في سحرها فغنّى لها الكثيرون كامرأةٍ ؟أن عشقتها وقعت في حبّها حتى الممات. إنها حاضنة للعديد من الحركات الفكريةّ؟ الحاضنة للعديد من القضايا التحررية وأهمها القضية الفلسطينية. كما أنها تشكل نقطة إلتقاء لمختلف الديانات والمذاهب والطوائف على رغم اختلافها التاريخي، وتنهل وحدة مصدرها الانساني المحتوى من ينبوع الانسان.

بيروت

إن هذه المدينة لما تمثّل من تزاوج بين الشرق والغرب، على رغم تعثره في بعض المراحل، قد تمخض عنها الكثير من التجمعات والمراكز الفكرية والجامعات العريقة التي تشكل رافعةً أساسيّة في نهضة الوطن. فما معنى لبنان من دون بيروت؟

تشكّل الجامعات ركناً أساسياً من هوية مدينة بيروت بدءاً بالجامعة اللبنانية مروراً بالجامعة الأميركية المطلّة على كورنيش بيروت وصولاً إلى الجامعة اليسوعية عند المتحف، أضف الى ذلك، العديد من الجامعات كجامعة البلمند، جامعة روح القدس (الكسليك)، الجامعة اللبنانية الدولية وغيرها.

كما يجب ذكر وجود الكثير من المعاهد الجامعية والمهنيات.

إنّ أهمية الجامعات في لبنان يعود إلى ارتباطها بمؤسسات جامعية مختلفة في أوروبا وأميركا ممّا أغنى المستوى التعليم الجامعي وسهّل على الطلاب والباحثين التواصل مع الخارج، خاصة أن التعليم يحصل باللغات الأجنبية: الانجليزية

والفرنسية منها. كما يتوفر العديد من المعاهد اللغوية كمعهد غوتيه لتعلم اللغة الألمانية على سبيل المثال ويعتبر هذا عاملاً مسهّلاً، إن لم يكن أساسياً في تحضير الكادرات العلمية القادرة على التفاعل مع الشركات والمراكز الفكرية. كما نأمل أن يتمّ إحياء اللّغة العربية في جميع المجالات العلمية من خلال سياسةٍ عُليا على صعيد الدول أو الأمة العربية، تستفيد من ازدياد عدد المفكرين وإنشاء مراكز بحثية تكون فاعلة أكثر فأكثر في صناعة العلوم وتصديرها من ناحية، وتعليمها باللغة العربية من ناحية أخرى.

الجامعات ومعاهد التعليم العالي:

يوجد في لبنان حوالى 25 جامعة ومعهد تعليم عالي معترف بها رسميا من قبل وزارة الثقافة والتعليم العالي، وتضم العديد من الجامعات العريقة:

1- الجامعة اللبنانية (L.U.)
2- الجامعة الاميركية في بيروت (A. U. B.)
3- جامعة بيروت العربية (B. A.U.)
4- جامعة القديس يوسف (U. S. J.)
5- جامعة الروح القدس – الكسليك (U. S. E. K.)
6- الجامعة اللبنانية الاميركية (L. A. U.)

كما أن العديد من الجامعات الحديثة ما لبثت ان تطورت ونجحت في تدريس الكثير من الاختصاصات بالتنسيق مع مراكز أكاديمية متقدمة، كالجامعة اللبنانية الدولية على سبيل المثال، التي أُنشئت في نيسان2001 بمرسوم رئاسي رقم 5294 وامتدت فروعها الى العواصم العربية كعمان، صنعاء وغيرها. أضف الى ذلك الجامعة الاسلامية في لبنان ومعهد هايكازيان الذي أنشىء سنة 1966 على يد تجمع الكنائس الانجيلية الارمنية كما هو أيضا عضو في المجموعة الجامعية العالمية الدولية الأميركية ويقع في شارع المكسيك (القنطاري).

إنّ هذه الباقة من الجامعات إن كانت تدل على شيء، أقله من خلال تسمياتها، فهي تعكس ما يمكن أن تمثله بيروت من مكان تلاقٍ غربي/ شرقي، عربي/ دولي، وطني/قومي، تحرري /محافظ وبالتأكيد طبقي وسياسي.

إنّ هذه التمايزات تعكس مما لا شك فيه بحكم الفوضى التي تعم العالم عموماً والشرق خصوصاً، هذا الشرق الذي سمّاه دومينيك شيفاليه- "شرق من حبر"- بجانب الكثير من الصراعات. ولكن من ناحية أخرى تمثل نموذجاً للتنافس والابداع

بسبب الاختلافات التي تمثلها بيروت مما أدّى الى عمل السياسي والديني والعربي والدولي على تمكين موقعه من خلال الجامعات التي بشكل من الاشكال تؤشر الى مدى حضارية هذه المكونا ت في تحديد هوية بيروت الفكرية. فإذاً لا بدّ من أن نشير الى أنّ هذا الشرق هو أيضاً شرق الالتقاء والتبادل الفكري وإلا، عكس ذلك، ما هي بيروت؟

الجامعة اللبنانيّة:

نشأت الجامعة اللبنانية نتيجة مظاهرات شعبية وطلابية مطالبة بانشاء مؤسسة تعليم عالي رسمية بعد أن كان حكراً على مؤسسات خاصة، والتي ممّا لا شك به أنّها لعبت دوراً مهماً في إنتاج الكثير من النخب الفاعلة في المجتمع؛ ولكنّها كانت محصورةً ببعض فئات المجتمع دون أخرى. فاذاً الصراع الطبقي في المجتمع اللبناني أنتج في العام 1951 ما عُرفَ لاحقاً بالجامعة اللبنانية.

بدأت أولّ نواة للجامعة اللبنانية بانشاء دار المعلمين العليا ومعهد للاحصاء، وبقيت على هذه الوضعية حتى العام 1959 حيث صدر المرسوم التنظيمي رقم 2883 الذي نظّم الجامعة كمؤسسة ذات استقلال أكاديمي وإداري ومالي. ومنذ بداية نشأة الجامعة أخذت تصدر تبّاعاً مراسيم الكليات والمعاهد بحيث توسّعت الجامعة توسعاً سريعاً وتطوّرت، فارتفع عدد كلياتها ومعاهدها فأصبحت تضم أربع عشرة كلية ومعهداً على النحو الاتي:

كلية الاداب والعلوم الانسانية، كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية، كلية العلوم، معهد العلوم الاجتماعية، معهد الفنون الجميلة، كلية التربية، كلية العلوم الاقتصادية وادارة الأعمال، كلية الاعلام والتوثيق، كلية الهندسة، كلية الزراعة، كلية الصحة العامة، كلية العلوم الطبيّة، كلية الصيدلة، كلية السياحة والفنادق، كما يتبع للجامعة معهد العلوم التطبيقية والاقتصادية، والمعهد الجامعي للتكنولوجيا.

يفوق العدد الاجمالي لأساتذة الجامعة الثلاثة آلاف بينما يقلّ العدد عن الثلاثة آلاف في مجموع القطاع الخاص، وتبلغ نسبة حملة الدكتوراه 77,5% فيها مقابل 48% في المؤسسات الخاصة.

لقد عانت الجامعة اللبنانية ما عانته مدينة بيروت من انقسام بين شرقية وغربية حيث كانت حتى عام 1975 مراكز المعاهد والكليات في بيروت وضواحيها. ولكن خلال عام 1976 وبسبب الحرب اللبنانية أُنشئت فروع للكليات في بيروت ومحافظات جبل لبنان ولبنان الشمالي ولبنان الجنوبي والبقاع بسبب الحالة الأمنية

وصعوبة الانتقال. ولكنّ البرامج والمناهج وأنظمة الامتحانات والتدريس والشهادات بقيت موحّدة في كل الفروع، كما أنّ الادارة المركزية بقيت موحدة بكل أجهزتها في بيروت التي بقيت الحاضن الأساسي لهوية جامعة كل اللبنانيين من دون تمييز ولكادرها الاكاديمي على رغم ما يمثل من تعددية فكرية. تميزت الجامعة اللبنانية بمدى ارتباطها بالنظام الفرنسي من حيث التدريس وتهيئة الكادرات وإقامة بروتوكولات للتعاون العلمي والبحثي.

كما لا يجب أن نغفل إنشاء الدولة مركزا بحثيا هو: المركز الوطني للبحوث العلمية على نسق النمط القائم في فرنسا حيث يضمّ هذا المركز فقط أشخاصاً متفرّغين للبحث العلمي.

جامعة بيروت العربية:

نشأت جامعة بيروت العربية في بيروت عام 1960، تحديدا في منطقة طريق الجديدة، قرب جسر الكولا وتتبع هذه الجامعة أكاديمياً جامعة الاسكندرية في مصر . نلحظ من تسمية الجامعة مدى ارتباط بيروت بمحيطها العربي وما تمثله من مركز تلاقي عربي /عربي.

تشكّل هذه الجامعة جزءاً من المؤسّسات التابعة للجامعة العربية التي تضمّ الدول العربية كأعضاء فيها على غرار الامم المتحدة. حيث تجتمع هذه الدول لدرس أوضاع الأمّة العربية من مختلف النواحي السياسية الاقتصادية، البيئية والعلمية منها. وعلى ذكر جامعة الدول العربية يُعتبر لبنان من أول مؤسسيها، كما هو من أوائل المنتسبين إلى الامم المتحدة.

سمحت جامعة بيروت العربية لازدياد تقارب الشعبين المصري واللبناني من خلال كادرها الأكاديمي العامل فيها والاتي من جامعات دولة مصر التي تعتبر من أهم ركائز العالم العربي. كما عملت ولا زالت على مدى سنوات على تخريج العديد من الكادرا ت في مجالات الهندسة، الطب، الصيدلة، الحقوق وغيرها.

الجامعة الأميركية في بيروت:

تُعتبر الجامعة الأميركية في بيروت من أقدم الجامعات العاملة في لبنان. تأسست سنة 1866 في مدينة بيروت. تطل على كورنيش بيروت حيث يحدّها تمثال جمال عبد الناصر من الجنوب والمنارة البحرية من الشمال ويُخيّل للقادم من البحر البعيد أنّ في استقباله إحدى قلاع الفكر في بيروت لما تمثّله من مركزٍ فكري ومن جسرٍ

مهمّ بين الشرق والغرب. تُعتبَر الجامعة الأميركية من الجامعات المهمة على صعيد الشرق الأوسط، خاصة كلية الطب التي تضم المستشفى الجامعي المهمّ جداً من حيث الكادرات والادارة والتجهيزات. مرّت الجامعة الأميركية في العديد من الأزمات ولكن بفضل المساعدات الخارجية والداخلية استطاعت المحافظة على وضعها المستقرّ، ممّا يعكس مدى أهمية موقع بيروت الجيوسياسي الذي دفع العديد من الشخصيات المهمة على العمل للحفاظ على هذا الصرح الأكاديمي المتقدّم.

تملك الجامعة مبناً جامعياً مميزاً من حيث الحفاظ على البناء والطبيعة ومقوّمات الحياة الطلابية. كما أنّها تُعتبر من المراكز البحثية الناشطة التي تمتلك ارتباطات خارجية، تحديدا مع الأميركية منها، متقدمة جداً.

ويشرف على ادارتها مجلس أمناء يضم شخصيات علمية لبنانية وعربية واجنبية.

تضمّ الجامعة خمس كليات:

كلية الأداب والعلوم، كلية الطب، كلية الهندسة، كلية العلوم الصحية، كلية العلوم الزراعية والغذائية وقسم التربية والبرامج الخاصة.

جامعة القديس يوسف (اليسوعية):

جامعة لبنانية خاصة ومستقلة، أسّسها الأباء اليسوعيون سنة 1881 في بيروت وكانت آنذاك تقتصر على كلية الطب. هي من أوائل الجامعات العاملة في لبنان وهي معروفة في العالم العربي باسم الجامعة اليسوعية. تقع في منطقة المتحف الوطني الحاوي لحضارات كثيرة مرّت على هذه المنطقة، كما لا تبعد كثيرا عن قصر الصنوبر حيث يقيم السفير الفرنسي. هذا القصر الشاهد على مراحل سياسية مفصلية في تاريخ هذه المنطقة. يقابلها المركز الثقافي البريطاني المجسّد لثقافة الأمة الانجليزية المنافسة تاريخياً للثقافة الفرنسية التي تشكل جامعة اليسوعية أحد وجوهها. ترتبط هذه الجامعة أكاديمياً بجامعة ليون الفرنسية على رغم تعليمها المواد باللغات الفرنسية، العربية والانكليزية. كما أنها لا تبتعد عن متحف ذاكرة بيروت (قيد الانشاء) في السوديكو، حيث ينبري للمارّ أمام جامعة اليسوعية أحد أكثر الأماكن الراسخة في ذاكرة بيروت. إمتدّت فروع الجامعة إلى صيدا، طرابلس وزحلة، تضم تسع كليات، أربعة عشر معهدا عالياً ومدرسة متخصصة. إشتهرت فيها كلية الحقوق حيث تخرج منها محامون ورجال سياسة لامعون أبرزهم على الإطلاق كمال جنبلاط مؤسس الحزب التقدمي الإشتراكي.

سنوات معدودة فصلت بين إنشاء الجامعة الأميركية في بيروت والجامعة اليسوعية. هذا الفصل يعكس المنافسة والسباق بين الارساليتين الانجيلية السورية واليسوعية. الأولى تمخض عنها إنشاء مستشفى الجامعة الأميركية أمّا الثانية فأدّت الى إنشاء مستشفى أوتيل ديو دو فرانس الجامعي التابع للجامعة اليسوعية. هذه المستشفى الجامعية التي شكلت مقصداً للكثيرين من الخارج، بلاد ما بين النهرين وبلاد فارسن، كما تعتبر من أبرز مراكز الاستشفاء في الشرق الأوسط. تضم الجامعة الكليات والمعاهد العليا التالية:

- المعهد العالي للعلوم الدينية ومعهد الدراسات الاسلامية والمسيحية.
- كليات العلوم الطبية والتمريضية
- كلية الهندسة
- كلية الحقوق (أُنشئت سنة 1913)
- كلية العلوم الاقتصادية
- كلية إدارة الأعمال والعلم الاداري
- المعهد الجامعي للتكنولوجيا في ادارة الأعمال
- كلية الاداب والعلوم الانسانية
- المدرسة اللبنانية للتدريب الاجتماعي
- معهد اللغات والترجمة
- معهد الدراسات المسرحية والسمعية المرئية.

كان للإرساليات المسيحية ولا زال دور أساسي في تأسيس الجامعات في لبنان، تحديداً في مدينة بيروت. قامت الإرساليات البروتستانتية بتأسيس أول جيل من الجامعات على سبيل المثال: الجامعة الأميركية في بيروت (أنظر المقطع 3.1) والجامعة اللبنانية الأميركية، كلية بيروت الجامعية التي تأسست سنة 1924 على يد الارسالية الانجيلية الاميركية وكانت أول كلية للبنات في المشرق. تقع في منطقة قريطم في بيروت ولديها فرعان في جبيل وصيدا. تتبع في نظامها الدراسي النظام الأميركي وبطبيعة الحال تعتمد اللغة الانكليزية كلغة تدريس. بقيت تقتصر الجامعة على الطالبات حتى سنة 1973 تاريخ استقلالها عن الكنيسة الانجيلية. تضم الجامعة اللبنانية الأميركية أربع كليات هي:

- كلية الصيدلة.
- كلية الاداب والعلوم الانسانية.

- كلية ادارة الأعمال.
- كلية الهندسة والهندسة المعمارية.

خلال سنوات الحرب الأهلية، أنشأت الجامعة اللبنانية الأميركية فرعاً في اللّويزة. بقي هذا الفرع يعمل فعلياً منذ سنة 1978 ولغاية سنة 1987 بشكلٍ مشترك بين الرهبانية المارونية المريمية وكلية بيروت الجامعية (UCB). في تاريخ 14\8\1987 انفصل فرع اللويزة ليصبح جامعة قائمة بحدّ ذاتها عُرِفَت باسم جامعة سيدة اللويزة. تقع في ذوق مكايل ولها فرعٌ آخر في لبنان الشمالي (برسا).
تضم جامعة سيدة اللويزة أربع كليات هي:

- كلية إدارة الأعمال والعلوم الاقتصادية
- كلية العلوم الانسانية
- كلية الهندسة والهندسة المعمارية.
- كلية العلوم الطبيعية والتطبيقية

من الجامعات العريقة التي أسّستها الرهبانيات الكاثوليكية وتقع في إطار التصنيف الحديث لبيروت الكبرى هي جامعة الروح القدس - الكسليك.
أُسسَت سنة 1961 هي أول جامعة كاثوليكية ذات طابع شرقي تابعة للرهبانية اللبنانية المارونية، كما يجب أن لا نغفل الجامعة اليسوعية التابعة للارسالية اليسوعية. تضم جامعة الروح القدس العديد من الكليات اشتهرت منها كلية اللاهوت الحبرية، أضف الى ذلك: كلية الفلسفة والعلوم الانسانية، كلية الاداب، كلية الحقوق، كلية إدارة الأعمال والعلوم التجارية، كلية الفنون الجميلة والفنون التطبيقية، كلية العلوم الزراعية وكلية الموسيقى.
أخيراً، لا بدّ من ذكر جامعة البلمند (أُسسَت سنة 1988) التي جمعت الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة المعروفة بالألبا ومعهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي واستحداث كلية الاداب والعلوم الانسانية. كما اتسعت لتشمل لاحقا كلية علوم، كلية هندسة، كلية ادارة اعمال، كلية علوم صحية وكلية علوم تطبيقية.
تتوزع مباني الجامعة بين مجمع دير البلمند في الشمال: مجمع الاكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة في سن الفيل- الصالومي ومجمع كلية العلوم الصحية في الأشرفية- بيروت.

- الخاتمة:

شهدت بيروت إنشاء أقدم كليات الحقوق، كما أنها عاصرت العديد من الحضارات والثقافات، ومرّ عليها العديد من الشعوب المختلفة في توجهاتها ومعتقداتها ودياناتها التي ترك كل منها بصماته فكان للمعاهد والجامعات حصّةٌ وفيرةٌ منها. من هنا نلحظ أن بيروت كانت ولا زالت تشكل مدينةً عالميةً كل يريدها أن تكون جزءاً من هويته تخلّدُ ذكرى شعبه فتصبح منارةً يطلّ بها على الاخرين. لذلك عرّفتُ بدايةً بيروت كقطبٍ كبيرٍ يجذب الجميع ويستنير منه الجميع.

تذكرني بيروت بمدينة ستراسبورغ، حيث أقمتُ ودرستُ لعدة سنوات. هذه المدينة الفرنسية العريقة في مقاطعة الألزاس الواقعة على الحدود الألمانية وسط أوروبا. وقد شكّلت محور تنافسٍ وصراعٍ حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة 1945 بين الأمتين الفرنسية والألمانية. فإن هذا التنافس إضافة الى الجانب الدموي منه قام بترسيخ الثقافتين على اختلافهما من خلال بناء العديد من الجامعات ومراكز الأبحاث التي حُظِيَ البعض منها على دعم مالي من وزارتي الثقافة الفرنسية والألمانية حتى ثمانينيات القرن المنصرم. وبعد نشوء الاتحاد الأوروبي شكّلت مدينة ستراسبورغ مركزاً لتقارب الثقافتين الألمانية والفرنسية وغيرهما من خلال إقامة البرلمان الأوروبي فيها.

وبالعودة الى مدينة بيروت التي أوصى اتحاد دول البحر المتوسط بإنشاء مركز متعدد الجنسيات للأبحاث فيها يُعنى بإقامة دراسات تهمّ دول البحر المتوسط على وجه الخصوص.

وبعد أن باتت تعتبر من أوجه الفرنكوفونية البارزة، نجد أن للجامعة علاقة قديمة متجددة مع هذه المدينة الكوسموبوليتية مع الأمل ان تتحول هذه الجامعات أكثر فأكثر الى مراكز بحثيّة فاعلة في دراسة وفهم هذه المنطقة لما لها من بعد إنساني ومحوري في تاريخ الانسان العاقل ومستقبله، كفهم الدور الذي تلعبه مدينة ستراسبورغ كأحد وجوه أوروبا المعاصرة.

أخيراً، إذا كان من شاهد على علاقة بيروت بالجامعات فهو الكادر الأكاديمي الذي احتضنته هذه المدينة الحرة الممثلة لهذا التنوع الفكري. من الوجوه والاعلام البارزة الذي احتضنته الجامعات، نذكر على سبيل المثال:

1- جامعة بيروت العربية: عبده الراجحي (لغة) - عبد الوهاب الكفافي مترجم المثنوي لجلال الدين الرومي - أنور الخطيب (قانون دستوري والأحوال المدنية لغير المسلمين)...

2- الجامعة الأميركية: خليل حاوي (شاعر)- عبدالله عبد الدائم (تربية)- جورج حبش (طبيب)- فؤاد اسحاق خوري (انتروبولوجيا)- علي شمس الدين (فيزياء)...

3- الجامعة اليسوعية: منيرشمعون (علم نفس)- أهيف سنو(أدب وفلسفة) - سمير قصير (علوم سياسية)...

4- الجامعة اللبنانية: جورج طعمة (علوم)- حسن مشرفية (علوم، وزير تربية) - نزار الزين- علي زيعور- وجيه كوثراني- رضوان السيد- زاهية قدورة - فؤاد شاهين- فريدريك معتوق (علم اجتماع) - أحمد بيضون- خليل أحمد خليل (علم اجتماع) - عصام نور الدين (لغة) - يوسف الحوراني (تاريخ) - فؤاد خليل- زاهي ناضر- وضّاح شرارة- حسن حمدان - كمال جنبلاط (حقوق) - نجيب عيسى- رياض شمس الدين (فيزياء) - هيثم زراقط (فيزياء)- صلاح حمية (فيزياء) - فؤاد الحاج حسن (فيزياء)- حافظ قبيسي (فيزياء) - مهدي الحاج حسن (فيزياء)...

كما يجب أن لا نغفل أسماء لمعت في فلك بيروت مثل فوّاز طرابلسي، الأب مونّس، عدنان حب الله، وليد غلمية وغيرهم...

***

- مراجع:

1- قضايا الجامعة اللبنانية وإصلاحها. عدنان الأمين، أحمد بيضون، أنطوان حداد، ملحم شاوول وخليل نور الدين. دار النهار للنشر والهيئة اللبنانية للعلوم التربوية.

2 - Le Liban de demain - vers une vision économique et sociale- Roger NASNAS, Toufik GASPARD, Kamal HAMDAN, Roger KHAYAT et Roger MELKI. Editions Dar AN-NAHAR .

3- دليل الجامعات ومعاهد التعليم العالي في لبنان (1995)، وزارة الثقافة والتعليم العالي.

4- دليل الباحثين والعاملين في فروع علم الاجتماع (2000).

5- مجلة الصحة والانسان. عدد كانون الثاني 2008

6- دليل الجامعة اللبنانية. عام 2005

7 - Atlas du Liban) Territoires et société): Eric verdeil, Ghaleb Faour-Sébastien Veut. IFOP et CNRS, Beyrouth 2007.

8 - CHEVALIER, Dominique: Orient d'encre, Paris, Sindbord, 2003

- حواشي:

*- أستاذ جامعي

-جامعة سيدة اللويزة:Notre Dame University (NDU)

-كلية بيروت الجامعية:Beirut University College (BUC)

-الجامعة اللبنانية الأميركية:Lebanese American University (LAU)

-معهد العلوم Conservatoire Nationale des Arts Et Métiers (CNAM)

-الجامعة اللبنانية الدولية:Lebanese International University (LIU)

-جامعة القديس يوسف (اليسوعية):Université Saint-Joseph (USJ)

-جامعة روح القدس (الكسليك):Université Saint-Esprit Kaslik (USEK)

-المركز الوطني للبحوث العلمية: Centre Nationale de Recherche Scientifique CNRS

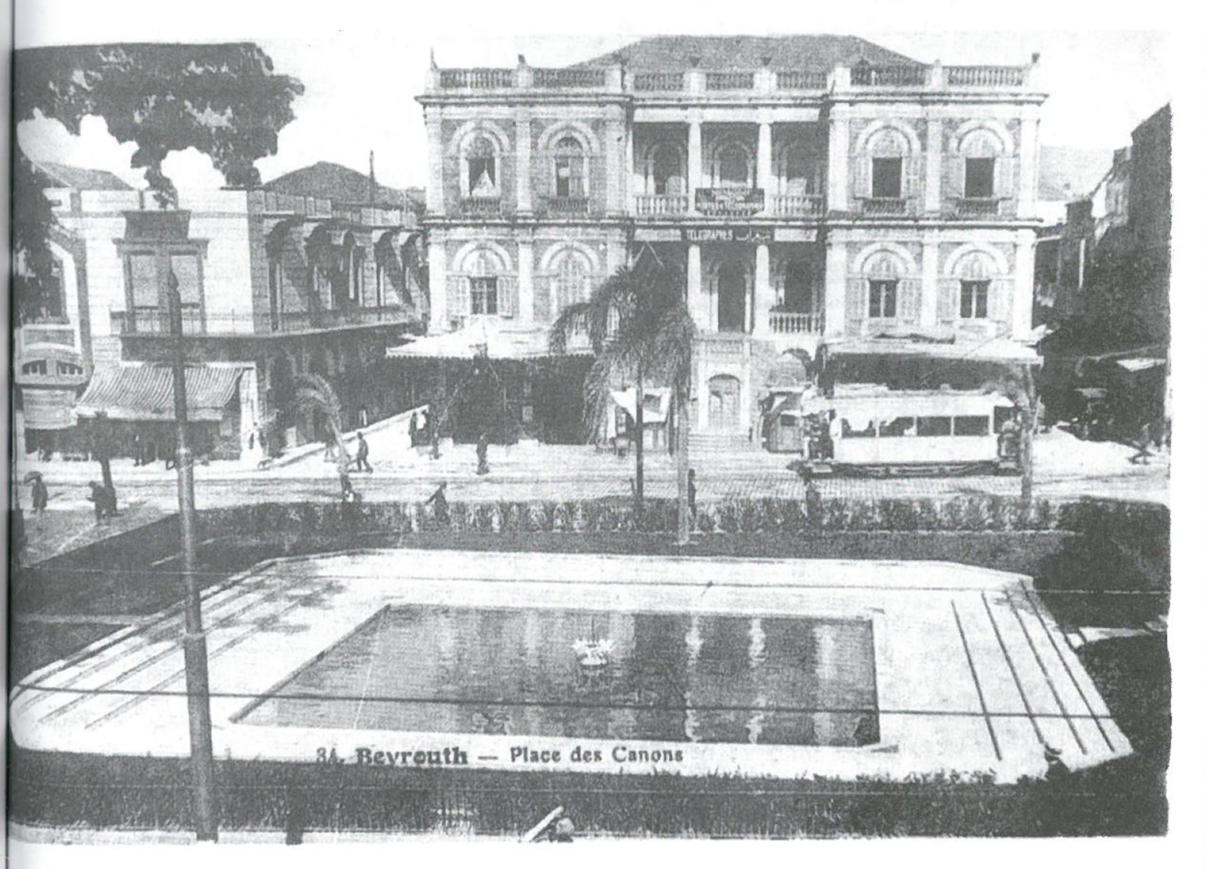
-المستشفى الأميركي الجامعي:American University Hospital (AUH)

-المركز الثقافي البريطاني:British Council

-الجامعة الأميركية في بيروت:American University of Beirut (AUB)

-الجامعة اللبنانية:(Université Libanaise)

-معهد غوتيه:Goethe Institute



مراكز الدراسات في بيروت

بين الدور الثقافي الريادي

وصنع القرار السياسي المفقود

د. ريتا فرج*

مدخل: بيروت مدينة الهويات والوجه الحضاري الثاقب

سُئل الخليفة المأمون يوماً: "ما ألذّ الأشياء؟

فأجاب:" التنزه في عقول الناس".

حين ألقى **أدونيس** محاضرة في مسرح المدينة عام 2003 عنوانها: "**بيروت اليوم، أهي مدينة حقاً أم أنها مجرد اسم تاريخي**"، وحين اعتبر بيروت "**مدينة بلا هوية**"، لم يدرك أن ذاكرة ما أسماه "**البرميل المثقوب**" وهوياته المتباينة والحاضنة للتعدد، تشكل المكوّن الأساسي لمدينة لم تفتقد يوماً لإرثها الثقافي، رغم الحروب المتجددة بين إيديولوجياتها وطوائفها المتصارعة، على أرض حبلى بالتحولات، والصراعات الإقليمية العابرة، مما جعلها رافعة للكوسمبوليتية بنكهة عربية أصيلة/ وغربية وافدة؛ بيروت اليوم لا تغتال مثقفيِّها، فهِي كالعقل، نور الكلمة، تحاسب من يتعدى عليها بطريقتها الخاصة عبر الحرف تارة، والمقاومة تارات أخرى، فهل لنا الحق في إدانتها بعد أن أرهقها الموت، ونهضت مجدداً كطائر الفينيق من رمادها، باعثة الإشراق بين ثنايا المتوسط ذي الوجه الحضاري العربي، المقابل لأوروبا الساعية منذ مؤتمر برشلونة عام 1995 إلى تأسيس الجسور الجامعة بين الضفتين.

تاريخياً لم تنحاز بيروت إلاّ لعشاقها العرب والأجانب، ومجدها لم يتوان في أية لحظة عن التدفق عبر مسالك ثقافية المتنوعة، في المسرح، ونشر المعرفة، والمهرجانات العالمية وما إلى ذلك من أنشطة، إن دلت على شيء فهي لتؤكد حيويتها ورفضها للإذعان، ولمؤثرات الحرب الأهلية البادية على محياها العمراني والبشري، وليس على دورها الآثر، في شرقٍ، لم تحكمه سوى أنظمة استبدادية ومحاكم التكفير، مما خولها أن تتبوأ مركز الصدارة في حماية المفكرين ورافضي مجون الساسة والقادة، في أوطان غابت عنها الديمقراطية والتداول السلمي للسلطة. ومجدداً هل لنا الحق في إدانتها؟ ولماذا كاتب ديوان "**مهيار الدمشقي**" تناسى ما

قدمته له هذه المدينة في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، عندما وفد إليها من بوابة مجلة "شعر" مع غيره من الشعراء كـ **نزار قباني ومحمود درويش**؟

لا ريب أن الفعالية الثقافية لبيروت في مرحلة الستينات[1]، شكلت ذروة عطائها، ففي الوقت الذي كانت فيه الدول العربية تئنّ من انعكاسات نكسة 1967 عرفت عقدها الذهبي؛ فهل هي مصادفة تاريخية أن تنعم بألقها الحضاري في زمن الهزيمة الكبرى؟ وما معنى أن تتوهج عاصمتنا في أزمنة الحروب؟ الجواب سيقدمه لنا المؤرخ **أحمد بيضون**، فعندما أحصى المجلات والصحف في الستينات وجد أنها لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وعندما بحث عن الغاليريات ودور النشر المزدهرة وجدها أقل بما لا يقاس من مثيلاتها في فترة الحرب وما بعدها، وعندما استحضر الصالونات الأدبية والفكرية وجد أنها كانت نادرة في مرحلة السلم بخلاف وفرتها في أزمنة الحرب[2]؛ مما يعني أنها عاصمة ولودٌ وخصبة حين تعيش قلقها السياسي والمجتمعي.

إن دور بيروت الثقافي في الوقت الراهن كحاضنة عربية أولاً، وكعاصمة عالمية للكتاب للعام 2009 ثانياً، يدل على مؤشرات بسيطة ومعقدة في آن، فليس من قبيل الصدفة أن تتوّج على عرش لا طالما كانت في مراتبه الأولى، وإذا أتعبتها الصراعات المحلية والإقليمية بالمعنى المادي البحت فهذا لا يعني أنها خسرت رهانها كمنارة ثقافية، يحجّ إليها كل باحث عن حرية الفكر والتعبير في حقبات جنونها وهدوئها، بدليل أن مساحتها الحرة سمحت لهواة الانقلابات في العالم العربي في صياغة خرائطهم الحالمة بالتغيير السياسي؛ عدا أن بنيويتها المتشابكة، وهوياتها المتقاتلة، أديا إلى رسم ملامحها المختلفة عن محيطها، وهنا نستحضر إحدى النظريات العلمية القائلة إن المجتمعات التي تحوي على التعدد والتباين والتقلبات المباغتة، هي أكثر قدرة على إنجاب المبدعين، وإلاّ ما معنى أن يصل عباقرة لبنان إلى أهم المراكز في أماكن انتشارهم؛ وما معنى أن تنافس مدينتنا أبو ظبي في سباق معارض الكتاب عشية لملمة أشلائها بعد خروج القاهرة من الحلبة؟

لم يكن اختيار الأونيسكو لبيروت عاصمة عالمية للكتاب للعام 2009 مجرد تقاطع ثقافي؛ فتاريخها الحضاري والغني على مقياس التعدد الذي ولّد هويتها، وما إلى هنالك من عوامل صاغت لها إطلالتها الثاقبة في المتوسط منذ ابتكارها للأبجدية، مروراً بأسبقيتها في طباعة الكتب الأدبية والعلمية في مطبعة مار قزحيا (1610) والمهام التي اضطلعت بها المسيحية العربية في الحفاظ على تراث شركائها في التوحيد، وصولاً إلى مركزيتها الشرق أوسطية في ما يتعلق بالإعلام

ونقل المعرفة، كل هذه العوامل وغيرها اسمهت في بلورة شخصيتها ودفعت لانتقائها من قبل أهم المؤسسات الدولية.

بعيداً عن المماحكاة والجدل الدائر حول الأهمية الثقافية لبيروت، تبقى من أهم الدول العربية التي تدخل صناعة الكتاب بكل جدارة، فدوْر النشر المنتشرة على أرضها تشي بديناميكية لا سبيل لإنكارها، لكونها السبّاقة في هذا المضمار على بقية جيرانها منذ عقود. ولكن إذا كانت دور النشر اللبنانية هي الرائدة في المنطقة في نقل أفكار العرب وسواهم على الورق، تفتقد بالمقابل مراكز الدراسات والبحوث المهتمة أيضاً بهذا المضمار، للمشاركة في صنع القرار السياسي، وتقديم الرؤى الاستراتيجية والنتائج التي توصلت إليها، في دراستها للمجتمع ومشاكله إلى الحكام والقادة للأخذ بها، كما هو الحال في الدول الأوروبية والولايات المتحدة. والحال لماذا تقتصر مهام مراكز الدراسات في لبنان على الريادة العلمية وتفتقد للمشاركة في صنع القرار؟ وهل بنية النظام السياسي اللبناني غير قابلة لاحتواء هذا المطلب؟ وإلى أي مدى تؤثر هذه الحلقة المفقودة في تخفيف حدة العنف المجتمعي؟ قبل الإجابة على هذه الإشكاليات لا بد أولاً من التعرف على الحضور المعرفي اللافت لمراكز الدراسات والبحوث ودور النشر، وسنأخذ مركز دراسات الوحدة العربية أنموذجاً.

أولاً: مراكز الدراسات ودوْر النشر والثقافة العربية الوافدة (مركز دراسات الوحدة العربية أنموذجاً)

في أطروحته "**المدينة والكتاب؛ بيروت والنشر العربي**" خلص **فرانك ميرميه**، إلى أن "**بيروت إستوت عاصمة العرب الثقافية أو حيزاً عربياً عاماً**"، بسبب مهارتها في صناعة الكتاب وسط أجواء من الليبرالية والهوى العربي الذي سمح لها بريادة هذه المهمة؛ ولعل الأسباب التي دفعت الكاتب للخروج بهذه النتيجة متعددة أهمها:

1- التنوع الثقافي والحرية التي يتمتع بها هذا البلد.

2- نجاح حضارة الكتاب، ثقافة وتجارة وصناعة في بيروت تعودوا إلى الذين تولوا المهمة، وتوجهوا إلى إنشاء دور النشر ومراكز الدراسات. فقد كانوا يمثّلون نخبة من المثقفين الذين ساهموا هم أنفسهم من موقع الكتابة الأدبية أو العلمية في تعزيز هذه الريادة؛ ومن بينهم الدكتور **سهيل إدريس (1925-2008)** صاحب مجلة "الآداب" التي أسسها عام 1953، ومالك دار النشر حامل التسمية نفسها،

والتي شاركه فيها **نزار قباني** عام 1956. ولم يكن إدريس غريباً عن الثقافة بل كان جزءاً منها، فهو روائي ومترجم، قاد من خلال المجلة والدار معركة من أجل إدخال الأدب في متطلبات العصر الحديث، فشكل بذلك مرجعية في التحول الثقافي العربي وواحة لملتقى الشعر والرواية والقصة والتراجم. وفي هذا السياق لعب الدكتور **بشير الداعوق** (المتوفى عام 2007) أحد عمداء النشر في بيروت ومؤسس **دار الطليعة** (1960) دوراً محورياً في مركزية المعرفة على مستوى العالم العربي[3]؛ فهؤلاء وغيرهم كانوا أصحاب مشروعات فكرية، إذ جعلوا من دورهم نقطة استقطاب لرواد الأدب والشعر والرواية والفلسفة والعلوم والتراجم من المحيط إلى الخليج.

3- جاذبية بيروت الثقافية فهي مدينة الأضداد والتحولات، تجمع بين ثناياها الليبرالي واليساري، الإسلامي والعروبي، المناهض للغرب والمتطابع معه.

4- قدرة بيروت على جذب المفكرين من العالم العربي، على إعتبار أن البيئة التي خرجوا منها لا تؤهلهم لنشر طروحاتهم وتطلعاتهم، بسبب محدودية حرية التعبير وقمعها من قبل الأنظمة الحاكمة؛ خاصة إذا اعتبرنا أن نخبة الأمة المثقفة أو الانتليجنسيا[*] هي التي تضع المدماك الأول للمتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

5- أهمية بيروت التاريخية والمعاصرة كجسر بين الغرب والشرق، الأمر الذي يؤهلها بأن تتسم بسمات المدينة الكوسمبوليتية.

6- التعدد اللغوي؛ فلبنان كان مسرحاً لإحياء اللغة العربية بدءاً من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر حتى الآن، واحتوى على تنوع في اللغات مما جذب اليه كبار العلماء من الغرب، دون أن يعني ذلك إنسلاخه عن لغته الأصلية.

في مقاربته التاريخية للريادة الثقافية التي تتمتع بها دور النشر، يشير **طلال سلمان** إلى "أن بيروت هي الآن مطبعة الوطن العربي ودار النشر الأساسية فيه مشرقاً ومغرباً؛ ومن دون أن ننسى ريادة دار الآداب ودار المكشوف، فإن عشرات دور النشر توالدت بغزارة في بيروت بالشراكة أو بالتعاون مع دور نشر جزائرية ومغربية، فضلاً عن أن دور نشر مصرية فتحت لها فروعاً في بيروت، واختار بعضها المشاركة في دور نشر لبنانية، أو في لبننة هويته لأسباب سياسية. بالمقابل فإن شراكات عديدة قد تمت بين دور نشر غربية وبين دور نشر لبنانية، فدارت مطابع بيروت بطاقتها الكاملة، وبإصدارات متنوعة. ثم إن العودة إلى الينابيع وانتعاش الحركات الأصولية قد غمر الأسواق بإصدارات لا تنتهي من كتب السيرة

والتفسير والأحاديث والنظريات التي تطمح إلى تجديد الخلافة. وهكذا فإن مطابع بيروت تدفع إلى الأسواق مع كل فجر عدداً هائلاً من المطبوعات الدورية والكتب في مختلف مجالات الإبداع. وليست من المبالغة أن نقول إن أكثر من ألف مطبوعة دورية، لها تراخيصها القانونية، تصدر الآن في بيروت، معظمها أسبوعي ولها طابع فني واجتماعي، وبعضها شهري. كذلك فإن بيروت هي استديو الوطن العربي ففيها تنتج معظم أغاني الطفرة الموسيقية الخفيفة، والمسلسلات والأفلام الوثائقية. إن دور النشر تمطرنا في الصحف بالكتب على مدار الساعة؛ وهي كتب تتناول الموضوعات كافة، وإن كانت التجارب الشعرية والمحاولات الروائية تشكل نسبة ملحوظة بينها. أما كتب التاريخ والمذكرات السياسية والدراسات الاجتماعية والاقتصادية فتحتل مكاناً بارزاً، خصوصاً أنها تتعدى النطاق المحلي إلى العربي والدولي. **لم تعد بيروت بديل القاهرة أو بغداد أو دمشق؛ لقد صارتها جميعاً إلى حد بعيد**".[4]

لم تكن حركة الثقافة في بيروت وليدة الأزمنة الحديثة، فهي من دون مواربة نتاج تاريخ مديد، تبلور على حقبات ومراحل مختلفة ومتناقضة، ليوصلها إلى جني هذا الحصاد العالمي، وليرشحها كي تتوهج مع ذروة الضوء الذي أُعطي لها؛ "فقد شكل القرن التاسع عشر نقطة تحول نوعية في تاريخها، في هذه المرحلة بدأت تنتشر الإرساليات الأجنبية، فعرفت المدينة أول مدرسة حديثة للبنات عام 1834 سابقة بذلك كل مدن الشرق بعقود عدة، وأول مدرسة وطنية غير دينية تلامذتها من كل الطوائف وكذلك معلموها، وأول نادي مستقل يضم مثقفين من كل المذاهب الدينية والفكرية عام 1845، وأول صحيفة سياسية غير رسمية، وأول مطبعة حديثة واضحة الحروف والتنسيق، وأول موسوعة علمية حديثة سابقة بذلك الموسوعة باللغة التركية بعشر سنوات، قال عنها المستشرق **فان دايك** بأنها **"مشروع عظيم خطير لا مثيل له في اللغة العربية"**، وأول كلية جامعية حديثة هي الجامعة الأميركية في بيروت، وأول معجم عربي".[5]

إن اللمحة التاريخية الموجزة لتاريخ بيروت العابق بالحرية والمسكون بحق التعبير وتعدد اللغات وصون العروبة والجمع الحضاري بين الشرق والغرب، كل هذه المؤشرات تبرهن على سببية حركتها الثقافية دائمة، مما جعلها المركز الأول في العالم العربي على مستوى نشر المعرفة وصناعة الكتب، والصناعة تعني الإبداع والخلق، فكيف يمكن رصد هذا التميُّز؟ للإجابة عن هذا السؤال سنأخذ مركز دراسات الوحدة العربية أنموذجاً،

آخذين في الاعتبار أولاً أهميته الثقافية، ودوره في صنع القرار السياسي إذا توفر هذا المعطى ثانياً.

إن فكرة إنشاء **مركز دراسات الوحدة العربية** تعود بالدرجة الأولى إلى المتغيرات التي شهدها العالم العربي بعد نكسة الخامس من يونيو/حزيران 1967، وافتقاد الأنظمة السياسية العربية وجماهيريها لأهمية الوحدة بينهم، مما دفع عدداً من المثقفين العرب إلى ضرورة إيقاظ ومواجهة الرأي العام بهذا المنحى الخطير الذي تداعى إثر الهزيمة؛ وقد عبّر عن هذه المسألة بنشاط ثقافي محدود في بيروت ودمشق، أخذ شكل عقد بعض الندوات لمناقشة ضرورة الوحدة وجمع تواقيع عدد من المفكرين على نداءات بهذا المعنى، نُشرت في عدد من الصحف والدوريات العربية، خلال عامي 1967 و 1968. إلاّ أن الشعور بأهمية الوحدة، وبضرورة القيام بعمل ثقافي مستمر من أجلها، قد استمر بشكل تشاور فردي، خلال مدة متواصلة من الزمن، إلى أن تبلور الموضوع باتجاه تأسيس مركز للدراسات يتخصص حصراً في مسألة الوحدة العربية؛ وكانت أول تجليات هذا الهدف من خلال البيان الذي صدر في بيروت كانون الثاني/يناير 1975.(6)

تضمن البيان المذكور شرحاً لدوافع تأسيس المركز وأهدافه وطريقة عمله ووسائله، ووقّعه اثنان وثلاثون مثقفاً من مختلف الأقطار الوطن العربي، وفي مقدمته أشار البيان إلى الأجواء السياسية التي أثرت بمسألة الوحدة العربية، لعل أهمها: **تداعيات النكسات المتتالية** خاصة بعد فشل الوحدة المصرية/السورية والمشروعات الوحدوية التي تلتها؛ **الصراع العربي/ الإسرائيلي، والكفاح ضد الإمبريالية**، بما يمثلانه من تحد خطير لمصير الأمة على كافة الأصعدة، وعليه لا بد من اتخاذ الإجراءات اللازمة لتحقيق الهدف الأساسي الذي بلور فكرة إنشاء هذا المركز بما يعني العمل على إحياء الوحدة بين الدول العربية، ووجوب التوجه إلى الوحدة العربية المتكاملة في عالم يشهد تطوراً سريعاً في قدراته وتحديداً في البلدان الصناعية.

حدّد البيان أهم المرتكزات والقواعد التي على أساسها قام مركز دراسات الوحدة العربية؛ ويمكن إدراجها على النحو الآتي:

أولاً: إن وسيلة المركز في تنمية الوعي الوحدوي هي إعداد دراسات وبحوث، أو القيام بترجمة البحوث، تحلل الواقع العربي في شتى مظاهره وجوانبه، خاصة النواحي الإقليمية والعراقيل الحقيقية التي تعترض سبيل الوحدة العربية، واستجلاء وسائل توحيد أجزاء الوطن العربي وجمعها في مختلف الحقول.

ثانياً: يعمل المركز على تهيئة المعلومات والبيانات الإحصائية والوثائق ومصادر البحث عن مختلف شؤون المجتمع العربي باعتباره كياناً واحداً، والقيام بإعدادها وتهيئتها بحيث تكون صالحة لمختلف أهداف البحث العلمي في الوحدة بما في ذلك مكتبة وافية لهذا الغرض.

ثالثاً: إن توحيد الوطن العربي ليست عملية متعددة الجوانب وحسب، بل متعددة المراحل كذلك. وليس التوحيد السياسي سوى الشكل الأكثر اكتمالاً للوحدة. لهذا ستتجه عناية المركز إلى تتناول كافة الجوانب والصيّغ وتحليلها بغية استكشاف الأولويات والمراحل الممكنة في مقاربة الوحدة، من منطلق ضرورة قيام الوحدة على أسس وقواعد منيعة لا تتعرض لخطر الانهيار أمام التجارب والأزمات، وبالتالي قيامها متدرجة وبالصيغ الأكثر ضمانة لسلامة استمرارها.

رابعاً: إن التجارب الوحدوية المعاصرة خارج العالم العربي ذات فائدة ودلالة في دراسات مقارنة وتستوجب الدرس والتمعن من أجل تعميق فكرة الوحدة وجعل عملية التوحيد أكثر عقلانية.

خامساً: إن غايات المركز وأهدافه تتطلب أن يعمد إلى مخاطبة جميع فئات المجتمع العربي بمختلف شرائح الأعمار والاختصاصات بالشكل والأسلوب المناسبين، وباستخدام أفضل وسائل الاتصال الثقافي الممكنة.

سادساً: سيحاول المركز أن تمتد المشاركة بنشاطه إلى جميع الأقطار العربية، من خلال قيام أكبر عدد ممكن من المثقفين العرب المتخصصين في مختلف الحقول بمجهودات فكرية ضمن نطاق مهمتهم.

سابعاً: إن هذا العمل لا يهدف إطلاقاً إلى تكوين تجمع سياسي أو حزب أو جبهة سياسية، وإنما إلى إعادة الزخم إلى التيار الفكري الوحدوي أملاً في أن تترجم الجماهير والمؤسسات والقوى العربية هذا التيار إلى حقيقة ملموسة.

ثامناً: إن المساهمة في عمل المركز لا تشترط شروطاً مسبقة من حيث هوية المثقف ولا تتطلب إلاّ أن يكون مؤمناً بالوحدة العربية، بغض النظر عن المعتقدات والنظريات التي يؤمن بها.

تاسعاً: إن أبحاث المركز ونشاطاته لا تتناول الأوضاع السياسية القائمة في الوطن العربي، كما أن المركز لا يتخذ أية مواقف سياسية مباشرة ولا يدخل في الصراعات السياسية.

عاشراً: إن المركز سيعتمد في تمويل نشاطاته وفعالياته على التبرعات والمساعدات المادية التي يمكن أن يحصل عليها من المؤسسات والحكومات

والأشخاص في الوطن العربي الذين يبدون الرغبة في تقديم هذه المساعدة من دون فرض شروط وقيود على عمل المركز وأهدافه.[7]

يكشف البيان الذي على أساسه قام مركز دراسات الوحدة العربية، عن عدة أهداف يسعى إلى إنجازها، وإذا كانت مسألة تحفيز الوعي العربي لضرورات الوحدة ضمن الأطر الثقافية، تعتبر هاجسه الجوهري، في حقبة دخلت فيها الأنظمة السياسية في عملية التشرذم والتجزئة، منذ تفكك الوحدة بين مصر وسورية وتراجع المشروع الناصري، وتفاقم حدة الأصوليات الإسلامية بدءاً من سبعينيات القرن الماضي مقابل انكسار الفكر القومي واليساري؛ فكل المعطيات المذكورة تُنذر بخطورة البانوراما السياسية والجماهيرية الراهنة، من هنا جاءت التوعية الثقافية لتحقيق هذا الهدف الذي تكفل فيه المركز كإحدى أهم أولوياته منذ العام 1967، ولو شهد البيان التأسيسي المتغيرات التي عرفها العالم الحديث مع سقوط جدار برلين عام 1989، ودخول الدول الأوروبية في شراكة اقتصادية قوية تحت مسمى "الاتحاد الأوروبي" وما تلاها من رغبة في الحوار وبناء شراكة مع الضفة المتوسطية العربية على قاعدة ما أسس له مؤتمر برشلونة[*] عام 1995 لأفضى ذلك إلى تقديم رؤية أكثر علمية بعيدة عن الخطاب الأيديولوجي، وذلك من خلال عرض المقترحات السياسية والاقتصادية، التي من شأنها توطيد العلائق بين الأنظمة العربية، في عالم آخذ في التبدل على وقع الشراكة والتعاون، لمواجهة التحديات التي يواجهها سواء مع التعلق الجيو - إستراتيجي الأميركي وما يرتبط به من تصاعد وتيرة العنف العابر للقارات، أم لجهة التحديات الإقليمية التي ترتبت بعد الاحتلال الأميركي للعراق عام 2003.

ثقافياً يتمحور منهج مركز دراسات الوحدة العربية حول المشروع النهضوي العربي الجديد بعناصره الستة: الوحدة، الديمقراطية، العدالة الاجتماعية، التنمية المستقلة، الاستقلال الوطني والقومي، والتجدد الحضاري. ويتضمن كل من هذه العناصر الستة دراسات أو ندوات كبيرة أو صغيرة، وكراسات وكتيبات في سلسلة الثقافة القومية، ومحاور مجلة "المستقبل العربي". ويمكن معاينة الحصيلة الثقافية للمركز عبر إنجازاته التالية:

أ_ مجلة المستقبل العربي:

تصدر المجلة منذ عام 1978 كمنبر مفتوح لجميع المثقفين من دون استثناء متخذة شعار **"وعي الوحدة العربية/ وحدة الوعي العربي"**، مع مراعاة هدفين

رئيسين: أولهما، العناية بقضايا الوحدة العربية؛ وثانيهما، العمل لذلك بواسطة البحث العلمي الموضوعي، وبنظرة مجردة وهادئة.

ب _ الكتب

يبلغ عدد عناوين الكتب الصادرة باللغة العربية 523 عنواناً حتى آخر عام 2006، موزعة كالتالي: فكر قومي (103)، ثقافة (38)، اجتماع (65)، سياسة (123)، اقتصاد (68)، إعلام واتصال (13)، القضية الفلسطينية (40)، علوم وتكنولوجيا (23)، تربية وتعليم (10)، تاريخ (12)، جغرافيا وبيئة (3)، فلسفة (15)، توثيق (24)، قصص الناشئة (15).

ضمن هذه المنشورات توجد أكثر من سلسلة: سلسلة التراث القومي، سلسلة الثقافة القومية، سلسلة استشراف مستقبل الوطن العربي، سلسلة أطروحات الدكتوراه، سلسلة مكتبة المستقبلات العربية البديلة، سلسلة كتب المستقبل العربي، سلسلة مواقف الدول الكبرى من الوحدة العربية، سلسلة تاريخ العلوم عند العرب، سلسلة وثائق إستراتيجية، ربوع بلادي، فتى العرب، سلسلة التراث الفلسفي العربي. كما قام المركز بإصدار (10) كتب من منشوراته، مترجمة إلى إحدى اللغات الإنكليزية أو الفرنسية أو الفارسية، أو التركية.

ج _ الندوات

نظم مركز دراسات الوحدة العربية مجموعة من الندوات تدور حول مختلف جوانب الوحدة العربية بدءاً من اللغة والأدب والتعليم، إلى المواصلات والتقانة، إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان، وقضايا التنمية بمختلف أبعادها بالإضافة إلى الندوات التي تعنى بعلاقات العرب مع العالم.

د _ التوثيق

يتألف هذا القسم من عدة أقسام: تكوين قسم التوثيق والمعلومات ويتضمن: شعبة المكتبة وشعبة التوثيق؛ والمشروعات التوثيقية: كتاب يوميات ووثائق الوحدة العربية، وببليوغرافيا الوحدة العربية.

هـ _ أنشطة عامة

يرتكز هذا الجانب على المهام التالية:

1. إقامة الوقفيات.
2. والكراسي الفكرية والعلمية.
3. ومؤسسات المجتمع المدني القومية.
4. وتأسيس المنظمة العربية للترجمة.

5. وتأسيس المنظمة العربية لمكافحة الفساد.

6. وتزويد الجامعات والمكتبات العامة في الأقطار العربية بمطبوعات المركز.[8]

إن المنهجية الثقافية لمركز دراسات الوحدة العربية بدءاً من بيانه الصادر عام 1975، وما أعقبه من اهتمام بقضية الوحدة في الوطن العربي عبر نشر الدراسات والكتب والمجلات، وإقامة الندوات، والأنشطة العامة المختلفة؛ تنم عن مركزية دور الأفكار في صناعة التحولات السياسية والمجتمعية ولو بأسلوب غير مباشر، فمن البديهي القول إن النخبة التي تقدم طروحاتها كإطار معرفي في سبيل تحقيق هدف ما أو مشروع ما، هي في الواقع صانعة التغيير، ويمكن تصنيفها ضمن مفهوم الجماعة الضاغطة[*]، التي تتخذ حيزاً كبيراً لها في الدول الأوروبية والولايات المتحدة، في حين أنها تَغيب أو تُغيَّب في المجتمعات العربية والإسلامية لأسباب ترتبط ببنية السلطة الحاكمة أولاً، وبانحرافها عن مهامها الأساسية، ودخولها التدريجي في مفهوم ما يسمى مثقف الديوان، بعد أن كانت في حقبة الخمسينات والستينات في قمة عطائها الفكري والسياسي.

نظرياً هل يساهم مركز دراسات الوحدة العربية في صنع القرار السياسي؟ للإجابة على هذا السؤال أجرينا حواراً مع الدكتور **خير الدين حسيب** المدير العام للمركز، ولكن قبل عرض الأفكار التي تقدم بها، لا بد من التعرف بإيجاز على أهمية ما يعرف بـ **خزانات التفكير** أو THINK TANKS[**]، ومشاركتها في توجيه الاستراتيجيا الداخلية والخارجية للدول الغربية.

ثانياً: صنع القرار السياسي؛ مقاربة واقعية

تُعد الأبحاث العلمية والدراسات من أهم ركائز العمل في الدول المتقدمة، وتمثل القناة الرئيسة التي تمكن صاحب القرار من التعرف على الواقع والتخطيط للمستقبل وفق أساس علمي سليم، يأخذ في الاعتبار كل معطيات الواقع، ومؤشرات المستقبل ذات الصلة بموضوع ومضمون القرار. من هنا فإن تفعيل دور مراكز البحوث والدراسات أصبح من مقتضيات الضرورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، باعتبارها الآلية الأمثل لإيصال المعرفة المتخصصة إلى صانعي القرار من خلال ما تقدمه من إصدارات علمية تضاعف الوعي لديهم، وتساعدهم على الربط بين الوقائع الميدانية وإطاره العلمي النظري.

ويظل تعريف هذه المراكز محل خلاف وذلك لأن معظم المؤسسات التي تقع تحت القطاع المذكور لا تعرب عن نفسها بـ **خزانات التفكير** في وثائق تعريف الهوية الذاتية، وإنما تعلن عن نفسها كمنظمة غير حكومية أو منظمة غير ربحية[9].

عملياً تلجأ الحكومات الغربية، إلى مراكز الأبحاث والدراسات للاستفادة من خدماتها، فالولايات المتحدة على سبيل المثال، وبعد تنامي الإسلام الجهادي، وتداعيات أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، قامت بجمع الكفاءات والقدرات الفكرية للاستعانة بها بغية الوصول إلى تصورات ونتائج عامة لمعرفة أسباب هذا الحدث، ولعل التقارير الصادرة عن **مؤسسة راند**[*] هي الأهم في هذا السياق.

إن الدور الأساسي المنوط لمراكز الدراسات في الغرب بشأن تقديم التصورات والنتائج المتعلقة بصناعة القرار السياسي أو الاقتصادي، بعيد بشكل جذري عن واقع العالم العربي، وفي هذا السياق خلص الدكتور **محسن صالح** مدير **مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات** إلى "أن أولئك الذين أطلقوا على مراكز الدراسات والأبحاث تسمية خزانات التفكير لم يبالغوا، فالحكومات في العالم الغربي تستشيرها وتطلب خدماتها، لأن النظام السياسي وطريقة صنع القرار هناك هي عملية معروفة ومستقلة؛ فضمن دائرة صناعة القرار تحتل المراكز موقعاً مهماً، إلى جانب الدوائر التشريعية والدستورية، أما في عالمنا العربي هناك مشكلة في موضوع التعامل مع مؤسسات الدراسات الاستراتيجية ومراكزها، بوصفها مساهمة في صناعة القرار، وذلك يعود لعدة أسباب:

1- المشاكل المتعلقة بالأنظمة السياسية في العالم العربي، حيث غياب الديمقراطية والعمل المؤسسي والنزعات الفردية في الحكم.

2- حالة الانبهار في العالم العربي بالمؤسسات الغربية، وعدم الثقة للدور الذي تقوم به المؤسسات المحلية.

3- المؤسسات والمراكز في العالم العربي هي أقرب ما تكون إلى مؤسسات علاقات عامة، ولا تقوم بدورها كمؤسسات دراسات حقيقية، إنما تكون في بعض الأحيان غطاء لأحزاب أو جهات أو أشخاص، وهذا يسيء إلى سمعتها ومهنيتها.

4- الأنظمة العربية لا تقدم الدعم والتشجيع لهذه المؤسسات، هذا إن لم تلاحقها وتضيق عليها.[10]

ولكن ما الذي يُفقد مراكز الدراسات والبحوث في العالم العربي دورها في صناعة القرار السياسي[*]؟

في إجابته على هذا التساؤل يُعيد **جواد الحمد مدير مركز دراسات الشرق الأوسط** في الأردن هذا العجز إلى أسباب التالية:

أولاً: مشكلة التمويل؛ وهي مشكلة متعددة الأبعاد، حيث يغيب التمويل المحايد، الذي يمكن أن يأتي من الدولة على شكل مخصصات للبحث العلمي، وبالتالي تقع المراكز إما فريسة للتمويل الأجنبي بكل أشكاله، مما يدفعها للوقوع في المحظور والمشبوه، وإما عليها مواجهة شبح العازة والإغلاق؛ مع التنويه إلى وجود بعض النماذج القليلة التي تمكنت من توفير مصادر محلية وعربية دون الحاجة إلى المشبوه في التمويل.

ثانياً: الرؤية الفردية؛ معظم مراكز الدراسات العربية هي مراكز أشخاص، حيث يحمل المركز رؤية وأفكار وكلمات صاحبه، وربما يغلب اسمه على اسم مركزه، فلا يعرف إلاّ من خلاله.

ثالثاً: التوجه الفكري؛ الكثير من المراكز تخلط بقصد أو بغير قصد، ما بين دور مركز الدراسات كبؤرة للتفكير والتخطيط، وما بين دور الحزب السياسي والمنظمات الجماهيرية، كما أن كثيراً منها أُنشئ أو تحوّل إلى منبر تعبوي لأفكار السلطة السياسية الحاكمة.

رابعاً: السقف الديمقراطي: لا تستطيع المراكز القيام بعملها دون مجال كافٍ للوصول إلى المعلومات من جهة، وإلى البحث العلمي دون قيود سياسية أو فكريةً من جهة أخرى، وهو ما تفتقده معظم مراكز البحوث والدراسات العربي، التي تعاني من قيود لا حصر لها.

في ظل غياب دور مراكز الدراسات في صنع القرار السياسي، ومؤثرات ذلك على بنية الدولة والمجتمع والاقتصاد، يلفت **الدكتور خير الدين حسيب** إلى افتقاد لبنان لهذا الخاصية، التي تميزت بها الدول الغربية مما سمح لها باجتراح الحلول لقضاياها القومية والاستراتيجية، وفي ما يلي نص الحوار الذي أجريناه معه.

1- إلى أي مدى تساهم مراكز الدراسات والأبحاث اللبنانية في صناعة القرار السياسي؟

_ لا نحسب أن مراكز الدراسات في لبنان تلعب دوراً مباشراً في صناعة القرار السياسي، ولا نحسبها تلعب مثل هذا الدور في سائر الدول العربية، على نحو ما هو قائم في كثير من الدول المتقدمة اقتصادياً من خلال الدور والنفوذ المتسلسل لما يسمى THINK TANKS وذلك لأسباب عديدة:

أولها: لأنه، وفي حدود معلوماتنا، ليس هناك في لبنان مراكز دراسات متخصصة قريبة من صنّاع القرار، أو منشأة من أجل المساعدة في اتخاذ القرار، اللهم إلاّ إذا استثنينا هيئات استشارية ومراكز ومكاتب لأحزاب وشخصيات سياسية تُجري دراسات وتقدم معلومات لأصحابها، وأحياناً يستعين بأرشيفها كتّاب وباحثون مستقلون.

ثانيها: إن صناعة القرار السياسي في لبنان، وفي الدول العربية عموماً هي صناعة محدودة وهامشية لناحية الحيز والدور، سواء في المجال الداخلي أو الخارجي، وتتم داخل ما يمكن أن يعرف بالمطبخ السياسي للجهات المعنية مباشرة في اتخاذ القرارات.

ثالثها: مع ذلك، فإن مراكز الدراسات يفترض بها أن تجري البحوث العلمية، والتي يمكن الاسترشاد بها من أجل مساعدة صاحب القرار ولو بطريقة غير مباشرة، عن طريق إستخلاص ما يراه مناسباً في مجال الاختصاص.

2- كيف تحدد دور مركز دراسات الوحدة العربية ثقافياً؟

_ يسعى المركز من وراء نشاطاته المختلفة إلى تحقيق مجموعة أهداف تتلخص في خدمة "**المشروع النهضوي العربي**"، بعناصره المختلفة وهي: الوحدة، والاستقلال، والتجدد الحضاري، والتنمية المستقلة، والديمقراطية، والعدالة الاجتماعية؛ وهي عناصر مترابطة ومتشابكة. ولقد حقق المركز تراكماً علمياً ومعرفياً للمكتبة العربية، أي للقارئ والباحث والكاتب، وفي كل المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتاريخية والفلسفية التي تخدم تلك الأهداف.

وهو إلى جانب ذلك، يشجع ويتبنى كل بحث جدي من شأنه تعميق المعرفة بتاريخ العرب وواقعهم واستشراف مستقبلهم، والحث على احترام حقوق الإنسان، وتحقيق الإصلاح الاجتماعي والسياسي. وعلى هذا الصعيد يقوم المركز بالإعداد لمجموعة من المشاريع البحثية التي تقوم بها فرق عمل متخصصة ومنها:

أ. مشروع استطلاع اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة العربية والقيم الديمقراطية.

ب. صناعة القرار العربي.

ت. الحركات الاحتجاجية في الوطن العربي.

ث. دراسة أوضاع الجاليات العربية في إفريقيا وأوروبا والأميركيتين.

وكل هذا من شأنه أن يربط الأعمال العلمية، بالبعد التطبيقي والدراسات الميدانية.

3- هل يشكل الحراك السياسي باعثاً على مشاركة المؤسسات البحثية في صنع القرار؟

_ مركز دراسات الوحدة العربية ليس مؤسسة سياسية ليساهم في المشاركة السياسية المباشرة، لكن من الطبيعي أن تساهم الحريات السياسية والمدنية في لبنان وفي أي بلد عربي في نموه. فهو كمركز دراسات يحتاج إلى حرية الرأي والبحث والنشر؛ ولبنان عبر عاصمته بيروت يوفر للمركز هذه الشروط الضرورية لنموه وازدهاره، مع احتفاظه باستقلاليته وحياديته حيال الصراعات السياسية المحلية والعربية. ومع ذلك يمكن القول إن جهات صنع القرار ينبغي أن تسترشد بما تنتهي إليه الدراسات الجادة والرصينة، ويكون من الخطأ تجاهلها أو التخوف منها.

في قراءتنا لما تقدم به الدكتور **خير الدين حسيب**، تُحيلنا أجوبته إلى الوضع الراهن لمراكز الدراسات والبحوث في العالم العربي عموماً وفي لبنان خصوصاً، فهي رغم كثافة إنتاجها الثقافي والمعرفي، وانطلاقها من إطار إيديولوجي يحدد هويتها، لا تنخرط أو تُستبعد من قبل الأنظمة العربية أو جهات سياسية، عن معاينة الواقع العربي المأزوم، ونكساته المتتالية التي أجهضت كل المشروعات الداعية لحل أزماته، وفي الوقت الذي يستشير فيه الغرب كبار علمائه ومثقفيه بغية طرح المقترحات التي تسهم في حل مشاكله في السياسة والاقتصاد والاجتماع، تعمل السلطات الحاكمة من المحيط إلى الخليج على تهميش واضطهاد العلماء والمفكرين؛ وعندما تدرك أنظمتنا أهمية ذلك، حينها تأخذ في الاعتبار مدى الإيجابيات التي من المرجح أن تقدمها مراكز الدراسات غير المؤدلجة، خاصة أن عالمنا العربي يعاني من أمراض اجتماعية وسياسية مختلفة، تتطلب إعداد الأبحاث والتقارير التي تجيب في جزء منها عن القلق، الذي ساهم في ازدياد، معدلات البطالة والعنف واستشراء لامبالاة الجمهور بأهمية صنع القرار والتغيير عبر الوسائل الديمقراطية.

عود على بدء: مراكز الدراسات في لبنان
هل تُجيب عن القلق السياسي والمجتمعي؟

منذ انطلاق الشرارة الأولى للحرب الأهلية عام 1975 وامتداداتها المتتالية، شهد المجتمع اللبناني انقساماً عمودياً أظهر حدة الشرخ بين الطبقات المتصارعة؛ والانقسام لم يقتصر على الصراع الطبقي الخفي، لكنه عكس مؤشرات القلق السياسي والمجتمعي البادي على الاضطرابات البنيوية الذي يعاني منها النظام

اللبناني أولاً، وما خلفه من اصطفافات طائفية ثانياً، وما أنتجه من أمراض اجتماعية ونفسية ثالثاً.

نظرياً لم يؤدِ الصراع الدموي الذي عاشه ويعيشه لبنان إلى إحداث تحول في بنية النظام، خاصة إذا أخذنا بالاعتبار أن تاريخ الحروب كالذي حدث في أوروبا إبان القرون الوسطى، بدّل مشهدها السياسي والاجتماعي برمته حين تمّ الفصل بين الدين والدولة؛ طبعاً لا يعني ذلك أن لبنان مطالب في الوقت الراهن في تطبيق نظام علماني، ولكن أهمية ما تقدمنا به يشكل مدخلاً إلى تساؤلنا الأساسي: **هل مراكز الدراسات في لبنان معنية بالقلق المجتمعي والسياسي؟**

الإجابة في حد ذاته تحتاج إلى رؤية أدق وأشمل وإلى مراجعات نقدية تأخذ في الاعتبار الدراسة الميدانية للواقع الذي يعيشه اللبنانيون خلال حقبة تقاتلهم، وما أعقبها من مؤثرات، أنهكت قواهم، ودفعت قسماً منهم للهجرة، وأما الذي بقي أصيب بالجنون، كما ذهب إلى ذلك وزير الخارجية الأميركي الأسبق هنري كيسنجر؛ والحال إزاء هذا الوضع تأتي أهمية مراكز الدراسات في لبنان، التي حصرت اهتماماتها بالهم المعرفي النظري، ولم تقدم تقارير أو أبحاث علمية ميدانية تكشف عن الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والنفسي المأزوم، الذي يطال كافة الشرائح اللبنانية حتى الميسورة منها. فالأزمة الراهنة تتطلب مزيداً من الدراسة السوسيولوجية، هنا يأتي دور مراكز الدراسات في تحديد الأطر لصياغتها والخروج بمقترحات واستنتاجات وفقاً لنظرية **كلود ليفي ستروس النظر، السمع، القراءة**، وتقديمها بالتالي إلى أصحاب القرار ليتم العمل على أساسها.

إلى ذلك لا يمكن إغفال الدور الذي تلعبه مراكز الدراسات في لبنان على صعيد النشر الثقافي والمعرفي، ولكن يبقى غياب دورها في صناعة القرار، عائدٌ بالدرجة الأولى إلى بنية النظام السياسي والاجتماعي الذي لا يهتم عموماً بمثقفيه وعلمائه، الأمر يجعل مساهمتهم في التغيير أقل جاذبية، مع الإشارة طبعاً إلى أن غالبية النخبة فقدت دورها وانجرفت هي الأخرى في أزمات لبنان المتجددة، خاصة أنها لم تصنع حيزاً لنفسها يخولها عدم الذوبان مع غوغاء الجماهير وفساد السلطة الحاكمة، وفي هذا السياق نُحيل القارئ إلى كتاب **سيغموند فرويد** حول **"علم نفس الجماهير"**.

قصارى القول إن الغرب الذي تقدم عنّا بملايين الأشواط، مرد تطوره إلى إعطائه الأولوية لأهمية العقل في إنتاج المعرفة، وبالتالي الإجابة عن معضلاته المجتمعية بطريقة عقلانية؛ في حين أن الشرق الغارق في ماضيه، نسف دور

العقل منذ حربه التاريخية مع فرقة المعتزلة، وتداعياتها اللاحقة على الفلسفة والسياسة والاجتماع؛ وفي حال لم يكن هذا صحيحاً لماذا نستحضر بشكل مستمر الإشكالية المعقدة الذي طرحها شكيب إرسلان: **لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون؟**

***

---

* - باحثة

(1) راجع: قصير، سمير: **تاريخ بيروت**، دار النهار، بيروت، الطبعة الأولى، 2004.

(2) خبيز، بلال: **بيروت المجد العاقر والحرب الولود**، www.alawan.org

(3) الزاوي، أمين: **بيروت مدينة تكتب وتطبع وتقرأ**، www.echoroukonline

(*) الأنتليجنسيا مصطلح بولوني يُقال على النخب الاجتماعية المعرفية والثقافية، ويدلّل على مدى حضور الجماعة نخبوياً في الحضارات العالمية من خلال أطرها الاجتماعية العلمية والثقافية (أهل الفن، التقنيون، الأطباء، المهندسون، المحامون، الأساتذة والمعلمون، الأدباء والكتّاب) باختصار المثقفون الوُعاة. يجري التفريق بين مثقفي السلطة ومثقفي المجتمع، إلاّ أن هذا التفريق يفتقر إلى الدقة، فأين يُصنف مثلاً المثقف الدبلوماسي. الانتلجنسيا ليست طبقة فكرية مندرجة في الانقسام الطبقي أو العمودي لأي مجتمع، بل هي جماعات إبداعية، عاملة ومتوزعة في كل مستويات الحراك الاجتماعي وانقساماته العمودية والأفقية. تُعبر الانتلجنسيا عن وحدة مصالحها تعبيراً معرفياً عامةً، وتنظيمياً خاصة، فنجدها ماثلة في: نقابة أطباء، نقابة مهندسين، اتحاد كتاب، اتحاد فنانين؛ هي جماعات منتظمة عائمة بين المجتمع والدولة، بقدر ما تنتقل من دور الكمون إلى دور الإعلان عن ماهيتها أو ماديتها الأيديولوجية، أي ما تعتبره هدفاً لحياتها الفكرية الخاصة. (راجع: خليل، خليل أحمد: **معجم المصطلحات السياسية والدبلوماسية**، الجزء العاشر، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1999، ص 26).

(4) سلمان، طلال: **بيروت تمطر كتباً وتحتوي القاهرة ودمشق وبغداد وسائر العواصم**، صحيفة السفير، الجمعة 28 آب/ اغسطس 2009 العدد 11381.

(5) صحيفة السفير، الملحق الثقافي، الجمعة 28 آب/أغسطس 2009 العدد 11381.

(6) **الأعوام الثلاثون الأولى في حياة مركز دراسات الوحدة العربية**، مجموعة من الباحثين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص 277

(7) المصدر نفسه، صص 279_280.

(*) بعد السياسة المتوسطية الشاملة (1972_1992)، والسياسة المتوسطية الجديدة (1992_1995)، تأطرت علاقات أوروبا بالمتوسط منذ عام 1995 عبر عملية برشلونة، ففي برشلونة وتحدداً في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1995 تمّ تنظيم المؤتمر الاورو- متوسطي الكبير، وتبني إعلان الشراكة التي وقعت عليها 15 دولة من الاتحاد الأوروبي، و12 دولة من دول فضاء شرق المتوسط منها قبرص ومالطا وتركيا وإسرائيل، و7 دول عربية إضافة إلى السلطة الفلسطينية. ويحدد الإعلان المحاور الرئيسة للشراكة ويقترح الأولويات ويحدد وسائل التعاون ويطرح آليات التفعيل. وفي الإجمال؛ فإن المطلوب هو جعل البحر المتوسط **" منطقة سلام واستقرار واكتفاء"**

من خلال دعم التبادل الاقتصادي وإعادة إطلاق الحوار السياسي، والتعاون الاجتماعي والثقافي؛ ولبلوغ هذه الأهداف اقترح الاتحاد الأوروبي نوعين من الأدوات المالية وهما: موارد الموازنة؛ وقروض المصرف الأوروبي للاستثمار. يقوم رهان برشلونة على سيناريو متفائل، وهو أن: الشراكة سوف تطلق **"ديناميكية صالحة"**، وذلك لأن تفكيك الحماية الجمركية وفتح الأسواق سوف يعرض بلاد المتوسط لمنافسة دولية ستجبرها على اتخاذ إجراءات مُصاحبة تتمثل بـ : الإصلاحات المؤسساتية، وضبط الإدارة، والخصخصة، وتشجيع التعاون الإقليمي، وأخيراً التقليل من دور الدولة المستثمرة لصالح الدولة المنظمة والموزعة. وبالجملة فإن الوصفة الليبرالية الخاصة بالأسواق المتحررة، من شأنها أن تزيد من جاذبية المجال المتوسطي أمام الاستثمارات المحلية والعالمية الخاصة والعامة، ومن شأن هذا أن يساعد بالطبع في جعل المنطقة تنافسية. إن هذا السيناريو المتفائل للاستقرار عبر الاقتصاد يتجاور من وجهة النظر الأوروبية، مع سيناريو آخر متفائل بدوره يُبشر باستقرار يتم عبر الديمقراطية. وهنا فإن النظرية التي تقول بأن التنمية الاقتصادية عبر فتح الأسواق وعرضها للمنافسة العالمية، وجذب الاستثمارات الأجنبية، والخصخصة، وبالتالي خلق فرص العمل المأجور؛ ستؤدي إلى توسيع قاعدة الطبقة الوسطى حاملة التحولات الديمقراطية، وما يترتب على ذلك من موت طبيعي للأنظمة السياسية المغلقة والقبول بالتداول السياسي، واستبدال الأنظمة الحاكمة ووضع نهاية للحالة التي تغذي السلطة المطلقة؛ وأخيراً رسم النهاية للأوضاع الريعية التي تغذي الاستبدادية، فنصل إلى الاستقرار عبر السلام. في الواقع إن عملية السلام الإسرائيلية _ العربية كانت تبدو على السكة عام (1995). وصحيح أن رئيس الوزراء الإسرائيلي أغتيل على يد أحد اليهود لكن خليفته بيريز كان يحظى بمصداقية خاصة في الغرب بوصفه رجل سلام. ومن هنا فإن الاتحاد الأوروبي كان يراهن على أن عملية أوسلو قد انطلقت، وأنها ستستمر حتى تصل إلى نهايتها الطبيعية؛ وهي الاعتراف بدولة فلسطينية ذات سيادة وقابلية للحياة، وأن من واجب الاتحاد الأوروبي دعم هذه الدولة ليس من خلال إغضاب العرّاب الأميركي، ولكن بدعوة الإسرائيليين والفلسطينيين للمشاركة في مؤتمر برشلونة ككيانين منفصلين وسيدين. هذا ما كان عليه الرهان الثلاثي للاتحاد الأوروبي عام (1995): نزع الشرنقة عن الاقتصادات المتوسطية وتحريكها، والمساعدة على التحول الديمقراطي عبر التنمية الاقتصادية، ودعم عملية السلام العربية/ الإسرائيلية. وكان لا بد لهذه التحولات أن تساهم _ كما يرى الاتحاد الأوروبي_ في استقرار الشباب الأورو- متوسطي المشحون، والتأثير في العوامل المحفزة على الهجرة، والتقليل من الاضطرابات الداخلية والخارجية، وهكذا فإن الرهان الأمني كان في قلب منظومة الشراكة التي وضعت في برشلونة عام 1995. (راجع: خضر، بشارة: **أوروبا من أجل المتوسط من مؤتمر برشلونة إلى قمة باريس**، مركز الدراسات العراقية، بيروت، الطبعة الأولى، 2009).

(8) راجع: **الأعوام الثلاثون الأولى في حياة مركز دراسات الوحدة العربية**، م.س، ص 287_303

(*) تُقال على تكتل مصلحي، قوي ومتماسك: تكتل اقتصادي، سياسي، إثني، طلابي، الخ، يشكل ضغطاً سياسياً على الطبقة السياسية، أي على الحكومة من خلال وزرائها أو على المجالس النيابية

من خلال نوابه. الجماعة الضاغطة تُحيل إلى مفهوم اللوبي، أو الجالية أو الطائفة، المنتظمة حول أهداف سياسية سرية أو معلنة. في المجتمعات الديمقراطية تتكاثر جماعات الضغط، على قدر تكتل ذوي المصالح حول مصالحهم العامة، ومشاركتهم في إنتاج النظام السياسي المصلحي المُعبِّر عن تطلعاتهم السياسية / الاقتصادية. تشكل الجماعات الضاغطة واجهة الأنظمة الديمقراطية، ويكون بعضها رديفاً الأحزاب الكبرى القوية، ويكون بعضها الآخر نواة لحزبية جديدة. (خليل، خليل أحمد: معجم المصطلحات السياسية والدبلوماسية، م. س، ص 66).

(**) يمكن أن تُعرف الثينك تانكس على أنها أي منظمة تقوم بأنشطة بحثية سياسية تحت مظلة تثقيف وتنوير المجتمع المدني بشكل عام، وتقديم النصحية لصنّاع القرار بشكل خاص. أما عن نوع القضايا والسياسات المتعلقة بها فهي متعددة بعضها يرتكز على مسألة السياسات الخارجية والعالمية، وبعضها الآخر يتبنى الأبحاث المعنية بالسياسات المحلية بما فيها الملفات الاقتصادية. تتواجد مثل هذه المنظمات بأسماء مختلفة ففي بعض الأحيان تطلق على نفسها مؤسسة، أو معهد، أو صندوق أو وقف Endowment؛ لكن في النهاية تندرج كلها في سياق واحد يتمتع بدور أساسي في عملية صنع القرار خاصة إذا ما قارنا هذا التعريف بأهم المراكز المنتشرة في الولايات المتحدة لعل أهمها مؤسسة راند وكارنيغي.

(9) مراكز البحوث وصناعة التغيير مطابخ لصنّاع القرار وخلايا تفكير الإبداع، شبكة النبأ المعلوماتية، www.annabaa.org

(*) مؤسسة راند أكبر مركز فكري في العالم، مقرها الرئيسي في ولاية كاليفورنيا الأميركية؛ تقوم مؤسسة راند بجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات، ومن ثم تحليلها، وإعداد التقارير والأبحاث، التي ترتكز على قضايا الأمن القومي الأميركي في الداخل والخارج. تُعد راند إحدى المؤسسات الفكرية المؤثرة في المؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة، وهي تدعم توجهات التيار المتشدد في وزارة الدفاع في حقبة جورج دبليو بوش، تصب كثير من الدراسات والبحوث الصادرة عنها في خانة الصراع الحتمي بين الاسلام والغرب (www.islamonline.net).

(10) زيدان، عصام: المراكز البحثية؛ الأهداف الطموحة والحلقات المفقودة، صحيفة إيلاف.

(*) لا يقدم علماء السياسة والاجتماع والادارة تحديداً مبلوراً لعملية صنع القرار السياسي والاجتماعي، وبالطبع لا ينفي هذا أهمية الجهود والمحاولات العلمية والمنهجية التي قدموها، ومدى التقارب والتوافق بين مضامينها، فعَالِم الادارة سايمون يرى أن عملية صنع القرار السياسي أو الاقتصادي تتضمن ثلاثة عناصر: تتمثل في البحث والتقصي من أجل اكتشاف المشكلة وتحليلها، ومعرفة البدائل المرتبطة بها، ثم التفكير والتصميم على وجوب حلها، وأخيراً إجراء المقارنة بين البدائل الممكنة، واختيار البديل الأمثل لقرار حلها. عموماً يخلط علماء السياسة في تحديد وتعريف المسميات والمفاهيم وعلاقاتها، فالبعض يتحدث عن عملية صناعة القرار دون تحديد مراحلها، والبعض الآخر يخلط بين تشكيل القرار وعملية صنع القرار. (راجع: مجلة سبتمبر، الخميس 23 نيسان/ أبريل 2009 العدد 1447).

وسائل الإعلام في بيروت

د. أنطون البيطار*

الإعلام، هو نقل الأخبار اليومية، والأحداث المحلية والعالمية، بطريقة سريعة على شبكات الإنترنت والتلفزيون المرئي والمسموع، والجرائد والمجلات، بواسطة مراسلين محليين وعالميين. وقد تطورت وسائل الإعلام بطريقة التكنولوجيا الحديثة، فأصبحت تتناول الخبر ومواكبته حال وقوعه.

والإعلام هو وسيلة الاداة الاولى للاتصالات في صراع الحضارات، واصبحت القيمة اليوم للصورة المرئية، اذ تراجعت الصحافة المكتوبة امام التلفزيون الذي أخذ دورها بفضل تقنيات الاتصالات الحديثة، المحرك الاساسي الباقي وسائل الاعلام.

وعُرفت كلمة إعلام في مختلف اللغات الأوروبية Information ويعود أصلها إلى الكلمة اللاتينية Informatio ومعناها الإخبار والتوضيح والشرح.

ومصدر كلمة إعلام في اللغة العربية هو فعل أعلَمَ ومجرد الثلاثي عَلِمَ. فإن لفعل أعلَمَ معاني عديدة يدخل معظمها ضمن معنى الإعلام كما نفهمه اليوم «أعلَمهُ بالأمر أي أطلعَهُ عليه، أو أعلمهُ بالنبأ أي نقله إليه»[1].

وبيروت عامة هي الجامع لوسائل الإعلام، جميعها مهمة، وفاعلة تبثّ أخبارها عبر التلفزيون، ومشاهدة الصور الحية ونقلها عبرَ الأقمار الاصطناعية مما يجعلها تنتشر في كل أنحاء العالم.

وبيروت منذ العهد الروماني حتى اليوم هي الحضارة، والفكر، والنهج، والشريعة، والخلق، والإبداع، "سميّت بيروت أم الشرائع" لمنحها معهداً بامتياز رسمي لتعليم الحقوق[2] Privilégium Studii. وقد أنشئت فيها أول مدرسة للحقوق سنة 64 ق.م. وجعلها أباطرة روما مستودع دساتيرهم.

فالجدير ببيروت أن تكتَب اسمها إلى جانب اسم "روما" في صياغة القانون.

وقد وفرّت لنفسها كل مميزات الجامعة بمفهومها الحديث Universitée تنظيماً وأساتذة ومناهج[3].

وقد أصبح لها أهمية بارزة وشأناً كبيراً. فكثُرَ طلبة العلم وازداد عدد السكان والقادمين إليها.

وغير عجيب أن تكون بيروت، بيروت الحضارة، بيروت الحرّية، بيروت القلم، بيروت الكلمة، بيروت الحرف، بيروت القراءة، بيروت الكتاب، بيروت النشر وبيروت الطباعة.

وبيروت في وسائل الإعلام، تواكب التجدد والتطّور، ومماشاة العصر باللغة والأفكار والأسلوب، لاسيما الصحافة اللبنانية حيث تتمتع بخصائص تُميزها عن الصحافة العالمية في الارتباط بنشوئها بالنضال المستمر ودورها في استعادة وإقامة نظام ديمقراطي عصري. وصَوغ دستور يكفل الحريات العامة وبخاصة حُريتي الصحافة اللبنانية، وخصوصاً السياسية منها. وهما جزء من تراث وطني يحرص عليه أصحابها[4].

أما الظاهرة الصحافية، الإعلامية منها، فهي ظاهرة حضارية يفخر بها لبنان. وهي ليست صدفة، بل هي نابعة من يقين أضحى متأصلاً لدى كل لبناني، بأن الحرية هي جوهر لبنان. إنها القيمة الإنسانية التي تُعادل الكيان ذاته. فهو قائم ويستمر ما دامت الحرية فيه مُصانة ومستمرة. وهو زائل حتماً إذا انتفت فيه الحرية أو مسّها اختناق. ينتهي بها إلى لون من ألوان الإلغاء[5]. والصحافة في لبنان هي اكبر شأناً في الشرق، والأقوى سياسياً والأكثر تطوراً تقنياً ومهنياً، والأكثر انفتاحاً على الثقافة العالمية ونقل صحافة العالم إلى القارئ اللبناني.

وحديث الإعلام، هو حديث الحرية في القول والعمل، فإذا كانت للحرية مشكلة متعددة الوجوه، فإن للصحافة وجه رئيسي من وجوهها. وما الحرية في جوهرها إلاّ مزيج من الأمن والعدل. فإن مجتمعاً لا أمن فيه، لا حرّية فيه، وإن مجتمعاً لا عَدل فيه، لا حرّية فيه ولا خير. ومشكلة الصحافي أو الإعلامي، هو حرّية الرأي في التعبير عن الآراء العامة والخاصة في الأحداث المتنوعة من حروب واعتداءات ومشاكل اجتماعية وسواها[6].

والصحافة الإعلامية، سواء كانت في الجرائد أو المجلات أو التلفزة، هي تمثيل وتوجيه للرأي العام واتجاهاته وميوله، تخلق فيه انفعالات وتأثيراً تكون بمثابة تسجيل للأحداث اليومية.

"أما غاية الإعلام الحقيقية فهي إعجاب القراء واستمالة اكبر عدد منهم"[7]. فالإعلام المرئي والمسموع والمكتوب لعب دوراً هاماً في تاريخ لبنان الحديث، وتضاعف نفوذه دفاعاً عن الحرية والديمقراطية.

"أما في الأنظمة الديمقراطية فتبقى وسائل الإعلام حرّة. وفي الديمقراطية الاشتراكية فوسائل الإعلام خاضعة مباشرةً للسلطة"[8].

أما وسائل الإعلام، فتّتمثل بالصحافة لأنها رمز البلاد، ومنبر الحضارة، وأولى مؤسسات الفكر، من خلال تطوّرها. ونَقلت صوتها إلى كل فرد في المجتمع، وبلغات مختلفة نظراً لحرية التعبير الذي يتمتع به لبنان.

وقالَ الصحافي الأستاذ فاضل سعيد عقل في إحدى محاضراته: "تحتّل الصحافة اللبنانية مركز الصدارة في هذا الجهاد المستمر في مجالات الإعلام والإعلان، والتثقيف والدعوة إلى القومية العربية، والدفاع عن الحرية، لأنها فهمت منذ الأساس حقيقة رسالتها. فمنذ ولادتها، فهمتها حرية في إشاعة الآراء والنظريات، فهمتها هيئة اجتماعية، إن كان عليها واجبات فلها حقوقها، فهمتها صدقاً وجرأةً وأدباً وثقافة"[9]. وقامت الصحافة اللبنانية التي أشعّتها بوادر النهضة في الشرق. فتركّزت عليها قمم الانبعاث الفكري في العالم اجمع.

لذلك: فإن كتابة الراديو والتلفزيون والقصص تختلف عن كتابة الصحف والمجلات لأنها تقوم على برامج معيّنة، وتُشكل مادة إعلامية رفيعة تحمل الجمهور على سماع نشرات إخبارية، وبرامج يومية باهتمام زائد لمواضيع متنوعة، منها إعلانات ودعايات للسلع التجارية، وعرض تمثيليات، وقصصاً قصيرة، وأفلاماً أجنبية، منها مُدبلّجة تجذب المستمعين إلى متابعة هذه الفصول.

"فالكلمة المكتوبة هي أكثر دقة وأمانة من الإعلام المرئي والمسموع".

غير أن محطات التلفزة والفضائية بدأت تتأثر بأقوال الصحف وتقدم برامجها على الهواء على الشاشة الصغيرة " لان نموّ التلفزة الهائل وسهولة الدخول إلى الإنترنت اسهما في تراجع القراءة. فصارت هذه البرامج على أهميتها، تبدو وكأنها توحي بإمكانية الاستغناء عن قراءة الجريدة والكتاب، ما تتأثر به كثرة من القرّاء ينصرفون عنها إلى ما يقوله المذيع التلفزيوني"[10].

الإذاعة الأولى في لبنان:

- **إذاعة راديو الشرق:**

كانت التجربة الأولى للإرسال في بيروت من شهر نيسان سنة 1938 موجهة على موجة ضعيفة طولها 288,50 متراً. دشنّها رئيس الجمهورية يوم ذاك الأستاذ إميل اده. فألقى كلمة منها، وجّهها إلى جميع اللبنانيين.

ورأت السلطات الفرنسية أن هذا الجهاز ضعيف لا يقوم بالنتيجة المرجوة، فعمدت إلى إضافته بـ 2 كيلومترات ونصف. واستمرّ الإرسال ثلاثة أيام متتالية. وكان صوت شامباز الفرنسي أول صوت في لبنان يذيع "الو الو هنا راديو الشرق"

وبه يقدّم المندوب العام المفوض السامي السيد "مريه" الذي افتتح الإذاعة. ثم عقبه الرئيس أميل اده[11].

وفي سنة 1946 تسلّم لبنان بشوق إذاعته على عهد رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري. وعيّن محمد صبرا مديراً للدعاية والنشر، وأسندت إلى السيد فؤاد قاسم مهام الإذاعة.

وفي سنة 1953 صدّق مجلس الوزراء على مشروع تنظيم وزارة الأنباء واهتم الرئيس كميل شمعون بالإعلام. وقد وضع حجر الأساس لدار الإذاعة الكبرى في محلة الصنايع بحضور الرئيس عبدالله اليافي، والنائب بشير الأعور والجنرال فؤاد شهاب والشيخ منير تقي الدين، والنائب الهراوي والوزير بيار اده.

وفي هذه الأثناء استبدل الاسم "باسم الإذاعة اللبنانية" وقد تلا أول بيان رسمي من الإذاعة الأستاذ نجيب إليان. وقد كان عضواً في اللجنة التي تولت عملية التلزيم سنة 1957. وقد عُيّن مديراً فرئيساً للديوان. وقد تابعت هذه الإذاعة نشاطها بفضل جهوده المشكورة. وتعاقب عليها مدراء عامون منهم: حسن الحسن، كاظم الحاج علي، د.مناف منصور، د.عبد الكريم سنو، فؤاد حمدان، غسان فلحه.

وممن مروّا على مديرية البرامج في الإذاعة السادة: نبيل خوري، كميل منسى، نزار ميقاتي، نبيل غصن، ثم د.فكتور سحّاب.

وبعد تزايد التسجيلات تألفت لجنة في الإذاعة من: فؤاد حمدان، نبيل غصن، توفيق الباشا، انطوان فرح، محمد فتوّح، مارون كرم، أنور سلمان، جورج عبده، سليم الطبّاع. ومن مهندس الصوت زهير سمهون ثم نزار الحر، لإبداء الرأي في التسجيلات واختيار الأفضل منها.

أحدثت الصحافة اللبنانية تغييراً كبيراً في الحياة الاجتماعية قبل ظهور التلفزيون وتطور شبكة التلغراف. وظهرت الإذاعة لتدخل وسائل الإعلام في عصر الحدث المباشر، ثم أكملها التلفزيون بتنظيم جهاز إعلامي رائد أعطى البث المباشر أهمية متزايدة للصورة والصوت.

وزارة الأنباء

وفي عهد رئيس الجمهورية اللبنانية الأستاذ كميل شمعون تعيّن الأستاذ اسعد الأسعد مديراً للأنباء، وأصبحت الإذاعة خلال الانتداب الفرنسي وبعده الناطق الرسمي بالدولة اللبنانية. وقد نهضت نُخبة من ألمع الوجوه الأدبية والعلمية، الذين

أدوا خدمات جُلى في الحقل الإذاعي، وبقيت تعمل وفق سياسة العهد وما يفرضه الواقع الحكومي.

وأنشئت وزارة الأنباء عام 1949 وكانت مهمتها الإشراف على دوائر الدعاية والنشر، والقيام بوظيفة الإعلام والإرشاد والتوجيه.

وفي سنة 1949 تألفت أول وزارة للأنباء، ترأس عليها الأستاذ شارل الحلو، ثم عُين سفيراً في الفاتيكان، وفيما بعد أنتخب رئيساً للجمهورية اللبنانية. وفي عهده وُضعت الأسس اللازمة للأعمال الصحفية.

وفي عام 1959 صدر تنظيم جديد لوزارة الأنباء. أُطلق عليها اسم "وزارة الأنباء والإرشاد" جعل من هذه الوزارة – "وزارة الإعلام"، بكل ما في الكلمة من معنى. ومن مهامها: "إطلاع الرأي العام على الأحداث الداخلية والخارجية وتوجيهه وتنويره وتعريف لبنان إلى العالم والدعاية لمرافقه".

وهذا التنظيم الجديد شمل الإذاعة والسينما ودور النشر ووكالات الأنباء المحلية والأجنبية كما كانت تهتمّ بتوزيع نشرات وتعليقات يقوم بتدبيجها نخبة من رجال العلم والآداب. وقد أولت الصحافة اهتماماً خاصاً بنقل أخبار اللبنانيين إلى الخارج في ديار الاغتراب ومنها إلى لبنان.

وقد تكوّن جهاز الإذاعة في وزارة الأنباء من السادة: الأستاذ اسعد الأسعد مديراً، الأستاذ نجيب اليان رئيساً للديوان، الأستاذ سليم أبو جمره رئيساً للمطبوعات، الأستاذ فؤاد أبو شهلا رئيساً للدعاية، والأستاذ فؤاد القاسم رئيساً للإذاعة والأستاذ حليم الرومي رئيساً لقسم الموسيقى.

أما الذين ثُبتوا في مراكزهم فهم السادة: غنطوس الرامي، فيليب كتسفليس، ميشال خياط، سعيد شيخاني، جورج رحباني، ايلي نجيم، زياد عواد، يوسف لبكي، حسين صبرا، إميل غصن، شفيق قرداحي، عبد الرؤوف شبارو، رينه فخري، شفيق ضاهر، يوسف يزبك، نجيب شهاب، ساميه جنبلاط، عادل يونس، اسعد سابا، عبد الجليل وهبه، وعُيّن الزعني مستشاراً فنياً.

وعندما عُيّن الأستاذ محيي الدين النصولي وزيراً للأنباء، طلب من رئيس الوزارة صائب سلام أن يضع في صُلب البيان الوزاري مشروع الإذاعة. وبالفعل جاء البيان الوزاري كما يلي: "ثمّة مؤسسة ثقافية لها أهميتها بين الأمم مؤسسة تعمل ليلاً ونهاراً. تؤدي رسالتها ولا تصل لبنان المقيم بلبنان المغترب والبلدان العربية، فمن واجبنا أن نجد داراً للإذاعة نُسمع بواسطتها صوتنا للعالم، ونشدّ

إخواننا المغتربين إلينا، وتشدّنا إليهم الروابط المتينة. فنتعاون على العمل بين لبنان المقيم والمغترب".

وحققت الإذاعة اللبنانية خطوات كبيرة نحو إيجاد تعاون وثيق بينها وبين إذاعات الدول الأوروبية والأفريقية والآسيوية، وتمكّنت خلال سنوات قليلة من إيصال صوتها إلى أوروبا وأفريقيا والأميركيتين من جعل لبنان قبلة أنظار شعوب تلك القارات. فتضاعف زوّاره وسواحه على الربوع اللبنانية وما حققه من نهضة على كل صعيد وفي كل حقل.

ثم جاء تنظيم عام 1961 الذي أطلق عليها اسم "وزارة الإرشاد والأنباء والسياحة" وحدّد مهامها بإعلام الرأي العام واقتراح تطبيق السياسة الأنبائية والتوجيهية للبنان في الخارج، وإنماء وتنشيط الإذاعة اللبنانية، وتنشيط السياحة. وقال الأستاذ حسن الحسن، المدير العام للإذاعة اللبنانية في محاضرة ألقيت في الندوة اللبنانية بتاريخ 13 شباط 1965: "الإعلام سلطة وفن، وتقنية جديدة، مقال وصورة، وافتتاحية ورسم، وتعليق، وخبر. ثورة بيضاء عاقلة فاعلة، معركة سلاحها الثقافة والتربية والتطور والحضارة، ميدانها الرأي العام. وهدفها الانتصار على التخلف والجهل وتطوير الفكر لخدمة البشر والإنسانية".

وتعاقب على وزارة الأنباء الوزراء السادة: شارل حلو، جبران نحاس، إدوار نون، محمد صفي الدين، حسن العبد الله، محيي الدين النصولي، عبد الله اليافي، خليل أبو جودة، فريد قوزما، سامي الصلح، كلوفيس الخازن، رياض الصلح، فيليب بولس، موريس زوين، موسى كنعان، رشيد كرامي، ميشال الخوري، غسان تويني، محمد صبرا، فيكتور قصير، محمود عمّار، البير مخيبر، روجيه شيخاني، أدمون رزق، جورج سعاده، البير منصور، شارل رزق، فريد مكاري، عصام أبو جمره، ايلي الفرزلي، مروان حماده، باسم السبع، ميشال سماحه، غازي العريضي وطارق متري.

وبموجب اتفاق الدول العربية أبدلت تسمية هذه الوزارة باسم "وزارة الإعلام" الإذاعة الرسمية في لبنان وقد حرصت على جمع الكلمة اللبنانية بالرغم من التيارات السلبية المختلفة التي عصفت بأبنائه وحاولت شقّ الصف اللبناني الواحد.

غير أن الإعلام ودوره الفعّال على صعيد الرأي العام هو إظهار لبنان الحقيقي المحب للأمن والسلام والتعايش الأخوي في جميع ربوعه.

وقام تعاون عام بين الإعلام الرسمي والخاص وبين المراسلين والمخبرين وممثلي وسائل الإعلام الأجنبي والوطني للحصول على المعلومات الصحيحة.

أما العهد الجديد للإعلام في لبنان فكانت أولى خطواته في المرسوم الاشتراعي رقم 1 سنة 1977 الذي فرض الرقابة المسبقة على وسائل الإعلام جميعاً. وصولاً إلى المصادرة والتوقيف والإلغاء. وأتبع ذلك المرسوم الاشتراعي رقم 104 سنة 1977 الذي شدّد القبضة الإدارية والقضائية، على وسائل الإعلام والصحفيين اكثر مما كانت عليه في قانون سنة 1962 فرفضته الصحافة وكل القوى الوطنية .

وبعد اتفاق الطائف تغيّر أسلوب العهد الإعلامي العربي. فأتخذ شكل تنظيم للإعلام السمعي والبصري والاستيعاب للصحافة بطريقة أو بأخرى. بالإضافة إلى الأقلام الصحافية، والمراسلين، والصحف، والمجلات، والكتب المختلفة التي تعالج أوضاع الأحداث في لبنان منذ سنة 1975. وهذه كلها وسائل إعلامية ناطقة باسم كل فئة من الأحزاب اللبنانية المتعددة الانتماءات المختلفة النّزَعات والأهواء.

"وفي عام 1991 تكاثرت وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة. بعد استقرار الحالة الأمنية حتى اصبح عدد المطبوعات حوالي 1200 مطبوعة منها 50 صحيفة يومية. وارتفع عدد محطات الإذاعة إلى 116 محطة. بينما وصل عدد محطات البث التلفزيوني في جميع أنحاء لبنان إلى 55 محطة. وكان من الطبيعي أن تشهد الساحة اللبنانية ازدياداً مضطرداً في عدد شركات الإعلان حيث بلغ عددها حوالي 208 شركة ووكالة"[12].

وفي هذه المرحلة من الأحداث المؤلمة تعدّدت الإذاعات والتلفزيونات. مما جعل الإعلام في انقسام، وبسطت كل محطة فرعية سيطرتها لتكوّن منها محطة بث خاصة بها. كما قامت محطات غير شرعية كجزء إعلامي سياسي في الحرب اللبنانية.

الإذاعات – التلفزيونات:

– الإذاعات:

أما الإذاعات فهي التالية: إذاعة صوت لبنان ناطقة باسم حزب الكتائب، إذاعة لبنان الحر ناطقة بأسم القوات اللبنانية، إذاعة صوت لبنان الحر الموحد ناطقة بأسم المردة. إذاعة صوت لبنان العربي ناطقة بأسم المرابطون، إذاعة صوت الجبل ناطقة بأسم الحزب التقدمي الاشتراكي، إذاعة صوت الوطن ناطقة بأسم المقاصد الاسلامية، إذاعة صوت الامل ناطقة بأسم الشريط الحدودي، إذاعة صوت الحق، إذاعة صوت المحبة، إذاعة الموسيقى، إذاعة صوت الشعب، إذاعة جبل لبنان، إذاعة صوت السلام، إذاعة الزهور، المؤسسة الإذاعية الشبكة الوطنية للارسال،

إذاعة صوت فان، إذاعة الحرية، إذاعة الفجر للاعلام، إذاعة العالمية للبث، إذاعة صوت الغد، إذاعة سوميرا بيروت، إذاعة صوت بيروت ولبنان الموحد، اذاعة دلتا، إذاعة راديو هللويا MBS، إذاعة صوت النجوم، إذاعة نوستالجي، إذاعة هيت أف أم، إذاعة أصداء، إذاعة صوت الحب، إذاعة فرانس اف ام. إذاعة لايت أف أم، إذاعة ستراتيك، إذاعة إكو لبنان، إذاعة سيال اف ام، إذاعة 3 ام ماجيك، إذاعة ميوزيك انتربرايز، إذاعة القرآن الكريم في لبنان، إذاعة البيان، إذاعة باكس نتورك، إذاعة غروب اف ام، إذاعة نايري، إذاعة راديو وان، إذاعة لا اون، إذاعة ساوند اوف ميوزك، إذاعة لبنان الاخضر، إذاعة ميكس أف أم، الإذاعة اللبنانية المتحدة للإعلام، الاذاعة الدوليّة للمشاريع الإعلامية، إذاعة ميراج، إذاعة الوحدة، إذاعة راديو رويال ش.م.ل.، إذاعة صوت بيروت، إذاعة صوت الفن، إذاعة صوت النغم، إذاعة لبنان العربي، إذاعة الشرق، إذاعة النور، إذاعة نجوم لبنان، إذاعة البشائر، إذاعة Spirit Channel voice of way.

- **التلفزيونات:**

وقد صدرت مراسيم تتعلق بالتلفزيونات أهمها:

. مرسوم رقم 770 تاريخ 30-12-1977: إنشاء تلفزيون لبنان شركة مغفلة مختلطة قنال 7-9 و 5-11.

. مرسوم رقم 1095 تاريخ 21-3-1978 تصديق النظام الاساسي لشركة تلفزيون لبنان.

. مرسوم رقم 2088 تاريخ 21-6-1979 تحويل جميع حقوق البثّ التلفزيوني من شركة التلفزيون اللبنانية إلى تلفزيون لبنان ومنح تلفزيون لبنان حقّ البثّ على الأقنية التلفزيونيّة.

. مرسوم رقم 3372 تاريخ 8-8-1980 تنظيم مهام مفوّض الحكومة لدى شركة تلفزيون لبنان والرقابة عليها.

. مرسوم رقم 4536 تاريخ 23-11-1981 تجديد تعيين الأعضاء ممثلي الدولة في مجلس إدارة تلفزيون لبنان من السادة: شارل رزق، رضوان مولوي، خليل تقي الدين، يوسف تقلا، جورج عسيلي، فاروق محفوظ عضواً ممثلاً للدولة في مجلس إدارة تلفزيون لبنان، شركة مغفلة مختلطة لمدة ثلاث سنوات.

. مرسوم رقم 4945 تاريخ 13-3-1982 تجديد تعيين رئيس مجلس إدارة مدير عام تلفزيون لبنان الدكتور شارل رزق رئيساً لمجلس الإدارة مديراً عاماً لتلفزيون لبنان لمدة ولاية عضويته عضواً في مجلس الإدارة.

. مرسوم رقم 497 تاريخ 26-4-1983 تعيين الأعضاء ممثلي الدولة في مجلس إدارة شركة تلفزيون لبنان من السادة:

موسى كنعان، محمد الداعوق، ريمون جبارة، غازي حلبي، عبد الله زحيل، عفيف رمضان، ممثلاً للدولة في مجلس شركة تلفزيون لبنان لمدة ثلاث سنوات.

. مرسوم رقم 575 تاريخ 13-5-1983 تعيين رئيس مجلس الادارة المدير العام لشركة تلفزيون لبنان السيّد موسى كنعان طيلة مدّة عضويته.

. مرسوم رقم 55 تاريخ 3-2-1990 تعيين أعضاء ممثلي الدولة في مجلس إدارة شركة تلفزيون لبنان من السادة:

جورج وديع سكاف، نسيم شفيق الخوري، رضوان مولوي، باسم أحمد السبع، فؤاد بدوي عبيد، وليد نديم شقير، لمدة ثلاث سنوات. ثم صدر مرسوم رقم 94 يقضي بتعيين جورج سكاف عضو مجلس الادارة مديراً عاماً لشركة تلفزيون لبنان وذلك طيلة مدّة عضويته في مجلس الإدارة تاريخ 14-3-1990.

. مرسوم رقم 3122 تاريخ 27-1-1993 تعيين ممثلي الدولة في مجلس شركة تلفزيون لبنان شركة مغفلة مختلطة مؤلفة من السادة:

فؤاد نعيم، علي حسين عبدالله، ابراهيم فهيم الخوري، وليد شقير، يوسف سليم تقلا، اسامة العارف أعضاء لمدة ثلاث سنوات على عهد فخامة رئيس الجمهورية الياس الهراوي.

. مرسوم رقم 3135 تاريخ 30-1-1993 تعيين مجلس إدارة مدير عام شركة تلفزيون لبنان السيد فؤاد نعيم طيلة مدة عضويته في مجلس الادارة.

. مرسوم رقم 9172 تاريخ 1996 قبول إستقالة رئيس مجلس إدارة مدير عام شركة تلفزيون لبنان السيد فؤاد نعيم وتعيين بديلاً عنه السيد جان كلود بولس.

. مرسوم رقم 1084 تاريخ 27-3-1997 منح تلفزيون لبنان ش.م.ل. الترخيص وحق التأجير لقناة بث واستقبال الصورة المرافقة للصوت بواسطة المحطات الارضية العائدة لوزارة البريد والمواصلات السلكية واللاسلكية.

. مرسوم رقم 10056 تاريخ 21-3-1997 الترخيص لشركة تلفزيون المستقبل.

. مرسوم رقم 10057 تاريخ 21-3-1997 الترخيص لشركة المؤسسة اللبنانية للإرسال انترناسيونال ش.م.ل. LBC.

. مرسوم رقم 10058 تاريخ 21-3-1997 الترخيص لشركة تلفزيون المر MTV.

. مرسوم رقم 10059 تاريخ 21-3-1997 الترخيص لشركة تلفزيون الشبكة الوطنية للإرسال.

. مرسوم رقم 10083 تاريخ 27-3-1997 تأجير قناة بث فضائية لكل من شركة تلفزيون المستقبل ولشركة المؤسسة اللبنانية للإرسال انترناسيونال.

. مرسوم رقم 10083 تاريخ 27-3-1997 منح تلفزيون لبنان الترخيص وحق التأجير لقناة بث واستقبال الصورة المرافقة للصوت.

. مرسوم رقم 13312 تاريخ 31-11-1998 تحديد أقنية البث التلفزيوني في نطاق UHF لمؤسسة تلفزيون لبنان.

. مرسوم رقم 13313 تاريخ 31-11-1998 تحديد أقنية البث التلفزيوني في نطاق UHF لشركة تلفزيون المستقبل ش.م.ل.

. مرسوم رقم 13314 تاريخ 31-11-1998 تحديد أقنية البث التلفزيوني في نطاق UHF لشركة المؤسسة اللبنانية للإرسال انترناسيونال ش.م.ل.

. مرسوم رقم 13315 تاريخ 31-11-1998 تحديد أقنية البث التلفزيوني في نطاق UHF لشركة MTV مرّ تلفزيون ش.م.ل.

. مرسوم رقم 13316 تاريخ 31-11-1998 تحديد أقنية البث التلفزيوني في نطاق UHF الشبكة الوطنية للإرسال ش.م.ل.

. مرسوم رقم 12436 تاريخ 7-7-1998 تجديد ولاية أعضاء مجلس إدارة شركة تلفزيون لبنان لمدة سنة من السادة:

جان كلود بولس رئيساً ومديراً عاماً، اما الأعضاء فهم: وليد شقير، ابراهيم الخوري، علي عبد الله، أسامة العارف، يوسف تقلا.

. مرسوم رقم 2262 تاريخ 24-1-2000 تعيين خمسة أعضاء في المجلس الوطني للإعلان المرئي والمسموع إبتداءً من 2-6-1999 لمدة ثلاث سنوات من السادة : د. الياس الحج، عماد الترك، حسن حماده، طارق ترشيشي، غازي حداد.

. مرسوم رقم 3964 تاريخ 2-10-2000 شركة تلفزيون الجديد NEW TV، تلفزيون المشرق المتحدة ش.م.ل. 23-8-1999 شركة تلفزيون LCNL 23-8-1999.

. مرسوم رقم 1384 تاريخ 30-9-1999 تعيين السيد بشارة قوتلي عضواً في مجلس إدارة تلفزيون لبنان بدلاً من العضو المستقيل الدكتور روحي بعلبكي.

. مرسوم رقم 2868 تاريخ 27-4-2000 قبول إستقالة رفيق خليل نصرالله من مجلس شركة تلفزيون لبنان.

. مرسوم رقم 7442 تاريخ 19-2-2002 تعيين السيد أديب فرحه عضواً في المجلس الوطني للاعلام المرئي والمسموع، تلفزيون N.B.N، تلفزيون A.B.N.، تلفزيون المنار، تلفزيون Télélumière et Noursat، تلفزيون Orange OTV 2007 الناطق باسم التيار الوطني الحرّ، تلفزيون Sat 7.

وكالات الأنباء في لبنان

"وكالات الأنباء، مؤسسات حديثة العهد نسبياً، مهمتها الرئيسية جمع الأخبار وإعادة توزيعها على مشتركيها وبصورة عامة على وسائل الإعلام الجماهرية".

أهمّها:

الوطنية للإعلام، الأنباء المركزية، الاتحادية للأنباء، أنباء بيروت، الأنباء الدّولية، أخبار لبنان، أخبار اليوم، أخبار المقتطفات، العامّة للأنباء، الأنباء اللبنانية، اللبنانية للأنباء، الأنباء الصحفيّة، الجمهورية الإسلامية للأنباء، الاتحاد الكاثوليكي للصحافة اوسيب لبنان UCIP Liban، المركز اللبناني الإعلامي للدراسات والأبحاث، مركز الإعلام المركزي، مركز الإعلام الأرمني، المركز الكاثوليكي للإعلام، مركز الدراسات والأبحاث المشرقية، المركز اللوثري، cedrac مركز التراث العربي المسيحي للتوثيق والبحث والنشر، المركز المسيحي للإعلام والنشر CCIP.

ولا بدّ لي في هذا المجال من إبداء الرأي التالي:

من المستحسن الإنفاق على اتحاد وكالات الأنباء المحليّة والعربيّة، وتعزيز التعاون والتضامن في ما بينها، وتنسيق وتوحيد مواقفها مع وكالات الأخبار العالميّة وتسويق الخبر العربي إلى مختلف أنحاء العالم.

الراديو والتلفزيون

حققت الصحافة اللبنانية بظهور الإذاعة هدفاً أساسياً هو نقل الخبر، ثم انتشرت هذه الظاهرة في الثمانينات مع تكاثر محطات الأقمار الاصطناعية والمحطات الإذاعية في المؤسسات الإعلامية، وتطورت أشكال جديدة للإعلام المتواصل ترتكز أهمية البث المباشر على عوامل عديدة أهمها: "انه يتيح برأي الاختصاصيين متابعة تاريخ الأحداث مباشرة"[13].

وظهر التلفزيون عام 1930، ووصل إلى لبنان عام 1950. وكانت بيروت اول بلد في الشرق عرف التلفزيون على قنالين 7 و 11 وقنالاً ثالثة في خدمة لبنان والثقافة الفرنسية. واصبح مؤسسة خاصة بين القطاعين العام والخاص.

وفي أوائل الثمانينات تطوّرت وسائل الاعلام واحدثت تغييرات في المؤسسات الاعلامية وتحولت تكنولوجيا المعلوماتية إلى حدث هام في صناعة الصحف واساليب الكتابة الصحفية. وأصبحت مرجعاً هاماً بنقل الخبر وتسريعه عبرَ برامج مقررة وفي ساعات محددة، منها مقابلات سياسية، ومسرحيات اجتماعية، واعلانات تجارية، وبرامج تثقيفية وتربوية وترفيهية، ورياضية، وافلاماً اجنبية مدبلجة "تُجسد رؤية حقيقية في المشهد وتقرّبه إلى ذهن المشاهد فيأتي التعبير اكثر قدرة واشدّ تكريساً للواقع"[14]. وصار التلفزيون مرجعاً للصحفيين الذين يعودون في تحقيقاتهم إلى صوره وتقاريره المصوّرة.

والإعلام مؤسسة قائمة بذاتها لها وضعها القانوني والبشري والاقتصادي والتقني، وتختلف عن سواها في المؤسسات الصناعية، والثقافية، والتربوية، والعلمية. اما الجريدة والمجلة والاذاعة والتلفزة فيمكن ان تكمّل عمل المدرسة والجامعة، ولكنها تختلف عنهما هدفاً وأسلوباً[15].

وتجدر الإشارة، إن بعض وسائل الإعلام اللبنانية مرئية ومقروءة ومسموعة لفرقاء سياسيين، وأحزاب سياسيّة فاعلة في (سياسة لبنان). بات من الملحّ إلقاء الضوء عليها خصوصاً في هذه المرحلة من عمر لبنان، حيث زُجّ الإعلام في معركة سياسية صاخبة فئوية، حزبيّة وطائفيّة خرجت عن حيادها الإعلامي بتجريح للآخرين، فتحولت أبواقاً لهذه الجهة أو تلك، وابتعدت في الوقت نفسه عن الضوابط الاخلاقية والإجتماعية والإعلامية خلاف ما تنصّ عليه القوانين.

أما نقل الأخبار المغلوطة، والمجتزأة فهو تضليل واستخفاف بالجمهور ويسيء إليه وإلى الحقيقة في آن. هذه الحريّة اللامسؤولة تؤدي بالبلاد إلى حال من الفوضى، فتصبح غير ملزمة بمبادئ الإعلام التي على أساسها تمّ إعطاء الترخيص.

والإعلام اللبناني، مدعوّ إلى تجاوز أخبار السياسيين وتصريحاتهم وسجالاتهم وتفضيل مصلحة الوطن على الجميع. لان الإعلام معنيّ مباشرة على تغطية الأحداث في القطاعات السياسية، والبيئية، والاجتماعية والثقافية، من نشر أخبار متنوّعة ودقيقة عن الأحداث المحلية والعالمية بجميع الوسائل الإعلامية.

إن الحرية في وسائل الإعلام، فاعلة بجوهرها، ساعية دائماً للحقيقة، ونقلها على شبكات التلفزة والإنترنت وسواها. وعلى الإعلام أن يبقى نزيهاً لا تشوبه المصالح الشخصية. وعلى القائمين عليه أن يحترموا كرامة الإنسان وحقوقه وحرمة اللغة وقواعدها[16].

والإعلامي مسؤول في الدفاع عن الصحافة، وان يشجّع حرية التعبير. وعليهِ مراعاة حقوق النشر والبثّ على شبكة الإنترنت كما هي الحال مع وسائل الإعلام الأخرى[17].

أما الإعلامي الناجح، فيمحّص الحدث (يحلّله) بقيمّه. ويستنطقه لتبيان الحقيقة بعيداً عن أي انتماء سياسي، أو ارتباط ديني، أو التزام عقائدي وهو من خلال خبرته وتمرّسه في إعداد وتقديم ما هو افضل من برامج تلفزيونية، وتحضير هذه البرامج، والمسلسلات التلفزيونية الناجحة، التي تُسيطر على حياة الناس اليومية، فتجذب المشاهدين من جميع شرائح المجتمع كباراً وصغاراً. لأن الإعلام الصالح يكون في خدمة الشعب، وهو من الثوابت الحضارية التي تخدم أهداف الديمقراطية، والتي تميّزَ بها لبنان.

والملاحظ أن العنصر النسائي في مجال الإعلام قد اثبت مقدرة المرأة كعنصر فعّال في المجتمع.

أما التكنولوجيا الحديثة فمن أهم مظاهرها (التلفزيون) بمختلف جوانب التقاطه، وبثّه للإعلام على مستوى ما هو ارضي، وما هو فضائي. ينقلُ الصورة إلى المشاهد أينما كان وفي كل مكان. وقد تطور هذا الاختراع العجيب باعتماد الأجهزة الإلكترونية في بث الأخبار، والأحداث بطريقة سريعة ومباشرة، ونقل الصور ملوّنة، وعلى فضائيات مختلفة، بواسطة الستليت والأقمار الاصطناعية، وأشعة الليزر، وذلك على صفحة مبثوثة على إحدى قنوات التلفزيون.

ومن الاكتشافات الحديثة الكمبيوتر والإنترنت والخليوي أي الهاتف النقّال الذي أحدث ثورة في عالم الاتصالات وقيامه بعدّة ادوارٍ في التخابر، فأصبح يجمّع الإعلام المرئي والمسموع والمقروء في آن. فقد حلّ الانترنيت محل التلغراف والهاتف والمخبر الإعلامي والكتاب.

أما هذه التقنية، فباستطاعة أي شخص الدخول إلى عالم الثقافات المتعددة والمتنوّعة، وبكبسة زر صغيرة على شاشة الكمبيوتر يملك مصدراً هاماً لكمية هائلة من المعلومات، فيحصل على المواضيع المطلوبة وبسرعة فائقة، مع العلم بأن الانترنيت في موقعه الإلكتروني يواكب الحضارة في عالم الحاضر وثقافة المستقبل. فتصبح ثقافات العالم بين أيدينا وأيدي الجيل الجديد في مواكبة العولمة المتطورة. وخاصةً إنجاز حفظ المعلومات وتعدد القنوات التي يصل إليها المشاهد بواسطة اشتراكات بشبكات كابلية أو باقات رقمية. فدخول المعلوماتية إلى غرف التحرير أثرٌ كثيراً على صناعة الصحف وأساليب الكتابة.

هـذه الاكتشـافات الحديـثة مسـتمرّة ما دام هناك عقل مفكّر لتطوير وسائل تكنولوجـية وتقدم العلم يضفي على الحياة الاجتماعية تسهيلات تؤول بالخير والنفع على المجتمع الإنساني.

إن وسائل الإعلام الحديثة وتطور تقنيات التلفزيون على الصحافة، تعطي أهمية اكـبر للعناصر المرئية في إخراج الصحيفة وتأثير الأساليب التحرّرية في الصحافة المكتوبة وإمكان الاستفادة من الطرق السريعة للمعلومات.

والصحافة اللبنانية من أبرز رموزها الحرّية. ونموذجاً للبنان الديمقراطي.

والإعلام كلمة حرّة، احتلّت صفحات الجرائد والمجلات، والإذاعات، ومحطات التلفزة والانترنيت والكمبيوتر في جميع مجالات العمل.

وكلمـة إعـلام سـلاحها الفكـر، والـثقافة ونشر الأخبار الصحيحة والتطور الحضـاري، وهو لا يزال في طليعة النهضة الإعلامية الراقية، وهمزة وصل بين المواطنين.

ويـبقى الإعـلام اللبناني مهما تعدّدت التيارات، عُنصر خير، ومحبة، وسلام، ودعوة انفتاح، وتضامن، وتعزيز العلاقات الأخوية بين لبنان وخارجه.

ونجـد بـيروت الحضـارة "عاصمة عالمية للكتاب"، عاصمة الطباعة، ورائدة النهضـة الحديـثة، مـن تأليف وإخراج، ورفع مستوى الطباعة والنشر بالوسائل المخـتلفة، تستورد وتصدّر صناعة الكتاب. وقد اسهم اللبنانيون من خلال مطابعهم ومنشـوراتهم وجرائدهم ومجلاتهم وكتبهم، إيصال قلمهم باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية إلى الدول الأوروبية والأميركية وسواها.

وتكـريم بـيروت عاصمة عالمية للكتاب، حدث عالمي يفخر به اللبنانيون في احـتفالات، ونشـاطات الكتاب طيلة 2009، وفي كل عام. ولا سيما المشاركة في المعـارض الدولـية، والمناسبات الثقافية. وبذلك تبقى بيروت مهد الحضارات في العالم.

---

* – أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية، ومؤرخ.

[1] – **الأب لويس سماحه:** الإعلام المرئي، الأهمية، الأخطار، منشورات الاتحاد الكاثوليكي العلمي للصحافة، لبنان، ص 77.

[2] – **المحامي أميل البجاني:** القانون الروماني، عصوره، مصادره، أصوله، معهد بيروت للحقوق 1984، ص 284.

[3] – المرجع ذاته: ص 28

[4] – **معالي الوزير جورج سكاف نائب نقيب الصحافة:** مجلة الصحافة اللبنانية عدد 52 سنة2004، ص 8.

---

[5] – **محمد البعلبكي نقيب الصحافة اللبنانية من مقال "ظاهرة حضارية يفخر بها لبنان":** الصحافة اللبنانية عدد 52 آب 2004، ص 3.

[6] – **الـياس إبراهيم بدوي:** مشكلة صاحب الجلالة، مطبعة البصير، الإسكندرية، دون تاريخ، ص 6-7.

[7] – **د. أنـيس مسلّم:** حرية الصحافة والأنظمة السياسية– كلية الإعلام والتوثيق، بيروت 1982، ص 5.

[8] – **د. أنيس مسلّم:** المرجع ذاته، ص 5.

[9] – **محاضرات الندوة:** سنة 4 نشرة 1-2، ص 12- 35.

[10] – **د. أنـيس مسلّم:** خطران يهددان الكتاب والجريدة – الصحافة اللبنانية، عدد4، 2005، ص 15.

[11] – **فايق الخوري:** ذكريات صحفية خلال 50 سنة، لبنان 1980، ص 168- 169.

[12] – **مجلة اللمعان:** الإعلانات المتلفزة في لبنان عدد 6 سنة 1994، ص 13 – 14.

– **منـير سـعد الدين:** مجلة الأبحاث التربوية لكلية التربية الجامعة اللبنانية بيروت، رقم 20 سنة 1997 ص 10 – 11.

[13] – **د. مـي العـبدالله، رئيسة قسم الصحافة في كلية الإعلام والتوثيق الجامعة اللبنانية:** ثورة الإعلام– الصحافة اللبنانية عدد 52 سنة 2004، ص 15.

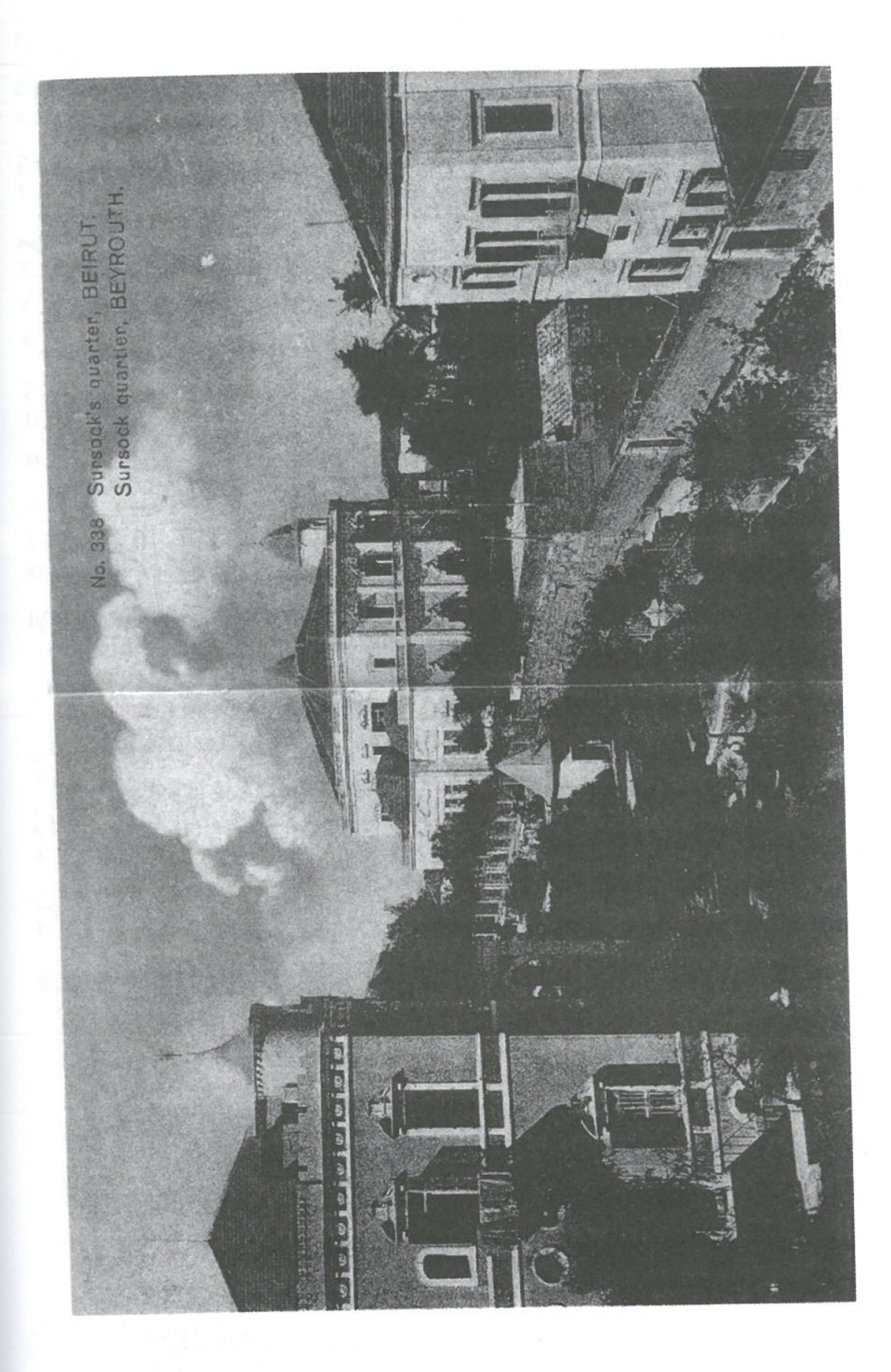
- Dayand et Katez: La télévision cérémonielle. Arthropologie et histoire, paris PUF. La politique éclatée 1996.

[14] – **د. جـورج سـكاف:** حـرية الإعلام في لبنان بين الماضي والحاضر الإعلام قانون زتنظيم وخلقية، جامعة سيدة اللويزة 1996/11/15، ص 26.

[15] – **د. أنـيس مسلّم:** وسائل الإعلام بين الرأي العام والإرادة الشعبية، التعاونية اللبنانية للتأليف والنشر. مطابع الأباء البولسيين. جونيه سنة 1985، ص 16.

[16] – **د. أنـيس مسلّم:** خطران يهددان الكتاب والجريدة – الصحافة اللبنانية عدد 54 سنة 2005، ص 15.

[17] – **د. مـاجدة أبـو فاضل مديرة معهد الصحافيين المحترفين – الجامعة اللبنانية الأميركية – بيروت:** أخلاقيات العمل الإعلامي، الصحافة اللبنانية، عدد 52 سنة 2004، ص 21.



بيروت والفنون التشكيلية

د. محمد شرف*

تتميز المدن الكبرى عن سواها بقدرتها على احتواء أنواع مختلفة من النشاطات الثقافــية والفنية، تُضاف إلى دورها الأساسي كمراكز إدارية وسياسية واقتصادية، كونها مؤهلة لتأمين فرص العمل لشرائح كبيرة من السكان، وهو الأمر الذي تعجز عنه، أحياناً، القرى أو المدن الصغيرة.

هــذا الحكــم ينطبق في شكل أساسي على العاصمة التي كانت، ومنذ أمد بعيد، المركز والدائرة الأهم التي تدور ضمنها مختلف أشكال النشاط البشري، بالرغم من بعــض الاســتثناءات فــي بعض بلدات العالم، حين ترى أن هذا الدور تلعبه مدن أخــرى غــير العاصــمة، لكــنها حالات قليلة ونادرة في شكل عام. لقد إستأثرت بــيروت، كعاصمة، بمهمات وأدوار لا تنازعها عليها أية مدينة أخرى على أرض الوطــن، وهــي مســألة تــبدو بديهية نظراً إلى التطور الذي أصابها خلال القرن الماضي، بعدما صارت تضم وحدها، مع ضواحيها، ثلث سكان لبنان وربما أكثر، ممن يجدون في متناولهم، بسهولة، ما تعجز عن تأمينه مدن أخرى، وخصوصاً ما يقــع مــنهما على الأطراف، حيث ينشغل الخليقة بحاجات العيش الأساسية ويصبح كل مما يفيض عنها كمالياً وأشبه بزخرفة جمالية يمكن إضافتها إلى المسكن، على ســبيل المــثال، ولا يؤثــر فقدانها على الناحية الوظيفية التي من أجلها يُبنى ذلك المنزل، بحسب متطلبات أصحابه وحاجاتهم.

حول دور المدينة وتأثيراتها:

إنطلاقــاً ممــا ورد ذكــره يمكن القول أن المدينة – العاصمة مثلت دائماً مكاناً فسـيحاً يتسـع لأمــور كثيرة ومن ضمنها الثقافة بجميع فروعها كالأدب والشعر والسـينما والمســرح، وفــي طبــيعة الحال الفن التشكيلي. إضافة إلى ذلك، لعبت العاصــمة دوراً محورياً في عملية التفاعل والتأثير المتبادل بين الفروع المذكورة، إذ، وكمــا هــو معلــوم، إن الــتطور الحال في أية جهة من الجهات الثقافية، كما التــبديلات التــي تفرضــها المستجدات، لا بد تؤدي إلى تفاعل بين تلك الجهة وما يتعايش معها على الساحة الثقافية من أفراد أو تيارات، وذلك ضمن حراك شمولي

يطاول الجميع. أما من شاء الجلوس جانباً في أجواء مماثلة، وربما كانت تلك حال البعض، فسيجد نفسه حكماً كمن يحيا في عالم آخر، بعيداً عن المعاصرة في إستنكافه عن إستشراف آفاق جديدة تفرضها الحداثة ويدفع إليها التبدل الحاصل من أنماط العيش وفي العلاقة مع كل ما هو جديد.

لكن هذه العملية لم تحدث بين ليلة وضحاها. صحيح أن المدينة قد تقع في أساس العملية المذكورة، لكنها لم تكن دائماً شرطاً موضوعياً، أو مكاناً للعيش لا تستوي من دونه عمليات الخلق أو الإبداع على مختلف مستوياته. لقد كانت أعمال الرواد الأوائل من التشكيليين اللبنانية بعيدة، إلى حد ما، عن أجواء المدينة. فقد شغل هؤلاء، أمثال داوود القرم وحبيب سرور وخليل صليبي بصنع إما بورتريهات لشخصيات معروفة وغير معروفة، أو برسم لوحات ذات طابع ديني، أو مناظر طبيعية وأنواع أخرى، وذلك تحت تأثيرات الفن الغربي الأوروبي وإتجاهاته التشكيلية. لا بد أن نذكر هنا أن كلامنا لا يشير إلى المدينة – العاصمة على أساس كونها موضوعاً تشكيلياً في حد ذاتها (سنعود لاحقاً إلى هذه المسألة)، بل على أساس كونها واقعاً مادياً ومكانياً يؤدي التواجد منه إلى توفير ظروف للعمل الفني قد تعجز عنه أمكنة أخرى. لا بد أن نشير أيضاً إلى أن الكثير في أعمال جيل الرواد كانت تنفذ، في أحيان عديدة، بناء على طلبيات تتقدم بها الكنائس ودور العبادة وبعض الأفراد، وما يختص بالأعمال الكنسية ينطبق على داوود القرم أكثر من سواه. ونعود لنؤكد هنا أن أعمال الفنانين المذكورين وسواهم، ممن عملوا في بداية القرن العشرين وحتى ثلاثينياته، كانت ذات علاقة وثيقة بالتيارات الأوروبية كالكلاسيكية المحدثة، ومن ثم الإنطباعية الفرنسية التي أعتبرت، آنذاك، ثورة حقيقية من الرؤية الفنية لا يضاهيها، من حيث الأثر الذي تركته في تاريخ الفن، سوى عصر النهضة بما يمثله من إنقلاب في المفاهيم وفي العلاقة بالتمثيل التصويري.

أما عن العلاقة بالمدينة كموضوع للتصوير أو موضوع للوحة، بصرف النظر عن تأثيراتها الأخرى التي لم تكن واضحة حينذاك، ونعني بذلك موقعها الثقافي المعاصر، نقول أن المدينة كموضوع ظهرت، على سبيل المثال، في أعمال جورج القرم العاكسة من عين المريسة أو الخندق العميق وتبان فيها بيوت متوجة بالقرميد الأحمر وأشجار نخيل وقطعة من شاطئ البحر. تعود هذه الأعمال إلى العشرينات ولا ندري إن كانت تستحضر الأماكن بحسب الأمانة الواقعية، أو تبعاً لمشيئة الفنان التأليفية.

على طريق الحداثة:

يصعب تحديد الزمن الفعلي الذي تحولت فيه بيروت مركزاً، أو أحد المراكز الأساسية، لإرهاصات الحداثة في جميع أشكال الثقافة ومتفرعاتها. إذ ربما بدأ قلب المدينة ينضب على نحو مختلف منذ أربعينات القرن الماضي، لكن هذه العملية لم تتركز تماماً إلا في الخمسينات. ففي ذلك العقد، وفي بداية عام 1957 تحديداً، ظهر العدد الأول من مجلة "شعر"، مؤذناً ببداية الطلاق مع الأشكال الشعرية التي كانت سائدة حتى ذلك الوقت. لم يعنِ هذا الأمر أن الشعر العمودي صار في خبر كان، أو أن الجملة الشعرية تبدلت لدى كل الناظمين والكتاب، لكن الجدال بدأ منذ ذلك الحين حول أهمية الحداثة وموقعها لدى المثقفين. كان صدور المجلة مؤشراً إلى أن بيروت قد إضطلعت بمهمة التجديد، كي تلعب فيها دوراً لم تنازعها عليه عواصم عربية كثيرة. وفي تلك الفترة بدأ يتمظهر جيل الحداثة الأول في الفن التشكيلي، بعدما ضم في صفوفه العديد من الفنانين، ليساهم كل منهم، وبحسب طريقته، في دفع موضوعات وأشكال ذلك الفن نحو آفاق جديدة.

لقد كان دور المدينة – العاصمة حاسماً في تلك العملية. كانت بيروت "المكان" الفسيح والرحب القابل لتلقي وإستيعاب، ومن ثم إحتضان أفكار وتجارب لم تكن، في معظمها، قريبة من المفاهيم العامة، لا بل كانت تتناقض معها في كثير من الأحيان كتب فيها على الفن التشكيلي أن يكون نخبوياً، وهو شرط موضوعي لأزمة ليس في لبنان فحسب، بل في أماكن أخرى عديدة من العالم، حين يتعلق الأمر بالتعاطي مع ظواهر خارجة عن المألوف، أو جيدة من الأعراف السارية.

كانت أجواء الحرية متوفرة في بيروت، ولو في شكل نسبي، كما تكرس فيها، منذ بداية الستينات نوع من الإستقرار السياسي والأمني، وبعض من بحبوحة إقتصادية إرتكزت إلى نهج "دعه يعمل دعه يمر" ما حوّل البلد جنة ضريبية إجتذبت رؤوس الأموال المستثمرة في مصارف نمت كالفطر في العاصمة. يضاف إلى ذلك صفات لبنان المناخية والمواقع الأثرية المتناثرة في أنحائه التي شكلت عنصر جذب للسائحين، القادمين من كل الجهات والأطراف.

قدم الأدباء والشعراء والمسرحيون والفنانون التشكيليون إلى بيروت، إن لم يكن من أجل الإقامة الدائمة فمن أجل قضاء بعض الوقت للإستفادة، مرحلياً، من أجواء الحرية الآنفة الذكر، وهو ما كانت تفتقده أوطان عربية كثيرة. إستفاد الفن التشكيلي من تلك الأجواء على مستويات عدة، إذ ساعدت البحبوحة الإقتصادية، من جهة في

إنتشار صالات العرض في أنحاء العاصمة كنتيجة لتوفر الإمكانيات المادية لدى مجموعات من محبي الفن، القادرين على شراء الأعمال الفنية. ولا يخفى على أحد ما لهذه المسألة من أهمية، فالفنان في حاجة لبيع أعماله لا لتخزينها والإكتفاء بتأملها، كما أن مجموعة غير قليلة من الفنانين كانوا يقتاتون فقط من المبالغ، المتفاوتة، التي يؤمنها لهم بيع أعمالهم. هذا مع العلم أن الفنان الحقيقي، بحسب مفهومنا المحاط بالمثاليات، لم يضع يوماً الهدف المادي نصب عينيه، وإلا لكان أنتج ما يعجب سواه وما لا يرضي عنه شخصياً. لكن مسألة بيع العمل الفني ترتدي أهمية خاصة بالنسبة للفنان لما تحمل في طياتها من مدلول أو مكافأة معنوية في الدرجة الأولى، فشراء أعماله من قبل إناس عارفين، من ذوي الإهتمام الحقيقي بالفن، يشير إلى الإعتراف به وبمكانته وهو على قيد الحياة، بدلاً من تقديره بعد مماته، كما كانت الحال بالنسبة لرسامي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين المعانين، حينها، من فقر مدقع، ووضع نفسي متأزم، وحالة إجتماعية رديئة.

لا يعني كلامنا هذا أن كل الفنانين قد وفقوا في بيروت الستينات وبداية السبعينات، أو وصلوا إلى ما يصبون إليه، لكن واقع وظروف تلك المرحلة كانت أفضل بكثير من سواها. يقول أحد فناني جيل الحداثة الأول المكرّسين: "لقد ساعدتنا ظروف البلاد وساعدتنا الصحافة وبعض النقاد، على قلّتهم، ولم نكن في حاجة إلا إلى موهبتنا وإلى القليل من الحظ". أما في أيامنا الحاضرة الشديدة الإختلاف والتعقيد (سنعود إلى هذا الأمر لاحقاً)، ليس من مؤشرات تدل على أن درب الفنان، أو المثقف عموماً، مفتوحة وسالكة، إذ كما يقول الشاعر عقل العويط: "يمكنك أن تكون عبقرياً في هذه الأيام وستبقى مغموراً وغير معترف بك" ونود، شخصياً، أن نضيف: وذلك في حال عدم إرتباطك أو تبعيتك لجهات نافذة.

إن ما ميز بيروت تلك الفترة هو ظهور جماعة من الأفراد ينتمون إلى الطبقة البورجوازية العليا أو المتوسطة يمتلكون، إلى الإمكانيات المادية، الحد الكافي من الثقافة الفنية، ما سمح لهم بتقبل وشراء أعمال مثيرة للجدل أحياناً، ولا يتفق فحواها كما لا تنسجم أساليبها مع الإعتبارات السائدة. هذا لا يعني، بالطبع، أن الثقافة، بما تعنيه من معرفة وحسن إطلاع، كانت حكراً على الطبقات الميسورة، لا بل يبدو أحياناً أن العكس هو الصحيح، لكن توفر هذه النوع من العلاقة بالفن التشكيلي، معطوفاً على القدرة المادية لإقتناء اللوحة الفنية، أثر إيجاباً على وضع رسامين يعتاشون فقط من بيع أعمالهم، كما ذكرنا سابقاً. لن نعمد هنا إلى ذكر أسماء

أصحاب المجموعات الفنية في لبنان، وهم ليسوا قلة، علماً أن أن أعدادهم انحسرت في الفترة الأخيرة. وقد شاهدنا أكثر من برنامج تلفزيوني قام بجولات على منازل هؤلاء، حيث رأينا مجموعات قيمة لفنانين تشكيليين لبنانيين، وهي أعمال تعود إلى الفترة الممتدة من منتصف القرن الماضي وحتى نهاية السبعينات، وينتسب بعضها، أيضاً، لمرحلة أقدم من ذلك، فمن المعلوم أن بعض أصحاب المجموعات ورثوا هذا الشغف عن آبائهم، وقد إقتنى هؤلاء أعمالاً تعود إلى جيل الرواد الأول.

أحوال المقهى وأطواره:

قلنا أن بيروت هيأت الأجواء الملائمة للإنصراف إلى ضروب الإبداع، وإجتمعت فيها عوامل عدة ساعدت في نهوض حركة تشكيلية هي الأبرز خلال القرن المنصرم. كانت المدينة عبارة عن مكان كبير مفتوح أمام الجميع، تقع ضمنه أمكنة أخرى أصغر وأكثر حميمية حطّ فيها الفنانون رحالهم لدى الرغبة في تبادل الآراء أو الإسترخاء وما المقهى سوى أحد تلك الأمكنة.

إن تقليد الجلوس في المقهى يُعتبر حديثاً قياساً إلى التاريخ البشري في مجمله. سنعود، مرة أخرى، إلى نهاية القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي تم فيها إعتماد المقهى، ضمن أمكنة أخرى، مكاناً للقاء إجتمع فيه الكتاب والشعراء والفنانون في المدينة التي أطلقت، في نظرنا، هذا التقليد، ونعني بذلك مدينة باريس، لينتشر بعدها في جهات العالم الأربع. ولا بد أن نتذكر أن أسماء بعض الفنانين إرتبطت بأسماء مقاه، والعكس كذلك صحيح. لم يغب الملهى أيضاً عن دائرة الإهتمام، وخير مثال على ذلك تولوز لوتريك، الفنان الفرنسي المولع بالملاهي، وصاحب مجموعة من الرسوم والملصقات الشهيرة لراقصين وراقصات (راقصات في المقام الأول)، وهو العاجز ذاتياً عن الرقص، نظراً لعاهة أُصيب بها وتركت في جسده التواءات لا شفاء منها.

بدأ التقليد وإتسع في باريس، بحيث صار للأدباء مقاهيهم كما للشعراء أو الفلاسفة المتناحرين حول تفسير العالم. وتطور الأمر بحيث صار لكل مقهى وجه معين يعبر عن إنتماء هذا الكاتب أو ذاك إلى أحد المقاهي، ولا تزال، أمكنة تتسع لإهتمامات عديدة، مع طغيان عنصر التسلية في وقتنا الحاضر مع الستينات والسبعينات كان يمكن التمييز بسهولة يترافق معهما من لعب الورق أو الطاولة ضمن أجواء شعبية ذات نكهة مميزة، عبّر عنها الفنان حسن جوني في أكثر من لوحة يبان فيها إناس جالسون إلى طاولات في أجواء مريحة وشبه فولكلورية.

تمـيزت سـاحة الـبرج، "أيـام زمان" بهذا النوع من المقاهي، أما النوع الآخر، الحديـث، فبدأ بالظهور، تدريجياً، في شارع الحمراء وإتخذ طابعاً مختلفاً من حيث مهمـته الوظيفـية. كانـت مقاهي شارع الحمراء، ضمن سواها، أمكنة للقاءات لا ترتكـز علـى موعـد مسـبق، إذ كان يقصدها الرواد وهم عارفون أن ندماء لهم سـيتواجدون أيضاً في المكان نفسه في فترات محددة من النهار، أو المساء. صار المقهى زاوية تدور فيها نقاشات وأحاديث تتراوح موضوعاتها بين السياسة والأدب والفـن، فتـتقاطع الآراء أو تتناقض، وتسمح هذه اللقاءات في التعرف على وجوه جديـدة وعلى زائرين مؤقتين للمدينة، وكم من حالات التعارف تمت في المقاهي، وكان من الصعب حدوثها في مكان آخر.

الأحاديـث والنقاشـات الدائـرة فـي المقاهي لا بد أن تؤدي إلى نتائج عملية. والمقصـود هـنا هو أن هذا المناخ، الصاخب أحياناً، قد يصبح محركاً لجملة من الأفكار، ومخفزاً لتواردها، لا بل أن بعضها قد يترجم صوراً تشكيلية، بحسب آلية يتقـنها إلاّ العارفون. من قصد تلك المقاهي في فترات ماضية، وحتى من يقصدها الآن، سـيلحظ أن بعض الكتاب والشعراء والصحافيين يصيغون مسودة نصوصهم أو مقـالاتهم فـي المقاهي. يفيد الشاعر شوقي بزيع، على سبيل المثال، أنه يكتب قصـائده فـي مقهى يقع في منطقة الروشة جالساً على الطاولة ذاتها، وفي الزاوية نفسـها. وقـد قال الفنان الراحل رفيق شرف أن الفكرة الأساسية لمجموعة أعماله المـتمحورة حـول موضوع عنتر، الشاعر والفارس، ولدت وهو جالس في مقهى الهـورس شو، وهذه المجموعة التصويرية شغلته ردحاً من الزمن، وإحتلت حيزاً بـارزاً في مسيرته التشكيلية. وإذا كان مقهى الهورس شو قد غادر مكانه الأصلي، عـند الـزاوية المعـروفة من شارع الحمراء، فقد حمل أصحابه معهم الى مقهاهم المسـمى "سـيتي كافـيه" شغفهم بالفن التشكيلي، ما جعلهم يخصصون جداراً من المقهـى، فـي شكل دائم، لعرض أعمال أحد الفنانين التشكيليين، إضافة الى أخرى موزّعة على جدران المكان، بحيث صارت جزءاً منه.

الحرب: جرح المدينة المزمن:

وضـعت الحـرب الأهلـية، التي إستمرت فصولها زمناً طويلاً، المثقفين في مجملهم أمام تحديات من نوع جديد، لو شئنا تلخيصها بعبارة واحد لقلنا أن المسألة تتمحور حول علاقتهم بتلك الحرب، وكيفية التعاطي معها. إنطلقت تلك الحرب من بـيروت، ثـم كان لها إرتدادات في أنحاء مختلفة من الوطن، لكن العاصمة بقيت،

وكمـا كانت دوماً، مركز القرار الذي تحدث التطورات على أساسه، وتحدد النتائج تبعاً لطبيعته.

بخلاف الحروب التي تندلع بين الدول من أجل قضايا كبيرة أو صغيرة، ويشار فـيها إلـى العدو كعدو، من دون تردد أو خلاف، تمثيل الحروب الأهلية شكلاً من أشكال الصراعات الأكثر تعقيداً والأكثر إثارة للجدال، لما يمكن أن تحتمل فيها من إعتـبارات، ومـا يمكـن أن تفعلـه تفاصيل دقيقة من إنحراف في الأهداف، وفي صـعوبة إطـلاق صـفة "عدو" على شريك في الوطن لمجرد خلاف مستفحل في الرؤيا، ساهمت عناصر متداخلة، محلية وإقليمية، في تحويله صراعاً فتاكاً لم يترك أحـداً. لسـنا فـي وارد تبسـيط الأمور هنا ولا مناقشتها. ما يهمنا هو القول أن الحروب كانت أثرت، تاريخياً، على مجريات وطبائع الفن. فالفن، كسواه من أوجه النشـاط الإنسـاني، ينطبع بما يحيط بحاملي لوائه، لقد شهد تاريخ الفن أعمالاً، أو بالأصـح أنـتج أعمـالاً خالدة، جاءت كإنعكاس لحروب طاحنة خاصتها البشرية، ونتجـت مـنها كـوارث إنسانية لم يتخلص العالم من ذيولها إلا بعد مرور فترات طويلة. لكن هذه الأعمال لم تكن دائماً مرآة مباشرة كذلك الواقع الموضوعي، لا بل أن بعضـها إنضوى تحت لواء تيارات فنية إستثمرت النتائج المدمرّة للحروب في صناعة أسلوبها التشكيلي، وما التعبيرية الألمانية، التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولـى سـوى إحداهـا. لم يصوّر التعبيريون الحرب إلاّ نادراً، بقدر ما إنعكست مفاعـيلها فـي أعمالهم ألواناً صاخبة، تغطي وجوهاً وقامات محوّرة ومشوّهة. أما أبـرز أعمـال التصوير الواقعي للحروب فلا بد أنها تعود إلى الفنانين التشكيليين السـوفيات، لدرجـة أن بعض تلك اللوحات صارت أشبه بصور توثيقية يبان فيها خـراب المـدن وآثـار المعارك وبطولات المقاتلين، وذلك ضمن أسلوب واقعي أكاديمـي مثير، ساهمت في تظهيره المهارة التقنية التي يمتلكها الفنانون السوفيات، المتحدرين من مدرسة شديدة الإرتباط بالقواعد والأصول.

يبقى أن من أهم الأعمال التي صورت الحرب، والأهلية تحديداً، بأسلوب خاص ومميـز، هـي لوحة بيكاسو "غرينكا"، التي صارت أشبه بأيقونة تشكيلية، وإحتلت مكانة بارزة في مسيرة الفنان، من جهة، وفي تاريخ الفن الحديث من جهة أخرى، نظراً لإرتباطها، في شكل مزدوج، بحدث تاريخي وبمرحلة فنية وأسلوبية من حياة بيكاسو.

وضـعت الحـرب الأهلية اللبنانية الفنانيين أمام تحد من نوع جديد، كما ذكرنا. كان تحدياً متعدد الجوانب والمعاني فرضيته حرب شكلتْ مرحلة دقيقة وفاصلة في

حياة وطن، وفي سيرة مدينة بيروت، بعدما صارت فجأة مقسّمة ومجزأة، وبعدما تحولت الشوارع الفاصلة بين أحيائها خطوط تماس بين جهات متصارعة ذات أهواء سياسية متناقضة إلى حد فقدان أبسط خيوط التواصل. أصبح حياد الفنان، حينها، موضع تساؤل، وصار من الصعب عليه متابعة مسيرته الفنية وكأن شيئاً لم يكن، في إعتبار أن تلك الحرب لا تمسّه شخصياً. كان المثقفون عموماً، خلال التاريخ، من المناهضين للحرب في جميع أشكالها، وإذا كان هناك من إنحياز لا يهم فقد كان يصب في مصلحة الإنسان، وهذا الحكم يسري تحديداً على كل أنواع الحروب الأهلية، وليس على الحروب العدوانية التي تعرّض لها الوطن وعانى ما عاناه من جرّائها.

من تواجد في بيروت في تلك الفترة وقُيض له معاينة أحيائها، خلال أوقات الهدنة االمؤقتة، كان سيلحظ دماراً يزداد يوماً بعد يوم ويطاول البنية المادية للمدينة وما تتضمنه من مبانٍ وبيوت وساحات، ناهيك بالدمار النفسي الذي طاول البشر، من دون أن ننسى من قَضى في تلك الحرب بإرادته أو من دون إرادته. أما الأحياء فكان عليهم التعايش مع المأساة في أجواء من التناحر والنفور من الآخر والحقد عليه. بعض أعمال سيتا مانوكيان العائدة إلى تلك الفترة تصوّر شوارع المدينة شبه المقفرة إلاّ في بعض الأشخاص الموزّعين هنا وهناك، فرادى، وقد إرتسمت على وجوههم علامات قلق وحذر، ونظرات فيها ما يكفي من التحوّط والغضب والحزن أيضاً.

أعمال فنانين آخرين لم تخرج عن القاعدة ذاتها، ولو أنها أنجزت بأساليب أخرى. المعاينة الشاملة لبعض ما تم صنعه خلال فترة الحرب، أو بعدها، تؤدي إلى إستنتاج مفاده أن الفن، كعملية شعورية ذات إرتباط مباشر بالحس الإنساني، قد إنحاز نهائياً إلى المأساة، وإلى الجرح الذي لم تُشفَ منه المدينة حتى هذه اللحظة، وزاده عمقاً ما حدث بعد الحرب الأهلية من إعتداءات إسرائيلية ومن عمليات إغتيال لم توفر أحداً، من السياسيين وحتى المفكرين والصحافيين. أصابت الحرب في إحدى فتراتها عماد عيسى في جسده، فسخّر فنه من أجل مناهضتها، ونتج من ذلك أعمال كابوسية إستحضرت الموت في أبشع صوره. وإستعان الراحل عارف الريّس بلغة ساخرة وتحريضية، مازجاً ما بين السوريالية والتعبيرية والملحمية والرمزية، وجاءت أعمال جميل ملاعب على نفس المنوال.

ذهب بول غراغوسيان في إتجاه الملصق مساهماً في تصميم ورسم العديد من الملصقات المتعلقة بالحرب، في حين عمد محمد الروّاس إلى

تقنيات الحفر والطباعة الممزوجة أحياناً مع الصورة الفوتوغرافية. صوّر رفيق شرف، غرافيكياً أيضاً، مدينة يقلب على السواد تمتد في الأفق، وترتاح أمامها، في مقدمة اللوحة، منحوتات بعضها لنساء وبعضها الآخر ذو طابع تجريدي، وهذه النزعة التجريدية، الصافية، نراها لدى أُديت مظلوم وساميا عسيران على مساحات كبيرة تخضع لقوانين التلميح والمجازات الشكلية.

في كل الأحوال لن نلحظ سوى أعمال قليلة تخرج على لغة التلميح تلك، كي ترى المدينة كواقع موضوعي إهترأت مفاصله وعلت الثقوب سطوحه، ويفني هنا واجهاته، بفعل الرصاص والقذائف. تم التعامل مع الواقع، إذاً، بعيداً عن المباشرة وقريباً من الرمزية، من أجل الوصول إلى مطارح تعبيرية دون الوقوع في فخ التبسيط. نتذكر هنا، ولو في مجال آخر، لوحة الفنان المكسيكي روفينو تامايو الكبيرة الحجم مع حزوز البطيخ المرتسمة عليها باللون الأحمر، وعلى خلفية حمراء أيضاً، مما يسبب الحيرة للمتلقي، في حين يشير هذا الموضوع البسيط، مع الإحمرار الغالب عليه، إلى الصراعات الدموية التي عانت منها المكسيك. هذا المدخل الرمزي ليس بجديد على الفن التشكيلي وسنجد ما يشبهه، من حيث المبدأ، لدى فنانينا المثقفين جميعاً على البعد الدرامي للحرب ولنتائجها على مدينة شهدت تجارباً وخدوشاً لن تمحوها الأيام.

المدينة المتبدلة:

لسنا في حاجة إلى الكثير من الجهد كي نلاحظ أن المدينة تغيرت خلال العقدين الأخيرين. الحديث عن هذا التغيير قد يطول بحسب الزاوية التي يُنظر إليه منها، وتبعاً لتحديد طبيعته. لو نظرنا إلى الأمر من زاوية محض معمارية لوجدنا أن مركز المدينة القديم وما كان يسمى "ساحة البرج" الذي قدّم للفنانيين وللمصورين الفوتوغرافيين مواداً غنية بطابعها المحكي وبنكهتها الفريدة، صار الآن ذكرى. الأبنية التي بقيت وأعيد ترميمها بإحتراف جعلها جديدة ونظيفة، بحيث لم تعد صالحة إلاّ لشركات تجارية كبيرة الرساميل، ولمقاه مكلفة، ولمخازن ألبسة لا يطأ عتبتها إلاّ الميسورون. البيوت العتيقة، والجميلة، الصغيرة قياساً إلى الأبنية الحديثة تُزال من الأماكن التي بلغت فيها أسعار الأراضي مستويات فلكية، كي تُقام مكانها عمارات شاهقة تسد الواجهة البحرية كسور يمنح من خلفها رؤية الأفق. في معرض حسن جوني الأخير شاهدنا لوحات تذوب فيها المدينة القديمة وتتبخر البيوت في الهواء، فلا يبقى منها سوى الذكريات.

حـياة وطن، وفي سيرة مدينة بيروت، بعدما صارت فجأة مقسّمة ومجزأة، وبعدما تحولـت الشـوارع الفاصلة بين أحيائها خطوط تماس بين جهات متصارعة ذات أهـواء سياسـية متناقضة إلى حد فقدان أبسط خيوط التواصل. أصبح حياد الفنان، حينها، موضع تساؤل، وصار من الصعب عليه متابعة مسيرته الفنية وكأن شيئاً لم يكـن، فـي إعتبار أن تلك الحرب لا تمسّه شخصياً. كان المثقفون عموماً، خلال الـتاريخ، مـن المناهضين للحرب في جميع أشكالها، وإذا كان هناك من إنحياز لا يهـم فقد كان يصب في مصلحة الإنسان، وهذا الحكم يسري تحديداً على كل أنواع الحـروب الأهلية، وليس على الحروب العدوانية التي تعرّض لها الوطن وعانى ما عاناه من جرّائها.

مـن تواجد في بيروت في تلك الفترة وقُيض لـه معاينة أحيائها، خلال أوقات الهدنة االمؤقتة، كان سيلحظ دماراً يزداد يوماً بعد يوم ويطاول البنية المادية للمدينة ومـا تتضمنه من مبانٍ وبيوت وساحات، ناهيك بالدمار النفسي الذي طاول البشر، من دون أن ننسى من قضى في تلك الحرب بإرادته أو من دون إرادته. أما الأحياء فكـان علـيهم التعايش مع المأساة في أجواء من التناحر والنفور من الآخر والحقد عليه. بعض أعمال سيتا مانوكيان العائدة إلى تلك الفترة تصوّر شوارع المدينة شبه المقفـرة إلاّ في بعض الأشخاص الموزّعين هنا وهناك، فرادى، وقد إرتسمت على وجوههم علامات قلق وحذر، ونظرات فيها ما يكفي من التحوّط والغضب والحزن أيضاً.

أعمـال فنانيـن آخريـن لم تخرج عن القاعدة ذاتها، ولو أنها أنجزت بأساليب أخـرى. المعاينة الشاملة لبعض ما تم صنعه خلال فترة الحرب، أو بعدها، تؤدي إلى إستنتاج مفاده أن الفن، كعملية شعورية ذات إرتباط مباشر بالحس الإنساني، قد إنحـاز نهائياً إلى المأساة، وإلى الجرح الذي لم تُشف منه المدينة حتى هذه اللحظة، وزاده عمقـاً مـا حـدث بعد الحرب الأهلية من إعتداءات إسرائيلية ومن عمليات إغتـيال لم توفر أحداً، من السياسيين وحتى المفكرين والصحافيين. أصابت الحرب فـي إحدى فتراتها عماد عيسى في جسده، فسخّر فنه من أجل مناهضتها، ونتج من ذلـك أعمال كابوسية إستحضرت الموت في أبشع صوره. وإستعان الراحل عارف الـريّس بلغـة ساخرة وتحريضية، مازجاً ما بين السوريالية والتعبيرية والملحمية والرمزية، وجاءت أعمال جميل ملاعب على نفس المنوال.

ذهـب بـول غراغوسـيان فـي إتجـاه الملصـق مساهماً في تصميم ورسم العديـد مـن الملصـقات المـتعلقة بالحـرب، فـي حين عمد محمد الروّاس إلى

تقنـيات الحفـر والطـباعة الممـزوجة أحـياناً مع الصورة الفوتوغرافية. صوّر رفـيق شـرف، غرافيكـياً أيضـاً، مديـنة يقلـب علـى السواد تمتد في الأفق، وتـرتاح أمامهـا، فـي مقدمــة اللوحــة، منحوتات بعضها لنساء وبعضها الآخر ذو طـابع تجـريدي، وهـذه الـنزعة الـتجريدية، الصـافية، نـراها لدى أديت مظلـوم وسـاميا عسـيران علـى مسـاحات كبـيرة تخضـع لقوانيـن التلميح والمجازات الشكلية.

فـي كـل الأحوال لن نلحظ سوى أعمال قليلة تخرج على لغة التلميح تلك، كي تـرى المدينة كواقع موضوعي إهترأت مفاصله وعلت الثقوب سطوحه، ويفني هنا واجهاتـه، بفعل الرصاص والقذائف. تم التعامل مع الواقع، إذاً، بعيداً عن المباشرة وقريـباً مـن الرمزية، من أجل الوصول إلى مطارح تعبيرية دون الوقوع في فخ التبسـيط. نـتذكر هـنا، ولو في مجال آخر، لوحة الفنان المكسيكي روفينو تامايو الكبـيرة الحجـم مـع حزوز البطيخ المرتسمة عليها باللون الأحمر، وعلى خلفية حمراء أيضاً، مما يسبب الحيرة للمتلقي، في حين يشير هذا الموضوع البسيط، مع الإحمـرار الغالـب عليه، إلى الصراعات الدموية التي عانت منها المكسيك. هذا المدخـل الرمزي ليس بجديد على الفن التشكيلي وسنجد ما يشبهه، من حيث المبدأ، لـدى فنانينا المثقفين جميعاً على البعد الدرامي للحرب ولنتائجها على مدينة شهدت تجارباً وخدوشاً لن تمحوها الأيام.

المدينة المتبدلة:

لسنا في حاجة إلى الكثير من الجهد كي نلاحظ أن المدينة تغيرت خلال العقدين الأخيريـن. الحديث عن هذا التغيير قد يطول بحسب الزاوية التي يُنظر إليه منها، وتـبعاً لـتحديد طبيعته. لو نظرنا إلى الأمر من زاوية محض معمارية لوجدنا أن مركـز المدينة القديم وما كان يسمى "ساحة البرج" الذي قدّم للفنانين وللمصورين الفوتوغرافييـن مـواداً غنية بطابعها المحكي وبنكهتها الفريدة، صار الآن ذكرى. الأبنـية الـتي بقيـت وأعيد ترميمها بإحتراف جعلها جديدة ونظيفة، بحيث لم تعد صـالحة إلاّ لشركات تجارية كبيرة الرساميل، ولمقاه مكلفة، ولمخازن ألبسة لا يطأ عتبتها إلاّ الميسورون. البيوت العتيقة، والجميلة، الصغيرة قياساً إلى الأبنية الحديثة تُزال من الأماكن التي بلغت فيها أسعار الأراضي مستويات فلكية، كي تُقام مكانها عمـارات شـاهقة تسـد الواجهة البحرية كسور يمنع من خلفها رؤية الأفق. في معـرض حسـن جونـي الأخير شاهدنا لوحات تذوب فيها المدينة القديمة وتتبخر البيوت في الهواء، فلا يبقى منها سوى الذكريات.

المقاهي التي كان يجتمع فيها المثقفون تتبخر بدورها على حساب مخازن الألبسة في شارع الحمراء، معلنة تغيير وجه الشارع. أمكنة إحتساء القهوة الجديدة تنتمي إلى سلسلة مقاه عالمية نجدها في كل مكان، وطعم القهوة فيها، كما الأسعار، هي ذاتها، فضلاً عن أن العاملين فيها يشبهون بعضهم بعضاً في التصرفات ونوعية السلوك والعبارات المستعملة في الحديث مع "الزبائن". ونقول الزبائن لأن الهدف الأول والأخير للأمكنة الجديدة هو كيفية جذب الخليقة، على أنواعها، وخدمتها في شكل سريع، ضمن نهج إستثماري – مادي يتوافق مع طبيعة عالم التجارة والخدمات.

البنية الإجتماعية للمدينة، أو لبعض مناطقها، تغيرت أيضاً، وهي تنسجم مع فهم مختلف للثقافة ولمعنى الكلمة وآفاقها. هذه الأمور كلها، الصالحة لبحث آخر مستقل عن بحثنا، تضع الفنان التشكيلي مرة أخرى، أمام تحديات جديدة، وقد توفر له مواداً ليس عليه سوى إلتقاطها وصياغتها على النحو المناسب لطبيعة المرحلة. لا شك أن عدداً من الرسامين من الجيل الجديد يحاولون الخوض في هذه الموضوعات الشائكة، لكن المهمة كبيرة وهي تنتظر كل من يود القيام بها.

***

* – أستاذ في الجامعة اللبنانية، وفنان تشكيلي

بيروت والمسرح
في النصف الأول من القرن العشرين

أ. محمد كريّم*

– مارون النقاش الرائد

يجمع الباحثون على أن الديار العربية لم تعرف المسرح بمعناه الشامل: النص الدرامي، التمثيل والإخراج، إلا أواخر سنة 1847 على يد الرائد اللبناني مارون النقاش (1817 – 1855). فخلال جولة له في أوروبا سنة 1846 تعرف إلى ما كان يقدم على مسارح فرنسا وإيطاليا من أعمال، فاستهواه هذا الفن، وساعده إتقانه اللغتين الفرنسية والإيطالية على الاطلاع على فن الإخراج والتمثيل. فلما عاد إلى بيروت كتب أول مسرحية له وجمع عددا من أفراد عائلته وأصدقائه، ودربهم على التمثيل وأنشأ مسرحا في فناء داره الكائن في حي الجميزة عند أول طريق النهر، وقدم أول مسرحية له في نهاية العام 1947 وكانت بعنوان البخيل، بحضور القناصل المعتمدين، ووجهاء المدينة الذين تمت دعوتهم "لفرجة غير عادية".

رسالة المسرح عند النقاش:

في افتتاح المسرحية ألقى النقاش أمام جمهوره، خطبة لخص فيها مفهومه للمسرح والرسالة التي يجب أن يؤديها هذا الفن بما يمكن اعتباره أول "منيفستو مسرحي عربي".

يقول مارون النقاش في خطبة الافتتاح:

... على أنني عند مروري بالأقطار الأوروباوية وسلوكي بالأمصار الإفرنجية قد عاينت عندهم فيما بين الوسايط والمنافع التي من شانها تهذيب الطبايع مراسحا يلعبون بها العابا غريبة ويقصون فيها قصصا عجيبة، فيرى بهذه الحكايات التي يشيرون إليها والروايات التي يتشكلون بها ويعتمدون عليها، من ظاهرها مجاز ومزاح وباطنها حقيقة وصلاح.[1]

وفي مكان آخر من الخطبة، وبالهدف نفسه يقول النقاش:

... لأنه بهذه المراسح تتكشف عيوب البشر ويكون منها على حذر وعدا اكتساب الناس منها التأديب ورشفهم رضاب النصائح والتمدن

والتهذيب فانهم بالوقت ذاته يتعلمون الفاظا فصيحة ويغتنمون معاني رجيحة.. الخ.

بهذا المفهوم الأخلاقي لرسالة المسرح أسس مارون النقاش مفاهيم أخذها عنه كل من جاء بعده وسار على نهجه وخطاه حتى ولادة النهضة المسرحية الحديثة أي في منتصف القرن العشرين.

ولما كان النقاش رجلا تنويريا وكان المسرح في رأيه وسيلة من وسائل ترقية الأمم، توخى أن لا يكون هذا الفن الجديد حكرا على النخبة، فحتى يضمن له الرواج الذي يؤمله لدى العامة من اللبنانيين ادخل الشعر والأغاني في صلب مسرحياته وهذان العنصران هما مما يلذ للعامة الاستماع إليهما، وهذه ليست بدعة ابتدعها بل شاهدها النقاش بأم العين في المسرح الأوروبي. وهذا ما يفسر السبب في أن جميع المسرحيات التي قدمت في النصف الأول من القرن العشرين، سواء كانت مدرسية أو عامة قد اعتمدت الشعر كعنصر مكمل للحوار، واستعانت بالغناء والألحان من ضمن مغريات العرض.

سلسلة من التجارب قام بها النقاش بوعي كامل وإيمان صادق وجهد جبار لترسيخ فن المسرح العربي، إلا أن القدر لم يمهله ليستمر في تجاربه ويرسخه بشكل دائم.

ولا شك في أن مارون النقاش قد عانى الكثير من اجل أن يتقبل الجمهور هذا الفن الدخيل الذي ليس من موروثه الأدبي أو الفني. وقد احتال النقاش بشتى الطرق ليجعله فنا مقبولا. ومع ذلك فقد كان الإقبال في البداية على مسرحه ضعيفا "مما جعله وصحبه يتزلفون في بادئ الأمر إلى الناس ويتملقونهم ليحضروا تمثيلهم، إلى أن بدأ الجمهور يتذوق هذه المتعة الفنية فصار يتقاطر لمشاهدة أعمالهم[2]".

لكن ثمة سؤال يراود فكر المهتمين بشؤون المسرح، وهو لماذا قرر النقاش نقل فكرة المسرح من أوروبة إلى بيروت. والجواب على هذا السؤال قد يكون للوهلة الأولى أن المسرح قد استهواه لما فيه من المتعة، بالإضافة إلى انه فن جديد لا تعرفه ديارنا.

إلا أن نظرة معمقة للأمر قد تحيلنا إلى سبب آخر اكثر أهمية هو الذي حدا بالنقاش إلى القيام بما قام به، ويجدر بنا عندها أن نشير إلى طبقة المثقفين التي نمت في لبنان نتيجة عوامل كثيرة لعل في طليعتها الأفكار التحررية التي كانت تفد من أوروبة حاملة معها معاني الحرية والديمقراطية ومبادئ الثورة الفرنسية. وقد وعت هذه الطبقة من المثقفين، والنقاش واحد منها، ضرورة بعث حالة من اليقظة

لدى عامة الشعب من اجل النهوض، فكان لكل فئة من مثقفي تلك المرحلة رؤية معينة تؤمن بأنها الطريق الموصل إلى النهوض. فالبعض رأى في الصحافة سبيلا إلى التنوير، فأنشأ عددا من الصحف تطلع الرأي العام على مجريات الأمور في الخارج فترتبط بذلك علاقة بين الحركات التي تجري هناك وبين الوضع الداخلي.

ولجأ بعض الأدباء إلى الخطابة يرشد بواسطتها وينير ويلهب الحماس، ورأى آخرون أن المدارس هي خير وسيلة للارتقاء بالمجتمع، فأنشئوا المدارس والمعاهد تباعا لتعليم الأجيال وإنارة العقول.

وحده مارون النقاش عرف أهمية دور المسرح في "تهذيب الطبايع" وصلاح المجتمع وارتقائه، وأدرك، بوعيه، إمكانية هذه الوسيلة وفعاليتها في التأثير على النفوس والعقول، وأيقن انه بواسطة المسرح يستطيع أن يصلح وان يوقظ وان يطوّر.

وأمام هذا المشروع الجديد كان عليه أن يجيب عن تساؤل أخذ يلح على تفكيره: هل يؤدي هذا المسرح رسالته فيما لو اقتصر على الخاصة فأمتعهم وأشبع فضولهم؟ ماذا عليه أن يفعل ليروّج لهذا الفن الجديد لدى العامة حتى يستجلبهم؟ كان مؤمنا بأن المسرح حتى يثمر ويعطي النتائج المرجوة لصلاح المجتمع، لا بد وان يتوجه إلى شريحة كبرى من شرائحه، أي إلى عامة الناس بالدرجة الأولى، فهؤلاء هم الطبقة الأوسع وبهم ينهض المجتمع. لكن كيف الوصول إلى قلوبهم؟

لم يتأخر مارون النقاش في إيجاد الإجابات عن سلسلة الأسئلة المطروحة. وهداه تفكيره إلى الحل: ثلاثة عناصر كانت تجذب جمهور تلك الفترة: الفكاهة، الغناء والشعر، وهي العناصر التي تضمنها فن خيال الظل أو كراكوز وعواظ، الذي احبه الناس واقبلوا عليه وتعودوه، فهي إذن عناصر مضمونة النتائج، فضلا عن أنها العناصر التي شاهد نجاحها بما سماه الأوروبيون "الأوبرا". هذه العناصر الثلاثة اعتمدها النقاش إطاراً لطرح مواضيعه التي بدأها بمسرحية البخيل، وهي قصة فكاهية ادخل عليها الألحان والأشعار، وبذلك انتظم عقد أول مسرحية في الديار العربية، وعقدت ريادة هذا الفن لمارون النقاش.

بعدها قدم النقاش مسرحية "أبو الحسن المغفل أو هارون الرشيد" سنة 1847، اتبعها بمسرحية "الحسود السليط" عام 1853 وهي مسرحية اجتماعية عصرية، ولم يمهله أجله لمتابعة المسيرة إذ توفي بعد أقل من عامين.

هجرة المسرحيين اللبنانيين إلى مصر:

لم يستمر النشاط المسرحي لفرقة مارون النقاش طويلا في بيروت بعد وفاته، فبعد بضع مسرحيات من أخيه نقولا وابن أخيه سليم خليل النقاش لم تسمح الأوضاع السياسية والاجتماعية من متابعة المسيرة فيمم هؤلاء وجههم شطر مصر، حيث الظروف اكثر ملاءمة. فتوقفت حركة المسرح المحترف، إذا صح التعبير، وانكفأت لصالح مسرح الهواة في المعاهد والمدارس.

والسؤال الذي يطرح نفسه، في هذا المجال، هو لماذا لم يواصل المسرح مسيرته الطبيعية في لبنان بعد ما أسس له مارون النقاش بداياته ووضع له أهدافه وقوانينه؟ ولماذا لم يتابع نقولا وسليم النقاش وهما تلميذا المؤسس رسالته في لبنان، بل حملا لواء المسرح من بعده، وانتقلوا به إلى ارض الكنانة، حيث اسهموا إسهاماً فاعلا وأساسيا في انطلاق الحركة المسرحية هناك بجهودهم وجهود مواطنيهم من الأدباء والشعراء والصحافيين، أمثال فرح انطون، سليمان ونجيب الحداد، طانيوس عبدو، الياس فياض وخليل مطران وغيرهم الذين رفدوا المسرح بالنصوص ترجمة واقتباسا وتأليفا.

أسباب عديدة حملت آل النقاش على الانتقال من بيروت إلى مصر حاملين معهم شعلة المسرح العربي. فعلى الصعيد الحضاري والثقافي كان الخديوي إسماعيل المبهور بالمدنية الغربية، قد أولى فنون العرض عناية خاصة فشيد مسرح الأزبكية عام 1868، وأمر ببناء الأوبرا فتم إنشاؤها عام 1869، حيث قدمت عليها اوبرا "ريغوليتو" لفيردي وذلك من اجل الاحتفالات بافتتاح قناة السويس[3]. وكثرت من ثمّ المطابع والجرائد، وتقاطر الأجانب في عهده حتى قيل عن مصر أنها قطعة من أوروبا رغم كونها في أفريقيا.

هذا وقد كان ترامى إلى أسماع المسرحيين اللبنانيين وجود المسارح الحديثة التي أنشئت في مصر على الطراز الأوروبي، كما كان في الإسكندرية مسارح عدة تلعب عليها الجاليات الأجنبية التي سكنت المدينة بعضا من فنونها المسرحية، أضف إلى ذلك اهتمام الدولة بالمسرح كمظهر من مظاهر الحضارة، وتشجيع العاملين فيه. بيد أن في طليعة الأسباب ولا شك: مناخ الحرية النسبي الذي كانت تنعم به مصر مقارنة بمناخ الحكم الاستبدادي الذي كان سائدا في بلاد الشام.

هكذا كان باختصار الأمر في مصر، أواخر القرن التاسع عشر. أما في بلاد الشام فقد كانت البلاد رازحة تحت حكم العثمانيين، وواقعة فريسة للحكام والولاة المستبدين كالجزار وعبد الله باشا والأمراء الطامعين فيها.

لهذه الأسباب وغيرها خاف السلطان عبد الحميد على عرشه، ولم يجد وسيلة للوقوف في وجه هذه الحركات الإصلاحية سوى تقييد الحريات وإدارة الحكم بالإرهاب، حتى لقب بالسلطان الأحمر لكثرة ما سفك من دماء.

ولم تكن بلاد الشام بمنأى عن المؤامرات التي تحيكها أوروبة ضد الدولة العثمانية لإضعافها وتقطيع أوصالها، فلقد أخذت هذه الدول تزرع الفتن في ربوع البلاد لإثارة القلاقل في وجه العثمانيين، وصارت تتدخل في شؤون البلاد بحجة حماية الطوائف، فكثرت المنازعات الداخلية من جهة وقوي القمع والضغوطات من جهة ثانية، مما أوجد جوا من الخوف والرهبة عطّل دور المثقفين اللبنانيين الذين تشربوا مبادئ الحرية والديمقراطية والعدالة التي وصلت إليهم عن طريق مدارس البعثات والإرساليات التي انتسبوا إليها، وسط هذا المناخ التعسفي، لا سيما على النشاطات الثقافية لم يكن من الممكن للحركة المسرحية أن تنمو نموا طبيعيا وان تزدهر ولم يكن من الممكن للأدباء والفنانين أن ينشطوا وأن يبدعوا.

الرقابة

وقد بلغ من تسلط الرقابة على المسرح ورجاله حدا لم يكن من الممكن معه أن تنشط أي حركة مسرحية بأي شكل من الأشكال. ولأعطاء فكرة عما كان يحدث من تعسف ومضايقات في وجه رجال المسرح يكفي أن نشير إلى هذا الخبر الذي نشر في صحيفة لسان الحال وفيه انه في سنة 1887 قدمت في مرسح المرصد الجديد مسرحية عاقبة الظلم لمؤلفها الشيخ فضل القصار. فما كادت تمثل أول ليلة حتى أحدثت تأثيرا كبيرا في نفوس القوم، خصوصا مأموري الحكومة فخرجوا قبل انتهاء التمثيل خوفا من أن يقال انهم حضروا وسمعوا ورأوا أشياء ترتعد لها الفرائص من عاقبة الظلم ونتاج الاستبداد مثلت أمامهم تمثيلا مؤثرا حقيقيا، فمنعت الرواية ولم تمثل في الليلة التالية، بل اضطهد مؤلفها ورُقب ودوهم داره ودققوا في أوراقه وكتبه ومراسلاته، وأرسلت الرواية إلى القسطنطينية وترجمت إلى التركية وعرضت على إدارة السلطان[4].

تجاه هذه الأجواء الضاغطة لم يجد المثقفون بدا من ترك البلاد، فهاجر فريق منهم إلى أميركا وهاجر الفريق الآخر إلى مصر، ومنهم نقولا النقاش أخي مارون وسليم ابن أخيه خليل.

توقفت وتيرة المسرح وانكفأت من الأمكنة العامة وتوجهت نحو المدارس. كما تراجعت المواضيع المطروحة من السياسي والاجتماعي إلى الديني والتاريخي

والوطني والقومي. وقد اعتمد في أسلوب المعالجة الكثير من الحذر حتى لا نقول من الدهاء.

وهكذا فان المقارنة بين الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في كل من لبنان ومصر، في تلك المرحلة، حملت الإجابة عن سؤالنا حول هجرة اللبنانيين، والمسرحيين منهم خصوصا إلى مصر. فهذه التربة الخصبة لازدهار المسرح، جعلت الهجرة إلى مصر حلما من أحلام المسرحيين اللبنانيين، فهاجروا إليها ابتداء من عام 1876 حاملين معهم بذرة المسرح التي استنبتت في بيروت، لتزرع من جديد في ارض الكنانة التي رحبت بهذا الفن ووسعت له مكانا في مجتمعها، ولم تتأخر في خوض غماره والاندماج فيه، كتابة واقتباسا وتمثيلا وإخراجا، واستأثرت بعدها بالنهضة المسرحية التي تأثرت بها الأقطار العربية فيما بعد.

المسرح في المعاهد والجامعات

لكن هل توقف النشاط المسرحي في بيروت بانتقال الرواد من آل النقاش إلى مصر توقفا كليا؟ وما الذي كان يجري في المدينة على هذا الصعيد، خلال تلك المرحلة وما بعدها؟

الواقع، إن تقديم المسرحيات في بيروت لم يتوقف منذ أن قدم مارون النقاش مسرحية البخيل وحتى يومنا هذا، ما عدا فترة الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918) لأسباب ليست خافية على أحد، وتتلخص بما أصاب البلاد والعباد من ضنك ومجاعة وتجنيد إجباري وظلم وغير ذلك مما كان يرافق الحروب في تلك الأيام، وكلها عوامل سلبية غير مواتية لقيام الفنون بشكل عام، والمسرح بشكل خاص، المرتبط ازدهاره بإقبال الجمهور وتشجيعه.

باستثناء فترة الحرب العالمية الأولى، كانت مسيرة المسرح في بيروت مستمرة إلا أنها كانت غير منتظمة، فتارة هي مترددة ومتعثرة وطورا هي مكثفة وناشطة، بمعنى أن وتيرتها كانت خاضعة للظروف الأمنية والاقتصادية والسياسية والعسكرية في البلاد، كما كان المستوى والنوعية يتحسنان باطراد مع الانفتاح الثقافي والتطور العلمي، خصوصا بعد تأسيس المدارس والمعاهد اللبنانية، والكليات الأجنبية التي أصبحت فيما بعد جامعات بفضل الإرساليات الفرنسية والإنكليزية والأميركية[5].

صحيح أن العروض المسرحية في مطلع القرن العشرين كانت تقدم بشكل موسمي ومتقطع إلا أننا نستطيع أن نتلمس بداية الوعي المسرحي – إذا صح

التعبير – عند كل من الأساتذة والطلاب من جهة، وعند جمهور الحضور من مسؤولين ورسميين وأولياء التلامذة من جهة أخرى، من خلال ما كان يقدم على المسارح المدرسية نهاية كل عام من مسرحيات يقوم على تحضيرها الأساتذة ويمثلها الطلاب أنفسهم. أما النص تأليفا أو ترجمة، فكان في اغلب الأحيان لمدير المدرسة أو لأحد الكتاب أو الشعراء، أما الإخراج – أو التنسيق كما كان يسمى – فكان غالبا معقود اللواء لأستاذ اللغة العربية **باعتبار أن المسرحية كانت يومها محسوبة على الأدب، والتعبير كان مزيجا من التمثيل والخطابة.**

واحتفال نهاية العام الدراسي الذي كانت تقدم خلاله هذه المسرحيات هو تقليد مدرسي اعتمد في الربع الأخير من القرن التاسع عشر تدليلا على تقدم وتطور المدرسة ومعيارا لمستواها الأدبي والثقافي.

واستمر هذا التقليد في المدارس حتى مطلع القرن العشرين، بل ويمكننا القول إن هذا التقليد قد ازداد انتشار حتى كاد يعم جميع المدارس القائمة في تلك الأيام، نورد فيما يلي بعضا منها ومما كانت تقدمه من نشاطات تمثيلية مما حملته إلينا المراجع، وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

مدرسة زهرة الإحسان:

قدمت في العام 1898 مسرحية عتاليا ترجمة نجيب جهشان، وفي العام 1921 رواية الأسيرين لعساف بك الكفوري، وفي العام 1924 مسرحية وفاء العرب وفي العام 1930 مسرحية الضحايا لنقولا بسترس.

مدرسة الثلاثة اقمار:

قدمت في العام 1872 مسرحية العيلة المهتدية لشاكر شقير

وفي العام 1913 مسرحية المروّة والوفاء

وفي العام 1914 مسرحية السموءل

مدرسة البطريركية:

قدمت العديد من المسرحيات منها: مسرحية صبر الآباء وعواطف البنين، كسرى والعرب لنجيب الشماس، امرؤ القيس لعبد الله البستاني، الحجاج بن يوسف لنجيب الشماس، المتنبي وسيف الدولة.

الكلية العثمانية

وتشير المراجع إلى أن الكلية العثمانية في بيروت المعروفة باسم مدرسة الشيخ عباس الأزهري، والتي تخرج منها رعيل من رجالات لبنان[6]، كانت تقدم في نهاية كل عام عرض مسرحي يستوحى موضوعه من التاريخ العربي الزاخر بمآثر

العرب في كرمهم ومروءتهم وشجاعتهم. فمن المسرحيات التي قدمت في الكلية العثماني:

(سباق داحس والغبراء، امريء القيس، واقعة ذي قار في 9 تموز 1910، رواية الميت الحي في 18 حزيران 1921، ورواية البخيل بالفرنسية في 12 آذار 1910).

مدرسة الحكمة

وقد كان لمدرسة الحكمة نشاطها المسرحي المبكر الذي يعود إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وتفيد المراجع إلى انه في تموز عام 1890 قدمت في هذه المدرسة مسرحية شعرية للشيخ عبد الله البستاني[7]، كما قام فريق من نجباء هذه المدرسة في أول تموز عام 1900 بتمثيل رواية عربية شعرية من نظم حضرة اللغوي الفاضل عبد الله افندي البستاني، فأجاد الممثلون إلقاء وإيماء بما استوجب سرور الحضور وتصفيقهم مرارا[8].

وقد مثّل طلبة البيان العربي في مدرسة الحكمة برعاية حضرة رئيس الجمهورية[9] رواية:

"آخر سلالة سيبيون الأفريقي" وهي مأساة تاريخية ذات خمسة فصول، فأبدعوا في تمثيلها ولا سيما مراعاتهم للقواعد اللغوية، مما اعجب جمهور الحاضرين[10].

وفي سنة 1925 مثل تلامذة الحكمة رواية "يوسف ابن يعقوب" للعلامة عبد الله البستاني.

وفي سنة 1926 رواية ابنة رولان بالفرنسية، وفي سنة 1926 أيضاً قدمت رواية "حلم فيقظة" برعاية موسى افندي نمور رئيس المجلس النيابي.

وفي عام 1929 رواية "مقتل هيرودوس لولديه" وهي رواية شعرية من وضع العلامة الكبير الشيخ عبد الله البستاني. وكانت الحفلة تحت رعاية صاحب العطوفة حبيب باشا السعد رئيس الوزارة اللبنانية. وفي عام 1934 مثّل طلاب الحكمة مسرحية "زينب أو مصرع الزباء" من تأليف ميشال زكور[11].

كلية القديس يوسف (اليسوعية)

يشير الأب لويس شيخو إلى أن جامعة القديس يوسف كانت السباقة إلى تقديم العروض المسرحية حيث يقول:

"ومما يعود فضله إلى بيروت خصوصا في تعزيز الآداب العربية فن التمثيل، وقد سبق لنا كيفية ظهوره على يد المرحوم مارون نقاش وما نجم عنه من المضرات بسوء استعماله في المسارح العمومية حيث مثلت روايات مخلة بالآداب.

إلا أن هذا الفن الجليل عاد إلى شرف مقامه في المدارس المسيحية، وكانت كليتنا أول من سبق إلى تشخيص التمثيلية العربية سنة 1882 فكان مديروها يختارون لذلك الوقائع الخطيرة ولاسيما الحوادث الشرقية ليرسخ في قلوب طلبتهم مع حب الوطن، ذكر تواريخ بلادهم. فمن جملة ما مثلوا "حكم هيرودوس على ولديه" في بيروت واستشهاد القديس جريس فيها. ورواية صوفيا ثم داود ويوناثان. ومما اقتبسوه من تاريخ العرب رواية: ابن السموءل ورواية المهلهل وشهداء نجران ونكبة البرامكة واخوة الخنساء. وكان للطلبة في تأليف بعض هذه الروايات سهم واف إلا إن معظمها بقلم الأباء أو بعض أساتذة الكلية[12]".

ومن المسرحيات التي قدمت على مسرح اليسوعية أيضاً مسرحية الرشيد والبرامكة عام 1903 ومسرحية الأب عام 1904 ومسرحية عقوق عام 1908 وفدية الأمير عام 1910 وغيرها.

أما باللغة الفرنسية فقد قدم على هذا المسرح ولمرات متتالية مسرحية "عتاليا[13]" لجان راسين فجاءت غنية بممثليها وملابسها ومناظرها. وقد قام بتمثيل دور يهوذا المركيز دي فريج وقام بتمثيل دور الملكة عتاليا نصري افندي حداد وبتمثيل دور جوزابيت الاستاذ هنري البستاني. وذلك في 10 أيار 1925.

كما قدم بالفرنسية أيضاً: أوديب الملك، ماكبث[14]، المهرجون وغيرها[15].

الجونيور كولدج:

عرفت كلية الجونيور كولدج نشاطا مسرحيا ناشطا في الأربعينات بإشراف السيدة ماري صبري التي قدمت: المسرحيتان الشعريتان "قيس ولبنى" لعزيز اباظة في سنة 1946 و"العباسة أخت الرشيد" للشاعر نفسه في سنة 1947 ومسرحية أدونيس لفريد مدور سنة 1948. وقد وضع موسيقى والحان هذه المسرحيات الموسيقار توفيق الباشا التي شارك في عزفها مع خليل مكنية وعاصي الرحباني وزكي ناصيف[16].

الجامعة الأميركية في بيروت:

أما في الجامعة الأميركية في بيروت فان التمثيل يعتبر من اقدم النشاطات اللامنهجية، إذ بدأ هذا النشاط بتشجيع من الأساتذة الأميركيين والإنكليز الذين أنشأوا نوادي للتمثيل قوامه طلاب من جنسيات مختلفة إضافة إلى الأساتذة أنفسهم. قدمت هذه النوادي مختلف أنواع المسرحيات ما عدا المسرحيات الدينية، وباللغات: الإنكليزية والعربية وأحياناً بالفرنسية والأرمنية.

ابتداء من العام 1904 بدأت الفرق بتقديم مسرحيات باللغة الانكليزية في قاعة "بلس هول" منها: هاملت (1904) وعطيل (1905) ماكبث (1905) يوليوس قيصر (1907) وكما تهواه (1908)[17].

ثم بدأت الجمعيات والنوادي في الجامعة تقدم أعمالاً مسرحية باللغة العربية وكان في طليعة هذه الجمعيات العروة الوثقة التي قدمت مجموعة من المسرحيات باللغة العربية لأدباء لبنانين وعرب[18] منها:

قضي الأمر: سعيد تقي الدين سنة 1926.

شارك في التمثيل تقي الدين الصلح واميل البستاني

بين نارين: الياس فياض سنة 1927

عاقبة الكسل، رواية البائس، اوبريت عمر بن الخطاب، رواية حادثة في صيف سنة 1929 (لم يذكر اسم المؤلف)

إلى الحمراء: انيس الخوري المقدسي عام 1930

شارك في التمثيل سليمان نابلسي وتحسين كمال

الآباء والبنون: ميخائيل نعيمة عام 1931

فوق الانتقام: فريد مدور عام 1931

الذبائح: انطون يزبك عام 1932

كذبه يا أبي: فريد مدور عام 1932

كما قدمت جمعية زهرة الآداب مسرحية "غمزات الزهرة على المرسح" عام 1926.

كانت الجامعة الأميركية في بيروت تقدم أربع إلى خمس مسرحيات سنويا يحضر كل منها حوالي خمسماية متفرج، وكانت هذه المسرحيات تعرض في عطلة الفصح أو أيام الجمعة والسبت ويعود ريعها للجمعيات التي كانت تقوم بأحيائها.

وبالرغم من أن المسرح في الجامعة الأميركية قد تخطى الكثير من العقبات التي كانت تعترض المسارح خارج حرم الجامعة، إلا أن ثمة عقبات لم يستطع التغلب عليها، منها مثلا انه حتى الأربعينات لم يكن إشراك الفتيات ممكنا في العروض التمثيلية، وان كن يشاركن في تصميم وخياطة الملابس وعمل المكياج واستمر الرجال بلعب أدوار النساء.

وقد روت السيدة صفية اللبابيدي شقيقة صلاح اللبابيدي مدير البوليس الأسبق، وكانت طالبة في الجامعة الأميركية. كيف أن والدها أحمد اللبابيدي رفض رفضا قاطعا اشتراكها في مسرحية "ليلى بنت النعمان"

باعتبار أن التشخيص عار ولا يليق ببنات العائلات، فطلب شقيقها صلاح من الشاعر معروف الرصافي وكان صديقا لوالدها بان يقنعه بالأمر، فكتب له الرصافي الأبيات التالية:

يا احمد، ما العار إن تبدو الفتاة بمسرح
تمثل لي حالي عزتي وابائي
ولكن العار أن تتزيا رجالكم
على مسرح التمثيل بزي نسائي

وهكذا فانه يمكننا القول إن النشاط المسرحي في المدارس والمعاهد استمر على مدار العقود الخمسة الأولى للقرن العشرين، إذ وجدت هذه المدارس في المسرح وسيلة من وسائل التربية والتعليم والتهذيب وأداة لترسيخ العقائد الدينية والمفاهيم الأخلاقية ودروسا من التاريخ للقضايا الوطنية والقومية.

الفرق المسرحية

من المؤكد أن النشاط المسرحي في المدارس وما كان يلاقيه من إقبال من قبل الجمهور، واستقبال العامة للعروض المسرحية التي كانت تقيمها الجمعيات في بيروت، كل هذا شجع مجموعة من أصحاب المواهب على مغامرة إنشاء فرق مسرحية من باب الهواية.

ولما كانت بعض الحملات المتزمتة بدأت تواجه المسرح والعاملين فيه متهمة إياهم بالخلاعة والفساد، فقد اخذ المسرحيون الهواة يؤلفون فرقهم متسترين بعباءة الأدب أو الرياضة. وصارت الفرق تطلق على نفسها أسماء مثل: منتدى التمثيل والرياضة أو فرقة جمعية ترقية التمثيل الأدبي أو فرقة جمعية الأدب التمثيلي وغير ذلك من الأسماء مما سنعرض له. إلا أن الجمهور ما أن تعرف إلى ما تقدمه هذه الفرق من أعمال فنية فيها العظات الأخلاقية والمآثر التاريخية، حتى تغيرت النظرة بحيث لم يعد أصحاب الفرق يجدون غضاضة في إطلاق أسمائهم على الفرق التي يؤلفونها.

في العشرينات من القرن الماضي بدأت تتألف في بيروت فرقا مسرحية من الهواة هدفهم الاحتراف. عشرون فرقة ونيف أنشأها الهواة قدمت العديد من المسرحيات المترجمة والمقتبسة والملبننة وجلها عن الروايات العالمية.

1– فرقة جمعية إحياء التمثيل الأدبي

وأول ما تطالعنا به المراجع عن هذه الفرق:فرقة "جمعية إحياء التمثيل الأدبي". وقد جاء في تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان[19] "إن هذه الجمعية قد تألفت بعد إعلان الدستور، وهي تضم نخبة من هواة التمثيل ويتولى إدارتها باترو باولي[20] صاحب جريدة المراقب. "واسمها يدل على غرضها". ولم نعثر في المراجع المتوفرة على أية معلومات أخرى عن هذه الفرقة أو عن أسماء أعضائها أو عما قدمته من أعمال.

2 – فرقة رائف فاخوري

ومن الفرق الناشطة في العشرينات تلك التي تألفت من مجموعة من شباب العائلات البيروتية والتي قامت بتمثيل مسرحيات الشيخ رائف الفاخوري (جابر عثرات الكرام والريال الزائف) وغيرها، وضمت في صفوفها شاعر الشعب عمر الزعني. وقد استعانت هذه الفرقة ببعض العناصر النسائية من الرائدات لتقديم أعمالها أمثال السيدة لوريت تيان ومريم سماط[21] وفيكتوريا حبيقة.

3– جمعية ترقية التمثيل الأدبي :أسسها عام 1927 محمد شامل مع عبد الرحمن مرعي، واختاروا لرئاستها الأديب احمد دمشقية[22]، وبدأوا بمحاولات مسرحية جادة كان يحضرها الشاعر عبد الرحيم بك قليلات، مدير البوليس في ذلك الوقت وعزت بك الأدلبي، أحد وجهاء العاصمة، والدكتور مصطفى الخالدي، صاحب المستشفى المعروف باسمه في بيروت، الذين كانوا يشجعون الفرقة ويساعدونها ماديا ومعنويا.

أول إطلالة لفرقة جمعية ترقية التمثيل الأدبي أمام جمهور عام كانت في مسرح الكريستال، ففي 17 آذار 1928 قدمت الفرقة مسرحية "بين الفضيلة والخلاعة، وختمت بفاصل مضحك. أما المسرحية التالية **"بيروت على المسرح[23]"** فقد قدمت في مسرح الكريستال أيضاً، وقد كتبها رئيس الجمعية الأديب احمد دمشقية الذي ترجم لها فيما بعد مسرحية **"القناع[24]"**. ولعبت الفرقة من ثمّ مجموعة من المسرحيات مثل: **"الهاوية[25]"** لمحمود تيمور وغيرها.

في الأربعينات كثّفت الفرقة نشاطها فقدمت في التياترو الكبير **"عاصفة في بيت"** وقد أهداها جورج ابيض للفرقة، و**"المائدة الخضراء"** و**"القبلة القاتلة"** وهي مسرحية ترجمها المخرج المصري فتوح نشاطي لفرقة يوسف وهبي وأهداها الأخير للفرقة بعد أن لعبتها فرقته على مسرح الكريستال في بيروت، ثم قدمت

فرقة ترقية التمثيل الأدبي مسرحية **"في جبال لبنان"** وهي مسرحية إسبانية اقتبسها ولبنن مناخاتها محمد شامل، وتدور حول الثأر وقضية الإقطاع، ومسرحية **"الذبائح"** للمحامي انطون يزبك. وكانت الفرقة تجول من وقت لآخر بمسرحياتها في المدن السورية من دمشق إلى حمص وحماه وحلب، شأن اكثر الفرق العاملة في ذلك الوقت.

6 – فرقة عيسى النحاس: (الأتحاد المسرحي)

سنة 1912 قرر عيسى النحاس أن يؤلف فرقته الخاصة – فرقة عيسى النحاس – فضم إليه مجموعة من الشبان إضافة إلى سيدة وحيدة تدعى (نهيل) كانت تلعب دور الأم والزوجة، أما دور الفتاة فكان يعهد به إلى شاب من آل الشرتوني. وما عتمت الفرقة أن ضمت إليها عنصريين نسائيين كانت لهما مساهمات مسرحية ريادية هما: فيكتوريا حبيقة وايزابيل ستاتي[26].

قدمت فرقة عيسى النحاس في مسرح زهرة سوريا ومسرح الشيدوفر، مجموعة من المسرحيات لمؤلفين لبنانيين مثل: صلاح الدين الأيوبي لنجيب الحداد، والسموأل لأنطون الجميل، وغيرها، بعدها انتقل عيسى النحاس إلى مرحلة جديدة من مراحل مشواره الفني، فبدّل اسم فرقته وأطلق عليها اسم "فرقة اتحاد المسرح اللبناني"، وأخذت الفرقة تقدم أعمالها في التياترو الكبير.

سنة 1920 عمل عيسى النحاس مع جورج ابيض خلال مروره في بيروت وشاركه في رحلة مسرحية داخلية (جبيل والبترون وطرابلس وبعلبك) وأخرى خارجية إلى سوريا. وفي عام 1924 سافر عيسى النحاس وفرقته إلى العراق (بغداد والبصرة)، ثم هبط إلى "مسقط" في سلطنة عمان متوجها بعدها إلى كراتشي فالهند، وحطت الفرقة رحالها في بومباي حيث لعبت: هاملت وعطيل وهارون الرشيد وبعض الأسكتشات الفكاهية بالعامية الهندية.

كان عيسى النحاس من أوائل المحترفين في فن المسرح في تلك الحقبة، بمعنى انه كان متفرغا، وكان بالإضافة إلى تنقله في المدن والمناطق اللبنانية في مطلع الأربعينيات، يؤم المدن السورية لتقديم مسرحياته واغلبها من اللون التاريخي مثل السموأل وناسك لبنان (1946). وعندما أوقف نشاط فرقته انشأ أو محترف لتأجير الملابس والديكورات المسرحية.

7 – فرقة أسرة بيروت: أسسها واخرج أعمالها رشاد العريس[27] بعد أن انشق عن فرقة ترقية التمثيل الأدبي، وكان من أعضائها البارزين: عبد الرحمن مرعي، صلاح عبوشي[28]، محمد النقاش، مأمون اياس، محمود الحبال، انطون ربيز وغيرهم. قدمت الفرقة مجموعة من المسرحيات منها: نتاشا، النور في القبر، 18 يوما في الصين...

8 – فرقة جمعية أنصار التمثيل العربي: كان من ابرز ممثليها خضر هدبا، محمد القرى، محمد المسالخي ومحمود اللاز.

9 – فرقة جمعية الأدب التمثيلي :أسسها ميشال هارون وضمت مجموعة من الممثلين الهواة معظمهم من أساتذة المدارس إضافة إلى فيليب عقيقي وجوزف غريّب وميشال ثابت. أما العنصر النسائي فقد كان في طليعته لميا فغالي وروز نصر كما شاركت المطربة لور دكاش في مسرحية المجنون التي قدمتها الفرقة سنة 1942.

قدمت فرقة جمعية الأدب التمثيلي ابتداء من سنة 1939 بضع مسرحيات جميعها من إخراج ميشال هارون وهي على التوالي:

1 – مسرحية مظالم الحياة[29] للشيخ ادوار الدحداح في سنة 1939 –1940
2 – مسرحية الجزار والي عكا للأستاذ عبد الله حشيمة سنة 1941
3 – مسرحية المجنون للأستاذ ميشال هارون سنة 1942
4 – مسرحية قيس بن عاصم للشيخ ادوار الدحداح سنة 1944

وكانت الفرقة تعيد عرض مسرحياتها بالتتالي عاما بعد عام حتى توقفت عن العرض عام 1955[30].

كان لفرقة جمعية التمثيل الأدبي لجنة شرف مؤلفة من الأساتذة: عمر فاخوري، د. أديب خلف، فاضل سعيد عقل وغنطوس الرامي. وكانت هذه اللجنة، بالإضافة إلى مهامها الأخرى، تحضر تمارين الفرقة للمحافظة على سلامة اللغة العربية إذ أن جميع المسرحيات كانت تقدم باللغة العربية الفصحى.

10 – فرقة شامل ومرعي:

ألّف شامل ومرعي فرقتهما في بداية الأربعينات وكانت تضم إليهما، سعاد كريم، ادمون وفردينان فارس، أمال العريس، فؤاد القرى شفيق حسن، ومجموعة من الممثلين. وقد أسعدت هذه الفرقة اللبنانيين بما كانت تقدمه على مسرح الوست هول في الجامعة الأميركية من كوميديات راقية.

قدمت هذه الفرقة ابتداء من سنة 1945 مسرحيات عدة من تأليف محمد شامل مثل: الكركون، المدرسة القديمة، مصيدة العرسان، جنة الدنيا، ضربة حظ، مشكلة زوجية، بنك تسليف[31]، عودة المرحوم وغيرها. واستمرت بتقديم أعمالها حتى سنة 1958.

11– فرقة علي العريس:

عام 1940، وبعد عودته من القاهرة حيث قدم بعض التابلوهات الغنائية الراقصة من بطولة زوجته ناديا العريس (تقلا شمعون) في صالة ببا عز الدين ومن ثمّ في صالة بديعة مصابني، انشأ علي العريس مسرحا استعراضيا يوميا في بيروت إذ استأجر مقهى "الكاريون[32]" وحوّله إلى مسرح أطلق عليه اسم "تياترو ناديا".

قدم علي العريس على خشبة "تياترو ناديا" عددا كبيرا من الاستعراضات الغنائية الراقصة، إضافة إلى مسرحيات من فصل واحد كانت تقدم في بداية العرض مثل مسرحية:هارون الرشيد، أهل الفن في جهنم وكليوبترا والدارعة الحربية وغيرها كثير.

12 – فرقة وجيه ناصر أو "الفرقة اللبنانية للتمثيل والموسيقى": ألف وجيه ناصر فرقته من مجموعة من الممثلين مثل: مرغريت غاوي، شاديا نجيب، ماري حداد، فؤاد باسيلا، جبران قازان نقولا معلولي، عبد الله طبارة، رشيد علامة، الياس وميشال طبراوي وغيرهم.

بدأ وجيه ناصر نشاطه المسرحي على مسرح التياترو الكبير بتقديم مسرحية "الممثل" وهي من تأليفه، كما قدم فيما بعد مجموعة من المسرحيات المؤلفة والمترجمة: خفايا المجتمع، قتلت ولدي، عاصفة في بيت، شهداء 6 أيار[33]، يوليوس قيصر وماساة كوريولان لشكسبير، النسر الصغير لأدمون روستون، غادة الكاميليا[34] لألكسندر دوماس وقيس وليلى وغيرها[35].

13 – فرقة الأرز الفنية: أسسها جورج قاعي وضمت مجموعة من الممثلين مثل: لوسيان حرب إحسان صادق وميشال ثابت، جوزف جبرايل، ايلي ضاهر، سعاد كريم، ملفينا أمين وغيرهم.

بدأت الفرقة نشاطها بتقديم مسرحية "العاشق الشارد[36]" من تأليف جوزف غريّب وقد لعبت فيها الدور النسائي الأول الفنانة نزهة يونس[37]. وأخيراً قدمت الفرقة عام 1949 في التياترو الكبير مسرحية "عذاب الضمير" وقد حولها جورج

قاعي فيما بعد إلى فيلم سينمائي. بعدها أوقف جورج قاعي نشاط الفرقة وتحول نهائيا إلى السينما ليكون مع ميشال هارون، من أوائل اللبنانيين الذين أسسوا صناعة وفن السينما في لبنان[38].

14- فرقة عبد الحفيظ محمصاني: أسسها عبد الحفيظ محمصاني في الأربعينات وكانت تضم حوالي 27 ممثلا نذكر منهم على سبيل المثال: رشيد علامة، نهاد النصولي، سليمان الباشا، موسى خاشو، انطوان الزغبي، ومحمد الكبي وغيرهم.

قدمت الفرقة مجموعة من المسرحيات المترجمة والمقتبسة بمعدل مسرحية كل ثلاثة اشهر. من هذه المسرحيات: ليالي فرجيني، فتاة الأرز، فنان يبكي، جريمة أب، هذا جناه أبي، ريا وسكينة، الأمير بشير والجزار[39]، كسرى والعرب، فقراء الشوارع، دموع اليائسة، كرسي الاعتراف[40]، عبد الكريم بطل الريف[41] وجميعها باللغة العربية الفصحى.

15 - الفرقة اللبنانية للسينما والمسرح: أسسها في أوائل الأربعينات الشيخان يوسف وسامي القاضي وكان من أعضائها: روز نصر، شفيق عطاالله، شفيق أبو شقرا، ميشال تابت، ملحم تيماني، وسليمان الباشا. أول عمل للفرقة كان مسرحية "أم البنين" من تأليف وإخراج المؤسسين وقد قدمت على مسرح فاروق عام 1945، بعدها قدمت الفرقة مسرحية "حلم الذيب" و"أخت الرشيد" و"الزوجة العذراء" و"الزوجة المتمردة". وقد استمر نشاط الفرقة حتى عام 1954 [42].

17 - الفرقة الفنية للتمثيل: أسسها في الأربعينات، سليمان الباشا وشارك في أعمالها كل من: رشيد علامة، الياس رزق، سمير فوزي، سعاد كريم، موسى خاشو، انطوان الزغبي، ناديا علامة، حنان، ملك، نزهة يونس، دنيا، حبيب فاضل، نهوند، جمال سركيس ووداد جبور.

قدمت الفرقة مسرحيات عدة اشهرها مسرحية "جنيت على نفسي" من إخراج موسى خاشو على مسرح التياترو الكبير برعاية الرئيس سامي الصلح وحضور الجنرال فؤاد شهاب. واستمرت الفرقة بتقديم أعمالها حتى عام 1956 [43].

18- فرقة أنصار الشباب للتمثيل والغناء: أسسها عام 1945 علي الجندي. قدمت هذه الفرقة في الأربعينات (46 و47) عدة مسرحيات منها: حياة الشباب، صوت الفقير، كلام الناس، حبك في قلبي، لذة الحياة.

19 - فرقة الاوبرا اللبنانية للتمثيل: أسستها ممثلة من الرواد هي سعاد كريم أنيسة كنعان عام 1940، وكانت تضم حوالي عشرين ممثلا وقدمت أعمالها في التياترو الكبير، ومسارح سينما الكابيتول والامبير والريفولي والرويال ومسرح الاونيسكو. أما باكورة أعمالها فكانت مسرحية "الأعمى" من تأليف محمد السبليني وإخراج محمود القرقدان[44].

في عام 1942 قدمت الفرقة مسرحية وطنية بعنوان "في سبيل الوطن" وفي عام 1944 "كرسي الاعتراف" وفي عام 1946 "جنفياف". كما لعبت الفرقة المسرحيات التالية: السموأل، الاحتلال[45]، عطيل، غادة الكميليا، صابر افندي[46] وجبران خليل جبران مع الياس رزق. هذا وقد طافت الفرقة بعروضها في سوريا والأردن وعدة مدن لبنانية[47].

20- فرقة بيار روفايل: أسسها عام 1949 بيار روفايل وضمت: غطاس ضو، وحيد عبد الصمد، فيليب القزي، سهيل حموي، شفيق سكر، فؤاد سعد وانطوان بيطار. قدمت هذه الفرقة مجموعة من المسرحيات منها: الأمير بشير ورفقة، المصدور، وغيرها.

21 - فرقة المسرح الحديث: ألفها في مطلع الخمسينات واخرج أعمالها محمد كريّم. وقد لعبت هذه الفرقة عدة مسرحيات منها: "المائدة الخضراء" لزهير مغربل وكوميديا "أول في الصف" و"قيس وليلى" لمحمد كريّم و"الحب العذري" لتوفيق الحكيم. وذلك في مسارح متعددة منها: مدرسة بيت الأطفال والكلية العاملية والوست هول، كما قدمت الفرقة أعمالها على مسارح نقالة في مناطق مختلفة في لبنان.

القاعات المسرحية

كانت الأعمال التمثيلية في أواخر القرن التاسع عشر تقدم في دور الوجهاء والأعيان في المناسبات السعيدة. فقد مثلت مسرحية "فرح ابن سرور" في منزل آل حمادة بمناسبة زواج أحد أفراد العائلة، ومسرحية "ولادة مع الوزير ابن زيدون" للشيخ إبراهيم الأحدب في بيت الحاج حسين بيهم احتفالا بختان ولده محمد راشد عام 1876، ومسرحية سيف النصر ليوسف الأسير في منزل عبد الغني بيضون[48] في محلة الباشورة في بيروت عام 1847، ومثلت مسرحية "فتاة الغار" في دار عبد الله حنتس ومثلت في دار حبيب القرداحي مسرحية الشاب الجاهل السكير لطنوس الحر.. الخ.

المسارح العامة

في مطلع القرن العشرين أخذت الحركة المسرحية تزدهر شيئا فشيئا، وخرجت المسرحية من المنازل والمدارس إلى الحياة العامة، الأمر الذي استدعى إنشاء صالات عدة لتستوعب هذا العدد من الفرق الوافدة إلى بيروت إضافة إلى الفرق المحلية. وقد شيّد لهذا الغرض مجموعة من الصالات في العاصمة والمدن اللبنانية، نذكر منها:

1 – مسرح زهرة سوريا:

كان موقعه في ساحة البرج في بيروت لكن ثمة خلاف في تحديد هذا الموقع، فالبعض يشير إلى انه كان قائما في الجنوب الشرقي لساحة البرج وهو المكان الذي عرف فيما بعد بملهى البريزيانا أو سطوح البريزيانا وهذا ما نرجحه، ويشير آخرون إلى مواقع أخرى مختلفة.

وفي مطلق الأحوال فان هذا المسرح هو اقدم المسارح التي بنيت في العاصمة مستوفية الشروط الفنية. وأول تاريخ لنشاطه عثرنا عليه يعود إلى عام 1895 حين قدّم المطرب انطوان المصري مسرحية "ضحية الحب"[49]. وفي عام 1897 قدمت على هذا المسرح رواية "عاقبة الغرام" تخللها غناء بين الفصول من "الست روجينا المغنية الشهيرة في الشام[50]".

وجاء في الأهرام بتاريخ السبت 7 يناير (كانون الثاني) 1899[51]:

.. وقد مثلت في بيروت في مساء 30 ديسمبر الفائت في ملعب زهرة سوريا رواية "كوكب العشاق" وهي رواية بديعة الوضع، حسنة التنسيق، يقصد بها إلى تهذيب الأخلاق، ولذا سرّ الجميع منها وطربوا بنغمات حضرة مدير الجوق انطون افندي مزاوي الشهير، والتمسوا إعادة تمثيلها فعين لذلك مساء السبت 7 يناير.

كما مثلت على هذا المسرح في عام 1899 أيضاً رواية "الحسود" وقد تخللها غناء من المطرب الشهير الشيخ صالح العربي المصري[52].

ويوم الخميس في 10 كانون الثاني 1901 لعب الجوق المصري على هذا المسرح "تحت حماية ملاذ ولايتنا الأفخم" رواية عايدة لسليم النقاش، وكان ثمن بطاقة الدخول ريال مجيدي[53].

وفي نيسان 1901 عرضت في هذا المسرح، تحت رعاية قنصل فرنسا العام في لبنان، الكونت دي سرسي رواية "الإخلاص البنوي" وهي رواية شعرية فرنسية بقلم المسيو ميشيل بورير، وقام بتمثيلها فريق من الأدباء وطلبة مدارس جمعية

القديس منصور دي بول بحضور رئيس الجمعية الفيكونت فيليب دي طرازي ونخبة من أعيان الثغر ووجهائه[54]".

وفي 19 تشرين الثاني 1904 مثل على خشبة مسرح زهرة سوريا جوق الخواجة اسكندر سيقلي "رواية الطبيب المغصوب" وهي رواية مضحكة ذات ثلاثة فصول شارك في تمثيلها الممثلة ماري سماط.

وفي تشرين الثاني 1906 مثّل جوق سليمان القرداحي رواية شهيدة الوفاء[55]: وهي مأساة ذات خمسة فصول عنيت الجمعية الخيرية الأرثوذكسية في بيروت بتمثيله. وقدم على هذا المسرح سنة 1908 رواية "البرج الهائل"[56]، بإشراف الجمعية الخيرية الإسلامية[57]. كما مثلت عليه مسرحية "السموأل أو وفاء العرب" لأنطون الجميّل بإشراف جمعية اخوة الفقراء المارونية[58].

ويبدو واضحا أن هذا المسرح كان مجهزا لاستقبال الفرق المحترفة. فلقد قدم عليه الشيخ سلامة حجازي عام 1909 مجموعة من رواياته الشهيرة: عائدة، روميو وجولييت، عظة الملوك، ضحية الغواية، غانية الأندلس، صلاح الدين الأيوبي، عواطف البنين، تليماك، مغائر الجن وماري تيودور وغيرها.

كما قدم على هذا المسرح عام 1910 مسرحية "البلد على المسرح قبل الدستور" من تأليف المحامي داود النقاش، وهي تمثيلية تمثل الأحوال الحاضرة في حينه وتشرح الأخلاق والعادات.

وفي شهر آب 1919 قدم جورج ابيض وعلى مدى عشرة أيام مجموعة من مسرحياته:

لويس الحادي عشر، مدام سان جين مع نابليون، هملت في كين، في سبيل الوطن، أوديب الملك، هارون الرشيد، وغيرها. وقد شاركه غناء خلال الفصول الشيخ حامد مرسي، خليفة الشيخ سلامة حجازي. وخصصت حفلات نهارية للسيدات أيام الجمعة والأحد والثلاثاء في الساعة الثالثة بعد الظهر[59].

2 – مسرح الكريستال:

بني على مدخل سوق النورية لجهة الشرق، غربي ساحة البرج. وقد شيّد على طراز المسارح الأوروبية، سواء لجهة مقاييس الخشبة وتجهيزاتها أو لجهة الكواليس وغرف الممثلين إلى الصالة الفخمة وما حوته من الواح مذهبة مما جعله بمصاف دور الأوبرا الغربية. كل ذلك مع مراعاة ضبط الصوت (ACOUSTIQUE) فاستقطب بذلك الفرق الكبرى حيث لعبت عليه فرق اجنبية عدة مثل فرقة "الكوميدي فرانسيز" و"فرقة سبينلي" وفرناند ألباني وجوق روبين –

الكسندر وغيرها. ومن الفرق العربية فرقة سلامة حجازي ويوسف وهبي وجورج ابيض وأبناء عكاشة (عبدالله، زكي وعبد الحميد) ونجيب الريحاني وعلي الكسار وأمين عطاالله وفوزي منيب، فضلا عن العديد من الفرق اللبنانية. كما غنى على خشبته كل من أم كلثوم وعبد الوهاب وفتحية احمد وغيرهم من كبار المطربين والمطربات العرب. وقد تحول هذا المسرح فيما بعد إلى صالة للسينما.

قدمت على خشبة هذا المسرح الفرق الأجنبية والعربية والمحلية العديد من مسرحياتها، منها:

– في 16 كانون الأول 1923 مسرحية "جابر عثرات الكرام" لرائف فاخوري.

– في 23 شباط 1923– قدم الممثل الأرمني المعروف كاربيت خاجيكيان رواية عطيل مع جوقة أرمنية وقد خصص ريع التمثيل لأغاثة مهاجري الارمن[60].

– في منتصف نيسان 1923 قدمت منيرة المهدية اوبريت عايدة[61]

– الأحد في أول تشرين الثاني 1925 قدم نخبة من شبان المدينة رواية "ضحايا الغرام" تحت رعاية موسى بك نمور رئيس المجلس النيابي وخصص ريعها لجرحى الشرق[62].

– في أيار 1925 قدمت جمعية الرحمة المستترة رواية "عواطف الآباء" ترجمة الصحافي الأديب الشيخ ادوار الدحداح[63].

–1 كانون الثاني 1926 الآنسة "رينيه لودجر" الممثلة الفرنساوية الشهيرة ورئيسة الجوقة الفرنسية قدمت رواياتها الراقية[64]

– في كانون الثاني 1928 قدمت الممثلة الفرنساوية الشهيرة "سبينلي" مع جوقها للبيروتيين بضع روايات جديدة،

– في شباط 1928 قدم جوق روبين – الكسندر مجموعة من أعماله

– في آذار 1928 قدمت جمعية الكشاف المسلم في بيروت مسرحية رائف فاخوري "الريال الزائف".

– 2 أيلول 1930 قدمت "فرقة مرقاة التمثيل اللبنانية رواية (شيطان البرج)"[65].

ابتداء من 13 تشرين الثاني 1930 أحيت النجمة المسرحية الفرنسوية "فرناند ألباني" بضع حفلات تمثيلية حضرها المسيو بونسو[66] وعقيلته وفريق من كبار موظفي المفوضية العليا.

3 – مسرح التياترو الكبير:

شيد في عام 1927 ويقع في شارع المير بشير، على أطراف ما يعرف اليوم بساحة رياض الصلح، وكانت تحف به مجموعة من حوانيت بيع

الكتب التراثية والمدرسية. وقد انشأه مالكه جورج تابت ليلبي متطلبات الفرق الأجنبية التي كانت تقدم عروضها في العاصمة، وليكون بالتالي منافسا لمسرح الكريستال.

وقد أجاد المهندس يوسف افتيموس في تصميمه وفي طراز بنائه، إذ تميز ببهوه الفسيح الذي يتفرع منه إلى اليمين وإلى اليسار درجان عريضان يؤديان إلى مقصوراته وألواجه الفخمة. وفي هذا البهو عدة أبواب تفضي إلى الصالة الأنيقة وإلى الخشبة المستوفية لجميع الشروط الفنية. وقد بنى افتيموس في أعلى القاعة قبة ضخمة يمكن فتحها لتسمح بدخول النور والهواء كلما دعت الحاجة إلى ذلك، فجاء هذا المسرح آية في الجمال والفخامة.

وهذا بعض ما جاء في الصحف عن نشاط التياترو الكبير بالنسبة للفرق غير اللبنانية:

– في 21 آذار 1929 باشرت فرقة "موغادور" الباريسية الشهيرة تقديم عروضها بعد النجاح الباهر الذي حققته في مصر. وقد كان تهافت البيروتيين شديدا منذ اليوم الأول لحجز التذاكر نظرا لأهمية هذه الفرقة التي ستتولى التمثيل للمرة الأولى على مسرح التياترو الكبير[67].

– مساء الأربعاء 11 ك1 1929 افتتح التياترو الكبير موسم التمثيل الفرنسي "الاوبريت كلاسيك" الذي استقدم في سبيله فرقة من احسن الفرق الباريسية شأنه في جميع ما يقدمه على مسرحه الكبير، وستقوم هذه الفرقة بتمثيل سلسلة من الروايات الشهيرة والرائعة التي ولاشك سيقابلها البيروتيون بالتنشيط والإقبال.

– في حزيران 1931 قدمت فرقة الكوميدي فرانسيز مجموعة من رواياتها الكلاسيكية

وإلى التياترو الكبير حضرت عام 1929 فرقة رمسيس وقدمت بضعة مسرحيات بالاشتراك مع جورج ابيض، منها: الشريدان، غادة الكاميليا، كرسي الاعتراف وغيرها.

أما بالنسبة للإنتاج اللبناني، فقد كان للتياترو الكبير دور هام في تنشيط الحركة المسرحية المحلية، إذ وجدت فيه الفرق اللبنانية خير ملعب لتقديم مسرحياتها.

في يوم الجمعة في 12 حزيران 1931 قامت جمعية مرقاة التمثيل اللبنانية بإحياء حفلة أدبية مثلت فيها رواية "الأمير الثائر" وهي رواية أدبية اجتماعية، وقد تكلم أثناء الحفلة الشاعر الخفيف الروح عبد الرحيم بك قليلات والشيخ إبراهيم

منذر وأطربت الحضور بصوتها الرخيم الآنسة لور دكاش. وقد بيعت الأوراق بسعر 50 و25 غ. ل. س

وقد جرت في التياترو الكبير مناظرات أدبية حادة منها تلك التي ألقى فيها الأخطل الصغير قصيدة بحضور اوغست باشا أديب بمناسبة تأبين الشاعر وديع عقل وقال فيها:

قل للوديع أفي جوارك منزل	بين القبور لأمة وبلاد
فالقبر إن عق البلاد رجالها	وتبدلت بالأصدقاء أعاد
وهوت إلى الدرك السحيق وقادها	في الغي شرنمة من الأوغاد

وهنا تدخلت على الفور قوى الأمن واقتحمت المسرح وكبلت الأخطل الصغير بغية زجه في السجن غير أن الجمهور المحتشد في الصالة هجم على قوى الأمن وحرروا الشاعر وأعادوه إلى خشبة المسرح حيث اكمل القصيدة[68].

4 – مسرح الامبير:

كان في حينه من اكبر المسارح مساحة في بيروت، خصوصا لجهة عدد المقاعد. كان يقع إلى الجنوب الشرقي من ساحة البرج لجهة الجميزة وعلى مقربة من مسرح زهرة سوريا (الباريزيانا) وكان يتميز بطبقتين من الالواح تطلان على الصالة الفسيحة ذات المقاعد الفخمة، وقد لعبت على هذا المسرح مجموعة من الفرق الأجنبية مثل فرقة ماري فالسماكي وفرقة البورت سان مارتان وغيرها، واختارته الممثلة الشهيرة فاطمة رشدي دون سائر المسارح لتقدم عليه مسرحياتها. كما قدم عليه أمين عطا الله "كشكش بك" عروضا عدة في آذار 1924.

- في تموز 1925 قدم أبناء عكاشة على مسرح الامبير الأوبرا الغنائية شمشوم ودليلة[69]

وفي 16 نيسان 1929 قدمت عليه "مغناة الملكين[70]" وهي من وضع الأب مارون غصن والحان وديع صبرا. وقد أعيد تمثيلها في الشهر نفسه لصالح جمعية النهضة النسائية. وفي 29 أيار 1928 وتحت رعاية رئيس الوزراء الشيخ بشارة الخوري. قدمت مسرحية "ارثر ملك بريطانيا" تأليف الخوري يوسف الحداد وخصص ريعها "لخير فرقة كشافة جمعية طوبيا البار"[71].

- في 8 أيار 1929 قدمت الفنانة فاطمة رشدي بإدارة المخرج عزيز عيد عدة مسرحيات ناجحة[72].

أما بالنسبة إلى الفرق الأجنبية فقد استقدمت إدارة مسرح الأمبير عدة فرق أجنبية منها: "جوق ماري فالسماكي" في سنة 1927 و"فرقة بورت سان مارتان" الباريسية التي أحيت عدة ليال تمثيلية ابتداء من 2 نيسان من عام 1929. قدمت الفرقة عدة عروض مسرحية مثل: سيرانو دي برجراك، الأيكلون، شانتكلير CHANTECLER، نابليون الرابع NAPOLEON IV، (مرفع الحب) CARNAVAL DE L'AMOUR، جناية CRIME

5 – مسرح الرويال[73]: وكان يدعى قبلا مسرح "الشيدوفر" – CHEF DOEUVRE. قدمت عليه الكثير من الفرق أعمالها ولعل أشهرها فرقة "شركة ترقية التمثيل العربي"

- (عكاشة أخوان[74]) التي قدمت مجموعة من رواياتها.
- كانت الحفلة الأولى الافتتاحية مساء الخميس في 16 تموز 1925 "رواية عبد الرحمن الناصر" أدبية تشمل جزءا من تاريخ الأندلس وتحليلا أخلاقيا متنوعا من العهدين القديم والجديد يهتدى به لمعرفة سر تقدم الأندلس وسبب تأخره. كما قدمت الفرقة عدة مسرحيات أخرى منها: التوبة، صلاح الدين، وشمشوم ودليلة.

6 – مسرح "تياترو ناديا"

خلافا لكل ما ذكر عن مسرح يدعى الكاريون، فلم يكن ثمة مسرح يحمل هذا الاسم، بل كان هناك مقهى اسمه الكاريون استأجره علي العريس من مالكه الحاج علي حموية وحوله إلى مسرح، وبنى فيه خشبة للتمثيل والاستعراض، وانشأ فيه الألواج والبنوارات وصمم الصالة بشكل فخم، وأطلق عليه اسم "تياترو ناديا" وقدم عليه أعماله المسرحية والاستعراضية.

واستمر علي العريس يقدم على هذا المسرح ألواناً من العروض التمثيلية والاستعراضية من عام 1940 وحتى عام 1946، حين أفلست الفرقة وتوقفت عن العمل، فحوله الحاج علي حموية إلى مستودع للحنطة، حتى عام 1948 حين استأجره عبد القادر كريدية وأطلق عليه اسم "مسرح فاروق" وبعد أفول نجم الملك فاروق في مصر وصعود نجم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر أطلق الأخوان كريدية على هذا المسرح اسم "مسرح التحرير".

واستمر هذا المسرح يقدم أعماله المسرحية الشعبية الفكاهية إضافة إلى الوصلات الغنائية، وبشكل يومي حتى بداية الحرب الأهلية اللبنانية عام 1975.

7 – مسرح الوست هول في الجامعة الأميركية:

أطلق عليه هذا الاسم تخليدا لذكرى البروفسور "وست" وهو يتسع لستمئة وثلاثين مقعدا وتبلغ مساحة خشبته حوالي الأربعين مترا مربعا. كانت تقدم عليه مسرحيات باللغات الإنكليزية والعربية والأرمنية وأحياناً بالفرنسية.

هذه المسرحيات كانت تقدمها وتنتجها الجمعيات والنوادي في الجامعة، وفي طليعتها "جمعية العروة الوثقى" التي قدمت الكثير من المسرحيات شارك فيها طلاب لبنانيون وعرب ممن لمعت أسماؤهم فيما بعد على الصعد السياسية والعلمية والاجتماعية.

ومن سجلات مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت عثرنا على بعض التفاصيل عن المسرحيات التي قدمت على مسرح الوست هول، نثبتها هنا نظرا لأهميتها في مسار حركة المسرح اللبناني في تلك الفترة.

قضي الأمر

كوميديا ذات أربعة فصول لمؤلف لولا المحامي السيد: سعيد تقي الدين

الساعة الثامنة والربع من مساء السبت الموافق 9 شباط 1926

تمثلها جمعية العروة الوثقى. وقد شارك في التمثيل: **تقي الدين الصلح واميل بستاني**

رواية: بين نارين بقلم الياس بك فياض 1927

إلى الحمراء

مسرحية من خمسة فصول

تأليف وإخراج الأستاذ أنيس الخوري المقدسي

الجمعة 21 آذار 1930 الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر

السبت 22 آذار 1930 الساعة الثامنة بعد الظهر

من المشتركين: **رئيف خوري، سليمان نابلسي، تحسين كمال**

البك أو الأباء والبنون

رواية ذات أربعة فصول تأليف: ميخائيل نعيمة وإخراج كنعان الخطيب

الزمان: الساعة الخامسة بعد ظهر. الجمعة في 20 آذار 1931

الساعة الثامنة من مساء السبت في 21 آذار 1931

فوق الانتقام

تأليف: فريد مدور، إخراج: كنعان الخطيب

تمثيل نخبة من أساتذة الجامعة الأميركية في بيروت بينهم: **اميل بستاني، موسى سليمان، نجيب علم الدين، كمال اليازجي**

الذبائح 1932

تأليف: انطون بك يزبك

إخراج: الأستاذ اميل بستاني بمساعدة الأستاذ بشارة واكيم

كذّبه يا أبى

تأليف: فريد مدور

قدمت مساء السبت في 7 أيار 1932

النقد

كان من الطبيعي لهذا النشاط المسرحي الذي بدأت وتيرته تتكثف في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، أن تواكبه بعض الأقلام النقدية، نتلمس بداياتها في بعض الصحف اليومية والدوريات. وهو وان كان بشكل عام نقدا بسيطا إلا انه كان دليلا على بداية اهتمام الكتاب والصحافيين بما كان يقدم على مسارح العاصمة، سواء منها الأعمال المحلية أو العربية الواردة من مصر، أو الأجنبية وجلّها فرنسية. ومن البديهي القول إن هذا النقد لم يكن مبنيا على أسس فنية أو مستندا إلى دراسة أكاديمية، إنما هو نقد شكلي خارجي اعتمد على مقاييس استقاها الناقد أما من ذوقه الخاص أو بالمقارنة مع ما شاهده من مسرحيات عرضت، سواء كانت عربية أو أجنبية.

في مطلع القرن العشرين بدأ النقد في صحف بيروت على شكل أخبار عن المسرحيات التي قدمت أو التي ستقدم، ونلاحظ في هذه المرحلة بضعة "كليشيهات" جاهزة كانت متداولة مثل: كان التمثيل على غاية ما يرام، أو وقد وفّى الممثلون الأدوار حقها من الإلقاء والإيماء، أو وقد شهد القاصي والداني لهذا الجوق بحسن التمثيل الخ...

كان النقد في تلك المرحلة يأتي تقريظا للعمل وتشجيعا للعاملين فيه، فهو نقد تشجيعي تساهلي إذا صح التعبير.

ابتداء من العقد الثاني من القرن العشرين اتجه النقد وجهة اكثر دقة، وصار يلمّ ببعض التفاصيل ويتعرض لبعض عناصر العرض، وان كان بقي محصورا ضمن العموميات، آخذا بعين الاعتبار تصفيق الجمهور كمعيار لنجاح الممثل. واقتصر هدف النقد على الترويج للأعمال المسرحية، فتطرق لعناصر محددة من عناصر التمثيل، كمثل التركيز على الإلقاء دون الاهتمام بأساليب التعبير الأخرى، واختلط فيه نقد النص بنقد التمثيل والإخراج.

ومهما يكن الأمر فان هذا النقد قد أفاد حركة المسرح خصوصا لجهة النصوص فقد كان معظم الذين انبروا للنقد كما أسلفنا هم من الصحافيين والأدباء أو حتى الشعراء.

نقد أمين الريحاني لمسرحية شهداء الغرام:

ولعل أعمق نقد مسرحي علمي وصلنا هو الذي كتبه فيلسوف الفريكة الأديب أمين الريحاني حوالي عام 1898 لمسرحية "شهداء الغرام".

شاهد أمين الريحاني هذه المسرحية من بطولة الشيخ سلامة حجازي ومن تعريب نجيب الحداد. وهي المسرحية التي لاقت نجاحا كبيرا في حينه وقرظتها الصحف واحبها الناس لما فيها من مواقف تراجيدية ولما تضمنته من الحان.

وقد جاء نقد الريحاني لهذه المسرحية مغايرا لكل ما كتب في الصحافة عنها. فبينما أطنب الكتاب في مدح هذه المسرحية وأشادوا بأداء الشيخ سلامة المميز، بأسلوب إنشائي وبتعابير مستهلكة، جاء نقد الريحاني عميقا وبأسلوب حديث وأنيق، وهو لو لم يحتو على بعض التعابير مثل: التشخيص والتياترو والرواية وغيرها من التعابير التي كانت متداولة في مطلع القرن العشرين لظننا أن الناقد هو واحد من النقاد المعاصرين.

كان نقد الريحاني منهجيا يدل على فهم عميق لفن المسرح، ودراية واسعة بتفاصيل العرض، ولا عجب في ذلك فالريحاني كان قد عرف فن المسرح واكتسب خبرة فيه من خلال اشتراكه في إحدى الفرق المسرحية الغربية، ومن مشاهداته للعروض المسرحية خلال إقامته في الولايات المتحدة الأميركية عام 1888.

لذلك فان الريحاني يفند في نقده لمسرحية شهداء الغرام عناصر العرض تفنيد العارف المطلع، فهو هنا، كما سنلاحظ، يتطرق إلى النص وينتقد التعديل الذي ادخله المعرب على مسرحية شكسبير بحيث افسد التسلسل الدرامي، وينتقد بطأ الحركة وبلادة التعبير الحركي والأدائي لدى الشيخ سلامة حجازي، وكذلك الأمر

بالنسبة للممثلة التي لعبت دور جولييت، فهي بطيئة قليلة التفنن، متقلبة ألخ.. كما ينتقد ملابسها التي لا تتفق مع عصر المسرحية.

احتفاء اللبنانيين بالمسرحيين الوافدين

ولقد احب البيارتة المسرح كفن فيه متعة الفرجة وحسن الموعظة وروعة الأدب نثرا وشعرا، نظرا لما كانت تحرّكه بعض الأعمال المسرحية في نفوسهم من فخر واعتزاز بالتاريخ الوطني والقومي ورجالاتهما – صلاح الدين الأيوبي على سبيل المثال. لذلك كانوا ينظرون نظرة إكبار واحترام إلى أعضاء الفرق المصرية الزائرة ويحيطونهم بمختلف ألوان الحفاوة والتقدير لدى وصولهم إلى الثغر اللبناني. وكان البعض يركبون القوارب ويحفّون بالباخرة التي تقل هذه الفرق ويواكبونها حتى وصولها إلى الميناء[75]، وكان البعض الآخر يرابط عند البلدات الجنوبية الساحلية، لاستقبال الفرق الوافدة برا من مصر عبر فلسطين، وما أن يصلوا إلى بيروت حتى تقوم الجمعيات والمؤسسات بتكريمهم بإقامة حفلات يحضرها رجال الدولة والوجهاء والأدباء والشعراء. كذلك كانت الصحافة تولي اهتماما خاصا وتساهم على طريقتها بالترحيب بالفرق الوافدة.

أما الجمعيات الأهلية فلم تكن تقصّر في واجب الاحتفاء والتكريم. فتقديرا ليوسف (بك) وهبي الذي كان يعتبر نابغة التمثيل في تلك الأيام، وللإعراب عن إعجاب شباب بيروت بمنزلته السامية، أقامت له جمعية الكشاف المسلم في بيروت، في الساعة الخامسة من بعد ظهر الأربعاء في 24 نيسان 1929 حفلة تكريمية في ردهة الفندق العربي حضرها نخبة أدباء المدينة وشبابها الناهض، يتقدمهم سماحة الشيخ محمد الجسر رئيس مجلس النواب وقنصل المملكة المصرية.

افتتح الاحتفال الأديب محيي الدين النصولي بخطاب بليغ، ثم تعاقب على الكلام كل من الأساتذة: جبران التويني، الشاعر عبد الرحيم قليلات، وجرجس الخوري المقدسي. ثم وقف الأستاذ جورج أبيض وارتجل كلمة رقيقة شكر فيها الجميع، ثم ألقى مونولوج جريح بيروت[76] لشاعر النيل حافظ إبراهيم.

تكريم الفنانة فاطمة رشدي

وفي منتصف أيار 1929 أقام فريق من طلبة بيروت حفلة تكريمية للفنانة فاطمة رشدي (صديقة الطلبة[77]) في اوتيل رويال، حضرها عدد كبير من أهل الأدب وعشاق فن التمثيل، وقد ألقى بعض الأدباء خطبا شيقة

وقصائد رائعة في الفن وأبنائه. وكان بين المتكلمين الأدباء: سليم بهو، كنعان الخطيب، احمد دمشقية، تقي الدين الصلح، إبراهيم رشدي، ابراهيم طوقان، وخليل تقي الدين. وقد عزفت الموسيقى بعض الأدوار الشجية ثم شكرت فاطمة رشدي المحتفلين بها شكرا مؤثرا[78].

تكريم الفنان جورج ابيض

أما الفنان اللبناني الأصل جورج ابيض فقد احتفل به في حزيران عام 1929 فريق من أدباء العاصمة في قاعة رستوران المطعم الفرنسي، حضرها رئيس الوزراء (آنذاك) الشيخ بشارة الخوري، سليم بك تقلا محافظ العاصمة، الشيخ محمد الجسر رئيس مجلس النواب وفريق كبير من أدباء المدينة ومفكريها. وقد تناول الكلام في الحفلة كل من الأدباء نقولا بسترس، انطون بك شحيبر، فليكس فارس، حليم دموس وجرجي باز.

الخاتمة

حاولنا في ما تقدم أن نعرض باختصار لمرحلة تأسيسية من مراحل الحركة المسرحية في بيروت التي عمت كل لبنان وانتقلت بالتالي إلى سائر الأقطار العربية. والمحددة بالخمسين سنة الأولى من القرن العشرين، وهي حركة كما بيّنا كانت ناشطة سواء على صعيد التمثيل والفرق العاملة أو على صعيد التأليف أو الترجمة أو الاقتباس. فبعد انتقال الرواد المسرحيين الأوائل إلى مصر، احتضنت المدارس الفن التمثيلي وشجعته إذ وجدت فيه إطاراً لتعميق الانتماء الديني والوطني والقومي في مرحلة الحكم العثماني والانتداب الفرنسي، واعتبرته بالإضافة إلى ذلك مجالا للتدريب على الخطابة وبالتالي معيارا للمستوى الأكاديمي.

وقد أبدت المعاهد والجامعات من ثمّ اهتماما ملحوظا بالنشاط المسرحي، بتشجيع من الأساتذة الذين ألّفوا المسرحيات أو ترجموها، والأساتذة الأجانب الذين أمدوا الطلاب بتقنيات التمثيل والإخراج.

هذا الاهتمام بالمسرح من قبل المدارس والمعاهد والجامعات، شجع أصحاب المواهب الفنية خارج نطاق المدارس على إنشاء العديد من الفرق المسرحية التي قدمت في النصف الأول من القرن العشرين ألواناً مختلفة من المسرحيات منها التراجيدي والميلودرامي والكوميدي، ومنها الديني والتاريخي والاجتماعي والرومنسي والوطني، باللغة العربية الفصحى وبالعامية.

هذا الجو الملائم لنمو بذرة المسرح شجع الأدباء والكتاب اللبنانيين على تأليف المسرحيات وبرز بعض النقاد، معظمهم من الصحافيين، انبروا للتعليق ونقد ما كان يقدم على الخشبات اللبنانية من أعمال سواء ما قام بأدائها الفرق اللبنانية أو الفرق الأجنبية.

وقد أدى ذلك كله إلى إنشاء مجموعة من القاعات المسرحية في المدارس والجامعات كما في القطاع الخاص، استقبلت عددا من الفرق الزائرة من عربية وأجنبية أمتعت الجمهور اللبناني الذي اخذ يزداد عددا يوما بعد يوم بما كانت تقدمه من ألوان مختلفة من الفن المسرحي.

هذه الفرق الزائرة أفادت ولا شك الحركة المسرحية المحلية، التي اتخذت من هذه الفرق قدوة ومثالا، فحاولت النسج على منوالها والاستفادة من تقنياتها، الأمر الذي أدى إلى خلق مناخ فني استمر حوالي خمسة عقود.

ولقد لعب اللبنانيون دورا رائدا في تعميم فكرة المسرح، وكان لهم نشاطهم المتعدد الجوانب في شتى الأقطار العربية، وبرز منهم على صعيد التأليف والترجمة مجموعة من الأدباء والشعراء اثروا الحياة المسرحية بمجموعة من المسرحيات العربية والأجنبية نذكر منهم على سبيل المثال: نجيب الحداد، الياس فياض، فرح انطون، أديب اسحق، عمر فاخوري، خليل مطران، الياس أبو شبكة وغيرهم.

وعلى صعيد الفرق المسرحية فقد عرف العالم العربي وخاصة مصر فرقا أسسها وشارك فيها لبنانيون أمثال: سليم النقاش ويوسف الخياط وسليمان القرداحي الذي كان له فضل تعريف التونسيين بالمسرح العربي.

كما كان نجيب حبيقة أول من عني بتأليف كتاب عن فن كتابة المسرحية، سابقا بخمسة عقود ما ترجم ونشر في هذا الموضوع من دراسات.

ولقد حفل النصف الأول من القرن العشرين بسلسلة من الأحداث الهامة والمصيرية كان لا بد لها من التأثير سلبا على المناخ العام في البلاد مثل الحربين العالميتين، فقد كانت انعكاسات الحرب العالمية الأولى في العام 1914 مأساوية على اللبنانيين، إذ قتل منهم خلق كثير اثر التجنيد الإجباري الذي قامت به الدولة العثمانية من خلال "شعبة اخذ العسكر" وسيق الرجال والشباب مكرهين إلى حرب اليمن وحرب شنق قلعة وحرب الترعة وغيرها من الحروب التي كانت تخوضها الدولة العثمانية ضد الذين كانوا يتربصون بالإمبراطورية العثمانية الدوائر بعد أن أصبحت "الرجل المريض". وكان لهذه الحرب من جهة ثانية آثار مأساوية عميقة

علـــى الصـــعيد المعيشي والاجتماعي والحياتي بشكل عام، فقد تفشت المجاعة في البلاد وراح ضحيتها ألوف اللبنانيين من نساء وأطفال وشيوخ.

أمـــا الحـــرب العالمـــية الثانـــية فقـــد كانت انعكاساتها اقل ضررا من الحرب الأولـــى إلا أنـــنا لا نســـتطيع أن نـــنكر ســـلبياتها علـــى اللبنانيين لجهة الضيق الـــذي رافقهـــا علـــى الصـــعيد المـــادي والمعيشـــي إضـــافة إلى أجواء الخوف والرعـــب التـــي رافقـــت ســـنينها، أو لجهـــة خـــنق الحـــريات والتنكـــيل بدعاة الاستقلال نتيجة الاستعمار الفرنسي.

هـــذا ومن الأحداث الهامة التي كان لها آثاراً بارزة على المجتمع اللبناني ككل: الأزمـــات السياسية وحركات التحرر التي انتهت بالاستقلال، ناهيك بالثورة العربية ومشـــاريع سوريا الكبرى والهلال الخصيب، ونكبة فلسطين عام 1948 التي أدت إلـــى احـــتلال قســـم مـــن فلســـطين ونتج عنها كارثة اللاجئين. كل هذه الأحداث والأزمـــات كـــان لها التأثير السلبي على الاستقرار المطلوب لنمو الحركات الفنية، وخففت كثيرا من زخم صعود وتطور المسرح في لبنان الذي استمر مع ذلك يعمل قدر إمكاناته.

غير أن المسرح اللبناني لم يستطع أن يقاوم تأثير عنصرين بارزين طرءآ على الـــبلاد وأضعفا بنيته الغضة، عنينا بهما السينما الناطقة والإذاعة. ولما كان المفهوم المســـرحي لـــم يكن قد نضج بعد والوعي المسرحي لم يكن قد تعمق، بسبب قصر الـــتجربة المســـرحية، فقد ضعف المسرح تحت ضربات هذه المستجدات. وجذبت الســـينما اهـــتمام الجمهور، فتحولت القاعات المسرحية إلى صالات سينمائية، بينما توجه الأدباء والكتاب الدراميون والممثلون المسرحيون إلى الدراما الإذاعية وكونوا النواة الأولى لركيزة العمل الفني للدراما المسموعة. واستقطبت الإذاعة أدباء كتبوا للمســـرح أمـــثال: محمـــد شامل وعبد الله حشيمة ورئيف خوري وميخائيل صوايا وتومـــا الخوري يعقوب وخليل هنداوي واحمد مكي وغيرهم من كبار الأدباء كما انتقل نشاط مجموعة من المخرجين أمثال نزار ميقاتي وشكيب خوري ومحمد كريّم إلـــى الإذاعـــة حيث وجدوا في استديوهاتها مجالا رحبا للعمل الدرامي بعد أن خبا وهـــج المسرح وتحولت المسارح إلى صالات للسينما كما أسلفنا. وأهملت المدارس النشـــاط المسرحي في صفوفها وألغت احتفالات نهاية السنة، وذبلت شعلة المسرح إلا مـــن بعـــض المسرحيات كانت تطل بين الحين والآخر. وكان على المسرح أن ينـــتظر بعض الوقت قبل أن يعاود نشاطه في حركة حديثة، كان المحرك لها هذه المـــرة، المخرج الذي عاد من الخارج حاملا معه المفاهيم الجديدة للإخراج والنص

المســـرحي. وقامت نهضة مسرحية حديثة في الستينات، استمر نشاطها يتكثف مع الوقـــت حتى بداية الأحداث الدامية في لبنان في العام 1975 حيث أصيب المسرح بنكسة ما زلنا نعاني من آثارها السلبية حتى اليوم.

***

• – إعلامي وباحث

[1] – نقولا النقاش، أرزة لبنان، ص 15

[2] – جرجـــي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، منشورات دار مكتبة الحياة، ص 275

[3] – كان قد تم الاتفاق على تقديم اوبرا عايدة في هذه المناسبة إلا أن فيردي لم يستطع إتمامها في الموعـــد المحـــدد فاستعيض عنها بأوبرا ريغوليتو. وثمة رأي يقول بان السبب كان عدم جهوزية الملابس والديكور مما أخر تقديمها إلى الموسم التالي 1870 – 1871

[4] – لسان الحال – العدد 5935 سنة 1909

[5]– تأسســـت مدرسة الثلاثة أقمار سنة 1852 ومدرسة البطركية سنة 1865 والجامعة الأميركية ســـنة 1866 ومعهد الحكمة سنة 1872 وكلية القديس يوسف سنة 1875 ومدارس المقاصد ابتداء من سنة 1878 والكلية العثمانية سنة 1895

[6] – يأتي في طليعتهم الشهيدان عمر حمد وعبد الغني العريسي اللذين اعدمهما جمال باشا

[7] – د. محمد يوسف نجم، المسرحية في الأدب العربي، م. س

[8] – المحبة عدد 76 – 8تموز 1900 (لم تذكر المجلة اسم المسرحية)

[9] – الرئيس شارل دباس

[10] – جريدة البيان (لصاحبيها بطرس البستاني و طانيوس باخوس) العدد 215 – حزيران 1927

[11] – المعرض – تموز 1935

[12] – لويس شيخو – الآداب العربية في القرن التاسع عشر – منشورات دار المشرق – بيروت

[13] – ATHALIE

[14] – يـــروي الأستاذ جوزف دوناتو أن السيد نصري حداد لعب دور الساحرة في هذه المسرحية باعتـــبار أن الكلـــية لم تكن توافق على ظهور النساء على المسرح (انظر خالدة سعيد – الحركة المسرحية في لبنان – تجارب وأبعاد – 1960 – 1975 – ص27

[15] – المرجع السابق

[16] – من لقاء مع توفيق الباشا

[17] – مقابلة مع الأستاذ نبيل اشقر

[18] – من سجلات الجامعة الاميركية في بيروت – ملف الوست هول

[19] –جرجي زيدان – تاريخ آداب اللغة العربية – المجلد الثاني – الجزء الرابع – صفحة434 – منشورات دار مكتبة الحياة

[20] – اعدمته السلطات العثمانية مع قافلة الشهداء اللبنانيين

[21] – ممثلة سورية الأصل احترفت التمثيل وشاركت في روايات فرق مسرحية عدة في مصر

[22] – صحافي واديب بيروتي والد المرحوم الدكتور عفيف دمشقية

23 – لعبــتها الفرقة في الأربعينات على مسرح التياترو الكبير وشارك في البطولة النسائية ابريز ستاتي

24 – وهي قصة لويس الرابع عشر واخيه التوأم

25 – نقلها من العامية المصرية إلى الفصحى محمد النقاش

26 – شقيقة ابريز استاتي وقد ورد ذكرها سابقا

27 – بابــا رشــاد مرب شهير وهو مؤسس و مدير بيت الاطفال التابع لجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية

28 – ديبلوماسي لبناني تقلب في مناصب عديدة و كان سفيرا للبنان في عدة دول.

29 – راجع ملخص للمسرحية في فصل نماذج من المسرحيات التي مثلت

30 – بعــد توقف نشاطه المسرحي اهتم ميشال هارون بالسينما فأسس " استديو هارون للتصوير السينمائي " واخرج فيلم " زهور حمرا

من بطولة ايلين (فريحة) دفوني وجورج دفوني عام 1957

31 – المسرحية منشورة كاملة في فصل نماذج من المسرحيات

32 – كان يقع في طريق متفرع من ساحة البرج إلى جهة الغرب مواز لسوق ابو النصر ولايبعد اكثر من ثلاثين مترا عن مسرح الكريستال الذي تحول فيما بعد إلى صالة للسينما

33 –كتبها بالاشتراك مع المحامي سامي الشقيفي

34 –تعريب الأديب نقولا بسترس

35 – من لقاءات مع وجيه ناصر

36 – حولــت عام 1959 إلى فيلم بعنوان "حكم القدر" لعب بطولته جوزف غريّب، ميشال تابت، جو بحري و عهد بالبطولة النسائية إلى جميلة عيد.

37 – يفيد الفنان ميشال تابت انها لم تكن قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها

38 – اخرج جورج قاعي اول افلامه "عذاب الضمير" عام 1953

39 – من تأليف بيار روفايل

40 – ليوسف وهبي

41 عن البطل العربي عبد الكريم الخطابي

42 –لقاء مع سليمان الباشا و سامي القاضي

43 – مقابلة مع الفنان سليمان الباشا

44 – يقول معاصروه انه كان مخرجا ناجحا وممثلا قديرا

45 – فــي مقابلــة معهـــا تــروي الفنانة سعاد كريم انها كانت تلعب في هذه المسرحية دور فتاة اســرائيلية و اثــناء تقديم المسرحية في الاردن اطلق احدهم عليها النار وكاد يقتلها ظنا منه انها اسرائيلية بالفعل.

46 – المسرحية لنجيب الريحاني وقد اهداها إلى سعاد كريم بعدما شاهدها في عاليه تلعب مسرحية الاعمى واعجب بها.

47 – مقابلة مع الفنانة سعاد كريم

48 – د. محمد يوسف نجم، المسرحية في الأدب العربي، م. س

49 – لسان الحال –عدد 2093، سنة 1895

50 – لسان الحال – عدد 2486، سنة 1897

51 – د. محمد يوسف نجم، المسرحية في الأدب العربي، م. س، ص 56

52 – لسان الحال – العدد 3018 سنة 1899

53 – المحبة – 23 ك1 1900

54 – المحبة – 21 نيسان 1901

55 – هي مسرحية تسيما لفكتور هيجو.

56 – تأليف الكسندر ديماس ترجمها فرح انطون

57 – لسان الحال العدد19 تاريخ 19 كانون الاول 1908

58 – وفق ما جاء في مقدمة الرواية

59 – الحقيقة – 12 آب 1919

60 – المعرض في 25 شباط 1923

61 –المعرض عدد8 نيسان 1923

62 – البيان –الاحد 1 ت2 1925

63 –المعرض عدد 7 ايار 1925

64 – المعرض –1 كانون الثاني 1926

65 – المعرض 21 ايلول 1930

66 – المفوض السامي الفرنسي

67 – المعرض – الجمعة في 15 اذار 1929

68 – عبد الله الخوري – المصدر السابق

69 – البيان – الاحد في 26 تموز 1925

70 – كتبــت مجلــة البــيان عن هذه المغناة بتاريخ 8 ايار 1928 بانها اول مغناة عربية (اوبرا) يضــعها الأستاذ صبرا وسيقوم هذا الاحد بتجربة تمثيل فصلها الأول، وقد دعا إلى حضوره فريقا مــن اصــدقائه ورجــال الصحافة لياخذ رايهم في شان هيئة المسرح ومقتضيات التمثيل وادوار الرقص ويقدم لهم صيغة جديدة في التمثيل الغنائي.

71 – لسان الحال – 25 ايار 1928

72 – المعرض – الاحد 21 نيسان 1929

73 – كان يقع إلى الجنوب الغربي لساحة البرج وقد هدم بعد ان تحول إلى صالة للسينما عند فتح شارع بشارة الخوري

74 – فــرقة عكاشــة مــن الفرق الشهيرة الفها عام 1911 عبد الله عكاشة مع اخويه زكي وعبد الحميد

75 – تــروي الفــنانة فاطمــة رشــدي فــي مذكراتها انها عندما زارت بيروت لتقديم رواياتها التمثيلــية امــتلأت الميــناء باللنشــات تطلــق صفاراتها ترحيبا بمقدم الباخرة التي تقل الفرقة،

وكـان المسـتقبلون يهـتفون باسـمها وبـأيديهم باقـات الـورد والأعـلام. (مجلة المسرح، القاهرة، عدد 17، مايو 1965)

[76] – قصيدة شعرية للشاعر حافظ إبراهيم نظمها اثر قصف الاسطول الطلياني لمدينة بيروت عام 1912 (راجع القصيدة في الملحق)

[77] – أطلق الطلاب في مصر لقب صديقة الطلبة على الفنانة فاطمة رشدي لأنها فتحت لهم ابواب المسـرح ثـلاث مـرات في الأسبوع مجانا لحضور احدى مسرحيات فرقتها (مصرع كليوبترا) لأحمد شوقي، وكانت ضمن المواد المقررة في المناهج المدرسية

[78] – المعرض- الأحد 19 ايار 1929



بـيروت
طائر الفينيق والتنين

أ. عاطف خليل الحكيم*

مقدمة: بيروت الخالدة

... على مرأى من بيت عرس "الباقيه"،
جعل من عرائس العنب غابة كثيفة،
وقدّم هدية الخمر لأدونيس و"القيثيرية".
هناك مجموعة من "المنغمات"،
حيث تسدل الكروم غلالتها في وجه الغابة الصنوبرية العظيمة،
متسلقة نحوها لمعانقتها.
اقترِبن يا حوريات لبنان، عرائس الشعر،
في السهل المجاور لبيروي، وصيفة الشرائع!
أنشدن لنا نشيد ميمونة،
حرب كرونيدس في الأعماق، وهياج الخمر.
إنها مدينة "بيروي" سحر حياة الإنسان،
مرفأ كل حب، الراسخة فوق البحر،
ذات الجزر الرائعة، والخضرة الممرعة[1] .

ما تقدم، هو مقطع من نشيد "بيروت الميمونة"، من ملحمة "الديونيزياكا"[2]، وهي ليست لشاعر موهوب من شعراء اليوم، إنها للشاعر "نّنوس البانوبولي" الذي عاش في الإسكندرية، نهاية القرن الرابع ميلادي. هذه النشيد ليس حلاوة ما قبل البحث، إنما هو البحث. فإن كنا لا نستطيع عرضه بسبب طوله، إلا أننا لا نستطيع الدخول إلى بحثنا إلا من خلال بابه الرحب. أما لماذا اخترناه باباً ومدخلاً، فقد اخترناه للدلالة على رأي متواضع، وهو أنه مهما حاول الباحث إقفال باب كتاب بيروت المدينة، فإن علم الآثار سيفتتح له أبواباً.

حين اختاروا بيروت عاصمة عالمية للكتاب، وفقوا كل التوفيق، علماً أنهم لم يقدموا شيئاً جديداً أو غريباً عن بيروت، فبيروت ومنذ فجر التاريخ هي عاصمة

عالمية للكتاب وللقلم، وليس للكتاب وحسب، إنما لجميع حقول الإبداع والصناعة والخلق، فقد أبدعت بيروت علمياً في الطب والصيدلة والفلك والهندسة والموسيقى والقانون. كما أبدعت أدبياً في القصة والرواية والملحمة والشعر والأسطورة. وكذلك أبدعت فلسفياً، فابتدعت الفكر والحوارات الفكرية والدينية.

لقد أبدعت بيروت في جميع حقول العلم والفكر باستثناء المذاهب الدينية، اجل باستثناء المذاهب الدينية. ذلك، أن بيروت لم تكن يوماً شارعاً للسجال الديني والطائفي والمذهبي. أبداً بيروت ملتقى الأقوام والحضارات واللغات. وإذا لم تكن يوماً للسجال الديني الطائفي، فهذا لا يعني أنها وقفت موقفاً عدائياً من الدين، بل كانت نصيرة الأديان، مختلف الأديان وبما يتسم به الدين من عمل صالح وأخلاق حميدة، وفضائل قيّمة. الدين وبيروت صنوان لعقل واحد، لا ينفصمان ولا يفترقان، وهذا ما سنحاول تبيانه في هذا البحث، "بيروت، طائر الفينيق والتنين".

لا يمكننا أن نكوّن صورة جامعة مانعة عن بيروت بدراستها منعزلة عن محيطها البيئي والجغرافي والقومي. إن تثنى لنا أن نسجن طائر الفينيق في قفص، يتثنى لنا دراسة بيروت منعزلة عن محيطها الطبيعي. تماماً وكما لا يمكننا دراسة بيروت منعزلة عن الأساطير القريبة منها والبعيدة، ذات النشأة البيروتية أو تلك ذات النشأة الأممية. بيروت، ومنذ فجر التاريخ، تمثل دور طائر الفينيق، لا بل هي طائر الفينيق عينه. أكثر من مرة سقطت بيروت والأمة في براثن التنين، واكثر ما كانت قيامة الأمة بفضل بيروت، إذ أن بيروت هي الفارس الذي أنقذ العذراء أو الطفل أو الرجل من براثن تنين الشر. أبداً بيروت هي طائر الفينيق ويشمخ فوق بطرس (صخرة) الروشة، رأس بيروت. فيفرد جناحيه، ويظلل من حوله العواصم والمدن، أقربها صيدا، قربان النار، وأوسطها القاهرة، أسطورة الشجرة المصرية- قصة "إيزيس واوزيريس"- التي نبتت في وسط معبد بيروت، تحديداً في مدينة جبيل، فقد كانت مصر تقيم احتفالاتها الدينية في جبيل، وكأنما جبيل كعبة مصر في ذلك العصر. وأبعدها أثينا، ذلك حين حمل قدموس كتابه تحت إبطه وذهب يحرر أخته من سجون الغرب، القارة المجهولة، وحين وصل قدموس أرض الغرب، قام بتحرير الناس قبل أن يحرّر أخته وذلك بتعليمهم الحروف الأبجدية والنطق والمنطق. ونمت شجرة الفينيق في القارة الجديدة فكراً وحضارة وإسماً، إذ أطلق سكان القارة، وعربوناً للشكر، إسم أوروبا على قارتهم، تيمناً بأوروبا ابنة ملك صور إحدى المدن السورية المتاخمة لبيروت. فإذا كانت بيروت عظيمة، فهي عظيمة بما حولها من مدن وعواصم.

الأساطير كثيرة ولعل الأسطورة الأكثر شهرة أسطورة "النبي يونس" ذلك الذي ابتلعه الحوت ليلفظه ثانية بعد زمن، عند شاطئ صيدا حياً يرزق. وعلى نول هذه الأسطورة نسجت وحكيت قصة الزير، ذاك الأمير الذي قُتل في الجزيرة العربية ورمي في البحر الأحمر، ليلفظه البحر الأبيض المتوسط عند شاطئ بيروت، حيث وجده طبيب أرمني[3]، فعمل الطبيب على معالجته، وعادت إليه الحياة، ليعود بعدها إلى الجزيرة العربية ويعمل على تحريرها من براثن التنين. ونرى أن قصة "الزير أبو ليلى"، هي عينها قصة "أوزيرس وأيزيس" المصرية. وهذه العيّنة من الأساطير، إن كانت تدل على شيء، فهي تدل على انتشار وتبادل الفكر والأساطير بين بيروت وما حولها من عواصم العالم، قديماً وحديثاً.

لقد اخترنا أن ندخل بيروت من باب الشهداء، أولئك الذين قدموا حياتهم لتحيا بيروت والأمة، ولتحيا الإنسانية جمعاء. نقول الشهداء ولا نقول كبش الفداء أو القربان أو الضحية. إذ أن قرابين الأمة كثر، لا يعدّون ولا يحصون، أما الشهداء، هؤلاء الذين استشهدوا باسم فلسفتهم وقيادتهم وزعامتهم، فقليلون. ونعني بهم طيور الفينيق الذين قاموا من تحت الرماد بالفكر والفلسفة والحكمة قبل أن يقوموا بالسيف والسلاح. الفلاسفة الشهداء أولئك الذين هدموا حضارة الفكر القديم ليقيموا على أنقاضها حضارة جديدة ووطناً جديداً ودولة جديدة.

هذه الأمة وهذه بيروت اليوم، ما أحوجهما لقائم، لمخلص، لمهدي يمهّد بدمه وفكره وفلسفته للخلاص من هذا الجور، والخروج من الظلمات إلى النور. هذا ويرمز للفينيق بالشهيد الحيّ، الشهيد القيوم، شهيد الحق والخير والجمال، الذي يقوم من تحت الرماد ويخلص الأمة من براثن تنين الشر. ويرمز للرماد بالشعب الخانع، الضعيف، هذا الخنوع الذي سيبدده طائر الفينيق، إما بمصارعة التنين، وإما بمصارعة الشعب نفسه. ويرمز للشر بالحاكم الجاهل، الخائن، المستسلم لقوى الاستعمار والاستعباد، عدو الأمة والوطن والشعب، أحياناً، وأحياناً أخرى يرمز للشر بالمستعمر نفسه. ويرمز لبيروت بالرماد والخنوع والعبث، غارقة في بحر اللهو والمجون. هذا، وإن كانت بيروت رماداً، فهي تحتضن في رحمها الجمر والنار، ومنهما يلد ويقوم الفينيق الحي. كم من تنين صرعت بيروت وكم من تنين ستصرع! فمن التنين الذي خرج من البحر على شكل ثور، إلى التنين الذي تدفق مع هدير النهر على شكل أفعى. ومن التنين الذي جاء من البر على شكل ألسنة من نار، إلى التنين الذي جاء من خلف البحر على شكل صليب. ومن التنين الذي جاء من الشمال على شكل هلال، إلى التنين الذي جاء من خلف البحر على شكل نجمة.

تموت بيروت وتقوم. ستة تنانين كبيرة إلى جانب تنانين صغيرة أمثال الإسكندر والمغول وغيرهم، جاءت ونهشت لحم الأمة وغرزت أنيابها في شرايين الوطن. جاءت إلى بلادنا تنانين كثيرة، كلها انتهت بالفشل وسلمت العذراء، وخلدت على الزمان لا تموت، لأنه كان يقوم لكل تنين طائر من تحت الرماد.مرة قام على شكل حرف بريادة قدموس، وثانية، قام على شكل كلمة بريادة المعلم المسيح، وحيناً، قام حباً، وحيناً قام محبة، وأخرى جاء محمداً، وخامسة، قام على شكل أديب، وسادسةً، أدرك الأمة على شكل شهيد حكيم مفكر.

إلى جانب طيور الفينيق هذه، كانت تقوم طيور لا تعد ولا تحصى، أمثال الشهداء الأحرار، أولئك الذين أكلوا أعداء الأمة بنار أجسادهم الملتهبة. مثل داجون قائد الأسطول العسكري الفينيقي، وقادة مدينة صيدا التي امتد نار لهيبها حتى أدرك قرطاج، المدينة الصورية وراء البحر، والتي أحرقت بنار كرامتها التنين الروماني. هذا في العهود القديمة. أما اليوم، فتكاد قيامة أرمينيا أن تحاكي قيامتي صيدا وقرطاج. لقد قام فينيق العصر الأرمني وأحرق التنين التركي العثماني بجمر ناره. أجل فتك السلاح التركي بشعبنا الأرمني، إلا أن الأرمن أماتوا بموتهم القاتل، تنين الشر والحقد. وهل مات شعبنا الأرمني حقاً؟ شعبنا لم يمت ولن يموت. وهو خالد على التاريخ. وها هو قد ارتدَّ إلى الداخل، يتحصن ويعدّ العدة لليوم العظيم. وشرحت سوريا صدرها لتستقبل اللاجئين من وحشية التنين العثماني. وكان لبيروت الحصة الأكبر من أبناء الشمال الوافدين، وأقسمت بيروت وفي قسمها قيامة وحرية.

بيروت والضحايا البشرية

أصدر العلماء حكمهم وانتهى الأمر:بيروت، كما أي مدينة من مدن سوريا، دينها عبادة الآلهة، وضحايا آلهتها، من البشر[4]. ربما كان العلماء معذورين، فقد استندوا بحكمهم إلى ما ورد في التوراة في سرد بعض القصص الأسطورية، كأسطورة إبراهيم الخليل، مثلاً. وعلى أثر التوراة تابع القرآن، ومن بعده العلماء، ومن بينهم التهايم، الذي يؤكد أن الضحايا كانت من البشر. ونستبعد نحن ذلك، إذ ليست الضحايا البشرية إلا إرادة التنين قيصر الإمبراطورية الرومانية على شعوب الدول المستعمَرة، كسوريا. وهذا ما يعود ليؤكده التهايم نفسه، وفي كتابه عينه، إذ سرعان ما يقول:"لقد رفض "سيزيميترس" مشاهدة ذبح "تياغينس" و"كاريكلايا" اللذين اختارهما الإيثيوبيون[5] ضحيتين ليقدموهما قربانين للإلهين "هيليوس"

و"سيلينا"، بمناسبة احتفال الانتصار. وينسحب السفسطائيون إلى داخل المعبد ليتحاشوا مشاهدة ذبح الضحيتين البشريتين، لأنه في رأيهم قربان غير شرعي، وحتى الإلهين نفسهما، سوف يستنكرانه"[6]. والسؤال ما هي هوية السفسطئيين؟ أليس السفسطائيين فلاسفة سوريا؟ وسواء كانوا إثيوبيين، من أتباع الفلسفة السفسطائية، أو كانوا سوريين، فهم قد رفضوا تقديم الضحايا البشرية للآلهة. إذ كيف يمكن جمع تقديم الضحايا البشرية للآلهة وانسحاب السفسطائيين في آن معاً؟ هل هذا من باب الصدفة والتمثيل السياسي؟ لو كان التهايم سورياً سفسطائياً، لقلنا أنه تمثيل سياسي، لكن الكاتب هو نفسه التهايم. أليس هذا تناقض في قلمه؟ أو أنه يشوّه الحقيقة؟ أين الحقيقة؟ أفي تقديم الضحايا أو في عدم تقديمها أم في انسحاب السفسطائيين؟ وبما أن السفسطائيين انسحبوا ورفضوا مشاهدة ذبح الضحيتين، إذاً، فإن حكم التهايم فيه تجني على السوريين. فهؤلاء قد أقلعوا عن طقوس تقديم الضحايا البشرية منذ زمن بعيد، منذ بدايات الحضارة المكتوبة. وما تضحية النبي إسماعيل، ابن النبي إبراهيم، والذي استعاض عنه إبراهيم بكبش من السماء، إلا خير دليل[7].

ومن يبحث عن الحقيقة، فبإمكانه أن يجدها في حكم القوي على المُستَعمَر، حكم الإمبراطورية الرومانية على أبناء الدولة المُستعمَرة، خاصة منهم الرجال الثوريين، أولئك الذين يرفضون حكم الأجنبي بكل أشكاله وبجميع أنواعه. والسؤال الذي يطرح ذاته، هل كان السوريون يمارسون طقوس الضحايا البشرية في مستعمراتهم حين كانوا إمبراطورية؟ والجواب، حكماً، لا. إذ لم نقع على أسطورة تفيدنا ذلك، حتى المؤرخين الأجانب، أمثال التهايم، لم يقعوا على وثيقة واحدة تؤكد لهم ذلك. وأظن أن المؤرخين الأجانب يبحثون، ليلاً نهاراً، عن مثل تلك الوثيقة، وما أن يجدوها حتى يقيموا الدنيا ولن يقعدوها.

في الواقع، لم يمارس السوريون على أبناء الأمم إلا ما تمليه عليهم حضارتهم الراقية وما يوحيه فكرهم الممتاز، وهذا ما سيظهر واضحاً وجلياً عند قراءة الأساطير السورية، مثل أسطورة "قدموس وأوروبا" وأسطورة "أدونيس وعشتروت".

بيروت وفينيق العصر

وتسألون لماذا لا يقوم اليوم طائر فينيق، وبيروت أشد حاجة لطائر ثوري من أي يوم آخر، يشق دربها للنصر والسلام والحرية؟ نقول أن الرماد كثيف وطائر الفينيق في الأعماق ينتظر من يختزل عنه بعض الرماد. نقصد بالرماد الجهل والفقر والأمية ومرض إنكار الذات المتفشين كالطاعون في جسم الأمة. وما هذه

الفرسان، في طول البلاد وعرضها، أمثال أبو علي ملحم قاسم المصري وإبراهيم خنجر والأطرش وسناء ووفاء...إلا بعض تلك الطيور التي تعمل على اختزال وإزالة الرماد، وبذلك تمهد الطريق للطائر العظيم الآتي من رحم التراب.

سيأتي يوم على هذه البلاد، وهو ليس ببعيد، سيقوم فيه طائر فينيق وستتجسد فيه جميع الطيور السابقة، وسيقوم في الأرض، عدلاً وخيراً، وسيحكم بالمحبة، وسيقيم دولة الحرية. لا مفر من تلك القيامة، لأن القيامة هي القضاء والقدر.

بيروت والثقافة

إذا أردتم أن تقضوا على أمة فاقضوا على ثقافتها. وأولى ثقافات الوطن هي الثقافات الأولى، ثقافات العادات والتقاليد، ثقافات الملاحم والأساطير. ليست الأساطير خرافات ومعجزات، إنما هي تاريخ واقعي سُطّر على شكل رموز وأحاجي، وذلك من أجل تضليل التنين، ولبث روح الثورية والحرية والصراع والوطنية في روح الشعب والوطن والأمة. الأساطير حوادث تاريخية واقعية كُتبت بأسلوب مسرحي أدبي.

سمعت أحد المضللين ممن يحملون شهادة إنما لا يحملون ثقافة، يتحدث عن "قصة الزير" وبلغة متهكمة ساخرة: "تاريخنا حكايات، تصوروا أن الزير يقتل في الجزيرة العربية، ويوُضع في صندوق خشبي ويرمى في البحر الأحمر، لينفذ إلى المحيط الهندي، ومن المحيط ليدخل في المحيط الأطلسي،ومن المحيط الأطلسي ليلج في مياه البحر الأبيض المتوسط، ليلفظه البحر،أخيراً، عند شاطئ بيروت ويبقى حياً". هذا الجامعي لا يعرف أن للقراءات مناهج ووجوه ومنازل وتأويل، هذا أضعف الإيمان. كما لا يعرف، أو كيف يعرف ويفهم، أن الأساطير جميعها هي مسرحيات إبداعية، فكرية تدور حركتها ما بين الآلهة والناس،على سطح الأرض وتحت أعماقها، في العالم السفلي، وفي أجواز الفضاء، في العالم الأعلى. هذا "الشهادتي" لا يعلم أن الفارس، طائر الفينيق يتزوج من الآلهة، وينجب منها الفصول والسنين، فكيف يعلم أن الفارس يولد من والدين: الجمر والنار، ومن رحم الرماد؟

الأمم الحية والتي كُتب لها الحياة بعد الموت، تلك التي تؤرخ لوجودها بلغة التورية والكناية والرمزية، هي فقط خالدة، ولها فقط وجدت القيامة. ونحن أمة أوجدت الأساطير، إذاً لنا القيامة شاء القدر أم لم يشأ، وتهكم أصحاب الشهادات أو لم يتهكموا، وأنكر ذلك مرضى إنكار الذات أو لم ينكروا.

أساطير الشرق كثيرة وقد حفظت، برموزها، مقدرات الوطن والأمة. بعض تلك الأساطير أهملت بإيعاز ممن له غاية في استعمارنا واستعبادنا. وبعضها الآخر بلغ درجة العبادة، مثل التوراة. ومن هذه الأساطير، سنقوم وسيقوم طائر الفينيق. هذا، ولنا في التوراة نظرة مغايرة عن التي درج عليها الناس. التوراة ليست دخيلة على بلادنا، ولا شعبها غريب مجتاح، ذو أطماع، ولا هي مزورة أو محرفة أو مسروقة، بل على العكس، التوراة تراث أجدادنا الأولين، كتبوها مرة، على شكل أسطورة، ومرة، أقرب إلى أشكال الحِكم والأمثال. والتوراة هذه كان قد سرقها تنين الغرب ثم رجع تحت رايتها ليقتل شعبنا، ويطمر آبارنا، ويخرب مدننا، ويطردنا من بلادنا بعد أن يحرقها ومثلما أحرق صيدا وصور وقرطاج. ودائماً يأتي التنين بثوب من حضارتنا وفكرنا وفلسفتنا. وليست هذه هي المرة الأولى التي جاء السارق تحت راية فكرنا وثقافتنا ليستعمر بلادنا، ففي الأمس القريب، جاء تحت راية الصليب: لقد سرق تنين روما إنجيلنا وجاء يستعمرنا بقوة فكرنا. وكما باءت حملات الصليبيين بالفشل، هكذا ستبوء حملات النجمة تحت ضربات شهداء الأحرار، طيور الفينيق القادمة. وسنخلص بلادنا، ونصون دولتنا، وننقذ شعبنا "اليهودي" ونشفي عيونه من مرض الضلال والعمى. إذن، هل نرفض التوراة؟ أو بالأحرى، هل تنطلي علينا الحيلة ونرفض التوراة؟ ولنعيد صياغة الإشكالية بطريقة جديدة: هل نرفض الإنجيل وهل نرفض القرآن لو أن التنين جاء يستعمرنا تحت رايات لوائهما؟

يأتي التنين إلى بلادنا بأقنعة مختلفة الوجوه، وأفضل أقنعته التي توارى خلفها، هي ثقافتنا. لقد سرق التنين ثقافتنا، ثم جاء خلفها، ينادي للحرية والمساواة والعدالة، ويعمل على طردنا من أرضنا، فهل سينجح؟ أم أن شعبنا سيقوم له بالمرصاد كطائر الفينيق ويقتل التنين ويخلص العذراء؟ سنتبين الجواب من خلال بحثنا هذا.

الأسطورة والحقيقة التاريخية

لا تقلّ الأسطورة واقعية عن أية حادثة تاريخية. الأسطورة مفرد أساطير، والأسطورة من الفعل سطّر، ومنه اشتق سطر. وكلما أمعنّا في القدم، إلى الحوادث التاريخية، كلما تحولت الحوادث التاريخية إلى نوع من الخيال، إلى أساطير. إذ يحوّل الناس الحوادث التاريخية إلى حكايات وأساطير، يشوبها الحوار المسرحي، يشترك في تمثيلها الآلهة والناس والحيوان والنبات والحجر والطبيعة. تظهر فيها الحوادث لعظمتها أقرب إلى المعجزات والخوارق، وأحياناً تبلغ درجة الخرافة.

ومن إيجابيات الأسطورة أنها قد أصبحت أقرب للحفظ والتناقل، تتناقلها الأجيال في حفلات الفرح والحزن، ومثلما يتناقلها الزمان فوق الرقم الأثرية. ومن البراهين على أن الأسطورة ليست إلا حقيقة واقعية تاريخية، هو أسطرة الحوادث الأقرب في التاريخ. لقد سطر الناس معتقداتهم المسيحية والمحمدية وحولوها إلى خرافة. وعصرنا الراهن يأسطر جميع المعتقدات والمقدسات، وأكثر ما يتحول اليوم إلى أسطورة هم القديسون والأولياء والأنبياء، وبقصد من الناس وبغير قصد، وأحياناً بإيحاء من التنين والعميان من أبناء شعبنا الضالين.

كلما أمعن الناس في الجهل، كلما أمعنوا في تشويه الحقائق، وتحريف الوقائع التاريخية. فالمسيحيون العرب قد توقفوا عند معجزات أن عيسى شفى الأعمى، وأبرأ الأبرص، وأسمع الأطرش، وأمشى المشلول. والمسلمون العرب يراوحون مكانهم، منذ خمسمئة عام، عند مقولة أن علياً قد كان فارساً مختاراً، وأنه نزل إلى الأرض السابعة وحارب الجن في يوم، وصعد ليجد أن الشمس قد غربت، فدعا إلى الله، فأعاد له شروق الشمس ليصلي، ثم تغرب الشمس من جديد[8]. هذا، وقد بلغ الغلو عند طائفة من طوائف الشيعة، أنها اعتقدت أن علياً هو الله عينه، واستقت آيات من القرآن الكريم، لتؤكد صحة معتقدها. لا بل أن بعض الشيعة، وفي المفاضلة بين النبي والأمام، فإنهم يفضلون الإمام على النبي. ضاربين بعرض الحائط حكم الآية: **{إن الذين يكفرون بالله ورُسُله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا 150 أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً 151}**[9]. وأكثر ما يشوّهه هؤلاء، يشوّهون أسطورة "البعل، مار جرجس، الخضر"، ذاك الذي قتل التنين. إذ أنهم يرسمون الحسين بن علي، صانع أول ثورة اجتماعية في التاريخ، فوق حصان، وبين أقدام حصانه، عدد من رؤوس الناس. وبذلك، يظهر هذا الرسم–علماً أن الرسم ممنوع في الإسلام– أن الحسين ليس إلا مجرم من مجرمي العصابات. ونقول هناك فرق كبير ما بين صورة البعل وما بين صورة الحسين، فصورة البعل الأسطورية، مضمونها مصارعة الشر ورموزه، ورؤوس التنين هي رؤوس الجهل والأمية والفقر والفساد السياسي والاجتماعي، أما أبعاد صورة الحسين، فهي قريبة جداً مجردة، جعل مضمونها قتل الناس، والفرق واضح لكل من علم القصتين.

لقد شوّه الجهل الديني الأعمى صور رجالات الأعلام والفكر من قديسين وأولياء وأنبياء. ليس هذا وحسب، فالقديسون والأولياء قد توقفت قدراتهم عند ظهورهم فقط، بين العامة من الناس من أتباعهم وطوائفهم،

فلا يقدرون أن يظهروا على جميع الناس الأميين والجهلة من جميع الطوائف والمذاهب، ولا على العلماء والحكماء. فلكل قديس أو وليّ طائفة وأتباع يظهر بينهم. وهو صاحب موقف وكرامة لا يتدخل في شؤون الطوائف الأخرى. كما تقتصر معجزة القديس أو الولي على شفاء المعاقين جنسياً من الذكور وحبل امرأة عقيم، أما شفاء المجتمع وحبل الأمة، فلا شأن له به.

ولم تتوقف المسألة عند تشويه القديسين والأولياء، بل تعدتها إلى تشويه صورة الأنبياء، فبعض المذاهب تتحدث عن رحلة محمد إلى السماء، ومقابلته ومحاورته مع الله وجهاً لوجه. ولفشل محمد مع الله، يتدخل موسى وسيطاً لصالح محمد. لقد تدخل موسى واختزل صلوات المسلمين من مئة ركعة في اليوم إلى سبعة عشرة ركعة، وعلى مدى خمسة مراحل[10]. وهذه صورة العذراء ترشح خمراً، وعيون المعلم تدمع دماً، فمع بدايات الحرب الأهلية، نشطت معجزة أن عذراء زحلة القائمة فوق "تل شيحا"، قد دارت تراقب وتحرس أهالي زحلة "العمالقة"، من وحشية أهالي الكرك "الأقزام". هذا، وقد بلغت الوقاحة عند بعض رجال الدين المسيحي وممن هم من أهل العلم والتوجيه الثقافي، إلى التصريح: "لقد أخطأ المسيح، فهل نلحق به إلى باب بيته"؟

هذه نبذة من تحريف وتشويه بعض مواقفنا التاريخية المشرّفة. جميع شخصياتنا، مثلنا العليا، قد تحولت إلى خرافات وحكايات[11].هذا وحين تبلغ الخرافة أوجها، تتحول إلى دعابة أو فكاهة أو نكتة. وما أكثر النكات التي تحاك حول الأنبياء المعصومين والأولياء الصالحين. اكثر النكات رواجاً اليوم، نكات تدور حواراتها ما بين الله والأنبياء، وبلغة ساخرة مشوّهة.

ومن الأسباب المهمة لرواج الأسطورة هي القيود التي تُحكم على رقاب الناس من جهل وابتعاد عن العلوم، إلى جانب عبادة الناس للمعتقدات والكتب المقدسة، فالناس يعبدون ما يجهلون. والجهلة يعبدون الإنجيل والقرآن ونهج البلاغة وأعمال الرسل. والسبب أنهم لا يقرؤون وإن قرؤوا لا يفهمون. ولا يقرؤون أو يفهمون بسبب ما يروجه رجال الدين من أن هذه الكتب لا يفهمها إلا الله والراسخين في العلم، فإن كان يفهمها الراسخون في العلم، فلماذا لا يتعلمون؟ هم يروّجون ما يروّجون، بأمر من القيصر البطل التنين. وبناءً على مقولة رجال الدين أن هذه الكتب لا يفهمها إلا الله والراسخين في العلم. برأينا، أن رجال الدين لا يفهمون تلك الكتب، فهم أيضاً ناس ومن الناس الذين لا يقرؤون. هذا من ناحية، ومن ناحية

ثانية، أن ما يأتي به أو يفسره عالم دين ما، يتعارض مع عالم دين آخر. تكاد لا تجد رجلي دين يتفقان على مقولة فقهية واحدة!

والتشويه لا يتوقف عند حدود الدين، إنما ويطال أيضاً التاريخ وعلم التاريخ والجغرافيا، فالبلاد العربية مُزقت، وتاريخها شوّه. وما يصح في علمي التاريخ الجغرافيا، يصح في بقية العلوم الأخرى، خصوصاً الفلسفة والأخلاق. نحن، اليوم، شعب ارتدّ عليه سمّ الأسطورة. نحن غرباء الدين، وغرباء الفكر، وغرباء الهوية. واعلموا أننا لا نقرأ ولا نكتب، لا نزرع ولا نحصد، ولا نبني ولا نشيّد. قلاعنا وأبراجنا، دائماً، من صناعة التنين، فبعلبك مثلاً من صنع روما، وقبورنا دائماً للغرباء، لا قبور لنا! أين قبورنا؟ وبيروت امرأة زانية ترفع سيقانها لكل تنين قادم من البحر! لقد مشى الأعداء على مقدساتنا وأساطيرنا، ولكننا سنضع حداً، وسنخرج من تحت الرماد!

إن الأسطورة هي حقيقة تاريخية، واقعية، يعمل على تشويهها وتشويه فكرنا من له، في استعمارنا، غاية، وسنحاول نزع الرماد عنها،ذلك لكي يتثنى لطائر الفينيق أن يقوم ويغيّر ذلّنا إلى عزة، وعبوديتنا إلى حرية. والأسطورة سيف ذو حدين إن لم نعرف استخدامه، ارتدّ علينا وقتلنا. وقد نجح التنين إلى اليوم، في استعمال سيف الأسطورة ضدنا، تماماً، وكما نجح في استعمال ديننا وفلسفتنا وعلمنا ضدنا. التشويه قائم على كل قدم وساق. والتزييف حدّث ولا حرج. وما هذه النبذة من الأساطير إلا دليل وبرهان على صحة العبث بفكرنا وبحضارتنا وبتاريخنا. ولكن، هذا العبث لا ينطلي على طائر الفينيق ولا على أصحاب العقول النيّرة النزيهة، ولن ينطلي.

نقد الأسطورة

تفيدنا الأسطورة، في بلاد المشرق القديم وسوريا، بمدنها: غزة، صور صيدا، بيروت، جبيل، أوغاريت، أنطاكيا، ساحلياً وبعلبك، دمشق، عمان، بغداد، إيبلا، داخلياً، وفي الجزيرة العربية وفي مصر، أن الشعب يختار، مع بداية كل سنة، ضحية، فتاة عذراء أو طفلاً أو رجلاً، تقدّم فداءً للطبيعة كالنهر أو الصحراء. هذا باختصار مضمون الأسطورة. ونحن نرى، أن مثل هكذا تفسير، لا يقنع العقل ولا يرضى به عاقل، وهو عارٍ عن الصحة والمنطق والعلم. ونسأل: إذا ما كان النهر يشكل خطراً على الناس، فإن البحر أكثر خطر، فهل قدمت الضحية والقرابين للبحر أو للشير؟ وإذا ما قُدمت، في سوريا، للنهر والبحر، فهل قدمت، في شبه

الجزيرة العربية، للصحراء؟ وإذا ما كانت طبيعة سوريا صحراوية، فهل تبقى العادة أن تقدم العذراء الضحية، للنهر أم تقدم للصحراء؟ علماً أن الصحراء ليست ببعيدة عن التخوم السورية وخطرها داهم ودائم.

أما السؤال التالي على الإشكالية الأولى، فهو: بما أن ديانة عشتروت كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها، فهل اقتصرت احتفالات التضحية عند نهر إبراهيم؟ هذا، وعلى طول الشاطئ، أنهر كثيرة كنهر بيروت ونهر الموت ونهر أبو علي، إلى جانب الكثير من الأنهار الداخلية الغزيرة (الليطاني)، والتي هي أكثر خطر من نهر إبراهيم. فهل كانت تقام أعراس الموت والتضحية عند ضفاف دجلة مثلاً، أو عند الفرات، أو عند نهري سيحون وجيحون؟ وهل قامت أعراس التضحية عند كل نهر وفي آنٍ معاً؟

أما الإشكالية الأخرى، والتي تفرضها الأسطورة، فهي: ممن تُختار الضحية الفداء؟ هل تختار من عامة الناس، وعلى امتداد البلاد، أم تختار من شريحة معينة من شرائح المجتمع، كشريحة الكهنة، أو من حزب التجار أو من حزب الحرب؟ أما في شبه الجزيرة العربية، ومثلما تفيدنا الرواية، فأن التضحية بالبنات كانت مفروضة على كل بيت، فإذا ما فرضت على كل بيت، فأي بنت كانت تقدم ضحية، البكر أم الصغرى، أم ما بينهما؟ هذا ما لم تذكره لا الأساطير ولا التاريخ!

أخيراً، هل توقفت طقوس الأضاحي في بلاد المشرق، أم أنها ما زالت سارية المفعول؟ للجواب مساران: المسار الأول هو أن التنين قد استبدل أسلوب احتفال الضحية، كبش الفداء، بأسلوب اغتيال الضحية وإعدامها، مثل، إعدام شهداء استقلال الكيانات وإعدام الزعماء. أما المسار الثاني، فإن عادات طقوس الأضاحي لم تتوقف، ولكن استبدلت الضحية[12]، فبعد أن كانت من البشر، أصبحت من الحيوان أو الأموال أو النبات. ما زالت شعوب بلاد ما بين النهرين وسوريا ولبنان والعالم الإسلامي أجمع تحتفل بأعياد الأضاحي، مثل عيد الأضحى، ومن أعياد القرابين، خبز القربان في الكنيسة والاحتفال بأول قربانة، إلى أعياد التضحية الجماعية فوق جبل عرفة في مكة، أو الفردية في كل بيت، حيث تمتد الولائم وتنحر الخراف السليمة والمثمنة، إرضاء لله، سيد السماء. واليوم، تقام احتفالات الأضاحي، سنوياً، بالحيوان فداءً عن الإنسان. أما في الماضي، في زمن الأسطورة، فقد كان يُضحى بالإنسان فداءً عن الدولة والوطن والأمة، وسواء بأمر من التنين أو بأمر من الذات الإنسانية والوعي الإنساني، والوعي الاجتماعي والقومي. وهذا ما نراه اليوم، من جديد، في حفلات التهاني والمباركة بمناسبة

سقوط الشهداء في سبيل الوطن والأمة والدولة. لقد كان الوعي القومي والهوية والدولة منذ زمن سحيق في القدم، لهذا كان الإنسان يقدم نفسه فداءً عن بلاده وهويته وقوميته. وأحياناً وحين تنفذ الأعذار وتبطل الحيلة، تقدم المدينة نفسها فداءً عن المدن الأخرى وعن الدولة والعاصمة، وهذا ما رأيناه في استشهاد صور أولاً، واستشهاد قرطاج ثانياً. لقد ضحى السوريون بأرواحهم في سبيل الدولة المقدسة، وذلك لتبقى قائمة قوية سليمة، لأنه لا حياة دون دولة، ولا كرامة دون هوية. ولعله من هنا جاءت مقولة السيد المسيح: **{ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان}**.

هذا، ولم تكن الدولة التنين أقل حضارة ووعي من بلاد سوريا ولبنان وبلاد ما بين النهرين، بل كانت تضارعها حضارة. ولكي تحافظ على دولتها وتستمر أكثر مدة ممكنة، سيدة للعالم، رأت أن تقضي على الدولة السورية، وعندما عجزت عن مقاتلة سوريا بالحرب وبالجيش، عمدت إلى إعدام النساء والرجال والأطفال. وإعدام الأطفال أتى على عدة مرات على بلادنا: مرة في عهد ميلاد النبي موسى، ومرة أخرى في عهد ميلاد النبي عيسى، ومرة باضطهاد أسرة النبي. فقد بلغ الظلم الروماني درجة في الانتقام، أنه لم يعدم الرجل الثائر، زعيماً كان أو قائداً، بل عمد إلى إعدام أحباء الزعيم الثائر، وهذا ما سنبيّنه في أسطورة التنين الروماني والثورة السورية في الجزيرة العربية، وفينيقها محمد بن عبد الله. لقد أعدمت روما عبد الله بن عبد المطلب، والد النبي القادم، إنتقاماً من عبد المطلب زعيم الثوار الأحرار.

نستخلص من هذا العرض النقدي أن الأسطورة ترتبط ارتباطاً وثيقاً وأساسياً بالدولة وبحركة الدولة التوسعية إلى إمبراطورية. وأن الصراع بين الدول هو صراع على سيادة العالم، وهذا الصراع قد بدأ باكراً ومنذ فجر التاريخ. وما مقولة الرئيس الأميركي الراحل جورج بوش: "من هو سيد العالم؟" إلا تأكيداً على صحة ما نقول. كما نستخلص أن مركز العالم وسيادته هو هنا في بلاد المشرق، في بلاد ما بين النهرين وسوريا، وفي إحدى عواصم هذه البلاد كبيروت، ودمشق، وبغداد... وما يؤكد كلامنا الحرب الأوروبية- الأميركية على بلاد المشرق، وقد بدأت بوادرها الجديدة على العراق، والآتي أعظم. فالحروب ومنذ فجر التاريخ هي حروب شرق-غرب. شرق، وتقودها إما دمشق وإما بيروت وما يعاضدهما من دول آسيا وأفريقيا، وغرب، وتقودها إيطاليا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا، وما يعاضدها من دول أوروبا. والسؤال الأبرز، هل أن لبيروت دور في هذا الصراع؟ أجل لبيروت الدور الأعظم في هذا الصراع، لكن لا يجب أن ننظر إلى بيروت بحدودها البلدية[13]، إنما بحدودها الثقافية والفكرية. يجب أن ننظر إليها بعين

أدونيس، وبعين قدموس، وبعين البعل مارجرجس الخضر وبعين حنا بعل، وبعين معاوية وبعين جبران...

إن أسطورة "أدونيس وعشتروت" أو ديانة الحب التي نشأت عند نهر أدونيس، ويسمى نهر إبراهيم، كانت طائر الفينيق الذي لم يحتمل السجن في بيروت، بل انطلق إلى العالم شرقاً وغرباً. وما يصح على ديانة أدونيس في الحب، يصح على كل ديانة مشرقية أخرى، وما ديانة التوراة والإنجيل والقرآن إلا خير دليل وأسطع برهان.

بيروت موقع وريادة

تميزت فينيقيا-كنعان، وعلى طول الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وبجميع مدنها، بدءاً من أقصى الجنوب عند غزة، وصعوداً حتى كليكيا، مروراً بصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وطرطوس وأوغاريت واللاذقية، بحضاراتها العريقة والمتنوعة كالفلسفة والعلوم والأساطير. وتقع مدينة بيروت، في وسط هذه المدن، كموقع القلب من الجسم. وهي مسقط رأس وموطن عدد كبير من النحويين ورجال القانون والفلاسفة. فقد كانت بيروت الساحلية، مركزاً لمدرسة الحقوق الأولى في الإمبراطورية الرومانية، تماماً ومثلما كانت منطقة الشمال الساحلي، والعاصمة انطاكيا، ومنطقة الشمال الداخلي، بمدنها أفاميا وحران وإيديسا- الرها، مركزاً للفلسفة.

وشرقي بيروت، تشمخ قمم جبل لبنان، تكللها الثلوج على مدار السنة. وتفصل هذه الجبال بيروت عن لبنان الداخلي. وإذا كانت بيروت مركزاً للثقافة والملاحة البحرية، فوادي البقاع هو الذي كان يغذي بيروت والعالم القديم بالحبوب وخاصة القمح، وذاعت شهرته حتى عُرف بإهراءات روما. كما اشتهر بالكرمة وإنتاج الخمور والنبيذ، ومعبد باخوس[14] إله الخمر في بعلبك وكهوف كسارة وشتورة وزحلة تشهد على ذلك. ويمتد وادي البقاع شمالاً وينتهي بسهل حمص الرحب. وتُشكل البراري الشاسعة الممتدة من حدود جبال لبنان الشرقية والموغلة شرقاً حتى حلب والموصل في العراق، المدّ الطبيعي لبيروت، تجارياً واجتماعياً وثقافياً، هذا المد الذي نقل معه الديانة الساحلية، ونعني ديانة أدونيس الحب، أدونيس الطبيعة، وأدونيس الفينيق الذي حاكى هناك، نظيره تموز دموزي-جلجامش.

وكما كانت مدن الشرق مسرحاً لثقافة بيروت وفكرها وأساطيرها، كانت بيروت مسرحاً لحضارات تلك المدن. من هنا، إذا ما أردنا أن نعرف حدود أي مدينة،

يجب أن ننظر إلى حدودها الثقافية والفكرية والتجارية وليس فقط إلى حدودها الطبيعية وتضاريسها الجغرافية. وبناء عليه، فإن موقع بيروت المدينة، يمتد من البحر الأبيض غرباً إلى بغداد شرقاً، ومن غزة جنوباً، إلى أنطاكيا شمالاً، شاملاً جميع المدن الثقافية والفكرية والعواصم السياسية. ولا يمكننا أن نحصر مدينة بيروت ببلدية بيروت، في حديثنا عن بيروت طائر الفينيق، أو عن بيروت والأساطير.

الآلهة كثيرة بكثرة الظواهر الطبيعية، حتى يكاد أن يكون لكل ظاهرة طبيعية إسم إله أو إلهة خاص بها. وهناك العديد منها لا يمكن أن نتناولها في هذا البحث، وذلك لسببين: حصر المكان، وضيق انتشارها، أو أنها عرفت بأسماء أخرى كالإله هرقل الصوري الفينيقي مثلاً، عُرف أكثر ما عُرف باسم ملقرت، كما عُرف أكثر انه من الآلهة اليونانية، وليس من الآلهة السورية.

وبما أن الظواهر الطبيعية واحدة، تقريباً، في كل مكان، إذاً لا بدّ أن تنتشر أو ينتشر فكرها وآلهتها في كل مدينة ومنطقة. خصوصاً، في البيئة الجغرافية ذات الإقليم الواحد، والطبيعة الواحدة. فلا يمكننا، مثلاً، أن نفصل الإله مردوخ أو مردوك البابلي، عن أية مدينة سورية أخرى، كبيروت، مثلاً، خصوصاً حين نعلم أن الطبيعتين متشابهتان كل التشابه. وإذا أضفنا إلى ذلك، أن الآلهة كانت متشابهة في المزايا والصفات، وأنها كانت تنتقل من عصر لعصر بكل صفاتها ومزاياها، بتغير الاسم أحياناً، فإن هذا الانتقال إن دلّ على شيء، فهو يدل على عقيدة التقمص والمنتشرة بشكل واسع في بلاد العالم الأصفر، كالصين والهند وكل الشرق الأقصى.

ومن المؤسف أن أكثر الباحثين، من أجانب ومحليين، وممن اشتغلوا في الأساطير السورية، قد اشتغلوا على قاعدة التجزئة والتقسيم، كأن جعلوا من كل مدينة مملكة أو دولة قائمة بذاتها، مستقلة كل الاستقلال عن أية مدينة أخرى من مدن الأمة الواحدة، وبالتالي جعلوا لها آلهتها الخاصة، وفكرها الخاص. ومثلما قسموا المكان وأقاموا بينه الحواجز والحدود، فقد قسموا الفكر والفلسفة والمعتقد السياسي والديني أيضاً. ومن خلال جولة ميدانية على الأرض، في بلاد العالم العربي، والذي يشار إليها بالعالم الإسلامي، يتضح لنا أنه، مهما تعددت الطوائف والمذاهب والشيع والأحزاب، فهي في النهاية، تدور في فلك الدين الإسلامي الواحد، مسيحياً ومحمدياً.

لقد بلغ التشويه حدّه عند الباحثين، إذ كل باحث اتخذ لبحثه إلهاً وحصره في مدينة معينة وقعد يدرسه، ضارباً بعرض الحائط مقولة أن الإله كان منتشراً، ديانة وفكراً وشخصية، في جميع مدن سوريا، والعالم القديم برمته.

نظرية في قراءة الأساطير

يقال أن الأساطير تعود في الوجود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. هذا وتتضمن الأساطير الكثير من الأسئلة الفلسفية والفكرية، كالصراع بين الخير والشر والبحث عن الخلود والفناء، وتبيان المصير الإنساني وأين وكيف سينتهي، وأيهما أبقى في الوجود، الروح والفكر الأخلاقي أم الجسد. ويرى الباحثون أن أهم تلك الأساطير هي "أسطورة جلجامش"، ذاك الملك الإله الذي يبحث عن الخلود، فيجده، في نهاية المطاف، في الروح وفي العمل الصالح.

بما أن الإنسان من جمهرة الحيوانات المجتمعة، وبما أنه تطور مستديم من حقبة الحيوانات المنحطة إلى حقبة الحيوان الأسمى، وبما أن الحضارة هي أيضاً في تطور مستديم، إذاً لا يمكننا أن نصدق أن الأساطير تعود في الوجود لثلاثة آلاف من السنين، إذا لا يعقل أبداً أن ينتقل الإنسان، مباشرة وبسحر ساحر، من حقبة الحيوانات المنحطة الغرائزية إلى حقبة الإنسانية الراقية العقلية. ولا يعقل أن ينتقل الإنسان من حياة اللقط، إلى حياة استدرار خيرات الطبيعة بين ليلة وضحاها. خاصة إذا ما علمنا أن عمر الإنسان على سطح الأرض يبلغ عدة ملايين من السنين. أما أن تكون أقدم تلك الأساطير في الوجود هي الأساطير الموثقة والتي وصلتنا على ألواح فخارية، فإننا نأخذ برأي العلماء ونقول أنها تعود في الوجود لثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، ولهذا سنأخذ بها كحقائق تاريخية، أي كمقدمات كبرى منتجة، أو كمسلمات جدلية، وننطلق منها كأسس ونبني عليها بحثنا هذا. ونرى أن الألواح الفخارية والمنحوتات الصخرية القديمة والتي ترجمها وعمل على تفسيرها علماء الآثار والتاريخ واللغات القديمة، هي أصدق للبحث وأثبت وأوثق من الكتب، والتي تعود في الوجود لألفي سنة، ولهذا سنعتمد على ما قدمه لنا العلماء، مع مراعاة ما يقبله العقل أو يرفضه. ونختتم هذه المقدمة مع ننّوس الشاعر ونشيده "بيروت الميمونة" وفيه يصف مدينة بيروت ويشبهها بالمركز من الدائرة، ويراها عاصمة العالم وقبلته:

يا بيروت، أرومة الحياة، مرضعة المدن، مفخرة الأمراء،
أولى المدن المنظورة، الأخت التوأم للزمن، المعاصرة للكون،

كرسي "هرمس"، أرض العدالة، مدينة الشرائع،
عرزال البهجة، منزل "الباقية"، معبد كل حب،
أرض البهجة لباخوس، البيت الأصيل لرامية السهام ديانا،
جوهرة النيريّات، حصن زوس وميدان أرويس،
أورخومينيا المنغّمات، نجمة بلاد لبنان،
مركز اللقاء السنوي لتيتس وأوقيانوس زوجها،
وهي التي ولدتك في السرير،
ذي الينابيع المتعددة حين اجتمعت به في سرير مائي[15].

البطل جلجامش (مار جرجس، الخضر)

موضوع الأسطورة

يعود نص جلجامش إلى بدايات الألف الثاني ق.م.، وهو نسخة أكدية عن النص السومري الأصل الذي يعود إلى ثلاثة آلاف سنة ق.م. وملحمة جلجامش نص تأملي فلسفي ميتافيزيقي، يدور حول الخلود والفناء أو الحياة والموت، ويرمي في أهدافه إلى مقولة: "إذا كان خلود الجسد محالاً، فلا أقلّ إذن من خلود الذِكر والسمعة الطيبة".

يختلف العلماء في حقيقة شخصية جلجامش، بعضهم يرى أنه إله أو "أن ثلثاه إله والثلث الآخر إنسان"[16]، والبعض الآخر يأخذ بوثيقة سومر، التي تفيد أنه "خامس ملك، حكم أوروك بعد الطوفان"[17]. ونرى أن شخصية المسيح، والتي اختلفت حولها الكنيسة وانقسمت على نفسها شرقية وغربية، منسوجة على منوال أسطورة جلجامش، فكلاهما ولدا من امرأة عذراء كرست للمعبد وكلاهما نزلا الى العالم السفلي وانتصرا على الموت بخلود الروح وليس الجسد. ونقرأ في الملحمة أن جلجامش يسعى مع صديقه إنكيدو إلى محاربة التنين "هواوا" أو "خمبابا" الغول أو الهول، القائم في الجبال، وسط "غابة الأرز"[18]، في جبال اللكام[19]:

ولسوف أدخل أرض الأخيار، وأخلد لنفسي هناك اسماً
ففي الأماكن التي رُفعت فيها الأسماء سأرفع اسمي...
بلغ أوتو، البطل أوتو
فتلك الأرض في رعاية أوتو
أرض الأرز الوحشية، في رعاية أوتو، بلّغ أوتو...

أي أوتو أني لداخل أرض الأحياء، فكن نصيري
أني لداخل أرض الأرز المقطوع، فكن نصيري"[20]

يقاتل جلجامش وإنكيدو التنين، "ثور السماء"، الذي أرسلته عشتار، والتي رفض جلجامش حبها. يموت إنكيدو ويرثيه جلجامش، ومن موت صديقه يتأكد له أن مصيره كمصيره، الموت الحتمي. يبحث جلجامش عن سر الخلود. ويقابل "أوتنابشتيم" الذي يخبره أن ليس هناك خلوداً للبشر. أما إذا أراد الخلود حقاً، فعليه أن يبحث عن خلود الروح. ويتم له ذلك من خلال الذِكر الحسن والسمعة الطيبة والعمل الصالح.

رموز الأسطورة

تدور شخصيات المسرحية بين ثلاثة شخصيات رئيسية وما تمثله كل شخصية من أشخاص وأنواع وأجناس. أما الغاية فتختلف من أسطورة لأسطورة مع الحافظ على الكمال في كل شيء. وهذه الشخصيات هي:

التنين: يقوم بأداء دور التنين الجهل الطبيعي، لعله الانحطاط الأخلاقي أوالعلمي، ولعلهما معاً.

الضحية: يمثل إنكيدو دور الضحية صديق المخلّص، صديق الطائر، فهو الإنسان الذي يسقط شهيداً في صراعه أمام الشر، وذلك من أجل إنقاذ القائد الذي يسير في ركبه، والدفاع عن الملك.

الفينيق: يؤدي شخصية الفينيق الملك نفسه. والملك في هذه الأسطورة هو القائد والحكيم والفيلسوف والشاعر جلجامش.

الغاية: هي في هذه الأسطورة، حلّ المعضلات العلمية برمتها، خصوصاً الصحة التامة وخلود الجسد والنفس معاً، وحين يفشل جلجامش في تحقيق خلود الجسد، يسعى إلى حلّ معضلات الروح أو الأخلاق. فيخلص جلجامش إلى خلود النفس، وخلودها في الذكر الطيب والسمعة الحسنة. ونخلص نحن، الى أن جلجامش، في بحثه عن الخلود يتعرف إلى الآلهة ويتقرب منها، فتكافئه بأن تسكنه الجنة. وموقع الجنة عند ينابيع الأنهار، أو "عند فم الأنهار"[21]. لم تحدد الأسطورة المكان أو البلاد التي تجري فيها تلك النهار. أما التوراة فتحدد الجنة في عدن: **"وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم... وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس"**. وهذه الأنهار الأربعة هي: فيشون، جيحون، حِدّاقل والفرات[22].

نقد الموضوع

نرى أن التوراة هي كتابة أسطورية بامتياز. وهذا ما يراه ويؤكده جلّ العلماء والمفكرين والباحثين[23]. والسؤال، إذا كانت الأسطورة لم تذكر اسم النهر أو الأنهار، فكيف تتنى للتوراة أن تذكرها، وعلى ماذا استندت في ذكرها؟ بالتأكيد على المصدر الأساسي للأسطورة. يبقى أن نحدد موقع غابة الأرز. من خلال نظرة سريعة إلى تضاريس الشرق، بلاد ما بين النهرين، العراق وسوريا، فإننا نقع على منطقتين للأرز، واحدة في شمالي العراق (جبال طوروس) وواحدة في جبال لبنان. عليه، نرى أن جلجامش قد جاء إلى غابة أرز لبنان ذلك أن لبنان هو بوابة الشرق إلى الغرب، هذا أولاً. وثانياً، أن التوسع الطبيعي لجلجامش الذي أسس ملكه في أقصى الشرق العراق لا بدّ أن يكون تجاه الغرب، أي بلاد "امورو"، ومن ضمنها لبنان.

نوافق على ما ورد في الأسطورة، من أن جلجامش قد سكن عند الأنهار، جميع الأنهار السورية ودون استثناء. وبما أن طبيعة لبنان هي طبيعية مائية، أنهار ووديان، إذاً لا بدّ من أن جلجامش عرف تلك الأنهار وسكنها. ونص مصارعة التنين همبابا الغول يؤكد ذلك. وإذا استبعد البعض ذلك، نقول إذا لم يسكنها كفرد بشر، فإنه سكنها كحكيم، أو كإله، بمعنى آخر أن ديانة جلجامش وفلسفته قد انتشرت في بلاد المشرق كلها، ومن لبنان، انتشرت في العالم القديم[24].

برأينا، جلجامش هو حقيقة وواقع وليس أسطورة، عاش في بدايات الألف الثالث ق.م. كان حلمه توحيد البلاد الممتدة من العراق وحتى بيروت عند شاطئ المتوسط، في إمبراطورية عظيمة تسود العالم. وقد تحقق حلمه وأنجزه. ومع البعد عن الزمن، تحولت الحقيقة إلى أسطورة. تؤكد رأينا الرقم الفخارية العديدة التي ورد فيها أن جلجامش كان شاعراً وحكيماً وقائداً عسكرياً.ونرى أن مزايا شخصيته تشبه مزايا شخصية محمد. من هنا، يتبين لنا أن الهندسة الوراثية لشخصية القائد أو الزعيم هي حقيقة قائمة في رجالات هذه البلاد، إذ بالكاد أن نميز أو نفرّق بين شخصية وشخصية. فشخصية جلجامش من حيث الجسمانية، هي عينها شخصية المعلم المسيح، أما من حيث المزايا القيادية، فهي عينها شخصية النبي! ويتبين لنا ذلك أكثر وضوحاً في شخصيات كل من جلجامش والبعل ومار جرجس، والخضر، هذه الشخصيات الأربع ذات المزايا وذات الصفات، ونفس الأهداف والغايات. ومن اطلع على مزايا شخصيات المسيح المنتظر، والإمام السابع

المنتظر، والإمام الثاني عشر المنتظر، رأى بأم عينه وحدة الشخصية والمزايا والصفات[25].

أما كيف أصبح جلجامش في التسلسل الزمني، البعل، وكيف تطور إلى مار جرجس، وكيف ارتقى إلى النبي الخضر؟[26] فنقول إن جلجامش ذهب يبحث عن الخلود، وإذا كان قد وجده في الذكر الطيب والسمعة الحسنة، وإذا كان قد رقي إلى رتبة إله، وإذا كان جلجامش الملك قد حكم البلاد الممتدة من أوروك وحتى أوغاريت وبيروت على المتوسط، إذاً لم يبق من عجب أن تتناقل الشخصيات السورية، ومنذ فجر التاريخ وحتى يومنا الراهن، مزايا تلك الشخصية الأسطورية. فالبعل أضحى سيد الساحل السوري بالمطلق، وما الملاحم التي سطرتها رقم اوغاريت إلا تأكيد على ذلك[27]، وما الأماكن المنتشرة على طول الساحل والتي تحمل إسم جارجيوس[28]، إلا استمرار لهذه الثقافة السورية القديمة. وهذا ما جعل من بيروت، مثل اختها اوغاريت، المركز الأهم لعبادة البعل-مار جرجس-الخضر وهو الإله أدونيس حبيب عشتروت بعلة بيروت. وقد وجدت مغارة مكرسة لمار جرجس في منطقة "السان جورج" والتي أخذت اسمها منه. فمار جرجس هو شفيع بيروت ورمزها المرتبط باساطيرها. واكثر ما انتشرت عبادته في بيروت في الحقبة الصليبية، فقد اعتمدته الفيالق العسكرية قديساً لها باعتباره محارباً ،ففي القرن الثاني عشر جعل الصليبيون منه رمزا للفروسية والبسالة وحملوه معهم. ولعل الإنكليز هم أكثر من حمل هذا التراث، ففي بريطانيا اصبح القديس الحامي للمملكة، ولا زالت الليرة الذهبية الإنكليزية، إلى اليوم، تحمل صورة مار جرجس يمتطي حصانه ويصرع التنين ليخلص الأميرة بيروت[29]. كما اصبح مار جرجس شفيعاً لعدد من المدن الأوروبية أيضاً، فمذهبه شائع جدا بين فلاحي البلقان وروسيا، خاصة الارياف الزراعية، لارتباط قصته بالبعل الخضر رمز الخصوبة.

إن جلجامش السوريين هو نفسه البعل الاوغاريتي الذي يصرع تنين الشر ويخلص مملكته وهو نفسه القديس جرجس عند المسيحيين والخضر عند المسلمين. وكذلك مار مخائيل لا يبتعد عن صورة المخلص وتخبرنا عنه "رؤيا القديس يوحنا" (الفصل 12): **"ونشبت معركة في السماء، مخائيل وملائكته قاتلوا التنين، فحمل عليهم التنين بملائكته، لكنهم عجزوا عنهم وطردوا من السماء. فنبذ إلى الأرض التنين العظيم، الحية القديمة، ذاك الذي يقال له إبليس أو الشيطان، فتان الدنيا كلها، ونبذت معه ملائكته".**

والى اليوم ما زالت عبادة مار جرجس- الخضر، كما عبادة مار مخايل، تتمتع بأهمية كبرى، حيث تنتشر المزارات والكنائس والمقامات على اسمه في كل سوريا ويحتفل الاهلون بمناسبة أعياده بمهرجانات شعبية عامة تمتد لعدة أيام تتسم بطابع الفرح والرقص والغناء تذكاراً بالتجدد والخصوبة التي يمنحهما. فاللبنانيون أجمعين، مسلمين ومسيحيين، ما زالوا يحيّون أعياد مار جرجس والخضر، والبعض يذكر الاسم مركباً "مارجرجس الخضر"، وينذرون له النذور، ويقصدون زيارة مقامه حفاة سيراً على الأقدام. وأكثر ما تزين جدران البيوت والمعابد والكنائس والجوامع والنوادي الحسينية[30] في بلاد سوريا والعراق ولبنان وفلسطين، من صور فرسان ما قبل المسيحية، هي صورة الفارس البعل. ولعظمة الشخصية فإن أكثر الكنائس شفاعة هي كنيسة مار جرجس، إذ تحولت معظم معابد البعل أدونيس الى كنائس بإسم مار جرجس[31]. ليس هذا وحسب، بل أن أكثر عيون الماء والينابيع تُعرف بعين او نبع مار جرجس وذلك لاستدامة تدفق المياه.

رموز الأسطورة

التنين: والتنين الذي يحاربه الفارس الشاب هو الفساد برمته كالفساد الاجتماعي والأخلاقي والسياسي والإداري. من هنا نكشف الغطاء عن صورة التنين، فالتنين أصلاً غير موجود. أما لماذا صوّر بتعدد الرؤوس؟ لقد تعددت الرؤوس بتعدد الفساد، وكل رأس يشير لفساد معين[32].

الضحية: الأمة التي تذهب ضحية الفساد تمثّل شخصية الضحية. وتتجسد في العلاقات الاجتماعية المتفسخة والمنقسمة على بعضها دينياً وطائفياً وعائلياً وطبقياً.

الفينيق: ويمثّل دور الفينيق الفارس، الشاب المشرقي الذي يعتمر خوذة ويتقد ثورة وناراً وعنفواناً، الفارس الذي يملك قوة التغير في المجتمع والفكر ويقاتل تنين الشر[33]. إن جلجامش، البعل مار جرجس، الخضر، ليست إلا أسماء لمسمى واحد هو المخلص الفارس، طائر الفينيق. والذي اتخذ على نفسه قسماً إنقاذ العروس (بيروت-سوريا) من براثن التنين. ومع أن الوثائق المكتوبة تكاد أن تكون معدومة عن شخصية مارجرجس والخضر، إلا أنهما الأكثر تداولاً على شفاه الناس المؤمنين. ولولا وثائقنا عن جلجامش وعن البعل، لكنا نجهل من يكونا تمام الجهل. وتمثّل تلك الأسماء استمرارية لتاريخ أدبي غزير، وسواء سحب العلماء مزايا جلجامش أو البعل على مارجرجس الخضر، أو نسب الناس المؤمنين مزايا السابقين للمتأخرين.

أما سبب ارتباط الناس المؤمنين بهاتين الشخصيتين دون غيرهما من الشخصيات الأسطورية، فيعود إلى إيمانهم بمخلص يأتي في آخر الزمان ويعيد لهم مجدهم. مثلاً، لقد ارتبطت شخصية المخلص عند المسيحيين بالمسيح، وعند المسلمين بالمهدي المنتظر[34]، لهذا تجسدت فكرة المخلص في شخصية كل من مار جرجس والخضر. ولهذا، فإن عقيدة المهدي المنتظر عند المسلمين قد اقترنت بشكل كبير بشخصية الخضر وتفيد هذه العقيدة أنه في آخر الزمان سيقوم أو سيأتي المهدي المنتظر برفقة الخضر والمسيح ويعيد، أو يعيدون لهذه الأمة مجدها.

أدونيس

يحتفل العالم اليوم، في الرابع عشر من شباط، بعيد "فالنتين" شفيع العاشقين والحب. وللأسف، وإذا ما أراد العشاق شفيعاً، فما شفيع لهم إلا أدونيس، ذلك أن أدونيس هو أول عاشق في التاريخ، وأول شهيد للحب، وأول إله يتجسد إنساناً.

تتخذ أسطورة أدونيس منحيين اثنين في الصراع: صراعه مع الطبيعة، وصراعه مع السلطة القائمة. ولأدونيس الإله، شخصيتان: إلهية وإنسانية. هذه الشخصية نرى انها عينها شخصية المسيح والتي انقسمت حولها الكنيسة، أو لعلها هي عينها انتقلت لشخصية المسيح، أو لعل السوريين أنفسهم، قد نسجوا شخصية السيد المعلم على منوال شخصية أدونيس. هذا ولم تنقل الكنيسة شخصية أدونيس شبابها وجمالها وألقها وحسب، وإنما نقلت أيضاً فلسفة الحب عند أدونيس، فأصبحت مع المسيح فلسفة المحبة. ولم تكتف الكنيسة بنقل الشخصية والفلسفة، بل أنها نقلت عمر المسيح، فكما استشهد أدونيس في ريعان الشباب وقام من بين الأموات، هكذا استشهد المسيح شاباً، وقام من بين الأموات[35]. ونرى أيضاً، أنه كما كان لأدونيس حبيبة هي عشتروت، كان للمسيح حبيبة هي مريم المجدلية. إن هذا التشابه ما بين شخصيات أدونيس ويسوع، وعشتروت ومريم المجدلية، ليس مجرد صدفة. وكذلك ليس من باب الصدفة أن يقع كهفاً قريباً من بيروت، تزين جدرانه صور لمجموعة من النساء، إحداهما تمثّل، جنباً إلى جنب، وعلى الأرجح، عشتروت ومريم[36].

الشخصية الإلهية: صراعه مع الطبيعة

قبل البدء بالحديث عن الفينيق الإله، لا بدّ من القول أن الإله لا تاريخ له في الوجود، فهو موجود في كل زمان ومكان. أدونيس الإله، واحد من عدة آلهة (بعل مرقود، إله الرقص؛ مارناس، إله المياه والأمطار؛ عترجاتيس، إلهة المطر

والى اليوم ما زالت عبادة مار جرجس- الخضر، كما عبادة مار مخايل، تتمتع بأهمية كبرى، حيث تنتشر المزارات والكنائس والمقامات على اسمه في كل سوريا ويحتفل الاهلون بمناسبة أعياده بمهرجانات شعبية عامة تمتد لعدة أيام تتسم بطابع الفرح والرقص والغناء تذكاراً بالتجدد والخصوبة التي يمنحهما. فاللبنانيون أجمعين، مسلمين ومسيحيين، ما زالوا يحيّون أعياد مار جرجس والخضر، والبعض يذكر الاسم مركباً "مارجرجس الخضر"، وينذرون له النذور، ويقصدون زيارة مقامه حفاة سيراً على الأقدام. وأكثر ما تزين جدران البيوت والمعابد والكنائس والجوامع والنوادي الحسينية[30] في بلاد سوريا والعراق ولبنان وفلسطين، من صور فرسان ما قبل المسيحية، هي صورة الفارس البعل. ولعظمة الشخصية فإن أكثر الكنائس شفاعة هي كنيسة مار جرجس، إذ تحولت معظم معابد البعل أدونيس الى كنائس بإسم مار جرجس[31]. ليس هذا وحسب، بل أن أكثر عيون الماء والينابيع تُعرف بعين او نبع مار جرجس وذلك لاستدامة تدفق المياه.

رموز الأسطورة

التنين: والتنين الذي يحاربه الفارس الشاب هو الفساد برمته كالفساد الاجتماعي والأخلاقي والسياسي والإداري. من هنا نكشف الغطاء عن صورة التنين، فالتنين أصلاً غير موجود. أما لماذا صوّر بتعدد الرؤوس؟ لقد تعددت الرؤوس بتعدد الفساد، وكل رأس يشير لفساد معين[32].

الضحية: الأمة التي تذهب ضحية الفساد تمثل شخصية الضحية. وتتجسد في العلاقات الاجتماعية المتفسخة والمنقسمة على بعضها دينياً وطائفياً وعائلياً وطبقياً.

الفينيق: ويمثل دور الفينيق الفارس، الشاب المشرقي الذي يعتمر خوذة ويتقد ثورة وناراً وعنفواناً، الفارس الذي يملك قوة التغير في المجتمع والفكر ويقاتل تنين الشر[33]. إن جلجامش، البعل مار جرجس، الخضر، ليست إلا أسماء لمسمى واحد هو المخلص الفارس، طائر الفينيق. والذي اتخذ على نفسه قسماً إنقاذ العروس (بيروت-سوريا) من براثن التنين. ومع أن الوثائق المكتوبة تكاد أن تكون معدومة عن شخصية مارجرجس والخضر، إلا أنهما الأكثر تداولاً على شفاه الناس المؤمنين. ولولا وثائقنا عن جلجامش وعن البعل، لكنا نجهل من يكونا تمام الجهل. وتمثل تلك الأسماء استمرارية لتاريخ أدبي غزير، وسواء سحب العلماء مزايا جلجامش أو البعل على مارجرجس الخضر، أو نسب الناس المؤمنين مزايا السابقين للمتأخرين.

أما سبب ارتباط الناس المؤمنين بهاتين الشخصيتين دون غيرهما من الشخصيات الأسطورية، فيعود إلى إيمانهم بمخلص يأتي في آخر الزمان ويعيد لهم مجدهم. مثلاً، لقد ارتبطت شخصية المخلص عند المسيحيين بالمسيح، وعند المسلمين بالمهدي المنتظر[34]، لهذا تجسدت فكرة المخلص في شخصية كل من مار جرجس والخضر. ولهذا، فإن عقيدة المهدي المنتظر عند المسلمين قد اقترنت بشكل كبير بشخصية الخضر وتفيد هذه العقيدة أنه في آخر الزمان سيقوم أو سيأتي المهدي المنتظر برفقة الخضر والمسيح ويعيد، أو يعيدون لهذه الأمة مجدها.

أدونيس

يحتفل العالم اليوم، في الرابع عشر من شباط، بعيد "فالنتين" شفيع العاشقين والحب. وللأسف، وإذا ما أراد العشاق شفيعاً، فما شفيع لهم إلا أدونيس، ذلك أن أدونيس هو أول عاشق في التاريخ، وأول شهيد للحب، وأول إله يتجسد إنساناً.

تتخذ أسطورة أدونيس منحيين اثنين في الصراع: صراعه مع الطبيعة، وصراعه مع السلطة القائمة. ولأدونيس الإله، شخصيتان: إلهية وإنسانية. هذه الشخصية نرى انها عينها شخصية المسيح والتي انقسمت حولها الكنيسة، أو لعلها هي عينها انتقلت لشخصية المسيح، أو لعل السوريين أنفسهم، قد نسجوا شخصية السيد المعلم على منوال شخصية أدونيس. هذا ولم تنقل الكنيسة شخصية أدونيس شبابها وجمالها وألقها وحسب، وإنما نقلت أيضاً فلسفة الحب عند أدونيس، فأصبحت مع المسيح فلسفة المحبة. ولم تكتف الكنيسة بنقل الشخصية والفلسفة، بل أنها نقلت عمر المسيح، فكما استشهد أدونيس في ريعان الشباب وقام من بين الأموات، هكذا استشهد المسيح شاباً، وقام من بين الأموات[35]. ونرى أيضاً، أنه كما كان لأدونيس حبيبة هي عشتروت، كان للمسيح حبيبة هي مريم المجدلية. إن هذا التشابه ما بين شخصيات أدونيس ويسوع، وعشتروت ومريم المجدلية، ليس مجرد صدفة. وكذلك ليس من باب الصدفة أن يقع كهفاً قريباً من بيروت، تزين جدرانه صور لمجموعة من النساء، إحداهما تمثل، جنباً إلى جنب، وعلى الأرجح، عشتروت ومريم[36].

الشخصية الإلهية: صراعه مع الطبيعة

قبل البدء بالحديث عن الفينيق الإله، لا بدّ من القول أن الإله لا تاريخ له في الوجود، فهو موجود في كل زمان ومكان. أدونيس الإله، واحد من عدة آلهة (بعل مرقود، إله الرقص؛ مارناس، إله المياه والأمطار؛ عترجاتيس، إلهة المطر

والجنس؛ حدد، إله المطر؛ فينوس- الزهرة، إلهة الحب؛ باخوس، إله الحب والخمر؛ شمش، إله الشمس؛ اوزيريس، إله الاموات...)، التي كانت عبادتها منتشرة على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط، والذي كان معروفاً جغرافياً بالبحر السوري. وإلى جانبها كانت طقوس "المياماسية"[37] منتشرة بشكل واسع: "كانت الاحتفالات المياماسية الماجنة التي كانت النساء فيها يستحممن عاريات، فيقبل الشباب على هذه الاحتفالات بملء قدراتهم العقلية ويغادرونها وقد تبدلت حالهم"[38]. وعُرفت طقوس هذه الآلهة بطابع المجون واللهو، وبإسم طقوس "الجنس المقدس" التي عرف بها معبد فينوس- الزهرة القائم عند نبع أفقا، وأيضاً معبد فينوس في بعلبك واللذين استمر النشاط فيهما حتى القرن الخامس م.، على الرغم من الأمر الذي أعطاه الأباطرة باقفالهما[39].

باختصار، كان أدونيس شاباً جميلاً، يمثل دور الربيع أو فصل الربيع من السنة. قتل في الربيع وهو في رحلة صيد، حين صدف خنزيراً برياً، أطلق عليه سهماً أصابه، إنما الإصابة كانت طفيفة، فهاج الخنزير البري وقتل أدونيس. لذا يثور نهر إبراهيم وتصطبغ مياهه باللون الأحمر، مع بداية فصل الربيع من كل رأس سنة. ومع ثورة النهر، تقام حفلات الندب والنواح[40] والتي كان يحييها الناس ويقيمون المسرحيات ويمثلون دور الإله الشاب مع إلهة الحب والجمال عشتروت- عشتار، ويروون بشكل درامي، كيف مات الإله مع بدايات فصل الشتاء، وكيف يقوم من العالم السفلي وتعود الحياة من جديد، مع بدايات الربيع، إلى الطبيعة والناس، وذلك حين تبكيه عشتروت وتسأل الآلهة أن تعيد الحياة إلى حبيبها الشهيد. وما زال النهر ومغارة أفقا في موضعهما حتى اليوم، إنما وللأسف وقع معبد أدونيس خراباً، بعد أن خُرب عمداً وسرق كما تخرب وتسرق تنهب جميع الأماكن الأثرية في لبنان، وليس بأيدي سارقي الآثار وحسب، وإنما بأيدي التعصب الديني الأعمى، ظناً منهم أنه يطهر الأرواح والأرض من الوثنية والكفر، وينتصر للإيمان والله.

رموز الأسطورة

التنين: في هذه الأسطورة، تمثل الطبيعة دور التنين عبر رعودها وبروقها وأمطارها وأطوارها.

الضحية: ويمثل دور الضحية فصول السنة.

الفينيق: ويمثل دور الفينيق الإله أدونيس، والذي يسقط شهيداً في سبيل طبيعة كاملة.

الغاية: وأما الغاية من هذه الأسطورة، فهي نظام تام وكامل للطبيعة.

نقد الموضع

إن الإله نفسه، هو طائر الفينيق، وهو الذي يموت في سبيل الطبيعة. وبالتالي، من أجل حياة إنسانية أرقى وأفضل. لقد نجح واضع القصة حين رمز للطبيعة على أنها هي تنين الشر، إذ أن كل ما يشكل خطراً على الإنسان، هو تنين بالنسبة له. لقد قال الإمام علي في هذا المضمون، "الإنسان عدو ما يجهل". والجهل كالشر، وهو تنين عدو، يكمن للإنسان. وإذا كانت الأسطورة لم تذكر بيروت بشكل واضح، إلا أنها موجودة في الصميم، وما نهر الموت الذي يصب قريباً من بيروت، وكذلك نهر أدونيس المتاخم لها، إلا دليل وبرهان على صحة أن بيروت هي قلب الأسطورة وروحها وعقلها. أما النتيجة التي تخلص إليها الأسطورة، فهي دراسة تامة للطبيعة، مع عدم الاعتراف بأن الإنسان هو الذي يخضع للطبيعة ولعناصرها، وأن الإنسان، مهما حاول، فلن يستطيع أن يسيطر عليها، حتى ولو عرف جميع أسرارها. ربما سوف يعرف الإنسان قوانين الطوفان والزلازل والهزات الأرضية بدقة متناهية، إنما لن يستطيع، أبداً، أن يدركها أو أن يغلبها. وأن الإنسان كحياة وكحركة قد خُلق من الطبيعة وبكل عناصرها الأربعة: التراب والماء والنار والهواء، فهو من التراب وإلى التراب سيعود. وأن الحياة فقط على الأرض. وما من حياة خارج مدار الأرض، إلا إذا ما وجدت، في المدار الفلكي، أرض تشبه أرضنا. وأن لا حياة خالدة للإنسان، إذ أن حتمية الحياة هي الموت. وأن الحياة لا تتجدد، لا بالدعاء ولا بالصلوات، ولا حتى بالوساطات حتى ولو كانت آتية من إلهة. وأنه في هذه الحقبة من زمن الرواية، كانت المرأة لا تزال السيدة المطلقة وتسود على الإنسان والحيوان والنبات والطبيعة، على حد سواء.

الشخصية الإنسانية، صراعه مع السلطة

أما صراع أدونيس مع السلطة القائمة، فيمكن أن نستخلصه على النحو التالي: قريباً من بيروت، وعلى مسافة لا تتعدى الكيلومترات الثلاثين تقع علمات، في وادٍ ضيق يُعرف بوادي أفقا، يجري فيه نهر إبراهيم، يربض عند نبعه تنين. تفيد الأسطورة أن لهذا النهر فتاة عذراء، ضريبة على الناس، واجب أن يقدموها سنوياً كقربان أو كضحية للنهر، وإلا فاض واجتاح المنطقة الممتدة من أفقا وحتى بيروت، شاملاً في فيضانه جميع القرى الواقعة في طريقه. وتنتهي المأساة بمجيء المخلص الفينيق، فيصرع التنين، ويخلص العذراء، ابنة الملك، ويتزوجها وتعم السعادة الأرض.

رموز الأسطورة

التنين: في هذه الأسطورة، النهر بفيضانه وغضبه واجتياحه،هو الذي يمثل دور التنين. والنهر هو رمز الحاكم أو الملك الجاهل الذي هو جامد في حركة الفكر، وقد توقف فكره عند مقولة الحفاظ على تراث الأباء والأجداد أو التمسك بالأصولية الجامدة العمياء. وغالباً ما يؤمر بأمر من الدولة المستعمِرة، أو قائد الجيش الغازي.

الضحية: وتمثل دورها فتاة عذراء، ابنة الملك الضعيف، وهي عادة ما تكون شابة جميلة، مثقفة، تعشق الفارس الفينيق.

الفينيق: ويمثل دور الفينيق الإله أدونيس، الذي يصارع التنين ويخلص العذراء من براثنه. ويمثل أدونيس عادة شاباً وروح الثورية مضطرمة في صدره.

الغاية: وأما غاية الأسطورة، فهي حرية الأمة والسيادة في الدولة والوجود والأمة.

نقد الموضوع

تعتبر أسطورة أدونيس وكما كل أسطورة فارسها إله، من أكثر الأساطير السورية أهمية، وارتباطاً بالمدينة- الدولة. ولأسطورة أدونيس، خصوصية، ذلك أنها الأسطورة التي ولدت ونشأت في بيروت، ومن بيروت الأم انتقلت إلى جميع مدن سوريا أولاً، وإلى جميع مدن العالم العربي، ثانياً، وإلى جميع مدن أوروبا، ثالثاً.

بعيداً عن التضاريس والمواقع الطبيعية، فكل حوادث الأسطورة صحيحة لا مندوحة عليها. أما أن النهر يفيض ويجتاح القرى الواقعة بدربه، فهذا قليل الترجيح، وعلماء الآثار في لبنان، لم يكلّوا أنفسهم عناء البحث عن قرى ضائعة تحت الطمي، إذ لم يشكوا لحظة بوقوع تلك الفيضانات في المناطق الجبلية . كما لم يعثر قط على هيكل عظمي لإمرأة، على طول النهر، من النبع وحتى المصب، قد ماتت من جراء النهر وأمواجه. لذا يبقى المغزى من الأسطورة رمزي. ومغزاها أنها حركة مسرحية، مهرجان شعبي ورسمي يقام في الهواء الطلق. وذلك لإبقاء صورة الأمة والوطن والدولة حاضرة في ذاكرة الناس. ويؤكد ذلك، المكان النائي والذي اختير بعيداً عن عيون أعداء الوطن من أعداء الداخل وأعداء الخارج. ومن زار منطقة أفقا، يتأكد من خلال وعورة المنطقة، على صحة ما نقول. كما تؤكد ذلك مئات الأعياد، والتي ما زالت ناشطة حتى يومنا هذا، كالكرمس (عيد الكرمة) ومهرجان الأزهار، وأعياد مار جرجس، وأعياد مار

روكز وما الياس وغيرهم. وليس في لبنان وحسب، إنما وفي جميع مدن العالم، وتبقى أكثر الدول الناشطة في مهرجانات الأعياد، هي البرازيل وكرنفالها السنوي الشهير. ونرى في هذه المسرحية والتي تقام في الهواء الطلق عدة ملاحظات هي: أن مسؤولية الدولة والوطن والأمة هي مسؤولية الجميع: شعب وكهنة وحكومة. وأن مثل هذه المسرحية تبقي شعلة الوطن والوطنية متقدة في نفوس الناس والشعب. وأنها تبث في النفوس الهمة لفتح المدن، ونشر الحضارة المشرقية في العالم أجمع.

لقد استطاع أدونيس أن ينتصر على التنين، المتمثل في التفسخ الاجتماعي والسياسي والثقافي والفلسفي والذي استشرى في طول البلاد عرضها. لقد استطاع أن ينقل شعلة فلسفة الحب إلى المسيح. وهكذا استمرت شخصية المخلص حية، وتنتقل من جيل إلى جيل، ومن زمان إلى زمان.

ولقد تثنى للمعلم السيد أن يحارب التنين، وحقق عدة انتصارات، إنما لم يحسم الحرب لصالح الشرق. ومن جديد، حفظت الشعلة متقدة لقدوم الفينيق القادم من الصحراء. وهذا ما سنلقي عليه ضوءاً في فصلين خصصا للمعلم المسيح والنبي محمد.

قدموس

موضوع الأسطورة

عند شاطئ صور، الواقعة جنوبي بيروت، خرجت اوروبا، إبنة ملك صور، في نزهة صباحية، وإذ بثور يخرج من البحر ويخطفها. غضب الملك "اجينور" وحزن على ابنته، وأقسم قدموس أن يلحق بأخته ويحررها من التنين الثور[41]، ووعد أن لا يعود إلا وأخته معه. تتبع قدموس أثر الثور

التنين، حتى وصل إلى القارة المجهولة. ولكنه بدل العودة الى صور، عمل على نشر الحضارة الصورية هناك، كما اجتهد في تعليم الناس حروف الأبجدية الفينيقية. وعربوناً للشكر وتيمناً بأوروبا ابنة صور، أطلق أبناء القارة على قارتهم، أسم أوروبا.

رموز الأسطورة

التنين: هو الثور الذي خرج من البحر وهو ليس إلا سفن اليونانيين، فقد كانت اليونان تصنع مقدمات السفن على شكل ثور.

الضحية: العذراء هي أوروبا ابنة ملك صور. من هذه الأسطورة نعلم أن هوية المرأة الضحية، المرأة الفداء، والتي تقدّم للنهر أو البحر أو الصحراء، يجب أن تكون ابنة الملك وليس أي امرأة ومن أي طبقة كانت. والمفارقة الجديدة هنا،هي أن الضحية العذراء لم تنقذ من التنين، بل تزوّجها.

الفينيق: ويمثل طائر الفينيق قدموس المعلم، معلم الأبجدية الفينيقية، كتابة لغة بلاده والتي ما زالت لغة سوريا الى اليوم، بعد ان تطورت إلى الأبجدية السريانية فالعربية.

الغاية: غاية الأسطورة، ليس إنقاذ العذراء وحسب، أو إنقاذ البلاد من تنين البحر، إنما الغاية فتح البلاد المجهولة واستعمارها بالحرف والحضارة والفكر. وبمقولة أخرى،إن السياسة السورية كانت تستعمر البلاد وتعمر المدن وتنشر الحضارة بسلاح الحرب الباردة وليس بسلاح الحرب الساخنة.

نقد الموضوع

العلامة الفارقة في هذه الأسطورة هو أن طائر الفينيق هو عينه التنين. إذاً يمثل التنين الدولة المستعمِرة، ويمثل طائر الفينيق الثائر الذي يحرر بلاده من جحافل الجيوش الغازية. فهل حرر قدموس القارة المجهولة بالعلم والفكر والمعرفة أم أنه استعمرها بقوة السلاح وبالحديد والنار؟ شتان ما بين الإمبراطورية الغربية والإمبراطوريات الشرقية. إمبراطورية الغرب، استعمار الشرق بالحديد والنار، أما إمبراطورية الشرق، فهي استعمار الغرب بالمحبة والتسامح، بالفكر والعلم. أبداً رسالة الشرق إلى العالم هي رسالة الحضارة. أبداً الشرق هو أخوال للأمم العالم. ولم تسقط إمبراطورية محمد العربية، إلا حين أصبح العرب أعماماً لأمم العالم.

ليست هي المرة الأولى التي يعمّر فيها الشرق بلاد الغرب بالمحبة. رسلنا كثر، والرسالات أكثر. فمن رسالة قدموس، إلى رسالة اليسار؛ ومن رسالة عيسى إلى رسالة محمد؛ ومن رسالة جبران إلى رسالة سعادة. من رسالة الحرف إلى رسالة الكلمة، ومن رسالة الأخلاق إلى رسالة الفلسفة، تقوم أجيال من الحضارات. الرسالات كثيرة وتؤكد على صحة رأينا. هذا، ولنا اتصال واحد مع العالم الخارجي هو اتصال العلم واتصال الفكر واتصال الفلسفة.

لا يخفى على أحد دور المرأة في حياة المشرق وفي حياة العالم. من فجر التاريخ والمرأة هي الرائدة، وهي القائدة، وهي الملكة، وهي الضحية، وهي الإلهة. ونقول أننا نحن السبّاقون في معرفة المرأة ودورها في حركات الصراع، تماماً

وكما تعرف المرأة دورها وموقعها في حركات الصراع. لقد نجحت المرأة، وأيما نجاح، في عملها السياسي والعسكري والثقافي والحضاري. كذلك نجح طائر الفينيق الشرقي بالمشاركة مع المرأة في إعمار بلاد الغرب. وسواء خُطفت أوروبا أو أرسلت أو كُلفت كما كُلفت بعدها إليسار، فإن أوروبا غدت، إثر دخول المشرقيين إليها، نوراً بعد أن كانت ظلمات، وغدت حضارة بعد أن كانت جهالة. وإذا كان المشرق القديم قد عرف بطقوس "البغاء المقدس"، فقد كان هذا الطقس منتشراً، فقط، في معابد سوريا، وله شروط خاصة جداً استعرضها كل من هيرودوتس في كتابه التاريخ ولوقيان السموساطي في كتابه "الإلهة السورية"، وهذا لا يقلل من شأن الاميرات الفينيقيات صانعات المجد. فهذه اليسار ترفض الزواج من ملك البربر الليبي، لتبقى وفية لذكر زوجها المتوفى في صور موطنها. أليسار،وبعد أن أتمت تأسيس مدينة قرطاج في غربي المتوسط، تعمدت بالخنجر حين طلب منها ملك البربر الزواج، ومثلها "صفو نسب" التي تعمدت بالنار، لئلا تقع أسيرة قيصر روما.

أما أوروبا، فنعلم أنها تزوجت من التنين–الثور ملك جزيرة كريت الفينيقية الأصل، وبقيت في الغرب كالعين الساهرة تراقب مصلحة الإمبراطورية المشرقية وهناك وأنجبت مينوس ملك كريت وأخوة له. واستوطن قدموس منطقة طيبا وبنى فيها قلعة "قدميا" وصارع هناك تنين الشر، وسهر على مصالح التجار السوريين في الغرب. وبهذا نؤكد على حقيقة أسطورة قدموس وواقعيتها ودليلنا الأبجدية اليونانية، وما حروفها سوى الحروف الفينيقية مكتوبة من اليسار إلى اليمين، ورأينا هذا ليس تعصباً أعمى، بل هو حقيقة ورؤية ويشهد عليها مؤرخو الغرب وعلماؤه.

لقد تبع قدموس أوروبا، ولكن هل تبعها على رأس جيش أم على رأس جماعة من المعلمين، أم تبعها منفرداً ؟ نرى أن قدموس كان قائد ضمن قادة، وكان هو المسؤول عن البعثة الثقافية ضمن الحملة المكلفة باكتشاف أوروبا وفتح أسواق جديدة لبلاده. ولم تنتقم الحملة لشرف أوروبا ابنة الملك بالحرب والدم، لقد كان انتقامها نشر حضارة صور الحاملة سمات التسامح والمحبة. وقد حرص قدموس على زواج أوروبا من التنين الذي اختطفها، وبالتالي على استقرارها في بلاد الغرب، كملكة متوّجة على عرش إمبراطورية واسعة تحمل إسمها. فالمخلص في هذه الأسطورة لم يكن الشاب الغريب الذي يخلص العذراء ويصبح الحبيب، إنما كان الأخ. الأخ والأخت تعاونا معاً في اكتشاف بلاد جديدة وإعطائها إسماً وحضارة. وهل من دور أسمى يعطى لإمرأة؟

بيروت والتوراة (كنعان، إيل، بعل، النبي ابراهيم)

نرفض مقولة أن التوراة مزيفة، أو مسروقة عن الأساطير السورية السابقة، أو أنها مغتصبة، تماماً ومثلما رفضنا أن اليهود كشعب هو دخيل على بلادنا، فكما أن الشعب اليهودي هو إحدى القبائل التي سكنت سوريا، وسواء تفاعلوا مع بقية القبائل السورية أو لم يتفاعلوا، وسيان إن سرقوا أو اغتصبوا، أو لم يسرقوا ويغتصبوا، فإن التوراة هي إحدى الكتب التي حافظت على تاريخ المشرق القديم، تاريخ الأسطورة. وتجدر الإشارة إلى أن عدداً من الباحثين قد أخرج اليهود من وحدة الشعب السوري، تمازجاً واختلاطاً وتفاعلاً، وعلى رأسهم أنطون سعادة، علماً أنه يذكر، وبشكل قاطع، أن الأمة السورية قد صهرت جميع الأقوام الذين توافدوا إليها، وسواء أكانوا فاتحين أو نازحين[42]. كذلك، يرفض أن يكون لليهود فكراً أو أنهم أنتجوا فكراً. أما إسرائيل، ككيان مصطنع من كيانات الشرق المغلوبة على أمرها، المجزأة إلى إمارات، وهي كموطن لليهود، فهذا أمر واقع وبإمكاننا كشرقيين أن نتفاعل معاً ونتحد. أما أن تكون إسرائيل ككيان، كدولة، كشرطي مراقبة، كعيون من عيون الغرب على الشرق، فلنا عليه أكثر من علامة استفهام وتعجب ورفض!

مهما يكن من أمر، فإن التوراة ككتاب ديني وتاريخي، وجد في سوريا، وعليه يعتمد جميع الباحثين للإطلاع على تاريخ وأحداث العالم والعهد القديم وعنه اقتبس القرآن أساطير الأولين. إذاً، التوراة كتاب ديني لقبائل سورية عُرفت باليهودية أو اليهوهية أو الهودية، نسبة للنبي "هود".

لقد نقلت التوراة الأساطير السورية القديمة[43] بتحريف حيناً، وبنقص أحياناً، وبزيادة أحياناً أخرى. وذلك بما يتناسب مع ملوكها، الذين عُرفوا بالأنبياء وليس بالآلهة كما جرت العادة، في سوريا. ومن بين هذه الأساطير التوراتية، أسطورة كنعان، وإيل، وبعل والتي نجد صدى لها في الملاحم المشرقية القديمة وعلى رأسها ألواح أوغاريت[44]، وألواح إيبلا وماري[45].

موضوع الأسطورة: كنعان[46]

إذن للأسطورة التوراتية مصدران: الأساطير السورية القديمة وأساطير التوراة عينها. لهذا سنتعرض بعض منها والتي تتناسب مع بحثنا، بحسب أقدميتها.

ورد في إحدى أساطير الخلق الكنعانية التي تتفق مع مدينة صيدا، أن كنعان هو أخ لحام، وأن البعل كرونوس ولّد بعلاً آخراً هو كنعان. ومن كنعان جاء الكنعانيون، وهم الذين هاجروا من جنوب شبه الجزيرة العربية، حوالي عام 3000

ق.م.، إلى سوريا واستوطنوا فلسطين، قبل هجرة العبرانيين إلى فلسطين بحوالي الفي عام. وتقول الأسطورة أن الكنعانيين[47]، أنجبوا أولاداً ضخام الجسم وسكنوا الجبال الغربية وسموها بأسمائهم وهي: قاسيون، لبنان، حرمون، وبراتي، ولعل هذه الأخيرة هي بيروت التي تزوجها عليون (العالي)، وهي الإلهة الحسناء بعلة بيروت أو عشتروت، وهما، أي بيروت وعليون، كما أورد فيلون الجبيلي نقلاً عن الكاهن البيروتي "سنخونياتن" (منتصف الألف الثاني ق.م.)، يأتيان في رأس مجمع الآلهة الفينيقية البيروتية، وقد سكنا في بيروت من ضواحي جبيل، وأنجبا إله السماء اورانوس وأخته إلهة الأرض اللذان تزوجا وأنجبا أربعة أبناء هم: أيل-كرونوس، كبير الآلهة، وداجون، إله المحاصيل، وعتل-أطلس وسيتون أو الحنطة. وينسب لبوصيدون أنه أول من تسلط على البحار، وكذلك ينسب لعشتار البحرية أنها بنت على ساحل البحر المتوسط، مئة مدينة.

هذا باختصار موضع الأسطورة الكنعانية الأصل، أما الأسطورة التوراتية، فتكاد أن تكون هي عينها مع بعض التحريف، وورد فيها أن كنعان هو ابن حام بن نوح الذي شرب خمراً وسكر وانكشفت عورته، فرآه حام، فغضب نوح ولعنه. لحقت هذه اللعنة بحام وذريته فاسودّ وجهه واسودّت وجوه ذريته وخاصة ابن حام البكر، كنعان، الذي هاجر مع ذريته أو نسله إلى إفريقيا.

رموز الأسطورة

من خلال النص الأصلي، نستطيع تحديد شخصيات الأسطورة، ويتعذر علينا ذلك في الصيغة التوراتية.

التنين: يمثل دور الطبيعة الجدباء، العطشى، الحارة، وبسبب قساوة الطبيعة هجر شعبها بلادهم باتجاه الشمال.

الضحية: أما الضحية في هذه الأسطورة فنعاينها في بعض الأبناء الذين يسقطون صرعى بسبب قساوة الطبيعة، أو بسبب طول مشقة الطريق، أو بسبب غضب قائد الرحلة المهاجرة، إذ ربما لا يكون نوح أباً بيولوجياً لحام، إنما أباً قيادياً، مسؤولاً.

الفينيق: ويقوم بدوره الإله الذي يستطيع أن ينقذ القبيلة ويصل بها إلى بر الأمان، إلى أرض المياه والجنات والخيرات.

الغاية: بإمكاننا اختصار الغاية في السيطرة على موارد الرزق. والشعوب النازحة، وإن كانت جاءت غازية، فاتحة، إلا أنها استقرت في سوريا، وتفاعلت مع شعبها.

نقد الموضوع

نلاحظ أن النص الأصيل أي الأقدم، يتوافق ونص كتابة الأساطير، بينما النص التوراتي يتوافق مع ما يتناسب وملوك العبرانيين. النص الأصيل يشير إلى صراع الإنسان مع الطبيعة، بينما النص التوراتي يشير إلى صراع الإنسان مع عائلته، أبيه وأخوته، وذلك من أجل الوصول إلى السلطة. النص الأصيل يتحدث عن وصول أو هجرة الشعوب إلى سوريا وفلسطين، بينما النص التوراتي يتحدث عن نزوح حام وذريته من فلسطين أو بلاد سوريا، إلى إفريقيا، أو استعمار الكنعانيين لإفريقيا.

سواء أكان للعبرانيين هجرة أو نزوح، فهذا يؤكد على جملة حقائق وهي: وحدة البلاد السورية، ووحدة مدن شاطئ البحر الأبيض.وأن أولاد حام هم سود البشرة، ليس بسبب لعنة نوح، بل بسبب البيئة التي سكنوها. وأن العبريين سكنوا فلسطين، وأن فلسطين هي جنوب سوريا، تمتد على طول شاطئ البحر الأبيض، من غزة وحتى أنطاكيا، شاملة جميع المدن البحرية، خاصة بيروت الحسناء التي تزوجها عليون ابن كنعان. وأن الفكر الكنعاني قد انتشر على طول البلاد السورية وعرضها، براً وبحراً.

موضوع الأسطورة: إيل

إيل، كان من أكثر الأسماء انتشاراً، مثل اسم الله (عبد الله / خير الله) اليوم. وأسماء إيل المركبة لا حصر لها مثلاً (إسرايل، اسرافيل، جبريل، الكرمل، جبيل، راحيل، أسيل...). واعتبر إيل خالق الأرض والسماء ومكان استراحته منابع الأنهار مثل جلجامش. وهو يشكل القاسم المشترك ما بين الميثولوجيا العربية والسورية-الفينيقية. وعرف يونانياً باسم "هيليوس". أما التوراة، فمن جهة ترفع إيل إلى السماء وتعتبره هو الله نفسه، ومن جهة ثانية، تشير إلى يعقوب بإسرائيل، ومعنى إسرائيل في اللغة الآرامية-السريانية "ولي الله" أو "أسرة الله". أما الفكر التوراتي، فيعرّفه بأنه "عدو الله"، أو "متحدي الله"، أو "مصارع الله". وهذا، برأينا، تناقض في الكتاب الواحد.

توسعت مملكة إيل، سوريا- كنعان، وذاعت شهرته؛ ومع اقتراب عجزه، وزّع هذه المملكة اللامحدودة على أبنائه، فوهب عشتروت مُلك "أتيكة" في اليونان، ووهب جبيل لبعل، ووهب بيروت وصيدون لإله البحار[48]. وورد في نص أوغاريتي أن إيل خرّف وجدّف، وقد اتهمه إبنه بعل بذلك. ومن ألقاب إيل "الثور إيل"، ومن أولاده الكثر "كريت" الذي كان ملكاً على جزيرة كريت، وأيضاً على

"سدوم". وأمر إيل الكهل إبنه كريت أن يغزو أرض كنعان في أرض فلسطين، حيث منطقة الكرمل التي تنتشر فيها ديانة "زبولون"، بقيادة ابنة كريت، الإلهة "طيرا" "تيرا"، وهي صور[49]، بما فيها المدن الواقعة على ساحلها، وفي طليعتهم مدينة بيروت.

رموز الأسطورة

يقوم إيل بتأدية دورين إثنين: التنين وطائر الفينيق وذلك بناءً على النص التوراتي. أما النص الأوغاريتي فيصوره كالتنين المنقض على المدن السورية، باستعانته بإبنه كريت، وذلك من اجل البقاء على عرشه رغم كهولته وخرفه.

التنين: في صراعه مع (الله) سيد السماء، يمثل إيل دور الخلاص، أو دور النظام، نظام الطبيعة والمدن، ودور الفاتح. أما في صراعه مع أولاده الملوك، مثلاً مع بعل، فيمثل إيل دور التنين، إذ أن إيل، حين يخرّف ويجدّف، يتصدى له ابنه بعل ويقف بوجهه. إذاً للإله إيل دوران اثنان: التنين حيناً، وطائر الفينيق حيناً آخر.

الضحية: تمثل المدن الحسناوات دور الضحية، مثل الكرمل وتيرا، ومن ضمنها، إبنة أيل، الحسناء بيروت-عشتروت[50].

الفينـيق: وبذلـك يكـون المخلـص هـو بعـل الذي يمثل الشباب والقوة في تصـديه لكهولـة وعجـز أبـيه إيل، من اجل ضمان الاستمرارية السياسية لمدن مملكة أبيه.

الغاية: أما الغاية من هذه الأسطورة، فهي استمرارية الوجود، وذلك في نظام مدني اجتماعي متكامل ولكن مبني على القوة المتمثلة بفتوة الحكم والخير والخصوبة التي يمنحها البعل. وهذا الأسطورة تمثل صراع الأجيال والمبدأ الذي التزمت به سياسة سوريا وهو ضمانِ الشباب الدائم للمملكة وقد توارثته الحضارات المتلاحقة على شكل أسطورة أيضاً، حيث يظهر كل ابن يصارع أباه لاستلام العرش منه، ويتصدى الأب الكهل الذي يأبى التنحي وتدور حرب عشواء بينهما تنتهي بانتصار القوة والشباب[51].

نقد الموضوع

من خلال تعريف اسم إيل توراتياً (اسرائيل)، يتبين لنا التحريف التوراتي للفكر الأسطوري السوري القديم. فبلاد إيل، وتحديداً، بعض أجزاء مملكة إيل الساحلية، تبدأ من كريت وحتى فلسطين، شاملة جميع مدن الشاطئ، خاصة صور وبيروت الحسناء، إلهة الجمال. وهذا يدل أن مملكة إيل هي أمبراطورية، فأيل أسم منتشر في كل المشرق القديم مما يعني أنه سيد هذه المنطقة بأسرها (إسرة إيل -إسرائيل)

والتي كانت شاسعة ولم تكن مقتصرة على إمارة، وبالتالي لم تكن مغلوبة على أمرها، ولم تكن محصورة بأرض الميعاد التي شاءها كاتبو التوراة. فصراع إيل وبعل هو من أجل استمرار قوة المملكة وليس من أجل حصرها في بقعة كما في صراع يعقوب وإيل. ومن خلال هذه الأسطورة، تتوضح صورة النزاعات الفينيقية- السورية قديماً، فتظهر أنها حملات تأديبية ضمن المملكة الواحدة، وذلك من أجل الحفاظ على قوتها على رغم من كل الاعتبارات الاجتماعية والعائلية.

موضوع الأسطورة: بعل

ربما يكون "بعل"، إلى اليوم، هو الاسم الأكثر انتشاراً في الريف السوري، وفي عالم الزراعة، فأكثر ما يردده الفلاحون عبارة "أرض بعل"، أي غير محروثة، و"خضار بعل"، أي لم تسق. ومن حيث الأهمية والتراتبية الأولوهية، فإن بعل يأتي في الدرجة الثانية بعد إيل، كما ورد في النصوص الأوغاريتية. فهو "ابن إيل" الذي يتابع أسطورة الخلق التي بدأها إيل. فيصارع التنين ذا الرؤوس السبع[52]، الذي يغزو مملكته والمتمثل في فوضى الطبيعة، وينتصر عليه ويقتله وينظم سير الغيوم وتوزيع أمطارها. وأيضاً، يتصارع بعل مع أبيه إيل، ويعاون إيل إلهين اثنين هما "يم نهار" (البحر والنهر) وينتصر عليهما. يغضب بعل ويحتج أمام مجلس الآلهة وتتدخل عشتروت لتكبح غضبه. ثم يتصالح الجميع ويقام حفل كبير، لكن الحفل ينتهي بمذبحة كبيرة، تنتقم فيها عناة شقيقة بعل، ثم تحل بركات السلام وتستنبط الماء من ندى السماء ومن مطر راكب الغيوم ومن سحب البعل. أخيراً، يطلب بعل من أخته عناة أن تتوسط له لدى إيل، لتقنعه بالموافقة على بناء معبد لبعل. ويبنى المعبد فوق جبل صفون، من الذهب والفضة، مساحته عشرة آلاف هكتار، ويقام من خشب الأرز. بعد بناء المعبد، يقيم بعل حفل كبير للآلهة. ثم تأخذه العزّة ويغمره الغرور بما حققه من منجزات. فيرفض الاعتراف بالإله "موت" (الموت)، وبالتالي يرفض أن يقدم العطايا له أي الضريبة السنوية. وبالمقابل يرفض موت الاعتراف بسلطة بعل، ويهدده ويرسل قوة لتستولي على السفوح والجبال. يخاف بعل ويعتذر من موت. ولكن ما يلبث أن ينشب، بينهما صارع، يموت من جرائه بعل. يعلم إيل بموت بعل، فيحزن حزناً شديداً. كذلك تحزن عناة أخت بعل وتدفن أخاها في جبل صفون، ثم تبحث عن موت لتعاتبه ثم تصارعه وتقتله، وتعيد الحياة لبعل. ولكن الصراع ما يلبث أن يبدأ من جديد بين بعل وموت. وتفيد الأسطورة أن الصراع لا ينتهي، كما لا ينتهي بموت أحدهما أبداً. وكيف ينتهي، فالحياة والموت متناوبان على الوجود؟

إن "ملحمة البعل" هي الصورة المتكاملة لصراع الفينيق والتنين، وهي الصيغة الأوغاريتية لملحمة جلجامش الرافدية. وهي تؤكد على استمرارية التراث الفكري وعلى والوحدة الثقافية والعقائدية للمشرق القديم، والتي كانت منتشرة في كل مدنه. فأوغاريت لا تختلف، في نهجها الفكري، عن اوروك، ولا عن بيروت،لأن البعل دوموزي- أدونيس هو الضامن لهذه الاستمرارية، من خلال قيامة متجددة، على رغم حتمية الحياة، ألا وهي الصراع الدائم من أجل الوجود.

النبي إبراهيم

من أكثر الأساطير انتشاراً بين الناس من أبناء الفكر الديني في بلاد سوريا والعراق ولبنان وفلسطين شخصية النبي إبراهيم الخليل. وأكثر ما يردده الناس المؤمنون من سير الأنبياء، سيرة النبي إبراهيم. وقصته تقتصر على التجربة الشخصية الذاتية مع بعض التجربة الخاصة بالجماعة والوطن والأمة. كما أن سيرته قد انتهت حيث الأدب المسرحي وحسب. إذ لم يكن لها هدف أو غاية في الوجود وفي بناء الأمة وتحريرها من براثن تنين الاستعمار. إلا أننا عثرنا في طياتها على بعض شذرات فكرية تناولت الدولة والأمة. كما أن فضيلة الصبر التي تحلى بها النبي إبراهيم تعبّر عن تضحية فريدة من نوعها، مميزة في سبيل الآخر.ومع النبي إبراهيم، انتهت عقيدة التضحية بالبشر وبدأت التضحية بالحيوان.

سيرة النبي إبراهيم

تتوقف مصادرنا عن النبي إبراهيم على التوراة والقرآن الكريم الذي نكتفي به. يذكر القرآن إبراهيم في أكثر من موضع وأكثر من سورة، كما أفرد له سورة باسمه هي سورة إبراهيم. ولولا القرآن لكانت سيرة النبي إبراهيم نسياً منسياً: **{واتخذ الله إبراهيم خليلاً}**[53]. إذا خليل ليس الاسم الثاني للنبي (إبراهيم) إنما صفة، ميزة اصطفاه الله بها.وعرّفه القرآن بأنه أول الأنبياء:**{ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل}**[54]. من هنا نعلم أن الإسلام كفكر ديني لم يبدأ مع محمد، إنما مع إبراهيم، علماً أن أول من أرثى الإسلام كفكر ديني وكفكر سياسي، وكفكر فلسفي هو النبي محمد. وعُرف النبي إبراهيم بصبره على الناس ومع الناس وأمام تجربة الله. وأول صبره كان صبره على قومه، حتى عيل صبره وحطم الأصنام: **{قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون}**[55]. أما صبره الثاني، فهو صبره على العذاب وامتحان الله له بذبح ابنه إسماعيل[56]. ثم افتدى الله إسماعيل بكبش من السماء، **{وفديناه بذبحٍ عظيم}**. وأما صبره الثالث، فهو حين حُكم عليه

بالإعدام حرقاً بالنار: **{قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم}**[57]. وعلى هذه الآية استند بعض الأئمة المسلمين وخالفوا حكم الكليات في المنطق، أي النار لا تحرق دائماً إلا إذا أراد الله.أما خير ما نبحث عنه في سيرة النبي إبراهيم، فهو غاية إبراهيم المتجسمة في الوطنية والأممية والأمية، (من أمة) **{وإذ قال إبراهيم أجعل هذا بلداً آمناً}**[58].

بيروت والمعلم والنبي

المسيح المعلم الثائر

صرّح أحد الأباء الكنسيين، خلال مقابلة تلفزيونية أن للكنيسة أسراراً سبعة لا يمكن البوح بها. وحين سألته المذيعة عن تلك الأسرار رفض الإجابة بحجة إن صرّح بها، فلن تبقى أسراراً. ونسأل، هل الفكر الوضعي والديني، سر؟ وإذا كان سراً في عصر ما، هل يبقى على طول الدهر كذلك؟ أما إذا كان الفكر سراً، فما هي الحاجة إليه؟ وعليه، لماذا دعا المسيح الأولاد إليه؟ ولماذا بشّر في الساحات بين جميع الفئات والمستويات الفكرية والعلمية ؟ نرى أن عدم الإجابة على السؤال يعود لسببين، إما أن حضرة الأب الدكتور لا يعرف تلك الأسرار لأنها سراً. وإما لا يوجد أسرار في الكنيسة. لأنها إذا ما تيسرت الأسرار لحضرة الأب الدكتور، فهي ميسرة لكل قارئ وباحث ومفكر.

الكاهن يعمل ضمن مؤسسة الكنيسة، والكنيسة تعمل على سرية الكنيسة. ذلك إذا فضحت الكنيسة بالمطلق، فما هي الفائدة التي تبقى لها؟ ما هو دور رجل الكنيسة غير الصلاة؟ وهل أن نشاط الكنيسة متوقف عند الصلاة؟ ولماذا الكنيسة تقيم الصلاة بلغة لا يفهمها الناس؟ كنيسة تصلي بلغة يونانية أجنبية، وأخرى تصلي بلغة سريانية وطنية، إنما ميتة! لقد بلغت التعمية في الكنيسة أنها تتكلم بجميع اللغات، إلا اللغة التي يفهمها الناس، لماذا؟ وأن الكنيسة تتكلم بجميع المواضيع: المخدرات، الانحراف الجنسي، الزواج، معجزة بعض القديسين، إلا مواضيع، التاريخ، والوطن والهوية والمصير. لماذا؟

ونرى أنه لا يوجد في الكنيسة أسرار.تماماً، مثلما لا يوجد في فكر المسيح معجزات وخوارق. معجزات وخوارق المسيح واحدة وهي الوعي الفكري عند الناس. أجل لقد تكلم المسيح بلغة الأمثال، لأنه كان له غاية وهدف، ولأنه كان يحمي فكره وتلاميذه وأتباعه من سياط روما. أما حين اندحرت روما، فلم يبق هناك من عذر للسرية ولا حاجة لها. فممن تخشى الكنيسة، اليوم، لتتكلم بألغاز

حتى بين أتباعها؟ من تضلل؟ ما هي الغاية الجليلة التي تحميها الكنيسة عن عيون أتباعها؟ الأسئلة كثيرة ونختصرها بسؤالٍ: لماذا تأسطر الكنيسة المسيح وإنجيل المسيح؟

نعم، لقد تكلم المعلم بلغة الأمثال، وقد أظهر الإنجيل الكريم ذلك بشكل واضح وجلي. مثلاً(3) فَكَلَّمَهُمْ بِأَمْثَالٍ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ(13 متى). أو حين تعجب التلاميذ وحين سألهم الحذر من خبز الصدوقيين ولم يفهموا المراد وفسر لهم الكلام بتأنيب قائلاً: ألا تفهمون!(5) وَلَمَّا وَصَلَ تَلاَمِيذُهُ إِلَى الشَّاطِىءِ الآخَرِ، كَانُوا قَدْ نَسُوا أَنْ يَتَزَوَّدُوا خُبْزاً.(6) وَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «انْتَبِهُوا! خُذُوا حِذْرَكُمْ مِنْ خَمِيرِ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالصَّدُّوقِيِّينَ!»(7) فَبَدَأُوا يُحَاجُّونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، قَائِلِينَ: «هَذَا لأَنَّنَا لَمْ نَتَزَوَّدْ خُبْزاً!» (8) وَعَلِمَ يَسُوعُ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ: «يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ، لِمَاذَا تُحَاجُّونَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً لأَنَّكُمْ لَمْ تَتَزَوَّدُوا خُبْزاً؟(9) أَلاَ تَفْهَمُونَ بَعْدُ؟...(11) كَيْفَ لاَ تَفْهَمُونَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَعْنِي الْخُبْزَ حِينَ قُلْتُ لَكُمْ: خُذُوا حِذْرَكُمْ مِنْ خَمِيرِ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالصَّدُّوقِيِّينَ؟(12) عِنْدَئِذٍ أَدْرَكَ التَّلاَمِيذُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحَذِّرُهُمْ مِنْ خَمِيرِ الْخُبْزِ، بَلْ مِنْ تَعْلِيمِ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالصَّدُّوقِيِّينَ.(متى 16).

والمسيح لم يتكلم إلا بأمثال، لأنه كان يخشى القيصر، وبالتالي كان يعدّ الشعب لليوم العظيم، يوم الحريةِ والتحررِ من القيصرِ، لنقرأ المثلين أدناه لتأكيد ما ذهبنا إليه.(10) فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ التَّلاَمِيذُ وَسَأَلُوهُ:«لِمَاذَا تُكَلِّمُهُمْ بِأَمْثَالٍ؟(11) فَأَجَابَ: «لأَنَّهُ قَدْ أُعْطِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا أَسْرَارَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ؛ أَمَّا أُولَئِكَ، فَلَمْ يُعْطَ لَهُمْ ذَلِكَ(12) فَإِنَّ مَنْ عِنْدَهُ، يُعْطَى الْمَزِيدَ فَيَفِيضُ؛ وَأَمَّا مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ، فَحَتَّى الَّذِي عِنْدَهُ يُنْتَزَعُ مِنْهُ(13) لِهَذَا السَّبَبِ أُكَلِّمُهُمْ بِأَمْثَالٍ: فَهُمْ يَنْظُرُونَ دُونَ أَنْ يُبْصِرُوا، وَيَسْمَعُونَ دُونَ أَنْ يَسْمَعُوا أَوْ يَفْهَمُوا(14) فَفِيهِمْ قَدْ تَمَّتْ نُبُوءَةُ إِشَعْيَاءَ حَيْثُ يَقُولُ: سَمْعاً تَسْمَعُونَ وَلاَ تَفْهَمُونَ، وَنَظَراً تَنْظُرُونَ وَلاَ تُبْصِرُونَ(15) لأَنَّ قَلْبَ هَذَا الشَّعْبِ قَدْ صَارَ غَلِيظاً، وَصَارَتْ آذَانُهُمْ ثَقِيلَةَ السَّمْعِ، وَأَغْمَضُوا عُيُونَهُمْ؛ لِئَلاَّ يُبْصِرُوا بِعُيُونِهِمْ، وَيَسْمَعُوا بِآذَانِهِمْ، وَيَفْهَمُوا بِقُلُوبِهِمْ، وَيَرْجِعُوا إِلَيَّ، فَأَشْفِيَهُمْ(16) وَأَمَّا أَنْتُمْ، فَطُوبَى لِعُيُونِكُمْ لأَنَّهَا تُبْصِرُ، وَلآذَانِكُمْ لأَنَّهَا تَسْمَعُ(17) فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: كَمْ تَمَنَّى أَنْبِيَاءُ وَأَبْرَارٌ كَثِيرُونَ أَنْ يَرَوْا مَا تُبْصِرُونَ وَلَمْ يَرَوْا، وَأَنْ يَسْمَعُوا مَا تَسْمَعُونَ وَلَمْ يَسْمَعُوا!(18) فَاسْمَعُوا أَنْتُمْ مَعْنَى مَثَلِ الزَّارِعِ(19) كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ كَلِمَةَ الْمَلَكُوتِ وَلاَ يَفْهَمُهَا، يَأْتِي الشِّرِّيرُ وَيَخْطَفُ مَا قَدْ زُرِعَ فِي قَلْبِهِ: هَذَا هُوَ الْمَزْرُوعُ عَلَى الْمَمَرَّاتِ.(20) أَمَّا الْمَزْرُوعُ عَلَى أَرْضٍ صَخْرِيَّةٍ، فَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَيَقْبَلُهَا بِفَرَحٍ فِي الْحَالِ(21) وَلَكِنَّهُ لاَ أَصْلَ لَهُ فِي ذَاتِهِ، وَإِنَّمَا يَبْقَى إِلَى حِينٍ: فَحَالَمَا يَحْدُثُ

ضيقٌ أو اضطهادٌ من أجلِ الْكَلِمَةِ، يَتَعَثَّرُ.(22) أَمَّا الْمَزْرُوعُ بَيْنَ الأَشْوَاك، فَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، وَلكِنْ هَمَّ الزَّمَانِ الْحَاضِرِ وَخِدَاعَ الْغِنَى يَخْنُقَانِ الْكَلِمَةَ، فَلاَ يُعْطِي ثَمَراً.(23) وَأَمَّا الْمَزْرُوعُ فِي الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ فَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَيَفْهَمُهَا، وَهُوَ الَّذِي يُعْطِي ثَمَراً. فَيُنْتِجُ الْوَاحِدُ مِئَةً، وَالآخَرُ سِتِّينَ، وَغَيْرُهُ ثَلاَثِينَ!»[59].

وبعد هل نستطيع أن نحرّف الكلم عن مواضعه؟

موضوع الأسطورة: السيرة المسيحية

ليس طمعاً بالسماء وجنتها بل بالحرية، كان اقتراح أحد الفلاسفة للبابا أن يشتري الجنة. الفيلسوف أصلاً لا يؤمن بالجنة فكيف يشتريها؟ إنما قد عرض على البابا شراءها وذلك لينهي تجارة الكنيسة بيع الناس أراضٍ في الجنة. وبذلك أعلن ثورة لم يدرك البابا أبعادها إلا بعد الانتصار الساحق، حين أنتصر الحكيم وحقق معجزة شفاء الناس على منهاج المسيح. وتلك محاكاة لثورة ولادة السيد المسيح.

وولادة المسيح المعجزة السماوية، ليست إلا إنهاء لمقولة ولادة أبناء للسوريين من الآلهة. في الفترة السابقة لولادة المعلم، كانوا يغتبطون بولادة مولود من أم إنسانية وأب إلهي. ولادة السيد ليست جديدة، وبالتالي ليست معجزة، فهي استمرارية لحقبة عقائدية سابقة وإنهاء لها في آنٍ واحد.

والسؤال، هل كان السوريون من البساطة الفكرية ليؤمنوا بهكذا عقيدة؟ هل كانوا حقاً يصدقونها؟ والجواب لا. ولكن لماذا انتشرت هكذا عقيدة عند السوريين ما قبل المسيح؟ والجواب، لأن هذه العقيدة كانت الرد الطبيعي على ظلم القيصر وجوّره وحقده. فالقياصرة الذين تعاقبوا على حكم سوريا ما قبل عهد المسيح، كانوا يقتلون كل طفل، كل مولود جديد، ليس لأنه ابن الله، بل كانت سياسية روما استعمار سوريا أكثر مدة زمنية ممكنة. فحينَ تنقص المواليد تنقص بالتالي السواعد الثائرة المحررة والمناضلة والمحاربة. من هنا كانت ولادة عقيدة مواليد من الآلهة[60]. أما مع مجيءِ المسيح، فلم يكن الضغط والجور والظلم قد زال بالمطلق، إنما كان قد خفّ بمقدار، بفضل نشاط الحركة الثورية بوجه روما. لذلك، أوعز الشارع السوري بخطة أخرى ألا وهي الحد من المواليد، فالزيادة كالنقصان كلاهما مضران في مسيرة الوطن والأمة. كما لا يمكن أن تكون مسألة قتل الأطفال فقط بأمر من القيصر. فقد عمدت روما أيضاً إلى القتل الجماعي، كإعدام رجالِ ثورة العبيد صلباً، أو كبتر رأس يوحنا المعمدان وتقديمه هدية لزانية راقصة[61]. إذاً، يلجأ المجتمع إلى التعويض أمام القتل الجماعي، رجالاً وأطفالاً. وطريقة القيصر عينها قد اعتمدتها أميركا في العصر الحديث في حربها على فيتنام. وطبعاً كان الرد

الفيتنامي كالرد السوري، بفارق بسيط وهو أن الشعب الفيتنامي لم ينسب مواليده إلى السماء أو للآلهة أو للمجهول، إنما كانت النساء يخفين شاباً في الكهوف بعيداً عن عيون أميركا وكان عمله مقتصراً على إخصابهن. وهكذا فشلت أميركا في فيتنام كما فشلت روما في سوريا.

ولادة السيد الأسطورية

قلنا إن ولادة المعلم هي استمرارية لمرحلة سابقة وإنهاء لها في آن، وبفارق واحد هو أن الولادات السابقة كانت تنسب للآلهة أو للمجهول، أما ولادة السيد فتنسب للكلمة. ولولادة السيد مصدران واحدة إنجيلي وآخر قرآني. هذا والإنجيل والقرآن ينسبان ولادته للكلمة. ويقتفي القرآن نهج الإنجيل في سردِ ولادة المسيح. إنما باختصار لقصة مريم وبإسهاب لقصة عيسى. ونعرضهما بدءاً من سيرة مريم في الإنجيل، وانتهاءً بولادة عيسى في القرآن.

الولادة الإنجيلية

كما نعلم أن الأناجيل أربعة. لكن لم تأتِ جميعها على ذكر سيرة ولادة يسوع. فمرقس لم يذكر سيرة الولادة مع أنه الأول بين الأناجيل بحسب التسلسل الزمني. وقد وردت عند متى (الفصل الأول، الآيات (1، 18-21):(1) هَذَا سِجِلُ نَسَبِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ: (18) أَمَّا يَسُوعُ الْمَسِيحُ فَقَدْ تَمَّتْ وِلاَدَتُهُ هَكَذَا: كَانَتْ أُمُّهُ مَرْيَمُ مَخْطُوبَةً لِيُوسُفَ؛ وَقَبْلَ أَنْ يَجْتَمِعَا مَعاً، وُجِدَتْ حُبْلَى مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ (19) وَإِذْ كَانَ يُوسُفُ خَطِيبُهَا بَارّاً، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يُشَهِّرَ بِهَا، قَرَّرَ أَنْ يَتْرُكَهَا سِرّاً. (20) وَبَيْنَمَا كَانَ يُفَكِّرُ فِي الأَمْرِ، إِذَا مَلاَكٌ مِنَ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لَهُ فِي حُلْمٍ يَقُولُ: «يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ! لاَ تَخَفْ أَنْ تَأْتِيَ بِمَرْيَمَ عَرُوسِكَ إِلَى بَيْتِكَ، لأَنَّ الَّذِي هِيَ حُبْلَى بِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ (21) فَسَتَلِدُ ابْناً، وَأَنْتَ تُسَمِّيهِ يَسُوعَ، لأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ».

وأما لوقا، فيبدأ بذكر الذين دوّنوا الإنجيل قبله. كما يحدد العصر السياسي، ومن ثم ينتقل إلى الحديث عن أليصابات أم مريم. ومريم هي المختارة من الله لتكون أماً للمسيح الذي سيعطيه الله عرش داوود ويحكم آل يعقوب إلى الأبد، وسيكون عظيماً وابن العلي يُدعى[62]. وأما يوحنا فلا يذكر الولادة، كولادة جسدية، إنما يذكرها ولادة فكرية، فلسفية:{(1)فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ. وَكَانَ الْكَلِمَةُ هُوَ اللهُ. (2)هُوَ كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ. (3) بِهِ تَكَوَّنَ كُلُّ شَيْءٍ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَتَكَوَّنْ أَيُّ شَيْءٍ مِمَّا تَكَوَّنَ. (4)فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ. وَالْحَيَاةُ هَذِهِ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ. (5)وَالنُّورُ يُضِيءُ فِي الظَّلاَمِ، وَالظَّلاَمُ لَمْ يُدْرِكِ النُّورَ.(13)وَهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ

مِنْ رَغْبَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ رَغْبَةِ بَشَرٍ، بَلْ مِنَ اللهِ.(14)وَالْكَلِمَةُ صَارَ بَشَراً، وَخَيَّمَ بَيْنَنَا، وَنَحْنُ رَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدَ ابْنٍ وَحِيدٍ عِنْدَ الآبِ، وَهُوَ مُمْتَلِىءٌ بِالنِّعْمَةِ وَالْحَقِّ}[63].

الولادة القرآنية

قصة ولادة عيسى فريدة بين قصص طيور الفينيق، ذلك لما تضمنه من أدب فلسفي ومسرح أدبي راق. وهي من الضرورة بسردها كاملة، لأنها تمثل الخلاص في جميع مراحله من البداية وحتى النهاية. والقرآن الكريم لم يحصر قصة الولادة في سورة واحدة. ويبدأها بسورة مريم، ثم يتوقف فجأة، ثم يعود إلى سردها من جديد، لهذا رأينا أن نذكر الآيات بحسب التسلسل الموضوعي وليس بحسب التسلسل المكاني. ويسرد القرآن الكريم قصة الولادة بمرحلة وامضة تبدأ مع زكريا ومفادها أن الله قد أكد استجابة دعاء زكريا بمولود يكفل باستمرارية البيت والحافظ عليه، ويفهم من النص أن المولود هو الحافظ للأمة، أو محرر الأمة: **{فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أنّ الله يُبشرك بيحيى مُصدِقاً بكلمةٍ من الله وسيدا حصوراً ونبياً من الصالحين}**[64]. هذا، ولا يكتفي القرآن بالتمهيد لمجيء عيسى بدعاء زكريا، إذ يردفه أو يؤكده من خلال مخاطبته لمريم، لما للمرأة من دور ومكانة اجتماعية في الحياة والوجود. ولكن قبل بدء المخاطبة، يهيء مريم للحبل العظيم فيخاطبها بخطابين: خطاب جسدي، يحررها فيه من آثم الجسد، قوله: **{ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلامات ربها وكتبه وكانت من القانتين}**[65]. وخطاب روحي، يحرر مريم فيه من إثم الجهالة ويحصنها بالعلم والفكر والحكمة، قوله: **{والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين}**[66]. والذي يحدد كلٍ من الجسد والروح هو (هاء الضمير) المقرون بحرف الجر (في).

هاتان الآيتان هما البشارة البعيدة لولادة عيسى، أما القصة المباشرة مع مريم، فقد أوردها القرآن على النحو التالي: **{إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يُبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابنِ مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين (45) ويُكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين (46) قالت ربي أنّى يكون لي ولدٌ ولم يمسسني بشرٌ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون (47) ويعلمه الكتاب والحكمة والتورية والإنجيل(48) إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (59)}**[67].

يتوقف القرآن عن سرد بشارة مريم في سورة آل عمران، ثم يعود إلى سورة مريم ليتابع سرد قصتي مريم وولادة عيسى: **{يا يحيى خُذ الكتاب بقوة وآتيناه الحُكمَ صبيا (12) وسلام عليه يوم وُلِد ويوم يموت ويوم يُبعث حيا (15) واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً (16) فاتخذت من دونهم حِجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا (17) قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا (18) قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غُلاماً زكياً (19) قالت أنّى يكون لي غلامٌ ولم يمسسني بشرٌ ولم أك بغيا (20) قال كذلك قال ربك هو عليَّ هينٌ ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا (21) فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا (22) فجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مِتُ قبل هذا وكنت نسيَ منسيا (23) فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربّك تحتك سَرِيّا (24) وهزّي إليك بجــذع النخــلة تُساقط عليك رُطباً جنيا (25) فكلي واشربي وقرّي عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمان صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا (26) فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا (27) يا أخت هارون ما كان أبوك أمرءِ سَوءٍ وما كانت أمك بغيا (28) فأشارت إليه قالوا كيف نُكلم من كان في المهد صَبيا (29) قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبيا (30) وجعلني مُباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلواة والزكواة ما دمت حيا (31) وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً (32) والسلام عليّ يوم وُلدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا (33) ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون (34)}**[68]

رموز الموضوع

إن قصة ولادة السيد المسيح لهي أبلغ الأساطير أدباً وبلاغة ومضموناً واستشهاداً على الإطلاق. ذلك أن معجزة السيد حقيقة واقعية، ولكن ليس كما تفهمها الكنيسة، أو كما تريد الكنيسة أن يفهمها المؤمنون. فشفاء الأعمى هو شفاؤه من الجهل والأمية، وسير الأعرج يعني سير المتقاعصين عن الثورة، وقيامة الأموات تعني قيامة الشعب قيامة واحدة في سبيل الحرية والمحبة. وتبقى ثورة المسيح أعظم ثورات طيور الفينيق التي أتت على هذه الأمة. كما يبقى أعظم الأسلحة وأمضاها هو سلاح المحبة. وبالمحبة قوض المسيح إمبراطورية روما.

الفينيق: ويمثل دور الفينيق مريم ابنة عمران. ومن مريم التي نذرت للهيكل، ولكن بصيغة مغايرة عن الصيغة القديمة المرتبطة بالجنس المقدس، يلد الفينيق مخلص الأمة والشعب. ويذكر المسيح بعض مدن الأمة التي يريد خلاصها من فم التنين، مثل: صور وصيدا والجليل والجليل الأعلى والأردن وبيت لحم وبيت المقدس... أما الأمة، فتذكر ثلاث مرات واضحة بيّنة لا غبار عليها. والأمة هي سوريا. وهي التي يخاطبها المسيح ويناضل من أجل خلاصها: الذكر الأول:" فذاع

خبره في جميع سوريا"[69]. الذكر الثاني: **"وكانت المرأة أممية وفي جنسها فينيقية سورية"**[70]. أما الثالث: **"وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان "كيريتيوس" والي سورية"**[71].

تنتهي أسطورة المسيح باستشهاده صلباً، وبصلبه أنقذ ثورته السلمية، ثورة المحبة والتي كانت تسير صوب الانتحار وليس صوب النصر. وبالتالي أنهى الصلب الجماعي على يد روما وقتل الأطفال. وبذلك حقن دماء السوريين وحفظها لليوم الموعود.

التنين: يمثل دور التنين روما والقياصرة المتعاقبين على حكم سوريا، يعاونهم العميان الكهنة والصدوقين والمراؤون من أبناء سوريا. وهؤلاء هم الذين طلب المسيح إخراجهم من بيت أبيه، وهم الذين عناهم بقوله: **"اطردوا أولاد الأفاعي"**، وهم عينهم الذين قلب عرباتهم وثار عليهم.

الضحية: والضحية هي دائماً سوريا، وكما في جميع الأساطير السورية بدءاً بجلجامش وانتهاء بمحمد، كما تبين لنا ذلك من خلال الآيات الإنجيلية وتفسير المسيح لبعضها. كذلك ومن خلال الوثائق التاريخية والتي تؤكد على ظلم روما وقتلها للأطفال، وأيضاً من خلال إعدام الرجال المناضلين صلباً، ومن خلال إعدام المبشرين وقادة الثورة ببتر الرأس[72].

الغاية: الحرية والكرامة الإنسانية فالمسيح هو المحرر الأعظم للنفس البشرية من العبودية.

إشكالية البحث

إنتقاماً أم ثأراً أو تأسيساً؟ لم يلد المعلم من السماء لأجل أمر بسيط، فإن اختارته السماء سيداً، فقد اختارته من أجل أمر عظيم. ولم تبعث السماء المعلمَ ليشفي أعمى، إنما ليشفي عمياناً أو أعرجاً إنما عرجاً، ولا ليحي ميتاً إنما أمواتاً. فإن بعثته، فقد بعثته من الأمة والشعب والمحبة. ولم

يرسله الأب لينتقم لدم هابيل ولا لدم يوحنا المعمدان ولا لدم حنا بعل. إنما أرسله ليثأر لقرطاجة، وذلك بتأسيس دولة عظيمة عادلة تقوم مقام دولة روما القائمة على الظلم والفسق. وفي سبيل ذلك ارتضى تاجاً من الشوك ولم يرتضه تاجاً من الذهب.

قرطاج، يا ابنة صور وبيروت، يا من ولدتِ من الموت وعشتِ بالموت وقمت بالموت، ارحمي أولادك، واسمعي المسيح يناديكِ. قرطاج، يا من انتقم لك العبيدَ شنقاً على الصليب. قرطاج يا سيدة الحرية، يا من ثار لكرامتك يوحنا المعمدان

ببتر رأسه، وثار لحياتك المسيح بصلب جسده. قرطاج احقني شلال الدماء المتدفق من أبنائك، وكفانا موتاً عبثاً من أجل الموت، كفانا موتاً وعلمينا كيف نموت شهداء من أجل الحرية، علمينا كيف نحيا.

عظيمة أنتِ يا بلاد المسيح. يا صور ويا قانا ويا بيروت، عظيمة ونسألك إلى متى نموت دونَ ثمار، ونُغتال دون حياة، ونقتل دون حرية؟ وسنموت حتى يتعب الموت منا ويمل.

عفواً سيدي. ما شوهوا سيرتكم إلا ليشوهوا تاريخ أمة، وما عبثوا بقيامة جسدكم، إلا ليشوهوا قيامة وطن. عفواً معلمي. لقد ارتضيتم صلب جسدكم لتصرفوا عيون القيصر عن (المنحمنا)[73] الآتي من الصحراء فينيقاً من ثورة وفينيقا من حرية.

المسيح ابن الله، هو أيضاً ابن الوطن وابن الأمة وابن الحرية. هذا وعظمته ليس لأنه ابن الله، بل لأنه أشعل سيراجاً ووضعه فوق المنارة، لينير أمة بدأت مع الأسطورة المكتوبة الأولى (جلجامش) وتمتد امتداد الزمن.

أيعقل أن يولد المعلم من كلمة الله ليموت من أجل أمرٍ بسيط صغير؟ أيعقل أن يحمل العذاب ويرقى الصليب ويموت صامتاً، طمعاً بالموت؟ إذا كان قد مات ليغفر لنا أخطاءنا، فبئس الموت وبئس المغفرة! أما إذا مات من أجل الأمة، فنعم الموت ونعم المصلوب. وإذا كان قد صلب من أجل الصلب وحسب، فبئس الصليب والمصلوبَ أما إذا صلب ليحيّ أمة، فنعم الصلب ونعم المصلوب ونعم الصليب.

محمـــد

موضوع الأسطورة

لا تختلف ديانة شبه الجزيرة العربية عن ديانة سوريا في الجوهر، تختلف ببعض التفاصيل التي تقدم ولا تؤخر في بنية الأسطورة. ولم تحدد الأسطورة العربية المكان الذي كانت توأد فيه البنات. ربما تكون إحدى هذه المدن الثلاث منفردة أو مجتمعة، وهي: (اللاّت، العزّى، مناة).

وتجدر الملاحظة إلى المفارقة التالية: في حين أن محمداً قد ألغى عبادة اللآلهة الثلاثة: "اللاّت" و"العزّى" و"مناة"، فهو يقول، إثر هزيمة حرب "العزّى": "المعركة لم تدُر عند أحجار مقدسة، وإنما عند أشجار الآلهة الثلاث، أن "العزّى" لن تعبد بعد اليوم"[74]. في حين أن محمداً يذكر "العزّى" بحديثه سلباً، فإن القرآن يذكرها، إنما لا سلباً ولا إيجاباً: **{أفرأيتم اللاّت والعزّى 19 ومناة الثالثة الأخرى 20}**[75].

تفيد أسطورة "وأد البنات"[76] بأنه كان على كل عربي أن يقدم إحدى بناته، ربما كانت البكر، كبش فداء عن شرف العرض للصحراء. وكانت البنت تدفن حية في الرمال. هكذا كانت شبه الجزيرة العربية تتقي غضب الصحراء في مواسم الطوز المتوحشة. ويلاحظ ان هذه الأسطورة شبيهة جداً بأسطورة أدونيس ونهر إبراهيم، ولا تختلف عنها قط، إلا مع اختلاف أنياب التنين وتضاريس المنطقة الطبيعة والبيئة الجغرافية. ولم تنته هذه العادة إلا مع مجيء المخلص محمد بن عبد الله. وقد وصف القرآن الكريم تلك الطقوس بآية قرآنية تفيدنا: **﴿وإذا المَوءُدة سُئلت (8) بأي ذَنب قُتلت (9)﴾**[77].

رموز الأسطورة

-الضحية: وأما الضحية فقد كانت المرأة العربية، ومرة أخرى نتأكد ما للمرأة من دور كبير في قيادة المجتمع، فهي منجبة الفرسان، وهي مربية الفرسان، وهي مرشدة المجتمع.المرأة هي صانعة التاريخ العربي الإسلامي في عهد المخلص محمد.

التنين: ويمثل دور التنين الصحراء، والصحراء ترمز لروما، تلك التي فرضت على شعب الجزيرة العربية عادة وأد البنات. وما فرضت ذلك إلا لخنق روح الثورة أو الثورات التي كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية. إذ أن ثورة الأطراف بعيداً عن عيون الإمبراطورية وسواعدها لأكثر نمواً من ثورة الداخل، قريباً من العاصمة حيث الجيش والحكام والقيصر وأعوانه.

قبل محمد، كان هناك عدة أحزاب أسست وانتشرت وعقدت النية على محاربة روما. هذا وقد حاول محمد الانتساب إلى إحداها وهو حزب الفضول. وهذه الأحزاب اجتمعت واتحدت بقيادة محمد في حزب واحد عُرف بدين الإسلام.**﴿أجَعَل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيء عُجاب(8)﴾**[78].

الفينيق: إذاً، يمثل دور المخلص النبي محمد. هذا ويمكننا رد سبب نجاح محمد، ونجاح الدين

الجديد في الانتصار على روما، إلى العمليات المقاومة السرية والمكثفة والتي كان يقوم بها محمد شخصياً[79].

الغاية: أما الغاية، فقد انعقدت حول تحرير الشرق من نير الاستعمار الروماني. هذا ويمكننا أن نضيف إلى أسطورة "وأد البنات" والتي أوردها القرآن الكريم ورفضها جملة وتفصيلاً، رواية ولكنها حقيقية، شبيهة جداً بأسطورة "وأد البنات".

ونعني بها أسطورة "وأد الرجال"، والتي ذهب أحد أضحيتها عبد الله بن عبد المطلب. مفاد الأسطورة، أن عبد المطلب قد نزر للإله "هبل"، كبير آلهة مكة، أن يذبح أحد أولاده السبعة إذا ما تحقق مراده في بئر زمزم.وعندما تحقق مراده، احتار في من يذبح من أولاده. تخيّر عند الآلهة، فوقعت الخيرة على عبد الله أصغر أولاده وأحبهم إليه. تراجع في اللحظة الأخيرة عن نذره. وليتخلص من قسمه ونذره أشيرعليه أن يستشيرعرافة مكة، فأشارت عليه أن يتخيّر الأزلام أو القداح. وتفيد الأزلام أن يقدم عبد المطلب، للإله "هبل"، عشرة من الإبل بدلاً عن عبد الله، فإذا رضي الإله، تخلص من نذره واعتق عبد الله، وإلا عليه أن يزيد عشرة، ثم عشرة أخرى وهكذا، حتى يرضى "هبل". وهكذا كان، وأنقذ عبد الله بعد العشرة العاشرة، أي مقابل مائة ناقة. وعلى الرغم من أن عبد الله قد أنقذ من النذر، إلا أنه اغتيل بعد شهرين من زواجه من آمنة، والدة محمد[80].

نقد الموضوع

بالنسبة لأسطورة "وأد البنات"، فلا يمكننا أن نزيد شيئاً عما تقدم في نقد موضوع أدونيس ونهر إبراهيم. باستثناء سؤال وهو: هل كانت تقام أعياد وأد البنات منفردة أم مجتمعة؟ جهارة أم سراً؟ أما بالنسبة لرواية التضحية بأحد أبناء عبد المطلب الشبيهة بتضحية إبراهيم لإبنه، فهناك عدة نقاط تجدر الإشارة إليها: أولاً: أن عبد الله هو أحد قادة الأحزاب الثائرة بوجه روما. ولم يكن قائداً وحسب، إنما كان ناشطاً من الناحيتين العسكرية والفكرية. ثانياً: أن عبد المطلب كان المسؤول والموجه الروحي والفكري لأحزاب المقاومة، لهذا حكمت روما على عبد الله بالإعدام وذلك لتأديب عبد المطلب. ثالثاً: أن روما التنين قد أتقنت فن الانتقام من الثوار، فلم تعدم الثائر نفسه إنما أعدمت والد الثائر. وهذا الانتقام ليس الأول من نوعه في تاريخ روما، فروما مع بداية إمبراطوريتها، عمدت إلى إعدام جميع الأطفال الذين ولدوا بتاريخ ولادة السيد المسيح. وأيضاً أعدمت الرجال على الطريقة العشرية. لذا تقرن روما بحضارة الإعدام والقتل والدماء وكلما ذكرنا التنين نذكر روما، والعكس صحيح. رابعاً: أن الفتى العربي محمد قد تربّى، ومنذ نعومة أظفاره، في الصحراء بعيداً عن أعين روما. وذلك ليتقن فن الحرب والضرب بالسيف. وهل فنون الحرب والضرب بالسيف إلا ليعدّ للانتقام لوالده[81] وللثوار ولوطنه وللتحرر من روما؟ هذا، وحين يتعصب المسلم لمقولة أن النبي محمد أفضل الأنبياء، وإن كان لا يدري السبب إلا بالحجج المؤسطرة، فلأن محمد هو النبي الوحيد الذي أسس فكراً وصارع التنين وانتصر عليه.

في الواقع، تكمن عظمة محمد في أنه استطاع الانتقام من روما وطردها من الشرق خلال فترة زمنية لا تتعدى الثلاثين سنة، وبالتالي استطاع أن يؤسس للإمبراطورية العربية الإسلامية. إذا أن أولى أعمال الدولة الإسلامية كان تحرير سوريا من نير روما، في معركة اليرموك العظيمة، بقيادة خالد ابن الوليد. لقد نمت الإمبراطورية الإسلامية أولاً، في عهد عمر بن الخطّاب الذي دخل القدس محرراً، وعلى يد معاوية بن أبي سفيان، ثانياً، والذي جعل من دمشق عاصمة للدولة الإسلامية. كما جعل من بيروت مركزاً لصناعة أسطول عسكري من أجل حماية شاطئ البحر الأبيض المتوسط من قرصنة روما، ومنطلقاً من أجل مهاجمة روما في عقر دارها. ولقد تمّ له ذلك وانتقم لحنا بعل القرطاجي المنهزم في معركة زاما سنة 202 ق.م. وبانتصاره أسس لإمبراطورية عربية إسلامية حكمت بمحبة وتسامح على نهج المعلم عيسى بن مريم، هذا وقد دام ظلّها زهاء ألف سنة من الزمن.

إن آخر طيور الفينيق، أو آخر رجال الخلاص من الذين مروا على الشرق، كان محمد بن عبد الله، ثائر ومؤسس ومفكر الدولة العربية. ومع أن الدولة العربية نشأت وتأسست في الجزيرة العربية، إلا أنها، لتكون إمبراطورية عظيمة، يجب أن تتخذ لها من عواصم سوريا بيروت، دمشق، بغداد، أوغاريت، جبيل... مركزاً لانطلاقها، وذلك لتبقى على مقربة عما يحدث في الغرب الأوروبي. من هنا كان لبيروت الدور الأكبر في تلك الرسالة العالمية. فإلى جانب صناعة السفن، نشطت بيروت ثقافياً وعلمياً وفكرياً. وكما عُرفت بيروت قديماً بمدرسة الحقوق، كذلك كانت مسرحاً مميزاً للفكر المسيحي، وأيضاً مسرحاً مميزاً للفكر الجديد الآتي من شبه الجزيرة العربية.

الصراع أنواع ووجوه، صراع بالسيف والكلمة، كما مع محمد وصراع بالكلمة والمحبة والتسامح، كما مع عيسى وصراع بالصبر كما مع إبراهيم. والصراع ومهما كان، هو صراع الملوك والملوك أو الآلهة والملوك، وهو صراع من أجل مصلحة الأمة والوطن والشعب والدولة.

الكثيرون ممن اشتغلوا على تفسير الأساطير قد فسروا صراع الفينيق والتنين تفسيراً سطحياً يخدم الدولة القوية المنتصرة في الحرب. كأن اكتفوا برمزيتها مثل تجديد للنظام الطبيعي أو تجديد لدورة الحياة، والبحث عن الخلود أو حفاظاً على الحكم القائم في بوتقة عشائرية مجزِئة. للأسف، جميع تلك التفاسير منتقصة ولم تصب الهدف الأساسي الذي من أجله وضعت الأساطير وهو قضية حياة الأمة

ومصيرها. وما من تفسير للأساطير جامع مانع إلا تفسيرها على ضوء ربطها بالصراع السياسي والسلطة. وليس السلطة المحلية، إنما سلطة العالم، "من هو سيد العالم؟". وهكذا يمثل الفينيق دور بعث الأمة وقيام الدولة العادلة. وأما التنين، فيمثل دور الاستعمار والاستبداد. وأما دور الضحية فيمثله الشهداء الذين سقطوا زوداً ودفاعاً عن مصالح الأمة والوطن والهوية والحرية.

ومن الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها الباحثون في دراستهم للأساطير، أنهم قد خلطوا بين رجال الأسطورة ورجال النبوة، مما أدى إلى تبلبل الناس، أي الإيمان بها من بعض الناس والكفر بها من بعضهم الآخر. فالأساطير ليست إلا عمل مسرحي أدبي فكري فلسفي، قام بإنتاجه الأدباء والشعراء والفلاسفة. وهي عمل حواري يشترك في أدائه الآلهة والناس والحيوان والنبات والحجر. ودور طائر الفينيق، أو الفارس المخلص هو إنقاذ الأمة والوطن والشعب. عليه، يكون إدراج سيرة الأنبياء في هذا البحث، كإبراهيم والمسيح ومحمد أمر طبيعي، خاصة إذا علمنا أن عمل الأنبياء قد توقف عند إنقاذ الأمة وحرية الشعب ونشر الفكر الجديد.

ويبقى السؤال الأهم: هل يأتي يوم على هذه الأمة تتحول فيه الحوادث التاريخية أعلاه إلى أساطير؟ لا نستبعد ذلك، فكما تحولت الحوادث القديمة إلى أساطير، هكذا ستتحول الحوادث الجديدة، إلا إذا تهيأنا لها وتحصّنا، وكنا الفينيق بوجه التنين. وأية نتيجة حصلت، أسطرة التاريخ، أو كتابة التاريخ، فنحن المسؤولون عنه.

***

---

* أستاذ اللغة السريانية في الجامعة اللبنانية

[1] نقلاً عن نشيد "بيروت الميمونة" (قصة الصراع الخالد من أجل بيروت) من ملحمة "الديونيزياكا" لننوس، الترجمة والشروح والتقديم بقلم د. يوسف الحوراني–منشورات دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1999.

[2] Nonnos de Panopolis, *"Hymne à Béryte"*, chant XLI, in «*Dionysiaca*», cf. P.Chuvin, *Mythologie et géographie des "Dionysiaques". Recherches sur l'œuvre de Nonnos de Panopolis*, 1992.

[3] نرى أن أرمني تحوير أو اشتقاق من لفظ آري، وبالتالي يكون الشعب الأرمني هو بقايا الشعب الآري الذي سكن وتفاعل وتمازج على ارض سورية ومع شعوبها التي تعاقبت على المنطقة، ولعل الأرمن هم الآراميون نفسهم.

[4] يقول فرانس التهايم: "كان تقديم الضحايا البشرية للآلهة من الطقوس المألوفة في سوريا"، راجع، إلـه الشـمس الحمصي والديانات الشرقية في الإمبراطورية الرومانية، فرانتس التهايم، (ترجمة

إيريـــنا داوود، مـــراجعة وتقديـــم فراس السواح)، ط1، 1990، دار المنارة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، ص 104. راجع أيضاً:
Dussaud R., *Le Sacrifice en Israël et chez les Phéniciens*, Paris, 1914.

[5] راجع Héliodoros, *"Les Ethiopiques"*, (Roman grec du IIIème siècle), trad. P.Grimal, La Pléiade, 1958."

[6] المرجع نفسه، ص 105.

[7] راجع قصة "إبراهيم الخليل" في موضعها في هذا البحث.

[8] لعل هذه القصة هي محاكاة لقصة (يشوع بن نون) الواردة في التوراة.

[9] القرآن الكريم، سورة النساء، الآيات (150 – 151)

[10] راجـــع الســـيرة النبوية، ابن هشام، قدم وعلق عليها وضبطها "طه عبد الرؤوف"، دار الجيل بيروت، طبعة جديدة، مضبوطة منقحة، دون تاريخ.

[11] راجع بهذا المضمون: سيرة ابن هشام، قصص الأنبياء، سيَر القديسين الصادرة والموجهة من الكنيسة البابوية...

[12] أول استبدال للأضاحي البشرية بالحيوانية حدث مع استبدال ضحية ابن النبي إبراهيم بكبش من الســـماء. بحســـب القرآن الكريم، النبي هو إسماعيل الآيات (103– 108) من سورة الصافات، بينما تذكر التوراة أن النبي هو إسحاق. الآيات (7 – 14) من تكوين، الإصحاح الثاني والعشرين.

[13] ورد عند فيلون الجبليي:"وفي عصر هؤلاء ظهر "عليون" الذي يدعى "هيستوس" وامراة تدعى "بيروت"، كانا يسكنان في ضواحي جبيل". راجع ي. الحوراني، مجاهل تاريخ الفينيقيين من خلال سانخونياتن البيروتي وفيلون الجبيلي (نصوص وابحاث)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٩، ص.71.

[14] يلعـــب بـــاخوس إله الخمر دوراً أساسيا في أساطير بيروت وصراعه مع إله البحر بوزيدون لإمتلاك قلب الحسناء "بيروه-بيروت" والذي انتهى بانتصار بوزيدون وتنحي باخوس الى مشارفها الجبلية، نقله نونوس البانوبولي في نشيده عن بيروت (مرجع ذكر سابقاً)، حيث يمثل باخوس الإله الفينقي "بعل مرقود" إله الرقص الذي يسبب الزلازل، ومعبده في بيت مري.

[15] نقـــلاً عـــن "بيروت الميمونة" (قصة الصراع الخالد من أجل بيروت)من "الديونيزياكا" لننوس، الترجمة والشروح والتقديم بقلم يوسف الحوراني-منشورات دار الثقافة، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى، 1999.

[16] جـــورج نحاس، أساطير الخصب الإنباتي، (أناسة وأسطوريات 2)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2006.

[17] فراس السواح، قراءة في ملحمة جلجامش، سومر للدراسات والنشر والتوزيع، نيقوسيا-قبرص، الطبعة السورية بإشراف العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، طبعة أولى، 1987.

[18] إن لغابة الأرز مكانة خاصة في النصوص المشرقية القديمة (البابلية الاشورية والمصرية) التي تذكـــر حمـــلات الملـــوك لجلـــب خشب الارز وهي نصوص تاريخية في أغلبها. ومن القصص التوراتية قصة "عوج بن عناق" ابن اخت نوح وهو احد العماليق وقد ساعد نوحاً في جلب جذوع الارز من "غابة الأرز" من أجل بناء السفينة.

[19] جبال اللكام تبدأ من نهاية سلسلة جبال لبنان الشرقية وتنتهي في الجزيرة العربية، وتشكل ممراً طبيعياً ما بين سوريا والجزيرة العربية.

[20] ف.السواح ،قراءة في ملحمة جلجامش، ص، 33–34.

[21] ج. نحاس، ورد سابقا.

[22] العهد القديم، سفر التكوين، (2: 8–14).

[23] حسن الباش، الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي، طبعة 1، دار الجليل للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1988.

[24] وهذا ما يؤكده الدكتور جورج نحاس، كتابه أساطير الخصب الأنباتي، مرجع ذكر سابقاً.

[25] فـــي مقطع من القرآن يذكر موسى وشخصية غريبة هي الخضرالذي يعلن انه سوف ينبعث او يتوالد في موقع "البحرين".

[26] يضـــيء صمويل كرامر جيداً على هذا الموضوع في كتابه القيّم، "الحضارة تبدأ في سومر"، انظر:
S.N.Kramer.,"saint Georges"Ch.I,in *L'Histoire commence à Summer*, (tr.fr.),Flam.1994, p.251-262; p.250.

[27] أنظر نص ملحمة البعل في مكانه من هذا البحث.

[28] لا يزال مزار الخضر-جاورجيوس قائما على مقربة من البحر عند ميناء السويدية على مصب نهر العاصي.ويقع هذا المزار بعيدا عن اي نقطة سكنية على نتوء جبلي مطل على الخليج. وعلى خلـــيج جونيه الى الشمال من بيروت، هنالك مقام للقديس جرجس. ولا يخلو الداخل من وجود هذا الشفيع، فبلدة الخضر البقاعية شهيرة بمقامها الذي يؤمه الحجاج.

[29] فيليب حتي، تاريخ لبنان، ص 257.

[30] هذا ومع أن المجتهد والفقيه المسلم يحرم الصور، إلا أنه يعفّ عن صورة مار جرجس ويغض الطرف عنها.

[31] يوجد في يانوح، بالقرب من مغارة أفقا كنيسة كانت معبداً فينيقياً، تعرف بمار جرجس الأزرق نسبة لحجارته الزرقاء.

[32] لعل أحمد شوقي قد استوحى شعره من مقولة محاربة الفارس للتنين، قوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت … فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

[33] لعله من هذا الفكر استوحى أبو العلاء المعري هذا البيت:

إن الشبيبة نارٌ إن أردت بها … أمراً فادركه إن الدهر مطفئها

[34] والمهـــدي والمنـــتظر صفتان للإمام الثاني عشر وبهما عُرف أكثر مما عُرف باسمه محمد بن الحسن.

[35] فـــي رسالة بعث بها القديس جيروم الى القديس بولين (القرن الرابع)، ذكر أن مغارة بيت لحم، حيـــث تجعل الاسطورة مولد المسيح، كانت في السابق، المكان الذي كانت تقام فيه طقوس البكاء والنواح في أعياد موت تموز– أدونيس، راجع:
Ph.Berger, Revue Histoire des Religions, 138, 1896, p.400; cf. R.Turcan, *Les cultes orientaux dans le monde romaine*, Belles-Lettres, 1989, p.146.

[36] نكــر هــذا الكهف جبران خليل جبران، راجع بهذا الخصوص، الأجنحة المتكسرة، المجموعة الكاملــة لمؤلفات جبران خليل جبران العربية، قدم لها وأشرف على تنسيقها ميخائيل نعيمة، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.

[37] المياماســـية Maïoumas : اعياد كانت تقام حول الينابيع، وعند ضفاف الأنهار، كانت تُعرف باحتفالات آلهة المياه.

[38] ف.التهايم، إله الشمس الحمصي، مرجع نكر سابقاً.

[39] أمــر الامــبراطور قسطنطين الكبير بإغلاق معبد أفقا عدة مرات، إنظر(Eusebius, *Vita* .(*Const.*, II, 45

[40] وردت عــند عـــدد من الكتاب القدامى، ابرزهم لوقيان: Lucien de Samosate, *De Dea Syria*,(tr.Meunier, 1947)

[41] فـــي محاولة منه لمعرفة أصول أسباب الحروب الميدية بين الإغريق والفرس، يضع المؤرخ اليونانـــي هـــيرودوتس (القــرن الخامس ق.م.) اللوم على الفينيقيين ويقول انهم هم من كان في الأصل، سبب هذه الحروب ويعلل الأمر ان بحارتهم كانوا من الجراة بأنهم كانوا يجذبون الفتيات الاجنبـــيات اللواتـــي يقبلن على شراء بضاعتهم المعروضة على الشاطيء وقد بلغ بهم الامر حداً انهم قاموا بخطف فتاة تدعى "إيو"، واصطحبوها الى مصر وهكذا كانت الغلطة الأولى المرتكبة، حســـب رأي الفرس وليس الإغريق، كما ينوه هيرودوتس. ولاحقاً، ودائماً حسب ما يقوله الفرس، ويـــنقله هـــيرودوتس، وصـــل بعض اليونانيين الى شاطيء صور في فينيقا، وخطفوا إبنة الملك وتدعى اوروبا؛ ومن المرجح انهم كانوا من الكريتيين.

[42] انطون سعادة، المحاضرات العشر، الطبعة الخامسة، 1956، المحاضرة الرابعة،المبدأ الرابع: "الأمـــة الســـورية هـــي وحدة الشعب السوري المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي". وأيضا، راجع كتابه "المبادئ".

[43] Medico H.E.Del, *La Bible canaanéenne*, Payot, Paris,1950; Du Mesnil Du Boisson R.,*Nouvelles études sur les dieux et les mythes de Cannan*, Leiden, E.J.Brill, 1973.

[44] أ.فـــريحة، ملاحم وأساطير أوغاريت، منشورات الجامعة الامريكية، بيروت، ١٩٦٦. وأيضاً، ملاحم وأساطير من الأدب السامي، ط. ٢، دار النهار للنشر، بيروت،١٩٧٩. أنظر:
Ch.Virolleaud,*La mythologie phénicienne d'après les poèmes de Ras Shamra*,Melun,Paris,1937; et « *Textes en cunéiformes alphabétiques des archives du Petit Palais* », in Le Palais d'Ugarit, Imp. Nat., Paris, 1965.

[45] P.Matthiae, *Aux origines de la Syrie:Ebla retrouvée*, Gallimard, 1996; Durand J.-M., *Amuru I :Marie, Ebla et les Hourrites"*, Actes du Colloque International, mai 1993,Recherche des Civilisations,Paris, 1996.

[46] إيلـــي ميلكو (كبير كهنة اوغاريت)،اللآليء من النصوص الكنعانية (ترجمة ودراسة □.ي.ديل مـــيديكو؛ نقلهـــا الـــى العربية مفيد عرنوق)سلسلة من الادب الاوغاريتي،مكتبة بيسان، بيروت، ١٩٨٩؛ خ. المـــاجدي، المعـــتقدات الكنعانية، دار الشروق، عمان،2001؛ والآلهة الكنعانية، دار أزمنة، عمان،1999.

[47] عرّفـــت المصادر التوراتية الكنعانيين أنهم الصيدويون، وذلك لسببين وجيهين، هما أن صيدون هـــو الابن البكر لكنعان، وأن صيدا قد أصبحت مركزاً أو عاصمة للحضارة الكنعانية بعد القدس ونابلس. راجع، الميثولوجيا الكنعانية، ص 54-55.

[48] إله البحار ليس مجرد لقب، أو رتبة ملكية. إله البحر وظيفة، مسؤولية، فبيروت، في زمن إيل هـــي المسؤولة عن أملاك الإمبراطورية السورية خلف البحار، في دول أوروبا: كاليونان وروما وغاليا وبريتانيا وبريطانيا وإيطاليا وكل مدن وجزر حوض الابيض المتوسط.

[49] هذه القصة تؤكد أسطورة اختطاف الثور الآتي من كريت لأوروبا أميرة صور.

[50] عـــثر على كتابة، في موقع الحفريات في مرفأ بيروت الفينيقي، مقدمة على شرف عشتروت، إلهة بيروت وحامية المدينة، تدل عالى أن معبدها كان قائماً عند المرفأ، حيث كان يأتي المؤمنون ويقدمون النذور والأضاحي والنذور على شكل تماثيل صغيرة لربة الجمال عشتروت. مما يدل أن بيروت هي مدينة الجمال ومنذ فجر التاريخ. راجع:
J. Elyi / H. Sayegh, *Un quartier du port Phénicien de Beyrouth au fer II / Perse des Objets*. Supplément N 6 à Tanseuphratè, Gabalda, Paris, 1998, p. 334 – 335.

[51] صـــراع ايـــل وبعـــل= الـــنص الاوغاريتي؛ صراع يعقوب وايل وينتهي بحمل يعقوب لاسم اســـرائيل= النص التوراتي؛ صراع كرونوس ضد ابيه اورانوس ومن ثم صراع زوس ضد ابيه كرونوس= النص اليوناني.

[52] هو "لطن" في النص الأوغاريتي و"لوثايان" في النص التوراتي. وملحمة "البعل" غير متكاملة في التوراة وأبعادها تختلف عن النص الأصلي.

[53] القرآن، البقرة (126)

[54] أعلاه، الحج، (78)

[55] القرآن، الأنبياء، (63)

[56] تجـــدر الإشـــارة إلى أن النبيحة الإلهية في التوراة هي إسحاق وليست إسماعيل كما ورد في القـــرآن على حد زعم المجتهدين والفقهاء. أما الشارح القرآني فيذكر إسماعيل أو إسحاق، راجع تفسير الجلالين، دارا لمعرفة، بيروت-لبنان.

[57] أعلاه، الأنبياء، (69)

[58] أعلاه، إبراهيم، (35)

[59] إنجيل متى 13.

[60] هذا الامر مرتبط بطقوس "البغاء المقدس" عند السوريين، إذا أن الجنس ليس من أجل الجنس، إنما من أجل الاستمرار وحب البقاء.

[61] تكرر هذا الأمر على يد الأباطرة الرومان فليون الثالث عمد، في القرن الثامن، إلى جدع أنوف الرهبان وبتر أيديهم في حرب ضروس بين روما والمسيحيين العرب، واندلعت في عصره "حرب الأيقونات".

[62] إنجيل لوقا، الفصل الأول، الآية (32)

[63] إنجيل يوحنا، الفصل الأول، الآيات (1-5، 13-14)

[64] القرآن، آل عمران 39

[65] القرآن، التحريم 12

[66] القرآن، الأنبياء 91

[67] القرآن، آل عمران الآيات (45، 46، 47، 48ـ 59)

[68] القرآن، مريم الآيات (12، 13ـ34)

[69] إنجيل متى، الفصل الأول (24)

[70] إنجيل مرقس، الفصل السابع (26)

[71] إنجـيل لوقا، الفصل الثاني (2) هذا وفي أحد النسخ الإنجيلية يأتي نص لوقا على النحو التالي: "وجرى هذا الاكتتاب قبل ولاية كيرينيوس على سورية.

[72] راجـع بهـذا الخصـوص الأناجيل الأربعة، وثورة المكابيين بوجه روما ومن قبلها اليونان، وحركة الأيطوريين بوجه الإسكندر وبعده روما. وتبقى أعظم تلك الحركات سنة 134 وسنة 103 وسـنة 73 ق.م. بقـيادة ثائر سوري اسمه "أونوس"، أطلق على نفسه لقب الملك "أنطوخيوس". راجع جورج مصروعة، هنيبعل، الجزء الثاني، 1960.

[73] عـاطف الحكـيم، محمد النبي الثائر، دار المنارة للطباعة والنشر والإنتاج الإعلامي، بيروت، الفصل1، ط1، 2002.

[74] إله الشمس الحمصي، ورد سابقاً (صفحة، 42)

[75] القرآن الكريم، سورة النجم، الآيات (19-20)

[76] J.Chelhod, *Le sacrifice chez les Arabes*, Paris, 1955.

[77] القرآن الكريم، سورة التكوير، الآية: (8-9)

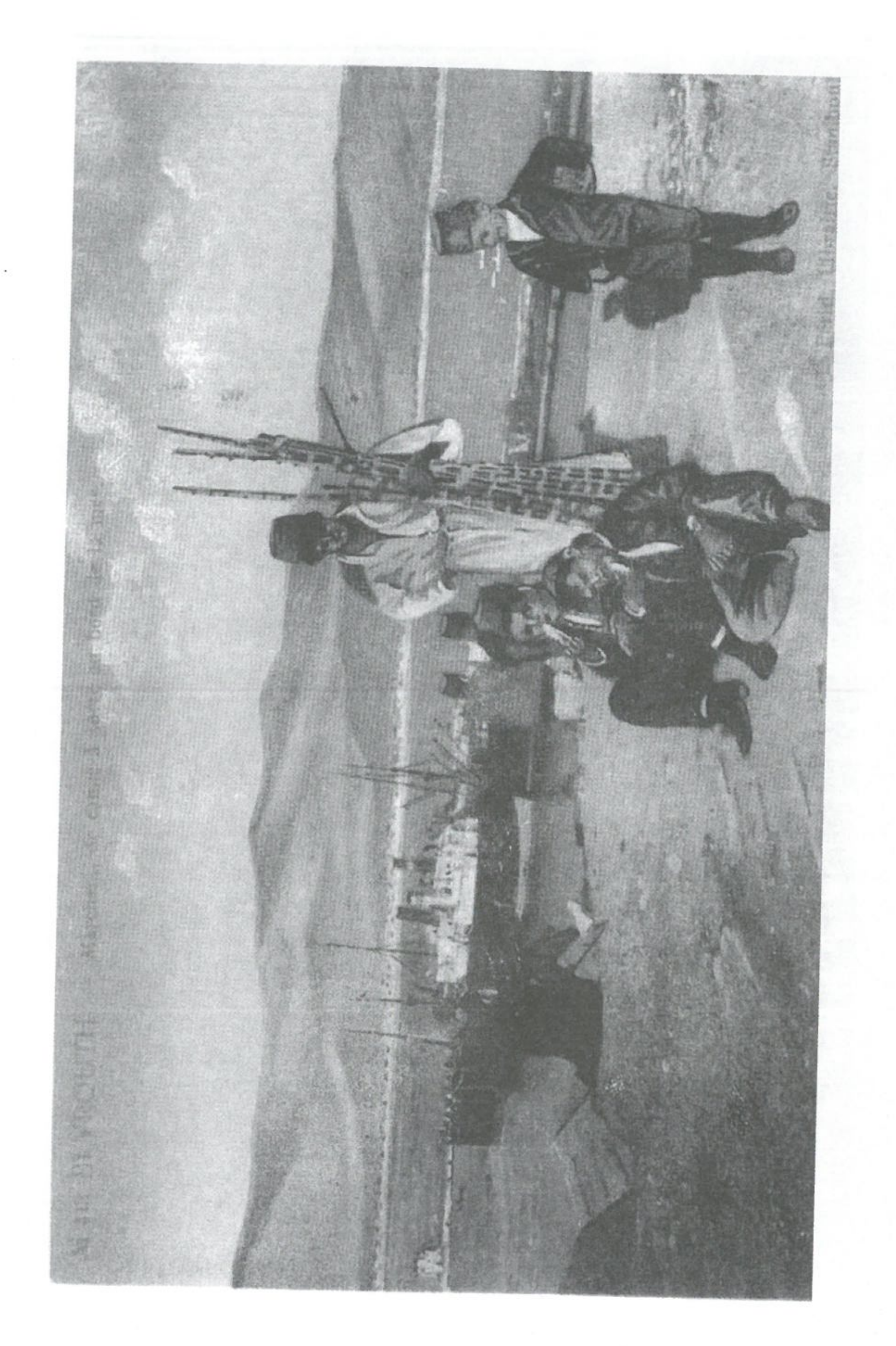
[78] القرآن الكريم، سورة ص، الآية: (8)

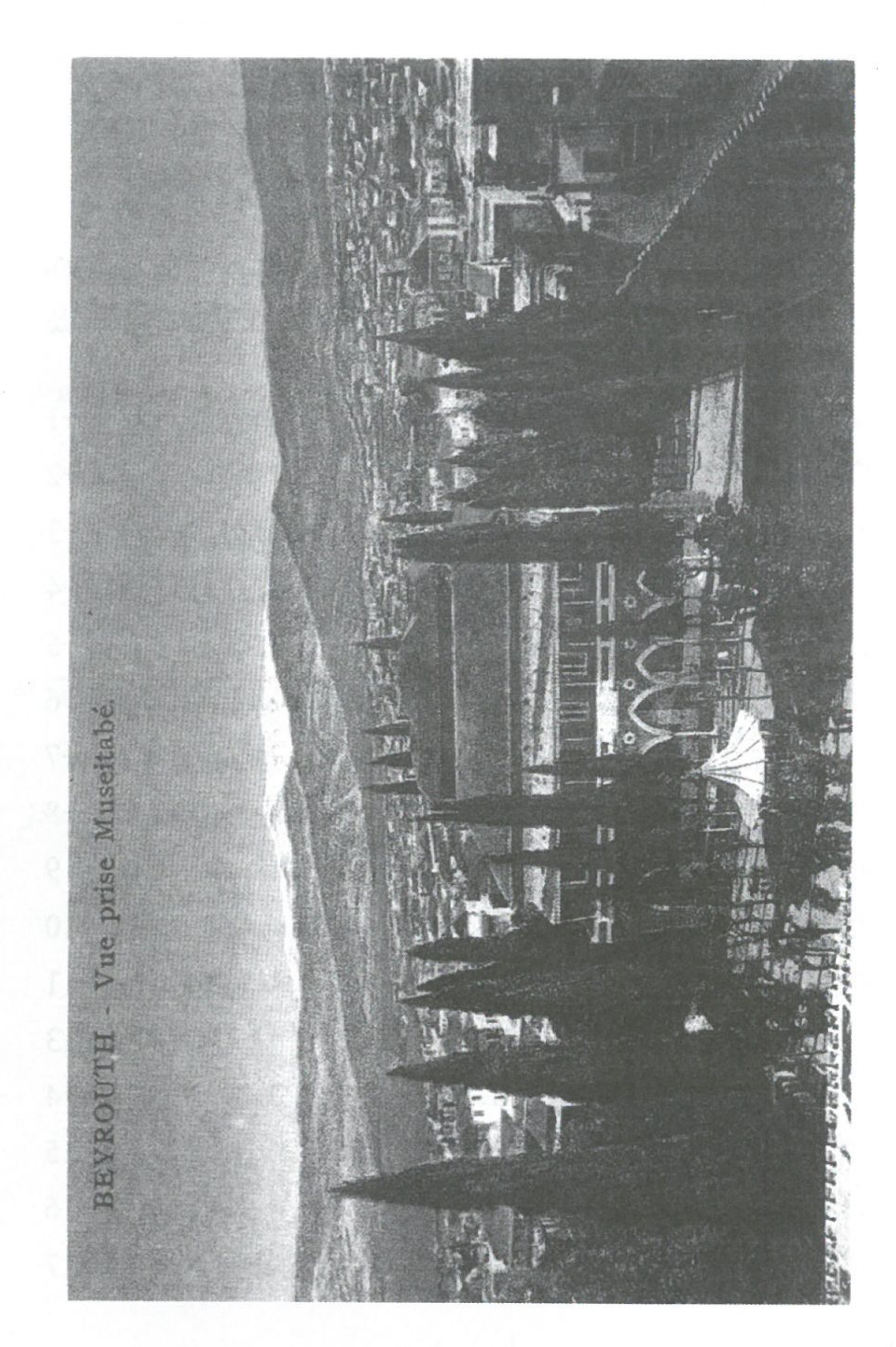
[79] راجع السيرة النبوية، ابن هشام، الجزء الأول، قدم لها وعلّق عليها طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت.

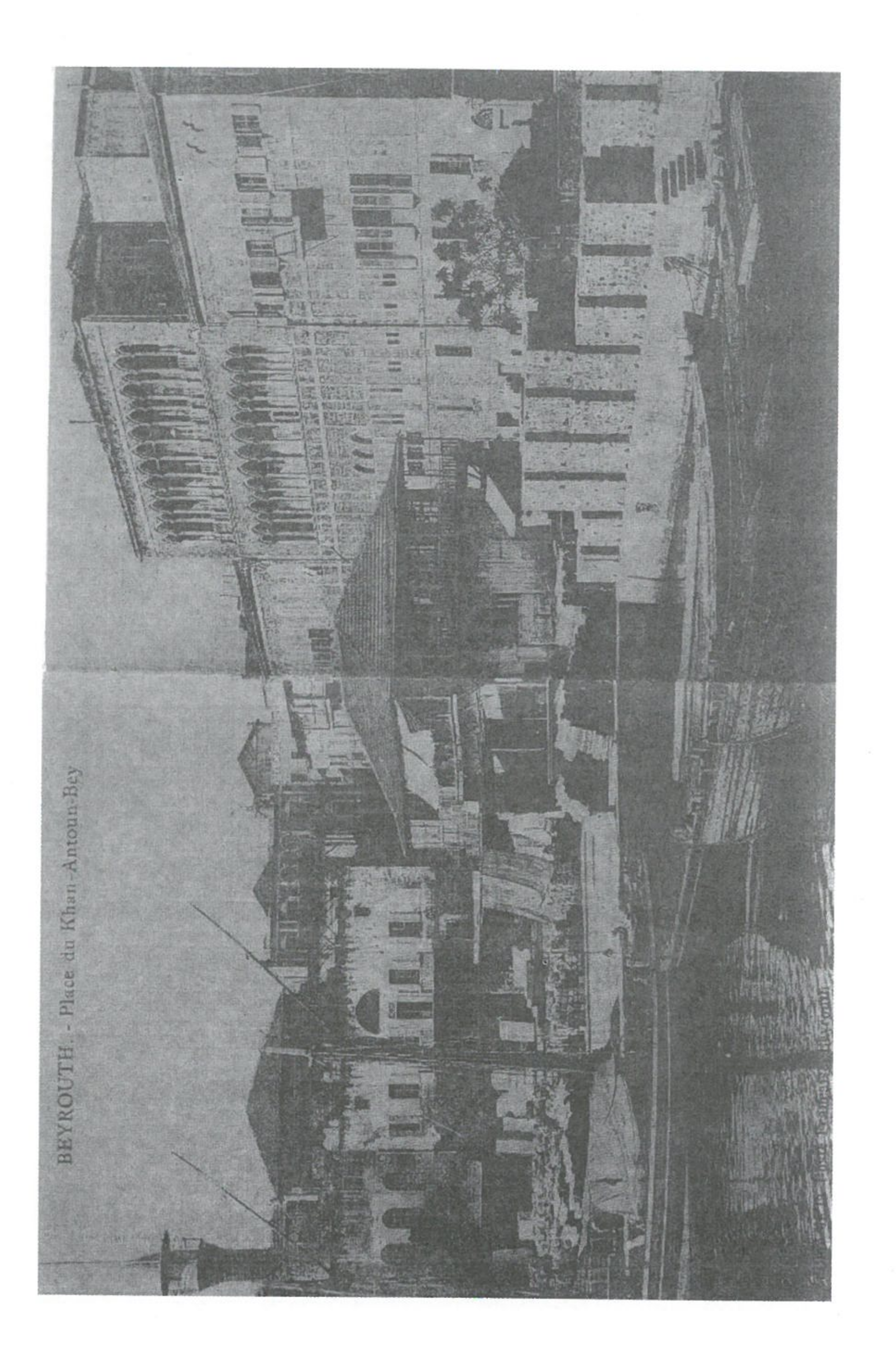
[80] السيرة النبوية أعلاه، صفحة (140-143)

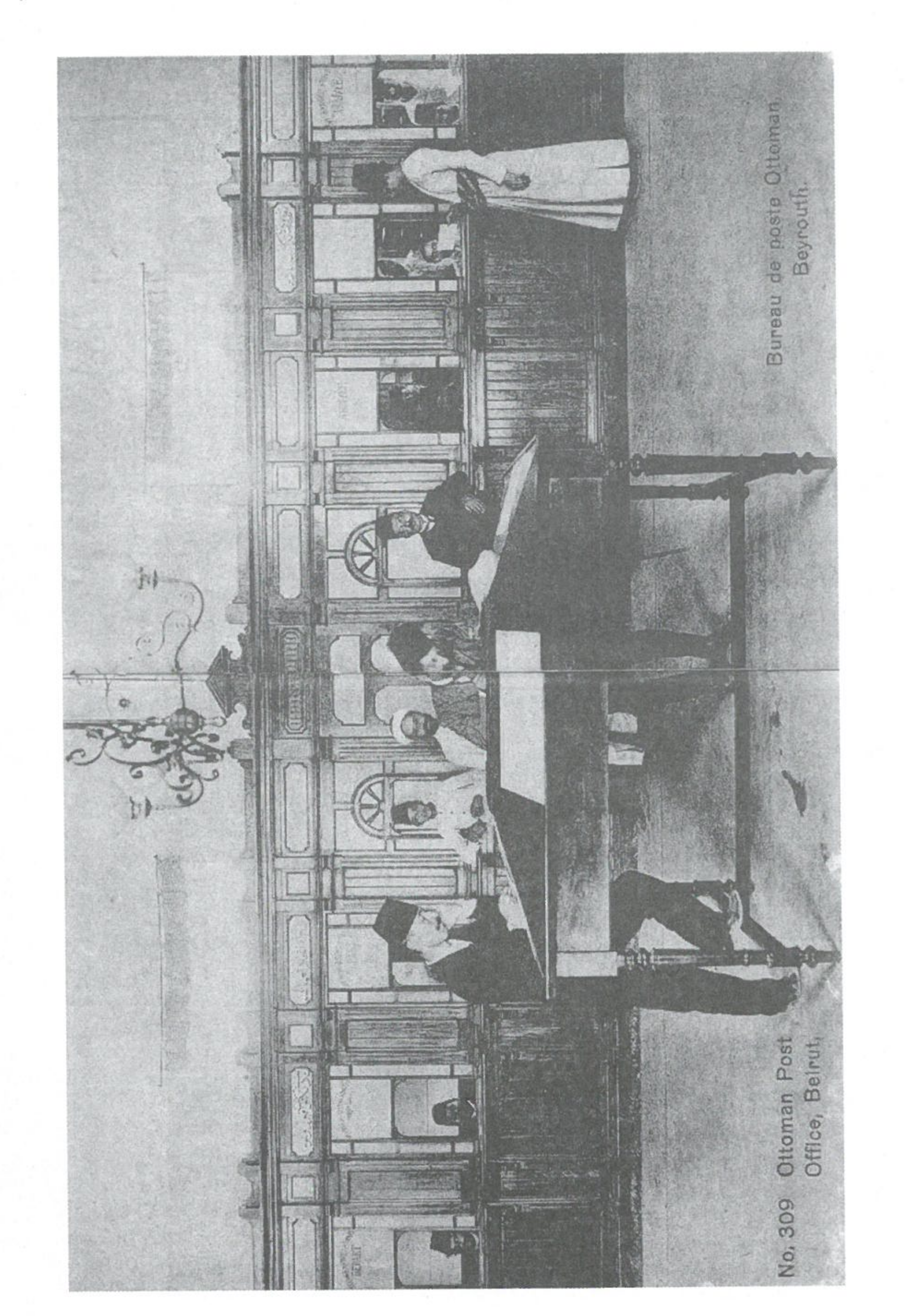
[81] تكاد سيرة محمد أن تكون هي عينها سيرة لينين وانتقامه من ألمانيا.

الفهرس


BEYROUTH

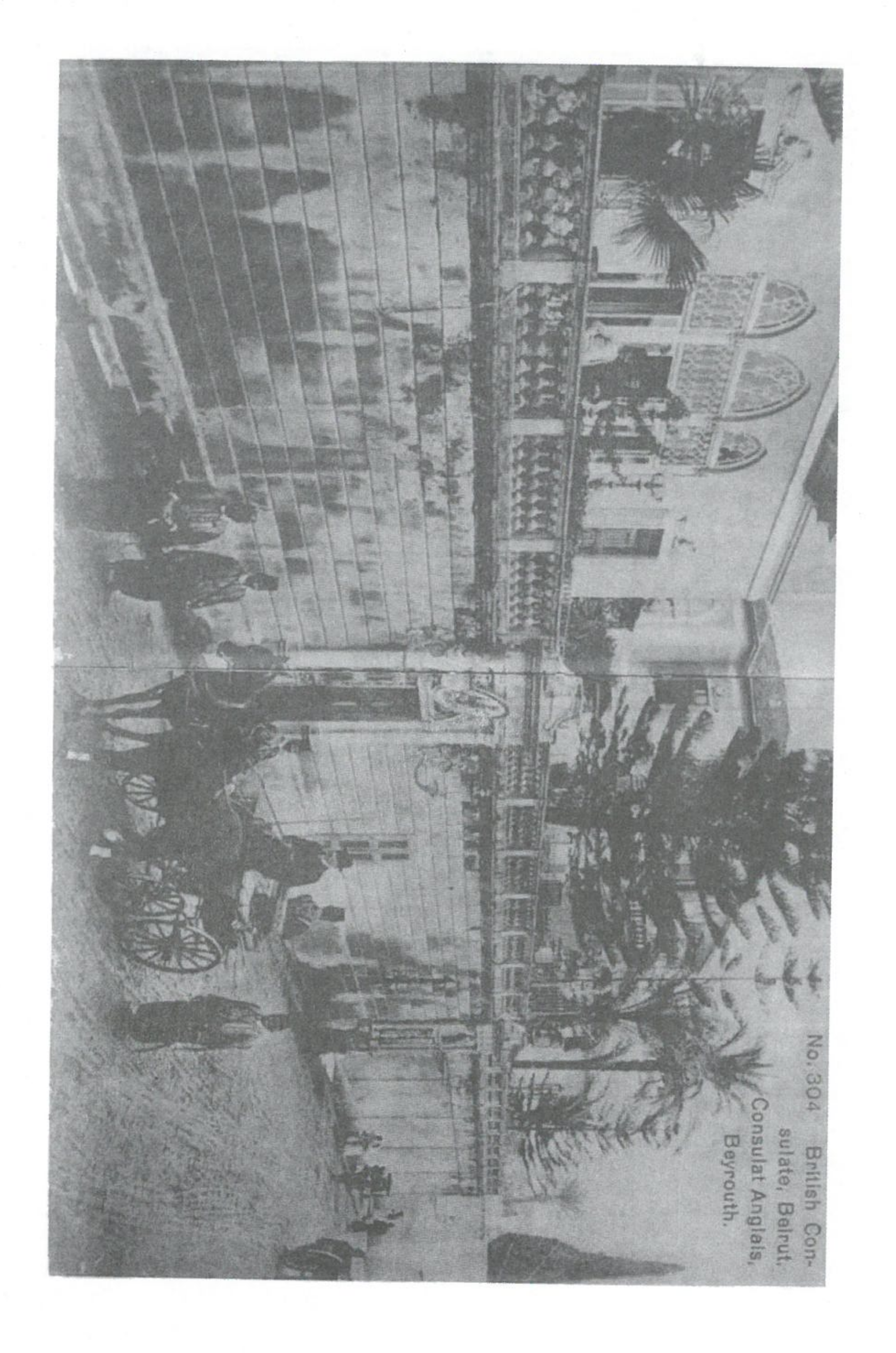

BEYROUTH - Vue prise Museitabé.


BEYROUTH - Place du Khan-Antoun-Bey


No. 309 Ottoman Post
Office, Beirut,
Bureau de poste Ottoman,
Beyrouth.


BEYROUTH - La Municipalité.




No. 304 British Con-
sulate, Beirut,
Consulat Anglais,
Beyrouth.


24. Beyrouth — Bains de Mer - Quartier Modawar



بيـــــروت

عاصمة للثقافة والطباعة والنشر

مجد الكلمة أعطي لبيروت، فهي تتبوأ مقام العاصمة العالمية للكتاب. على رأسها تاج مرصّع بحروف من لؤلؤ، وفي يدها ريشة من ذهب، وعلى صدرها أوسمة الأرض.

إنها مدينة تختصر العالم في تنوّع ثقافاتها، إنها منارة علم وثقافة وتراث وشرائع وفن وإعلام وطباعة ونشر.

هذا هو بعض من سيرتها الذاتية، هذا هو المعنى الذي نودّ أن نصلت الضوء على خصوبتها الجوهرية، من خلال هذه المجموعة من الدراسات والأبحاث التي قام بإعدادها نخبة من المؤلفين من أعضاء حلقة الحوار الثقافي.

تحية إلى بيروت المكان الملهم، العاشق الدائم للصدارة والإبداع.

منشورات

حلقة الحوار الثقافي

مركز الدراسات والعناية بالتراث الشعبي